





الإهداء :

إلى الذين أحبّوا القرآن

إلى الذين ي يريدون أن ينهلوا المزيد من معين

الحياة الصافي

إلى الذين يتوقفون إلى معرفة القرآن وفهمه

أكثر فأكثر.

بمساعدة العلماء الأفضل وحجج الإسلام السادة :

محمد رضا الآشتiani

محمد جعفر الإمامي

عبدالرسول الحسني

محمد الأسدي

حسين الطوسي

سيّد شمس الدين الروحاني

محمد محمّدي الاشتهرادي

الرسول لأكرم ﷺ

وظهور الإسلام

الرسول الأكرم ﷺ وظهور الإسلام

قبل كل شيء يجب التمعن في دراسة حقيقة الإسلام ومنزلة الرسول الأكرم ﷺ في القرآن الكريم ، والتحقيق في النقاط الظرفية والدقيقة الواردة في مختلف آيات القرآن الكريم ، وحيث إن التعرف على هذه النقاط يقتضي معرفة تاريخ الإسلام بشكل إجمالي فعلى هذا الأساس يجب أن نتوفر على دراسة مختصرة ومركزة للتاريخ الإسلامي كي يتسع لنا معرفة عوامل انتشار وتقدير الدين الإسلامي الحنيف ، الأمر الذي يساعدنا على تمهيد الطريق للبحوث الآتية.

* * *

الرسول ﷺ وظهور الإسلام وسرعة انتشاره :

ظهر الإسلام قبل أربعة عشر قرناً في مكة المعظمة ، وفي مدة ٢٣ سنة (وهي فترة دعوة الرسول ﷺ) وقد أخضع لنفوذه أقصى منطقة في جنوب الحجاز ، أي اليمن ، وإلى شمال شبه الجزيرة العربية ، أي الشام والعراق ، بل إن قسماً من أفريقيا أي الحبشة قد تأثرت بأنواره ، واليوم نرى أكثر من ميليارد إنسان يدين به في كل بقاع العالم .
وهنا نستعرض . ولو باختصار لحياة الرسول الأكرم ﷺ وسرعة انتشار الإسلام ، والعوامل التي ساعدت على ذلك .

من الطبيعي أن هذا العمل ليس بالأمر اليسير ، لأن الظروف التي أذت إلى وصول الإسلام إلى هذا الحد ، أوسع بكثير مما جاء في التاريخ بحيث يمكن القول : إن ما ذكره التاريخ قطرة من بحر ، والذي نذكره هنا هو لحات من ذلك التاريخ الذي لم يذكر لنا إلا القليل .

بدأ الإسلام بشخصية الرسول الأكرم محمد ﷺ وقد بعثه الله سبحانه وتعالى بالرسالة وهو في الأربعين من عمره الشريف ، ثم آمنت به السيدة خديجة ؑ ، وبعدها أمير المؤمنين علي ؑ ، حيث كانت دعوة الرسول الأكرم ﷺ في المرحلة السرية ، وكان قبل ذلك في السنين الثلاث لم يعلن دعوته إلا ملئ يقظة .

أما بعد تلك السنوات الثلاث ، وعندما نزلت الآية الكريمة : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الأقربين﴾ . (الشعراء / ٢١٤)

أعلن رسول الله ﷺ دعوته أمام الناس ، فصعد على جبل الصفا ودعا أقرباءه وأعدّ لهم وليمة ، وفي ذلك اليوم كان المسلمون يعدون بالأصابع ^(١) .

وقد أقيمت الوليمة مرتين ، إذ في المرة الأولى لم يُعط أبو هب النبي ﷺ فرصة للكلام ، وفي المرة الثانية سخروا من كلامه ﷺ واتفقوا لأبي طالب قائلين له : «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع» .

وفي هذه المأدبة كان النبي الأعظم ﷺ يرى بعين الغيب انتشار الإسلام الأكيد ، حتى أتته عين خليفة ووارثاً له فيها ^(٢) .

ولم تمض مدة طويلة حتى أدرك رؤساء مكة أنّ محمداً ﷺ قد أضاء أفكار الناس وأيقظهم وأثبت عدم صحة عبادة الأوثان ولزوم الإيمان بخالق الكون ، فأحسّوا بالخطر عندما ترسخت دعوته ، لأنّ منزليتهم الاجتماعية وعائدهم المالية كانت مترتبة إلى حد ما بتلك الأفكار والأعراف الجاهلية ، حتى أتّهم ذهباً إلى أبي طالب راجين منه رفع اليد عن حماية محمد ﷺ أو المصالحة بينهم وبين محمد ﷺ أو إصلاحه ، وقالوا : «يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آهنتنا وعابَ ديننا وسقّة أحلامنا وضلّل آباءنا فإماماً أن تكفهُ عنا وإماماً أن تخلي بیننا وبينه» ^(٣) .

ولكنَّ أبا طالب ؑ قال لهم قولاً جميلاً وردهم ردّاً رقيقاً ، وأخذ الإسلام يشق

طريق

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١ ، ص ٤٨٦ ، طبع دار احياء التراث العربي ؛ وتاريخ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٦١ .

(٢) تفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، ط مصر ؛ الكامل لابن الأثير ، ج ١ ، ص ٤٨٨ ؛ والطبرى ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

الرشد والتكامل وأحس رؤوس الكفر بالخطر الذي يهدد عقائدهم الوثنية وثقافتهم الجاهلية ، فعادوا مرة أخرى إلى أبي طالب فقالوا : «يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفاً وإننا قد أستنهيتك أن تنهي ابن أخيك فلم تفعل وإنما والله لا نصبر على شتم آهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو تُنازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين».

في هذه المرة أخبر أبو طالب الرسول ﷺ بما جرى بينه وبين أقطاب قريش وأئمهم مصرون على خالفته ، عندها أحسن الرسول ﷺ أن عمه أبو طالب قد تباطأ قليلاً في حمايته ، فقال الرسول الأعظم ﷺ لعمه تلك المقوله المشهورة : «ياعماده لو وضعوا الشمس في يميبي والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ، حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» . ثم بكى وقام ، فلما ولّ ناداه أبو طالب ، فاقبل عليه وقال : إذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلّمك لشيء أبداً» ^(١) .

عندما رأى رسول الله ﷺ حماية عمّه ثانية ، انطلق بعزمٍ كبيرة وثقة عالية ، ولما عرف رؤساء قريش ذلك عادوا إلى أبي طالب وعرضوا عليه أن يساوم في ابن أخيه مقابل أجمل شاب من قريش على أن يتخذه ابنًا له ! وجاء الرفض القاطع ^(٢) كصاعقة دمرت ما يكرون ، فعمدوا إلى ايذاء المسلمين من كل طائفة.

ومرة أخرى طلبوا من أبي طالب أن يبلغ الرسول ﷺ بأن يكف عن هذا الأمر ، وجاء الرد المحمدي ^(٣) : «يا عم أو لا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها ، كلمة يقولونها تدين لهم بما العرب ، وعلّكون رقاب العَجَم» فقال أبو جهل : ما هي ، وأبيك لتعطينكها وعشر أمثالها ، قال : «تقولون لا إله إلا الله» وقالوا : سلّم غيرها ، فقال : «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سأّلّمكم غيرها» ^(٤) .

وفي هذا الوقت دخل في الإسلام أناس كانوا يرثون تحت ظلم جبارة مكة ، وآخرون واعون ليسوا بالأغنياء المغورين ، مما حدا برؤساء قريش إلى تغيير أسلوبهم

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١ ، ص ٤٨٩ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٨٤ . ٢٨٥ ؛ والطبرى ، ج ٢ ، ص ٦٥.

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ، والكامل ، ج ١ ، ص ٤٨٩ ، والطبرى ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

(٣) الكامل لابن الأثير ، ج ١ ، ص ٤٩٠ ؛ والطبرى ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

في الصراع مع الرسول ﷺ . غير الرجوع إلى أبي طالب . لكي ينجوا من هذا الخطر الداهم ، وقد اتخذ الرسول ﷺ من بيت الأرقم مركزاً للإشعاع الفكري ونشر الدعوة .

ممارسة الضغط على المسلمين الجدد :

بعد أن يئس رعماً مكة من التأثير على أبي طالب ورسول الله ﷺ ، التجأوا إلى تعذيب وايذاء المسلمين المستضعفين ليردوهم عن الإسلام فتضعف قدرة الرسول ومن ثم يترك الدعوة إلى الإسلام ، ومن بين أولئك المسلمين بلال ، وعمار ، وياسر ، وسعية ، والخباب بن الارت ، وصهيب ، وعامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة ، ولبيبة ، وزبيدة ، ونهدية ، وأم عبيس وأمثالهم ، إذ صبوا عليهم ألوان العذاب حتى استشهد ياسر وسعية ، ومر عليهم الرسول ﷺ مخاطبهم قائلاً : «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» ^(١) . ويخكي التاريخ عن كيفية تعذيبهم وصمودهم ما يستحق العجب .

التهمة والاستهزاء :

اتخذ المشركون أسلوباً آخر في محاربتهم للرسول ﷺ كالتهمة والسخرية والاستهزاء ، فأتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون ^(٢) ، وكذبوه وآذوه ، ولم يتوقف رسول الله ﷺ عن نشر دعوته لإظهار أمر الله سبحانه ، ولم تأخذه في الله لومة لائم .

ومن الذين كذبوا واستهذوا وآذوا رسول الله ﷺ أبو هب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس ، والوليد بن المغيرة ، وابي ، وامية بن خلف ، وأبو قيس ، والعاص بن وائل ، والنضر بن الحارث ، وعدة آخرون حيث ذكر ابن هشام في سيرته . «إنه خرج يوماً فلم يلقه أحدٌ من الناس إلا كذبه وأذاه لا حُر ولا عبد فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى منزله فتذر من شدة ما أصابه» ^(٣) .

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٤٩١ .

(٢) تفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٧١ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ١ ص ٣٠٨ ؛ والكامل ، ج ١ ، ص ٤٩٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

وذكر التاريخ أيضاً : إنّ أبا هب كان شديداً عليه وعلى المسلمين ، عظيم التكذيب له ، دائم الأذى ، فكان يطرح العَدَّة والنَّنَّ على باب النبي وكان جاره فكان رسول الله عليهما السلام يقول : «أيُّ جوارٍ هذا يا بني عبد المطلب». وكان الأسود عندما يمرّ عليه فقراء المسلمين يستهزئ بهم ويقول : «هؤلاء ملوك الأرض» وكذلك كان العاص بن وائل يقول : «إنَّ حُمَّاداً أبْتَرَ لَا يعيش له ولدٌ ذكر...» ^(١).

الهجرة إلى الحبشة :

إزداد ضغط المشركين وتعذيبهم ، ففكّر رسول الله عليهما السلام بإنقاذ ضعفاء المسلمين وتخلصهم من أذى المشركين فدعاهم للهجرة إلى الحبشة ، وبالفعل هاجر إليها عدد منهم في السنة الخامسة للبعثة النبوية بعد سنتين من اعلان الدعوة الإسلامية وفي شهر رجب ^(٢). وبهذه الهجرة أخذ الإسلام يتحرك وينتشر بصورة جديدة لذلك قررت قريش اعادة المسلمين من الحبشة واحتضاعهم لها ، فأرسلوا هدايا ثمينة للنجاشي ملك الحبشة طالبين منه تسليم المسلمين لهم ، وبالرغم من اعطاء هدايا اخرى لبطانة النجاشي للتعاطف معهم ولكن النجاشي قال لهم : إنَّ هؤلاء قد جلأوا إلينا ولا يمكن تسليمهم مالم نسمع حديثهم ، وحضر النجاشي المسلمين وأخذ يسألهم عن سبب لجوئهم إليه.

وانتخبوا جعفر بن أبي طالب ناطقاً عنهم للجواب عن استفسارات النجاشي الذي طلب منه أن يتلو عليه آيات من سورة مريم كانت تتضمن نظر رسول الإسلام عليهما السلام في المسيح وامه مريم ^(٣) ، بعدها أعلن النجاشي إبقاء المسلمين عنده ، وأرجع مبعوثي قريش.

ثم سأله النجاشي : «أي دين تدينون؟»؟ فقال جعفر : «أيها الملك كنّا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولاً مّا نعرفُ نسبته ، وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا لتوحيد

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٤٩٣ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٧٠.

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ؛ الكامل ، ج ١ ، ص ٤٩٨.

ورجع سفراء قريش خائبين منكسين رؤوسهم.

وقد اقترب بتلك الأيام إسلام رجل قوي من بني هاشم وهو الحمزة بن عبد المطلب^(٢) فزاد المسلمين قوة فوق قوّتهم وصمموا على تلاوة القرآن بشكل جماعي وسط الملايين من قريش ، وأول من قام بهذا العمل هو ابن مسعود فتعرض للضرب والشتم.

ويذكر التاريخ : «فغدا عليهم في الضحى حتى اتى المقام وقريش في اندیتها ثم رفع صوته وقرأ سورة «الرحمن» فلما علمت قريش أنه يقرأ القرآن قاموا إليه يضربونه وهو يقرأ ثم انصرف إلى أصحابه وقد اثروا في وجهه ، فقالوا : هذا الذي خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون على من لهم اليوم ولعن شئتم لأعدائهم ، قالوا : حسبيك»^(٣).

ومن هنا نفهم أن المسلمين كانوا يؤدون عبادتهم إلى جانب الكعبة حيث كان عددهم يزيد على السنتين شخصاً وكانوا يتذمرون في بيوتهم لتعلم القرآن.

الحصار الاقتصادي :

ولما أدركت قريش عدم تأثير جميع الأساليب التي اتخذتها وظل الإسلام يشق طريقه

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٥٨ ؛ والكامل ، ج ١ ، ص ٤٩٩ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٧٣.

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣١١ ؛ والكامل ، ج ١ ، ص ٥٠١ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٧٤.

(٣) سيرة ابن هشام ، ج ١ ؛ ص ٣٣٦ ؛ والكامل ، ج ١ ، ص ٥٠٢ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٧٣.

بثبات قررت كتابة وثيقة تمنع فيها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية مع بني هاشم حتى تشكل ضغوطاً على الرسول ﷺ لمنع نشر الدعوة : «ولما رأت قريش الإسلام يفسو ويزيد وان المسلمين قووا وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي أمية من النجاشي بما يكرهون من مع المسلمين عنهم وآمنهم عنده ، ائتمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا من بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً ، فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم» ^(١) .

وهكذا قد ضيقوا الخناق على بني هاشم وبني المطلب ليقع الخلاف بينهم ويسّلّموا

لهم رسول الله ﷺ .

واستمر الحصار على مدى ثلات سنوات ^(٢) وكانوا محرومين من كل شيء ما عدا القليل الذي يهبونه سراً ، غير أنّ مؤامرتهم فشلت مرتّة أخرى فأكلت الأرضة لائحتهم المعلقة داخل الكعبة وملأ بعض الأشخاص هذا العمل الوحشي غير الإنساني فاصبحوا بقصد إلغاء اللائحة ، وقد الغيت بالفعل وانتهى الحصار ^(٣) . ورجع الرسول وعشيرته إلى مكة المكرمة.

واستمر الإسلام بتقدمه والرسول ﷺ بدعوته ، وهنا وقعت حادثتان مؤلمتان للرسول ﷺ ^(٤) قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وهما : وفاة أبي طالب وخدجية ^{عليهم السلام} وكان للحادتين أثر بالغ على الرسول ﷺ والمسلمين ، وضيقوا الخناق على الرسول ﷺ «حتى يشر بعضهم التراب على رأسه حتى أن بعضهم يطّرخ عليه رحم الشاة وهو يصلّي».

بعدها صمم الرسول ﷺ على أن يستمد العون من مجموعة من قبيلة ثقيف الساكنة في الطائف لحمايته ونشر الإسلام ، ولكنهم كذبوا وطردوه فكان ذلك ثقيلاً على قلب رسول الله ﷺ فأخذ يدعوا بهذا الدعاء المعروف ، يقول التاريخ : «فقام رسول الله ﷺ وقد يئس

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٥٠٤ ؛ وابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٧٥ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٧٤.

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٧٩.

(٣) الكامل ، ج ١ ، ص ٥٠٥ ؛ وابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٤ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٧٨.

(٤) الكامل ، ج ١ ، ص ٥٠٧ ، وابن هشام ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٨٠.

من خير ثقيف ... واغروا به سفاءهم فاجتمعوا إليه وأجاؤه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ... ورَجَعَ السفهاءُ عنه وجلس إلى ظل حبلة من عنب ... وقال : اللهم إلينك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى مَنْ تكلني إلى بعيد يتهمني أو إلى عَدُوٍّ ملكته أمري إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ولكن عافتك هي أوسع ، إِنِّي أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشَرَّتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تَنْزَلَ بِي غَضْبُكَ أَوْ تَحْلِ بِي سُخْطُكَ»^(١). فلما رأى ابنا ربيعة ما لحقه عَلَيْهِمُ اللَّهُ كَفِيلٌ تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لِمَا نصرايَا اسمه «عداس» فقال له : خذ هذا العنبر إلى ذلك الرجل ، ففعل فلما وضعه بين يدي رسول الله عَلَيْهِمُ اللَّهُ كَفِيلٌ ، وضع يده عليه وقال «بِسْمِ اللَّهِ وَثُمَّ أَكُلُّ» ، فقال عداس : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة .

قال له النبي عَلَيْهِمُ اللَّهُ كَفِيلٌ من أي بلاد أنت وما دينك؟

قال : أنا نصراي من أهل نينوى

قال له رسول الله عَلَيْهِمُ اللَّهُ كَفِيلٌ : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له : وما

يُدريك ما يونس؟

قال الرسول عَلَيْهِمُ اللَّهُ كَفِيلٌ : ذلك أخِي كان نبياً وأنا نبي .

فأكَبَ عداس على يدي رسول الله ورجليه يقبلهما ، وأسلم^(٢).

فلم يرجع رسول الله عَلَيْهِمُ اللَّهُ كَفِيلٌ خائباً من سفره هذا .

بداية جديدة في ابلاغ الرسالة :

رغم هذه المشاكل الجمة لم يُنْشِئَ الرسول عَلَيْهِمُ اللَّهُ كَفِيلٌ عن ابلاغ رسالته ، فاتصل في موسم الحج بالقبائل مُبتدئاً بقبيلة (كندة) حتى قبيلة (كلب) و (بني حنيفة) وكل من جاء لزيارة بيت الله كان يدعوهم إلى الإسلام ، وأبو هلب يلاحقه في كل مكان لِيُكذبه ويتهمه بخلق الأقوايل^(٣).

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٥٠٨ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٢) الكامل ، ص ٥٠٨ ، وابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦١ و ٦٢ ، وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٣) الكامل ، ص ٥٠٩ ؛ وابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٣ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٨٣ و ٨٤ .

الرسول يلتقي أهل المدينة :

التقى الرسول الأكرم ﷺ (سويد بن صامت) أحد أفراد قبيلة الأوس في المدينة الذي جاء حاجاً إلى مكة المعظمة فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه بعض آيات القرآن الكريم فصدقه وآمن به وعاد إلى المدينة ومات مسلماً.

وعندما قدم (أبو الحيسر) أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم أياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بسم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : «هل لكم إلى خير مما جئتم له؟ قالوا : وما ذاك؟ قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد ادعوهم إلى الله أن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن» ، فقال أياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له.

قال : فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه أياس بن معاذ وقال : دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، قال : فصمت أياس ، وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعث بين الأوس والخزرج ، قال : ثم لم يلبث أياس بن معاذ أن هلك ، قال محمود بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومي عند موته أئمهم لم يزالوا يسمعونه يهلهل الله ويكتبه ويحمده ويسبحه حتى مات فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع ^(١).

بيعة العقبة الأولى :

وفي السنة الأخرى من موسم الحج التقى الرسول الأكرم ﷺ جماعة من أهل المدينة . عرفوا بعد ذلك بالأنصار . وهم ينتسبون إلى قبيلة الخزرج ودعاهم ﷺ إلى الإسلام وكانوا قد سمعوا آنفأً من اليهود قوله : سبعة رسول في هذه الأيام ونحن نحميه ونساعده للقضاء عليكم فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : «هذا النبي الذي توعدكم به اليهود ، فأجابوه وصدقوه ،

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٥١٠ ؛ سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٩ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

وقالوا له : إن بين قومنا شرّاً ، وعسى الله أن يجمعهم بك ، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعزّ منك». ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا وهم فيما ذكر سبعة نفر من الخزرج من بني عبد النجار هم : أسعد بن زراة ، عوف بن الحارث ، رافع بن مالك ، عامر بن عبد حادثة ، قطبة بن عامر ، عقبة بن عامر ، جابر بن عبد الله ^(١).

وبعد انتهاء موسم الحج رجعوا إلى المدينة حاملين معهم مشعل الحرية للناس ونشروا الإسلام بين أهل المدينة.

وبعد مرور سنة وفي أيام موسم الحج أيضاً جاء إثنا عشر رجلاً إلى العقبة وبايعوا الرسول الأكرم ﷺ فسميت هذه بيعة العقبة الأولى ، وعند رجوعهم إلى المدينة أرسل الرسول ﷺ مصعب بن عمير لتعليمهم القرآن والإسلام وقد استقر في بيت (أسعد بن زراة) والتلفوا حول (مصعب) فبدأ يدعوهم إلى الإسلام باسلوب خاص فلم يبق بيتٌ من بيوت بني عبد الأشهل إلا ودخله الإسلام ، ولم يقتصر على هذه القبيلة فحسب ، بل دعا أهل المدينة الآخرين إلى الإسلام فدخل الإسلام جمّع كثير ^(٢).

بيعة العقبة الثانية :

اتسع نطاق الإسلام في المدينة بين الأنصار حتى إزداد عدد المسلمين كثيراً فقرروا السفر إلى الحج والالتقاء برسول الله ﷺ سراً ودعوته للقدوم إلى المدينة ، وقد أرسلوا مثلين عنهم يبلغ عددهم (٧٢) شخصاً ، (٧٠) رجلاً وأمرأتين ، وبدأوا عملهم سراً ، بعد منتصف الليل وهم ينحدرون آحاداً إلى مكان معين فحضر الرسول الأكرم ﷺ وصحبة عمّه العباس ، فبايعوا على أن يذلوا أرواحهم ^(٣) دونه ، وأن يكونوا أوفياء له وللإسلام ، وواعدهم الرسول على الوفاء أيضاً ، وقد أورد التاريخ مقاطع مّا قيل في ذلك اللقاء حيث بدأ العباس الكلام قائلاً :

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٥١٠ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٧٠ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٨٦ .٨٨.

(٢) الكامل ، ج ١ ، ص ٥١١ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٧٣.

(٣) الكامل ، ج ١ ، ص ٥١٣ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٨٤ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٩١ .٩١

«إنَّ مُحَمَّداً مَنَا حَيَّثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، فِي عَزٍّ وَمَنْعِهِ وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا انْقِطَاعَ إِلَيْكُمْ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ وَافْوَنَ لَهُ بِمَا دَعَوْمُهُ إِلَيْهِ وَمَا نَعُوهُ مِنْ حَالَفَهُ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحْمِلُمْ مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ مُسْلِمُوْهُ وَخَادِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ فَمَنِ الْآنَ فَدَعُوهُ فَإِنَّهُ فِي عَزٍّ وَمَنْعِهِ مِنْ قَوْمٍ وَبِلْدَهُ» ، فَقَالَتُ الْأَنْصَارُ :

تَكَلَّمُ يَارَسُولُ اللَّهِ وَخَذْ لِنَفْسِكَ وَرِبَّكَ مَا أَحَبَّتِ «فَتَكَلَّمُ وَتَلَا الْقُرْآنَ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ وَرَغَبَ فِي الْإِسْلَامِ ثُمَّ قَالَ : أَبَا يَعْكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُنِي مَا تَمْنَعُنِي مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ» ، فَأَخْذَ (الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ) بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : «وَالَّذِي بَعْثَكَ بِالْحَقِّ لِنَمْنَعَنَكَ مَا نَمْنَعُ مِنْهُ أَزْرَنَا فَبَيَانُنَا يَارَسُولُ اللَّهِ فَنَحْنُ وَاللَّهُ أَهْلُ الْحَرْبِ ...».

وَقَالَ الْآخَرُ وَيَدْعُى أَبُو الْمُهِيمِشَ بْنَ تَيْهَانَ : يَارَسُولُ اللَّهِ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ حَبَالٌ وَإِنَّ قَاطِعُهَا يَعْنِي الْيَهُودَ فَهَلْ عَسِيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرْنَا اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدْعَنَا؟ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ :

«بَلَ الدَّمَ الدَّمَ الْمَدَمَ أَنْتُمْ مِنْيَ وَأَنَا مِنْكُمْ إِسْلَامَ مِنْ سَالِمَتُمْ وَأَحَارَبَ مِنْ حَارِبَتُمْ» ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَخْرَجُوكُمْ إِلَيَّ مِنْكُمْ أَثْنَيْ عَشَرَ نَقِيَّاً يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ» فَأَخْرَجُوهُمْ تِسْعَةً مِنْ الْخِزْرَجِ وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَوْسِ وَهُنَّا قَالَ الْعَبَاسُ بْنُ عَبَادَةَ صَاحِبِ الْفَكْرِ الْعَمِيقِ وَالنَّظِيرِ الثَّاقِبَةِ : يَا مَعْشِرَ الْخِزْرَجِ هَلْ تَدْرُونَ عَلَامَ ثُبَّاعِيُّونَ هَذَا الرَّجُلُ ... تَبَايَعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ إِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ إِذَا نَهَكْتُ أَمْوَالَكُمْ مَصِيَّةَ وَأَشْرَافَكُمْ قَتْلًا أَسْلَمْتُمُوهُ فَمِنَ الْآنَ ، فَهُوَ وَاللَّهُ خُزِيَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ فَعَلْتُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ وَافْوَنَ لَهُ بِمَا دَعَوْمُهُ إِلَيْهِ عَلَى نَحْكَةِ الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ فَخَذُوهُ فَهُوَ وَاللَّهُ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، قَالُوا : إِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مَصِيَّةِ الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَارَسُولُ اللَّهِ إِنْ نَحْنُ وَفِينَا؟ قَالَ : الْجَنَّةُ ، قَالُوا : أَبْسِطْ يَدَكَ فَبَيَسْطَ يَدَهُ فَبَيَاعُوهُ» ^(١).

إِنَّ هَذَا النَّصْرَ الْكَبِيرَ أَدَى إِلَى ازْدِيادِ حَقْدِ وَعَدَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ فَازْدَادُوا ظَلْمًا وَتَعْذِيْلَهُمْ ، فَأَمْرَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُحْرَجَةِ ^(٢) إِلَى الْمَدِينَةِ.

(١) الْكَاملُ ، ج ١ ، ص ٥١٣ ؛ وَسِيرَةُ ابْنِ هَشَامٍ ، ج ٢ ، ص ٨٨.

(٢) سِيرَةُ ابْنِ هَشَامٍ ، ج ٢ ، ص ١١٢ ؛ وَالْكَاملُ ، ج ١ ، ص ٥١٥ ؛ وَتَفْسِيرُ جَامِعِ الْبَيَانِ ، ج ٢ ، ص

الهجرة انعطافٌ جديدٌ في تاريخ الإسلام :

بعد هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ظلّ الرسول الأكرم ﷺ في مكة منتظرًا أوامر الله تعالى وأحسّ رؤساء قريش بالخطر الشديد لإسلام أهل المدينة وهجرة مسلمي مكة فقرروا قتل الرسول ﷺ فاجتمعوا لذلك وبعد مشاورات طويلة قرروا إشراك القبائل كافة مع قريش في قتل رسول الله ﷺ ، في ذلك الوقت نفسه أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ بالهجرة ^(١).

وفي بداية شهر ربيع الأول تخلص الرسول الأكرم ﷺ من محاصرة الأعداء بمعجزة عجيبة وهاجر إلى المدينة في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ووصل إلى (قباء) ^(٢) وبقي فيها حتى الخميس وقد بني هناك مسجداً سمي (مسجد قباء) وأقام أول صلاة للجمعة وخطب في الناس أول خطبتين للصلوة في تاريخ الإسلام ، بالقرب من قباء في (قبيلة بني سالم).

بعدها دخل المدينة واستقبله أهلها استقبلاً عظيماً ، وأول عمل قام به ﷺ هو بناء مسجد فيها اعتبره منطلقاً للرسالة وتعاليم الإسلام ، ولتجمع ^(٣) المسلمين ، غير أنّ الرسول والمسلمين تعرضوا إلى ألوان المؤامرات فاضطر النبي ﷺ إلى إشهار السلاح والاستفادة من القوة العظيمة لمسلمي المدينة لإبطال تلك المؤامرات.

وبعد سبعة أشهر من دخوله المدينة أرسل الرسول الأكرم ﷺ أول كتيبة بقيادة عمّه (الحمزة بن عبد المطلب) للتعرض لقافلة قريش ، ثم جهز سرية أخرى بقيادة (سعد بن أبي وقاص) وارسله إلى (الابواء) ، بعدها غزوة (البواث) التي كان هدفها ضرب قافلة قريش ، ثم غزوة (العشيرة) ملاحقة قافلة لقريش أيضاً وفي السنة الثانية أعدّ سرية (عبد الله بن جحش) للتعرض إلى قريش بين مكة والطائف.

وفي السنة نفسها وقعت معركة بدر الكبرى التي نكست بها رؤوس الشرك والضلال

من

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ؛ والكامل ، ج ١ ، ص ٥١٥.

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ؛ والكامل ، ج ٢ ، ص ٥١٨ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ١٠٠.

(٣) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ؛ والكامل ، ج ٢ ، ص ٥٢١ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ١١٦ - ١٠٦.

قريش وأرسلوا إلى جهنم ووقع كثير من أهل مكة في الأسر ، بعد هذا الانتصار ازداد المسلمون قوة وعزيمة وأوقعوا الرعب في قلوب أعدائهم ، ثم أعقبتها غزوة (بني قينقاع) بسبب نقض يهود المدينة عهدهم مع الرسول ﷺ ، بعدها (غزوة كدر) ضد بني سليم ثم غزوة (السوق) ضد هجوم أبي سفيان.

وفي السنة الثالثة للهجرة وقعت حرب (غطفان) ضد (بني ثعلبة) الذين أرادوا الهجوم على المسلمين ثم غزوة (بني سليم) التي قُتُل فيها اثنان من شياطين الكفر هما (كعب بن أشرف) و (أبو رافع) على أيدي المسلمين ، وبعدها معركة (احد) ثم تبعتها غزوة (حرماء) (الأسد) وقد مُنِي المسلمين بالهزيمة في معركة أحد لكن ذلك كان باعثاً لهم على التهيئة للحروب القادمة وليعلموا أنَّ الغفلة والغور والتعلق بالماديات هي من أسباب الهزيمة.

وفي السنة الرابعة للهجرة وقعت غزوة (رجيع) ضد قبيلة (عضل وقارة) حيث سَلَّموا مبلغِي الإسلام إلى الأعداء ، بعدها حادثة (بئر معونة) فقد دعوا (٧٠) شخصاً لتعليمهم الإسلام ثم قتلواهم ، وحادثة (إجلاء بني النصير) إذ صُمِّموا على قتل الرسول الأكرم ﷺ وقد أخرجهم من المدينة بأجمعهم.

بعدها وقعت غزوة (ذات الرقاع) ضد طائفة (بني محارب) و (بني ثعلبة) من قبيلة (غطفان).

وفي هذه السنة وقعت (بدر الثانية) التي كان هدفها ملاحقة أبي سفيان. وقد كان لهذه الغزوات أثر بالغ في تقدم وانتشار الإسلام في الجزيرة العربية.

وفي السنة الخامسة للهجرة أحسست قبائل العرب بخطر هذه القوة الجديدة فقرروا الاتحاد والتنسيق فيما بينهم للقضاء عليها وعدم فسح المجال لها بتأصيل جذورها كقوة ضد الظلم والشرك في المنطقة فحدثت (معركة الأحزاب) التي انتصر فيها المسلمين ورجع منها المشركون خائبين مندحرين وأصبحت فكرة القضاء على المسلمين وقلع جذورهم من الحال.

وفي السنة نفسها وقعت غزوة (بني قريظة) وحاصر المسلمون قلعتهم للتخلص من شر

اليهود الذين كانوا يحيكون الدسائس ضد المسلمين.

ثم في السنة السادسة للهجرة وقعت غزوة (ذي قرد) حيث أغارت الكفار على أموال المسلمين وأموال رسول الله ﷺ واجتمع كذلك (بني المصطلق) ضد الإسلام ولكنهم اندحروا في غزوة (بني المصطلق) ، إن هذه الحوادث كلها كانت دليلاً واضحاً على قدرة وعظمة الإسلام.

صلح الحديبية فتحٌ كبيرٌ وتقديمٌ للإسلام :

في السنة السادسة للهجرة أمر الرسول الأكرم ﷺ المسلمين بالتهيؤ إلى حج العمرة مصطحبين معهم الإبل لذبحها قربان إلى الله سبحانه وتعالى ومعلنين لأهل مكة بأئمّهم لم يأتوا للحرب ، وكان لهذه الحادثة أثران واضحان :

الأول : أراد الرسول ﷺ من ذهابه إلى مكة اعلان عدم خوف المسلمين من أي عدو في الجزيرة العربية.

الثاني : مع دخولهم مكة تظهر قدرة الإسلام في مقابل مركز عبادة الأوثان وهذا مؤشر واضح على قوة وانتصار الإسلام لأنّ مكة كانت من المراكز المهمة والقوية في مقاومة الإسلام ، وأدرك أهل مكة ذلك فقرروا منع دخول المسلمين من مكة وعندما أمر الرسول ﷺ أصحابه بمبaitته فكانت بيعة شديدة الموثيق والعقود سميت بـ «بيعة الرضوان».

ولما سمع المشركون بخبر البيعة قرروا عقد صلح مع الرسول ﷺ جاء فيه : أن يخرج المشركون من مكة السنة القادمة ويدخلها الرسول ﷺ لأداء حج العمرة ^(١) . وبعد أن تم الاتفاق على هذا الصلح توفرت أرضية سهلة للقضاء على أعداء الإسلام الكبار والصغار الذين كانوا بين الحين والآخر يحكون المؤامرات ضد المسلمين أو يتعرضون لهم ، فمجرد أن عاد الرسول ﷺ من الحديبية أعدّ العدة لحرب هؤلاء الأعداء فارسل سرية (عكاشه)

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٥٨٢ ؛ سيرة ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٢١ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص

إلى (بني اسد) ، وسرية (محمد بن سلمة) ، إلى (بني ثعلبة) ، وسرية (أبي عبيدة الجراح) ، إلى (ذى القصد) ، وأرسل ست سرايا (١) بقيادة (زيد بن حارثة) لحرب (الجموح) إلى (عيسى وطرف وحسمى ووادي القرى وام قرفة) ، وسرية (عبد الرحمن بن عوف) إلى (دومة الجندي) ، وسرية (علي بن أبي طالب عليه السلام إلى (فടك) ، وسرية (كرز بن حابر) (٢) إلى (عربيين) ، وكل هذه المعارك وقعت بعد الحديبية (٣).

وكثير من القبائل التي كانت تُعد العدة لحرب المسلمين قد فشلت وانهزمت قبل أن تنجز شيئاً ذا بال ووصلت قدرة الإسلام إلى أوج عظمتها وحينها لم تحدث قبيلة من القبائل نفسها في أن تخوض معركة مع الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه المسلمين وأحسست مكة بالضعف وعقدت هدنة مع الرسول فاعترفت برسمية الحكومة الإسلامية.

رسائله صلوات الله عليه وآله وسلامه إلى ملوك العالم :

وتعاظمت في هذه الأثناء قدرة الإسلام وتوسيع نفوذه فانتشر أول شعاع لشمسه خارج الجزيرة العربية ، وقام الرسول بإرسال سفراء محملين برسائل إلى كسرى (ملك ايران) ، وقيصر (حاكم الروم) (٤) ، والنجاشي (حاكم الحبشة) ، والمقوقس (حاكم مصر) (٥) وإلى عدّة اخرى من الرؤساء والحكام أداءً لتکلیفه الإلهي ولدعوتهم إلى الإسلام فكان جواب بعضهم إيجابياً ، وسكت بعضهم الآخر ماعدا خسرو بروز (شاه ایران) وهذا دليل على إنما : أنّ التبليغ الإسلامي الصحيح قد وصلهم فاطلعوا على حقائق الإسلام ، أو أحسّوا بقدراته ووصلتهم أخباره فكان صلّاهم في عدم المواجهة العسكرية مع المسلمين (٦).

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٩٠.

(٣) الكامل ، ج ١ ، ص ٥٨٨ . ٥٩٠.

(٤) تفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٥) الكامل ، ج ١ ، ص ٥٩١ .

(٦) الكامل ، ج ١ ، ص ٥٩١ ؛ تفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ٣ ، ص

ولم يبقَ من مراكز المؤامرات إلا خبير مركز اليهود ^(١) الذي يجب القضاء عليه. لذلك فقد صممَ الرسول ﷺ في السنة السابعة للهجرة على اخضاعه مع قبيلة يهودية أخرى كانت تقطن أرض فدك.

بعد ذلك تجاوزَ الإسلام كل المواقع والعقبات التي كانت أمامه وارتقت رايته عالية بالنصر المبين.

وفي هذه المرحلة وصل الإسلام في الجزيرة العربية إلى أوج العظمة والازدهار واستغلَ الرسول الأعظم صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فرصة الاستفادة من صلح الحديبية للذهاب إلى زيارة بيت الله لاداء فريضة حج العمرة.

وبعد أن رجعَ الرسول الأكرم ﷺ من خير في شهر ذي الحجة أعلنَ للMuslimين الذين ذهبوا معه العام الماضي للعمرَة أن يتَّهِيَا إلى السفر في العام الحالي ^(٢) فلما سمعَ أهل مكة بهذا الخبر تركوا بيوتهم وفروا لاجئين إلى الجبال (وفقاً للصلح الذي اتفقا عليه) ، ودخلَ المسلمين مكة رافعين رؤوسهم.

عند ذلك أعلنَ الرسول ﷺ بقوله : «رحم الله امراً أراهم اليوم من نفسه قوّة» وبهذا الاسلوب استطاعَ المسلمين أن يتحققوا آمالهم في زيارة بيت الله سبحانه وهم يعرضون عظمة قدرة الإسلام أمامَ أهل مكة ^(٣).

وعند حلولِ السنة الثامنة من الهجرة وسَعَ الرسول ﷺ دائرة نفوذِ الإسلام ، فأرسلَ سرية (غالب بن عبد الله الليثي) إلى (بني الملوح) ، و (العلاء بن الحضرمي) ، إلى (البحرين) ، وحسبَ أحد الأقوال أرسلَ سرية (شجاع بن وهب) إلى (بني عامر) ، وسرية (عمرو بن كعب الغفاري) ، إلى (ذات الاطلاح) ، في أحد نواحي الشام.

وفي هذه السنة بعثَ الرسول ﷺ (عمرو بن العاص) إلى أرض (بلي وغُذْرَة) ليدعوهُم

(١) تفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكامل ، ج ١ ، ص ٦٠٢.

إلى الإسلام ، فوّقعت غزوة (ذات السلاسل) ^(١).

وفي السنة نفسها أرسل عَلَيْهِ الْكَلَمُ (عمرو بن العاص) نحو (جيفر وعياز) إبني الجلندي في عمان ليدعوهم إلى الإيمان ، ويأخذ (الجزية) من المحسوس.

كما أرسل جيشاً بقيادة (أبي عبيدة الجراح) فحدثت غزوة (الخطب) التي وافقت السنة المحرّية نفسها وأرسل عَلَيْهِ الْكَلَمُ أيضاً سرايا (أبي قتادة) للوقوف بوجه من جهز جيشاً لحاربة الرسول عَلَيْهِ الْكَلَمُ وحدثت أيضاً غزوة (مؤتة) ^(٢) في أرض مؤتة وهي إحدى القرى في الشام.

وكان عدد المسلمين المشتركين في هذه الغزوة ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد استشهد فيها عدد من قادتهم فكان ذلك سبباً لشعور المسلمين بالضعف الذي يعده نصراً للأعداء ، غير أنه سرعان ما تحيّلت أسباب فتح مكة حيث إنّ قبيلة (خزاعة) كانت حليفة للرسول عَلَيْهِ الْكَلَمُ وقبيلة (بني بكر) حليفة لقريش ، فبعثت قبيلة (بني بكر) على (خزاعة) وساندتها قريش ، أتّاح للرسول عَلَيْهِ الْكَلَمُ التدخل لنصرة (خزاعة) فأمر عَلَيْهِ الْكَلَمُ بتجهيز جيش لغزو مكة وتمكن بعشرة آلاف من المسلمين وبخطة عسكرية حكيمه من السيطرة على مكة وفتحها بدون قتال.

وبلغ المسلمين آمالهم في الدخول إلى بيت الله الآمن مطهراً من دنس الجاهلية والأوثان.

وعندما رأى (أبو سفيان) كثرة المسلمين وقدرهم انبهر بعظمة الإسلام فصرح إلى (العباس) بقوله : «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» فأجابه العباس : ويحك إِنَّمَا النَّبِيَّةَ» ^(٣).

وصل الرسول الأعظم عَلَيْهِ الْكَلَمُ إلى الكعبة ووقف في بابها بعمامته السوداء منادياً بالشعار المعروف لنبذ آداب واعراف الجاهلية بقوله عَلَيْهِ الْكَلَمُ : «لا إِلَهَ إِلَّا الله وحده صَدَقَ وعده وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ» ، ثم أضاف عَلَيْهِ الْكَلَمُ : «أَلَا كُلُّ دَمٍ في . الجاهلية . أو مائة أو مال

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٧٢.

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٥ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٣١٨.

(٣) الكامل ، ج ١ ، ص ٦١٤.

يُدعى فَهُوَ تَحْتَ قَدْمِيِّ هَاتِينِ إِلَّا سَدَانَةِ الْبَيْتِ وَسَقَايَةِ الْحَاجِ» ، ثُمَّ قَالَ : «يَا مُعْشِرَ قَرِيشٍ مَا تَرَوْنَ أَيّْيِّ فَاعْلَمْ بِكُمْ؟ قَالُوا : «خَيْرًا أَخْ كَرِيمٌ وَابْنَ أَخِ كَرِيمٍ» ، قَالَ : «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الْطُّلَقَاءُ» ^(١).

ثُمَّ أَرْسَلَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجْمُوعَةً مِنَ الْجَيْشِ لِأَطْفَاءِ الْفَتْنَةِ الَّتِي حَدَثَتْ بَيْنَ الْقَبَائِلِ فِي أَطْرَافِ مَكَّةَ ^(٢) وَلِلْوَقْوفِ بِوجْهِ هَوَازِنِ الَّتِي كَانَتْ مَصْرَةً عَلَى قَتْالِ الْمُسْلِمِينَ وَاشْتَبَكَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ هَوَازِنَ فِي (حَنْيَنَ) وَرَدُوا بِغَيْهُمْ إِلَى نَحْرِهِمْ ^(٣) . وَبَعْدَهَا حَاصَرُوا الطَّائِفَ وَاجْبَرُوهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ ^(٤).

عِنْدَمَا حَلَّتِ السَّنَةُ التَّاسِعُ لِلْهِجَرَةِ تَنَفَّسَ الْمُسْلِمُونَ الصُّدَعَاءَ بِتَدْمِيرِ كُلِّ مَرَاكِزِ الْمَؤَامِرَاتِ الَّتِي كَانَ يَحْكُمُهَا الْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، وَبَرَزَتْ قُوَّةً جَدِيدَةً إِلَى الْوُجُودِ ، فَأَسْلَمَتْ بَعْضُ الْقَبَائِلِ الْمُحِيطَةِ عَلَى يَدِيهَا وَخَضَعَ لَهَا بَعْضُهَا الْآخَرُ.

وَفِي خَضْمِ هَذِهِ الْحَوَادِثِ جَاءَ خَبْرٌ مَفَادِهُ أَنَّ (هَرْقُلَ) امْبَاطُورُ الرُّومِ وَعَدَّدًا مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ اعْتَنَقُوا النَّصَارَى يَرِيدُونَ الْمُحْجُومَ عَلَى بَلَادِ الْإِسْلَامِ ، فَأَعْلَمَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ يَعْدَ الْمُسْلِمُونَ أَنفُسَهُمْ لِلْحَرْبِ مَعَ الرُّومِ.

وَنَقْلُ أَرْيَابِ التَّارِيخِ أَنَّ الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمَ عَنْ مَكَانِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَتَكَبَّمْ عَلَيْهِ خَلَافًا لِعَادَتِهِ فِي الْحَرْوَبِ السَّابِقَةِ. رَبِّمَا لِبُعْدِ الطَّرِيقِ وَأَمْثَالِ ذَلِكِ وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ هَدْفَهُ كَانَ بَثُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ وَقَدْ جَهَزَ جَيْشًا بِصَعْوَدَةِ الْعَلَةِ وَبِمَعَدَاتٍ قَلِيلَةٍ وَسُمُّيَّةٍ بِ(جَيْشِ الْعُسْرَةِ) وَاتَّهَمُوا إِلَيْهِ (تَبُوكَ) ^(٥) وَعِنْدَ وَصْوَلِهِمْ إِلَيْهَا وَمَرْوِرِهِمْ بِ(مِينَاءِ اِيلِهِ) فَوَافَقَ حَاكِمَهَا عَلَى اعْطَاءِ الْجَزِيَّةِ وَتَعَاهَدَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْصَّلَحِ ^(٦). ثُمَّ أَرْسَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى حَاكِمِ (دُوْمَةِ الْجَنْدُلِ) فَقَبِيلَ الْجَزِيَّةِ أَيْضًا ^(٧).

(١) الْكَامِلُ ، ج ١ ، ص ٦٢٠.

(٢) الْكَامِلُ ، ج ١ ، ص ٦١٨ ؛ سِيرَةُ ابْنِ هَشَامٍ ، ج ٤ ، ص ٧٠.

(٣) الْكَامِلُ ، ج ١ ، ص ٦٢٤ ؛ وَسِيرَةُ ابْنِ هَشَامٍ ، ج ٤ ، ص ٨٠ ؛ وَتَفْسِيرُ جَامِعِ الْبَيَانِ ، ج ٢ ، ص ٣٤٤.

(٤) الْكَامِلُ ، ج ١ ، ص ٦٢٨ ؛ وَسِيرَةُ ابْنِ هَشَامٍ ، ج ٤ ، ص ١٢٢.

(٥) الْكَامِلُ ، ج ١ ، ص ٦٣٥ ؛ سِيرَةُ ابْنِ هَشَامٍ ، ج ٤ ، ص ١٥٩ ؛ وَتَفْسِيرُ جَامِعِ الْبَيَانِ ، ج ٢ ، ص ٣٧٣.

(٦) الْكَامِلُ ، ج ١ ، ص ٦٣٨.

(٧) الْكَامِلُ ، ج ١ ، ص ٦٣٨.

وظل رسول الله ﷺ في تبوك خمسة عشر يوماً تقريباً ولكن جيش الروم تخلف عن الجيء فرجع الرسول ﷺ إلى مكة ^(١).

وفي هذه السنة جاءت مجموعة من ثقيف وأعلنت إسلامها بين يدي الرسول ﷺ ^(٢)، وأمر الإمام علياً عليهما السلام بتطهير قبيلة (طي) من دنس الأوثان فحاربهم وانتصر عليهم وأسر بنت حاتم الطائي وعلى أثر ذلك دخل الإسلام (عدي بن حاتم و ...) ^(٣).

إن فتح مكة ودخول بني ثقيف الإسلام والفراغ من تبوك كانت مؤشرات على عظمة الإسلام وصدق هذا الدين فتوافد كثير من القبائل على الرسول ﷺ واطلعوا تدريجياً على معارف الإسلام وعظمته فاعتنق بعضهم الإسلام وبعض عقد صلحاً وترك الحرب مع الرسول فسمى ذلك العام (يعام الوفود) ^(٤)، فجاء وفد (بني اسد) إلى الرسول ﷺ قائلين : «أتيناك قبل أن تُرسل إلينا رسولًا» ووفد (بلى) ، ووفد (زارين) ، ووفد (بني تميم) ^(٥). ووصلت رسائل كثيرة من ملوك وسلطانين (جمير) تدل على قبول قدرة وحكومة الإسلام ^(٦).

وكذلك جاء وفد (بهراء) ووفد (بني البكاء) ووفد (بني فراة) ، ووفد (ثعلبة بن منقذ) ، ووفد (سعد بن بكر) ^(٧).

ونزلت سورة البراءة وقرأها الإمام علي عليهما السلام معلناً البراءة من الشرك وعبادة الأوثان ومنع المشركين من الدخول إلى مكة للحج.

«فأقام الناس الحج وحاجت العرب الكفار على عادتهم في الجاهلية وعلى يؤذن ببراءة فنادى يوم الأضحى : لا يحجَّ بعد العام مُشْرِكٌ ولا يطوفنَ بالبيت عُرْيَانٌ ومن كان

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٦٣٨.

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٤٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكامل ، ج ١ ، ص ٦٤١ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٠٥.

(٥) الكامل ، ج ١ ، ص ٦٤٢.

(٦) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٣٥.

(٧) الكامل ، ج ١ ، ص ٦٤٤.

بينه وبين رسول الله عهد فأجله إلى مده» ^(١).

وخلال العام العاشر للهجرة وصوت الإسلام يدوي في كل مكان ، فجاء نصارى (نحران) إلى المباهلة ، ثم قبلوا الصلح بدوخا : «وصالحوه على ألفي خلّة ثم كل خلّة أربعون درهماً وعلى أن يُضيقوا رُسُلَّمَ رسول الله ﷺ وجعل لهم ذمّة الله تعالى وعهده ألا يفتونوا عن دينهم ولا يعيشروا وشرط عليهم أن لا يأكلوا الريا ولا يتعاملوا به» ^(٢).

وتواترت الوفود تلو الوفود إلى المدينة لتعلن وفاءها للإسلام والرسول الأعظم ﷺ ، فجاء وفد (سلامان) ، ووفد (غيشان) ، ووفد (عامر) ، ووفد (ازد) ، ووفد (مراد) ، ووفد (زيد) ، مع (عمرو بن معدى كرب) ، ووفد (عبد قيس) ، ووفد (بني حنيف) ، ووفد (كندة) ، ووفد (محارب) ، ووفد (رهاوين) ، ووفد (عبس) ، ووفد (صادف) ، ووفد (خولان) ، ووفد (بني عامر) ، ووفد (طبي) ^(٣).

وقد تجلّت قوّة الإسلام في حجة الوداع ببناءً على ما ذكر في بعض الروايات فإنّ مجموع المسلمين الذين ذهبوا لزيارة بيت الله الحرام وحضروا (حجة الوداع) كان أكثر من مائة ألف شخص ، ويعود هذا الاجتماع من أكبر الاجتماعات الدينية في ذلك العصر ، كما تعكس ذلك أيضاً خطب الرسول ﷺ في سفره سواء كانت في مكة ، أم في عرفات ، أم في مني أم في غدير خم ، لتعيين الخليفة والوصي من بعده وقد جاء في التاريخ ما يلي : «فأرآهم مناسكهم وعلّمهم سنن حجتهم وخطب خطبته التي بين فيها للناس ما بين وكان الذي يبلغ عنه بعرفة (ريعة بن امية بن خلف) لكثرة الناس ، فقال بعد حمد الله : «أيّها الناس اسمعوا قولي فلعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيّها الناس إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا وكل ربا موضوع لكم رؤوس أموالكم وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كُلُّه وكل دم كان في الجاهلية موضوع أيّها الناس

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٦٤٤ ؛ سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٩٠.

(٢) الكامل ، ج ١ ، ص ٦٤٦.

(٣) الكامل ، ج ١ ، ص ٦٤٧ . ٦٤٩ ؛ وللاطلاع على غزوات وسرايا الرسول ﷺ يمكن الرجوع إلى سيرة ابن هشام ج ٤ ، ص ٢٥٦ ؛ الكامل ، ج ١ ، ص ٢٥٢ ؛ وتفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ . ٤٠٠

إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعَذِّبَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبْدًا وَلَكِنَّهُ يُطَاعُ فِيمَا سُوِّيَ ذَلِكَ وَقَدْ رَضِيَ بِهَا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ... »^(١).

جاء في تاريخ حجة الوداع : أنه أثناء ذهاب الرسول الأكرم ﷺ إلى الحج كان قد اجتمع خلق كثير في المدينة على الرغم من انتشار أحد الأمراض الذي منع حجج كثير منهم : «ومع ذلك كانت معه جموع لا يعلمها إلا الله ، وقد قيل إنه خرج معه تسعون ألفاً ، ويقال : مائة ألف وأربعة عشر ألفاً وقيل : مائة ألف وعشرون ألفاً ، وقيل : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، ويقال أكثر من ذلك وهذه عدّة من خرج معه وأمّا الذين حجوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة والذي اتوا من اليمن مع علي [عليه السلام] وأبي موسى»^(٢). ولو يمكن تقدير عدد المسلمين الذين لم يستطيعوا الحج لتبيّن مقدار ما وصلت إليه شوكة الإسلام.

وأخيراً جهز الرسول الأكرم ﷺ قبل وفاته جيشاً بقيادة (أُسامة) لحرب ديار الشامات (بصري) فتختلف بعضهم عن أمر رسول الله ﷺ .

* * *

(١) الكامل ، ج ١ ، ص ٦٥٢.

(٢) سيرة الحلي ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ ؛ وتاريخ اخرى نقلأً عن العدّير ، ج ١ ، ص ٩ وهو مصدر جامع لمن أراد أن يستزيد.

نبي الإسلام في القرآن

تمهيد :

استعرضنا فيما تقدم ملخصات مختصرة من حياة النبي الإسلام صلوات الله عليه وآله وسلامه من وجهة نظر المؤرخين ، والآن نستعرض حياته الشريفة منذ نعومة أظفاره حتى انتهاء عمره . كما جاء في القرآن الكريم . بتحقيق دقيق مختصر يصلح أن يكون مقدمة خاصة للبحوث حول النبوة . إن دراسة الآيات القرآنية وبالأخص ذات العلاقة بهذا البحث لها أهمية بالغة وذلك للرد على أصحاب الشبهات والمخالفين ، فلو أن هذه الآيات لم تنطبق على واقع حياة الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه فإن ذلك سيكون مدعاه لإثارة هذه الشبهات ، والتي سوف يكتبوها في التواريخ كما كتبت الواقع الأخرى .

وبتعبير آخر : بعض النظر عن كون القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى وكل ما جاء به من الآيات القرآنية منسجم مع الحقيقة والواقع . فلو فرضنا عدم صحة تطابقها فإن الآيات القرآنية التي تخص حياة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله وسلامه لا يمكن عدم تطابقها مع الواقع ، لأنها ستكون وسيلة جيدة يتذرع بها الأعداء لتمرير شبهاتهم وبهذه الإشارة نعم النظر مرة أخرى في الآيات القرآنية والنقاط المهمة التي جاءت بها حول مقاطع مختلفة من حياة الرسول

صلوات الله عليه وآله وسلامه .

* * *

محيط دعوة الرسول ﷺ :

بيّن القرآن الكريم في سورتين منه وبتعبير في غاية الوضوح حياة عرب الجاهلية المعاصرين للرسول ﷺ بقوله : «وَانْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفْيِ ضَلَالٍ مُّبِينٍ» . (آل عمران / ١٦٤) (ال الجمعة / ٢)

وتعبير (ضلالٌ مُّبِين) في الآيتين بيانٌ واضحٌ لتحكمِ الضلال والضياع في المجتمع العربي الجاهلي .

ضياع في العقائد حيث كانوا مشركين يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم من الحجر والخشب .

وضياع في الجوانب الاجتماعية إلى الحد الذي كانوا يهدون بناتهم أحياءً وهم يفتخرون بذلك .

وكانوا يطوفون رجالاً ونساءً حول الكعبة عراة ويعتبرون ذلك من ضمن عبادتهم .
والإعتداء والحرروب وإراقة الدماء بالباطل ، كل ذلك كان له قيمة اجتماعية في الجاهلية ، حتى وصل الأمر إلى أن يرث الأبناء أحقاد واضغان الآباء .
والمرأة في خضم ذلك مجرّد متاع يقامرون به .

وأفضل من رسم مفهوم (ضلالٌ مُّبِين) قولُ (عُفَّةُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ) عندما بيّن أوضاع عرب الجاهلية ملوكُ الحبشة (النجاشي) بقوله : «أَيَّهَا الْمَلَكُ كُنَا قَوْمًا أَهْلَ جَاهْلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِيُ الْفَوَاحِشَ وَنَقْطِعُ الْأَرْحَامَ وَنَسْيِيُ الْجَوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوْيُّ مَنْ أَنْتَنَا الْمُضَعِّفُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مَنَا نَعْرَفُ نَسْبَةً ، وَصَدَقَةً وَامَانَةً وَعَفَافَةً فَدَعَانَا لِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَانْ لَا نُشَرِّكُ بِهِ شَيْئًا وَنَخْلُعُ مَا كُنَا نَعْبُدُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَأَمْرَنَا بِصَدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصَلَةِ الرَّحْمَنِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِ عنِ الْمَحَارِمِ وَالدَّمَاءِ ...»^(١) .

ولمزيد من توضيح تلك الإشارة التي وردت في الآيتين الكريمتين نستعين بآيات أخرى حيث جاء فيها :

(١) الكامل ، ج ٢ ، ص ٨٠ ؛ تفسير في ظلال القرآن ، ج ٨ ، ص ٩٥ .

١ . الأصنام في عقائد العرب

إنّ عقائد أيّ قوم أو شعب تشكل ركناً أساسياً في ثقافتهم ، وانحطاط تلك العقائد يدل على الانحطاط الثقافي والحضاري لهم.

وعلى هذا الأساس ، فعرب الجاهلية كانوا في أرذل درجات الانحطاط الثقافي والضياع حيث كانوا يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم فيتصورون أنها تحكم في مصائرهم بل يزعمون أنها حاكمة على السماء والأرض أحياناً ، وقد خاطب القرآن الكريم الرسول الأكرم ﷺ بصدق ذلك بقوله : ﴿فَلَن تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . (المائدة / ٧٦)

وبالإضافة إلى الأصنام الصغيرة فقد كانت لديهم ثلاثة أصنام كبيرة ذات شهرة خاصة في مجتمعهم يزعمون بأنّها بنات الرب وهي وسيلة للتقرب إليه ، أحدها (مناة) وكان ما بين المدينة ومكة المكرمة بالقرب من ساحل البحر الأحمر ، ولهذا الصنم احترام خاص عند كل العرب إنذاك ، فيقدمون إليه القرابين ، وأكثر القبائل احتراماً وتقديساً له قبيلة (الاوسم) والخرج .

والثاني في الطائف يُعرف باسم (اللات) ، وقد شُيد في مكانه اليوم مسجد وكانت (ثقيف) من أكثر القبائل احتراماً له.

والثالث من الأصنام الكبيرة هو (العزى) وقد وضع في الطريق المؤدي إلى العراق قريباً من منطقة (ذات العرق) ولقرىش علاقة خاصة بهذا الصنم .

وهناك أصنام أخرى للقبائل والعشائر بل وللعوائل أيضاً إذ لا معنى لحياة عرب الجاهلية بدونها ، فمثلاً لو أرادوا السفر فلابد لهم يستأذنون من الصنم ولهم في اسفارهم أصنام يصحبونها معهم .

وقد أشار القرآن الكريم في سورة النجم إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْأَلَّاتَ وَالْعُزَى * وَمَنَّاةَ الْثَالِثَةِ الْأُخْرَى * الْكُمُ الْدَّكُّ وَلَهُ الْأَنْشَى﴾ . (النجم / ٢١ - ١٩)

ومن الجدير بالذكر في الحياة الجاهلية أنّهم كانوا يكرهون البنات ويذوّلنهن أحياناً

بالرغم من اعتقادهم بأنّ الملائكة بنات الله وهذه الأصنام تماثيل تلك الملائكة ، لذلك واجههم القرآن الكريم بمنطقهم وهو كيف تقولون : أنّ الله بنات في الوقت الذي تكرهونهن فيه؟

وقد استنكر القرآن وذم تلك الأفكار الخرافية المنحطة بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا
الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ اثَّنَا اثَّنَاهُدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكَتَّبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسَأَلُونَ ﴾ .
(الزخرف / ١٩)

وقد حارب الرسول الأكرم ﷺ هذه العقائد الضالة الناشئة من التصورات الخاطئة وهو النفس كما ورد في ذيل الآية الكريمة بعد أن أشارت إلى الأصنام الثلاثة الكبيرة المعروفة بقوله تعالى : ﴿ إِنْ هَيَّ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَيْتُمُوهَا إِنْ شُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا انْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّعِنُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ . (النجم / ٢٣)

صحيح أنّ المشركين قد تشبّثوا بدليلٍ واهٍ ليبرّروا به عبادتكم للأصنام حيث قالوا : إنّ ذات الله أسمى من أن يصل إلىّها العقل والفكير الإنساني وهو منزه عن أن نعبده بصورة مباشرة ، وعلى هذا الأساس فالذين وكل إليهم أمر خلقه وتدبّره هم الواسطة إليه وهؤلاء هم الملائكة والجن وكل الموجودات المقدسة فهوّلاء أرباب نعبدتهم وهم الذين يقربونا إلى الله ﴿ مَا عَبَدُوهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ رَبِّنَا ﴾ . (الزمر / ٣)

وعلى هذا فإنّ أيدينا لا تصل إلى هذه المقدسات فنصنع لها تمثالاً ثم نعبدّها ! وهذه التماثيل هي أصنامهم وفي تصورهم أن هناك وحدة واتحاداً بين هذه الأصنام وال الموجودات المقدسة فهم يخاطبونها بالآلهة والأرباب .

وهم بهذه الخرافات الواهية ابتعدوا عن الله سبحانه وتعالى وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه ، وبدلاً من أن يتوجهوا إلى الله الذي هو منبع الفيض والقدرة البصير الموجود في كل مكان لجأوا إلى مخلوقات ممكّنة لا حول ولا قوّة ولا شعور لها بل إنّها مخلوقة بآيدي عبادها ومع ذلك فقد أجلسوا تلك المخلوقات التي لا قيمة لها على عرش الربوبية والالوهية ناسين عظمة الذات الإلهية اللامتناهية ولا هشين وراء سراب يحسبونه ماء .

* * *

٢ . تفشي حالة الفقر الشديد بين الناس

في الوقت الذي بعث فيه الرسول ﷺ كان عرب الجاهلية غارقين في فقر شديد إلى الحد الذي كانوا يقتلون فيه أبناءهم . وحتى الذكور منهم أوئلَكَ الذين يشكلون الحجر الأساس لحياتهم المادية والاقتصادية . ليقللوا عدد الأفواه الجائعة ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً أَمَالَقٌ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَآيَاتُكُمْ﴾^(١) . (الإسراء / ٣١)

وقد جسم أمير المؤمنين علي عليهما السلام هذا المعنى في تحليل جامع فقال عليهما السلام : «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَنَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ ، وَأَمَنَّا عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشِرُ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينِ وَفِي شَرِّ دَارِ مَنِيَّخُونَ بَيْنَ حَجَّارَةِ خُشْنَ وَحَيَّاتِ صُمٍّ ، تَشَرِّبُونَ الْكَدِيرَ ، وَتَأْكِلُونَ الْجَحِشَ»^(٢) .

* * *

٣ . عباداتهم العجيبة

كانت عبادة المشركين غريبة للغاية ، ويحيب القرآن الكريم على ادعاء المشركين الذين يزعمون : بأنّه إذا كان محمد ﷺ قد اتى بعبادات فإنّ لنا مثلها وكنا نصلّي إلى جانب الكعبة كذلك ، فيقول القرآن : ﴿وَمَا كَانَ صَالِثُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾^(٣) . (الأنفال / ٣٥)

نعم ، إِنَّهُمْ يُسَمِّونَ صَفَرِهِمُ الْأَحْمَقَ وَتَصْفِيقِهِمُ الْأَبْلَهُ صَلَّاهُ ، «فَالْمَكَاءُ» يعني : صوت الطيور ، وجاء تشبيه أصوات العرب في الجاهلية حول الكعبة بصوت الطيور ، ربما لأنّه حالٍ من أي مفهوم كصوت الطيور الذي لا يحتوى فيه ، أو أن كل مكان يفعلونه ما هو إِلَّا مجرّد غناء.

وأَمَّا «التصدية» فمعناها التصفيق ، وهو ضرب اليد على الآخر والصوت الناتج من

(١) هناك احتمال أنّ هذه الآية إشارة إلى قتل البنات اللاتي ينظر إليهن المجتمع باحتقار ويعدهن لوحدهن مخلوقات وضعية مستهلكة ولكن الاحتمال هنا يشمل الأولاد أيضاً لوجود ضمير جمع المذكر ولقوله تعالى «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ بَخْطًا كَبِيرًا» ويعود هذا الضمير إلى الأولاد في صدر الآية التي نزلت إِمَّا بخصوص الأولاد فحسب أو الأولاد والبنات على أقل تقدير وقد استخدم ضمير الجمع للمذكر لتغليب الذكور على الإناث.

(٢) نَحْجُ الْبَلَاغَةُ ، الْخُطْبَةُ ٢٦.

ذلك يسمى تصدية ، وعلى هذا الأساس سمي تردد الصوت بين الجبال بالصدى ، ولم ينتهوا إلى هذا الحد بل كانوا يطوفون عراة كما ولدتهم أمها تهم حول الكعبة ، وهذا ما اشير إليه عندما نزلت سورة براءة وقام بإبلاغها أمير المؤمنين علي عليه السلام في شهر ذي الحجة بقوله : «لا يطوفن بالبيت عريانٌ ولا يُحجّنَّ البيت مشركٌ ...» ^(١).

ويقال : إن السبب من طوافهم عراة أن مجموعة من العرب يسمون أنفسهم (حمّس)

^(٢) يعتقدون بأن طوافهم حول الكعبة يجب أن يكون بملابس خاص ، ومن لم يملك ذلك اللباس ويطوف بملابسها المعتادة فعليه أن يرميها بعيداً بعد انتهاء الطواف ولا يحق له ولآخرين استخدامها ولذلك يطلقون على هذه الألبسة (اللقاء) ، أي ما يلقى من الثياب ، وإذا أخذ بنظر الاعتبار أن أكثر الناس كان يسودهم فقر مدقع ولا يملكون إلابساً واحداً فيضطرون خلعه من أجل الاحتفاظ به ويطوفون عراة حول الكعبة.

وقد استفاد أصحاب الشهوات أحياناً من هذه الخراة ليتمتعوا بالنظر إلى الشباب من

الرجال والنساء عندما يعرضون أجسادهم عارية ^(٣).

ويذكر ابن هشام أن الرجال كانوا عراة تماماً. أمّا النساء فكن يخلعن كل ملابسهن ما عدا ثوباً مشقوقاً الذيال ييدي أجسامهن ثم ينسغلن بالطواف ، وذات يوم طافت امرأة في تلك الهيئة أمام أمّي رحال شرفة فأنشأت هذا الشعر الذي حفظه لنا التاريخ :

الْيَوْمَ يَلْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَحِلُّهُ ^(٤)

أمّا القرابين التي يقدمونها إلى الأصنام فلها قصة مفصلة ، فمن جملة ذلك أنّ الناس في (دومة الجندي) ^(٥) كانوا يقدمون شخصاً في كل سنة قرياناً إلى الآلهة مع مراسم خاصة ثم يدفنون جسده المدمى قرب المذبح ، حتى كتب بعضهم : إنّ المصريين كانوا يقدمون أجمل

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣ ، في ذيل الآيات الأولى لسورة البقرة.

(٢) «حمّس» على وزن «حمّس» جمع «أحمس» وهو من تعصب لدينه ، ولأنّ قريش كانت توطّد عقيدة الشرك لذلك وصفوا أنفسهم بال (حمّس).

(٣) الإسلام والعقائد والأراء البشرية ، ص ٢٨٨.

(٤) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢١٥.

(٥) منطقة في شمال غربي (نجد) في قمة جبال الجزيرة العربية ، وهناك كانت قصة وقوع التحكيم بصفين.

الشباب والشابات قربابن إلى (آلهة النيل) ، وقد بقي ذلك التقليد عرفاً اجتماعياً لبعض قبائل العرب فيندر الآباء أبناءهم أحياناً قربابن إلى الآلهة أيضاً^(١).

* * *

٤ . الخرافات الأخرى لعرب الجاهلية

ومن جملتها مسألة اللحوم الحللة والحرمة والقوانين المخزية الفارغة التي كانوا يستونها لأنفسهم كما ذكر ذلك القرآن الكريم : **﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَأَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرْمَتْ ظُهُورُهَا﴾** . (الأنعام / ١٣٨)

ويقول في الآية التي بعدها : **﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكْرُنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى ازْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء﴾** . (الأنعام / ١٣٩)

وقد وعد القرآن أصحاب تلك البدع القبيحة التي ابتدعواها بالخسران كما ورد في ذيل هذه الآيات من قوله تعالى : **﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا اولَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفْتَرَاهُ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾** . (الأنعام / ١٤٠)

حتى أئمّهم قد حرّموا بعض السنن الباقيّة من الأنبياء عليهم السلام وأصبحت غير مؤثرة مثل سُنة تحريم القتال في الأشهر الحرم (ذي القعدة ، ذي الحجّة ، حرم ، رجب) حيث كان ذلك المعتقد عالماً مهماً في منعهم عن سفك وإراقة دمائهم ، لكن تلك السُّنة الخرافية (النسيء) كانت تبطل تأثيرها ، فمتي ما أرادوا تجاوز حرمة هذه الأشهر الحرم ، قالوا لا مانع من جعل شهر آخر مكان هذا الشهر ، فعاب عليهم القرآن هذا العمل السيء بقوله تعالى : **﴿إِنَّمَا النَّسِيءَ زِيادةٌ فِي الْكُفْرِ﴾** . (التوبه / ٣٧)

إنّ الحجّ وزيارة بيت الله الحرام التي كانت من سنن إبراهيم عليه السلام ودافعاً إلى الوحدة والتقرب إلى الله سبحانه ، قد تلوث بخرافاتهم ولم تصبح سبباً وعالماً للابتعاد عن الله سبحانه فحسب بل وللتفرقّة والتشتت بين الناس ، لأنّ التعصب للقومية والشرك وعبادة الأصنام كانت سائدة عليها.

(١) الإسلام وعقائد وآراء البشر ، ص ٢٧٨ .

٥ . شيوخ الفساد الأخلاقي

لقد بلغ الفساد الأخلاقي أعلى درجاته عند عرب الجاهلية فقد كانت تحكمهم عداوات شديدة وأحقاد موروثة من السلف إلى الخلف ، لم تقتل الأخلاق فحسب بل إن كل شيء في المجتمع ذهب ضحية لهذه العداوات وقد بين القرآن الكريم ذلك للعرب الذين مَنَ الله وتعالى عليهم بالإسلام بقوله : ﴿وَادْكُرُوا بِعَمَّتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَذْكُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَالْأَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ أَخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَاعَ حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَانْقَدَّكُمْ مِنْهَا﴾ . (آل عمران / ١٠٣)

و «الشفا» : كما جاء في «مقاييس اللغة» هي الإشراف والسلط على الشيء و «الشفا» هنا يطلق على الأشياء التي يشرف الإنسان عليها ، مثل الإشراف على جوانب الحفرة أو حافة الوادي أو حافة النهر ، وكذلك (شفة) الإنسان على جانبي فمه ويطلق أيضاً على تحسن صحة المريض لأنّه يتسلط ويتغلب على المرض .

وعلى أية حال فقد شبه القرآن الكريم حياة عرب الجاهلية بمن يقف على شفا حفرة من النار ليسقط فيها بسهولة ، نار تحرق كل شيء وتحوله إلى رماد .

كانت العداوة والنفاق والاختلافات مطبوعةً في نفوسهم وحاكمه عليهم بحيث صرَّ القرآن الكريم لنبيِّ الإسلام محمد ﷺ : إنَّ من المستحيل القضاء على هذه الاختلافات بالطرق العادلة وإنجاد الاتحاد والوحدة بينهم إلَّا معجزة إلهية ، وقد حصل ذلك على يد الرسول الأكرم ﷺ بإذن الله : ﴿لَوْ انْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكَنَ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ . (الأنفال / ٦٣)

إنَّ معاقرة الخمر واللعب بماليسه والأذلام كانت متفشية بحيث كان من الصعب القضاء عليها بمرحلة واحدة ، لذلك جاء أمر تحريم الخمر على عدّة مراحل ^(١) .

كما أنَّ أحد أكبر المفاسد الأخلاقية والاجتماعية هو مسألة (حقوق المرأة) في مجتمع عرب الجاهلية ، فقد وصلت إلى الحد الذي يتفق مع ما قاله بعض المفسرين : إنَّه عندما تحيين ولادة المرأة في العصر الجاهلي تحفر حفرة وتجلس على شفتها فإنَّ كأنَّ المولود بتناً

(١) والتفصيل في ذلك جاء في التفسير الامثل ذيل الآية ٩٠ من سورة المائدة .

قذفه فيها ، وإذا كان ولداً عصمته منها. وقد قال أحد شعرائهم بهذا الصدد مفخراً :
 سَمِيَّتِهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمَوُثُ وَالْقَبْرُ صَهْرٌ ضَامِنٌ ذَمِيْتُ^(١)
 إنّ هذا العمل سواء كان بداعٍ الفقر المدقع والاعتقاد بعدم الفائدة الاقتصادية للبنات
 أو بدليل التعصب المفرط ضدهن لتفادي وقوعهن في الحروب أسيرات بيد الأعداء فهو
 أفضع وأوحش عادات عصر عرب الجاهلية.

وقد عاب القرآن هذه الاعتقادات مراراً بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَهْدُهُمْ بِالْأَنْشَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوَّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءٍ مَا يُبَشِّرُ بِهِ إِيمَسِكُهُ عَلَىٰ هُوَنِ امْ يَدْسُهُ فِي التُّرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. (النحل / ٥٩ - ٥٨)

إنّ هذا العمل نوع من أنواع التعصب الأعمى لحفظ الشرف وقد جرهم لاقتراف
 أفضع الجرائم : (قتل الإنسان لطفله المسلم) وهو دليل واضح على أعظم حالات الجهل
 وسقوط الأخلاق وانعدام العواطف الإنسانية والاستهانة بمنزلة المرأة في ذلك المجتمع الجاهلي
 وتعبير ﴿إِيمَسِكُهُ عَلَىٰ هُوَنِ﴾ يشير إلى أنّ وجود البنت يعدّ عاراً عندهم إلى الحد الذي
 يهرب من قومه وقبيلته تخلصاً من عارها ، غافلاً عن أنّ مسألة عدم وجود بنت تعني عدم
 وجود امهات ، وإذا انعدمت الامهات انعدم وجودهم أيضاً ، يقول أحد شعرائهم في هذا
 الصدد :

لَكُلِّ أَبِي بَنْتَ يُرَاعِي شَهْرَ إِذَا حُمِدَ الصَّهْرُ
 ثَلَاثَةُ أَصْهَارٍ إِذَا حُمِدَ الصَّهْرُ
 فَبَعْلٌ يُرَاعِيْهَا وَخَدْرٌ يُكَنِّهَا
 وَقَبْرٌ يُرَاعِيْهَا وَخَيْرُهُمُ الْقَبْرُ^(٢)

طفولة الرسول الأكرم ﷺ :

لا يوجد بحث كثير في القرآن الكريم عن طفولة الرسول الأكرم ﷺ
 إلا سورة الضحى حيث نقرأ فيها : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ *
 وَوَجَدَكَ عَالِلًا فَاغْنَىٰ﴾. (الضحى / ٨ - ٧)

(١) تفسير مجتمع البيان ، ج ١٠ ، ص ٤٤٤ .

(٢) تفسير القرطبي ، ج ٦ ، ص ٣٧٣٤ .

في الآية الأولى إشارة إلى يُتَمِّمُ الرسول الأكرم ﷺ حيث جاء في التاريخ أيضاً أن الرسول الأكرم ﷺ عندما كان في بطنه امه توفي والده (عبد الله) ، وفي السنة السادسة من عمره الشريف توفيت والدته فتكفله جده (عبد المطلب).

وفي السنة الثامنة من عمره توفي جده ، فاحتضنه عمُّه (أبو طالب) وآثره على أولاده ونفسه.

وفي الآية الثالثة إشارة واضحة إلى فقر الرسول ﷺ في بداية عمره الشريف فمن الله سبحانه وتعالى عليه بإلقاء محبته في قلب خديجة ظاهرًا فتزوج منها واغدق على ثروتها واعانته على حياته ودعوته.

وأيما في الآية الثانية فيقول تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًاً فَهَدَى﴾ وفسرها أحد المفسرين بمعنى عدم معرفة الحق.

وقال آخرون : إن مفهوم الآية هو أنك كنت ضالاً لا تعرف الحق ونحن هديناك إليه. وقال بعضهم : إن المراد بكلمة «ضالاً» هو (غافل) عن الأحكام والكتب السماوية ، ولكن بعضهم يذهب إلى الضلالية الظاهرة في الطفولة حيث ضاع الرسول ﷺ مرات أو مرات عديدة عند أبواب مكة أو في أماكن أخرى. والله سبحانه هداه إلى أحضان ملءة بالحبة فأرجعه إلى أحضان (عبد المطلب) و (أبي طالب) و (حليمة السعدية) التي كانت امّه في الرضاعة.

وقد بيّنا شرح هذه الآية في المجلد السابع من رسالة القرآن في بحث تنزيه الأنبياء ، وفي التفسير الأمثل في ذيل هذه الآية آراء مختلفة وأفضل التفاسير هو ما ذكر أعلاه. وعلى أيّة حال فإن هذه الآيات تبيّن مراحل طفولة الرسول ﷺ .

ومن أبرز خصائص الرسول ﷺ في هذه المرحلة أنه لم يتعلم القراءة والكتابة عند استاذٍ قط ، ولرّبّما يبدو لأول وهلة أنه نقص ما ، ولكنه من النقاط المهمة والقوية في شخصية الرسول الأكرم ﷺ ، لأنّه عندما جاء القرآن الكريم بعاراته ومعارفه الراقية لم يشك أحد في كون القرآن منزل من الله سبحانه من نتاج فكر إنسان امي .

وقد أكدت سورة العنكبوت هذا المفهوم بقوله تعالى : **﴿وَمَا كُنْتَ تَتَلَوَّ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطْهُ يِمْنِيكَ اذَا لَأْرَاتَ الْمُبْطَلُونَ﴾** (العنكبوت / ٤٨)

لاشك أنّ النبي ﷺ لو درس على يدي استاذ ما في تلك البيئة التي يُعد عدد المتعلمين فيها قليل جدًا لكان من المستحيل عليه أن يأتي بمثل هذا القول الجلي ، وواجهه بعض الأفراد المطلعين على مجريات الأحداث بهذه الحجّة القوية متهمين إياه بالكذب والافتراء.

وحتى لو كان الرسول الأكرم ﷺ يعرف القراءة والكتابة فإنّ من المسلمين أيضًا أنّ هذا القرآن لا يمكن أن يأتي به عقل بشري ، فعدم معرفة الرسول القراءة والكتابة دليل قاطع على هذا المعنى.

وفي آيتين من القرآن الكريم جاء تصریح واضح أيضًا : **﴿الَّذِينَ يَتَبَعُونَ الرَّسُولَ الَّذِي أَمَّى﴾** و **﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي أَمَّى﴾**. (الأعراف / ١٥٧ - ١٥٨)

وفي آية أخرى ضمنت ذلك المعنى بقوله تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَّيِّنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾**. (الجُمُعة / ٢)

ونحن نعرف أن أشهر تفسير لكلمة «أمي» هو من لا يقرأ ولا يكتب وحاله كحال الذي يخرج من بطن أمه لم ير استاذًا ولا مدرسة.

وفسر البعض الكلمة «أمي» بأنّه من قام من بين الامة والنّاس لا من بين الطغاة والجبابرة. وبعضهم يذهب إلى أنّه من ولد في مكة المكرمة لأنّ أحد أسمائها (أم القرى) أو من قام من مكة ، وتخالف الروايات بهذا الصدد ولكن لا مانع في ذلك لو احتملنا أنّ الكلمة «أمي» تتضمن معنى المفاهيم الثلاثة (لا يقرأ ولا يكتب) ، وقام من بين الأمة ، وولد في منطقة مكة.

وقد حاول بعض المستشرقين المخالفين أن يسلبوا هذه الخاصية من الرسول ﷺ حيث زعموا أنه كان رجلاً غير (أمي) ، ولو أنه كان كما يدعون فكيف حفي ذلك على بيته لا يمكن أن يخفى فيها شيء على أحد ، بل إنّما ليس لها القدرة على انكار ذلك.

بداية مرحلة البعثة النبوية :

ما تقدم يمثل لمحات مختصرة من القرآن الكريم حول حياة الرسول الأكرم ﷺ قبل البعثة الشريفة ، والآن جاء دور البحوث المفصلة حول البعثة النبوية.

فقد أشار القرآن الكريم إشارات مختلفة حول بعثة الرسول الأكرم ﷺ ومن جملتها الآيات الخمس التي جاءت في أول سورة العلق ، التي اتفق المفسرون على أنّ نزولها في بداية (١) الوحي وبعثة النبي الأكرم ﷺ حيث قال عز من قائل : ﴿أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْقٍ﴾ ﴿أَقْرَأَ وَرِبُّكَ الْأَكْرَمُ
الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَ
عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾

وكما هو المشهور فإنّ هذه الآيات نزلت على النبي الأكرم ﷺ في غار حراء.

أجل ، إنّ الله سبحانه وتعالى ذو القدرة هو الذي أنزل إليك كتاباً سماوياً عظيماً يحمل بين دفتيه أسمى العلوم والمعارف الجليلة والقوانين والدروس التربوية بوسائل بسيطة كالحروف المجائية ، وأكّد مرة أخرى على ضرورة تعلم القراءة باسم الخالق العظيم ، واضافة إلى مسألة القراءة أشار إلى تعلم الكتابة وإلى أنّ الله سبحانه هو المعلم ، الله معلم البشر الأول الذي ﴿عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾ فكانت طرق التعليم على ثلاثة أقسام : (قسم خلقها على هيئة علوم فطرية في وجودها مع الإنسان في الفطرة ، وقسم آخر يعتمد العقل والتدبر والتفكير في عالم الخلق ، والقسم الثالث عن طريق الأنبياء).

إنّ هذه الآيات القرآنية تدل على أنّ البعثة بدأت في جو مفعّم بالمعنوية ومملوء بنور العلم والمعرفة (٢).

فتقل الوحي من جهة وثقل الرسالة التي أُلقيت على عاتق الرسول ﷺ من جهة أخرى ، والمستقبل المروع في المحاجة المحتومة مع المشركين المعاندين المتعصبين من جهة

(١) أورد بعض المفسرين ومن بينهم القرطبي قوله ضعيفاً هو إنّ أول آية نزلت على الرسول ﷺ هي آيات سورتا الحمد ، أو المدثر ، ولكن وفقاً لما ورد في تفسير روح البيان ، إذا كان هناك خلاف ففي سورة العلق كلها ولا يوجد هناك خلاف على الآيات الخمس الأوائل منها بكونها أول آيات نزلت ، ج ١٠ ، ص ٤٧٠.

(٢) في الآيات ١٦٤ من سورة آل عمران والآية ٢ من سورة الجمعة أيضاً إشارات إلى أصل البعثة ولم تذكر الآيات الأولى التي نزلت.

ثالثة ، كانت سبباً في شعور النبي ﷺ بالتعب الشديد بعد نزول الوحي عليه أول مرة ، فرجع إلى بيته ونام على فراشه وإذا بصوت الوحي يقرع مسامعه للمرة الثانية بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّر﴾ . (المدثر / ٣٠١)

وهناك أقوال كثيرة حول سبب نزول هذه الآية عند المفسرين.

فبعضهم يقول : إنّها تتعلق بزمان تجمع فيه المشركون العرب في موسم الحج ، وتشاوروا بمحاجة الرسول ﷺ .

وقد جاء في روایات متعددة أنّ الآيات الأولى من سورة العلق . على أقل تقدير .

نزلت بعد حادثة غار حراء وبعثة الرسول ﷺ والآيات الباقية لها تتعلق بالسنوات التالية .^(١)

وتشابه هذه الآيات ، الآيات الأولى من سورة المزمل التي أشارت أيضاً إلى أنّ الرسول ﷺ تدثر برداءه ونام في فراشه فنزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَمَّلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نَّصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زُدْ عَلَيْهِ وَرَأَلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا أَنَا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ .

واسلوب هذه الآيات يدلّ على أنّها نزلت في أوائل الدعوة الإسلامية لأنّ إلقاء القول التقليل يشير إلى القرآن المجيد الذي نزل على رسول الله ﷺ في زمان كان عدد المؤمنين فيه قليلاً ، فاضطر ﷺ إلى جمع المؤمنين ليلاً وبعيداً عن أنظار الأعداء ليقرأ عليهم الآيات القرآنية التي كانت تحتوي على المعارف والقوانين الإسلامية .

وطبيعي أنّ قسماً من آيات هذه السورة قد نزلت في السنوات التالية ، بل وهناك احتمال أنّ الآية الطويلة الواقعة في آخر السورة والتي جاء فيها حثّ على الجهاد في سبيل الله سبحانه قد نزلت في المدينة أواخر المرحلة الملكية (لأنّ فيها أخباراً عن المستقبل القريب) . وعلى أية حال فليس هناك سبب يمنع نزول الآيات الأولى من السورة في بداية الدعوة

(١) فسر المفسرون كلمة (المدثر) على خمسة تفاسير ، وردت في التفسير الامثل ، ذيل هذه الآيات وأكثر الجميع ملامة هو أنّ الرسول ﷺ كان مضطرباً فنام في فراشه ونزلت تلكم الآيات .

وبالأشخاص أن كثيراً من المفسرين قد أشاروا إلى ذلك.

ومن المعروف أن دعوة الرسول ﷺ كانت سرية في بداية البعثة ولم يتصل ويدع إلى الإسلام إلا الخواص الذين كان يطمئن باستعدادهم النسبي لتلبية دعوته ، وفي هذه المدة آمنت به عدّة معدودة.

قصة يوم الدار :

وفي السنة الثالثة للبعثة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ أن يعلن الدعوة الإسلامية فنزلت الآية الكريمة : ﴿وَانذِرْ عَشِيرَتَكَ الْاقْرَبِينَ﴾ . (الشعراء / ٢١٤)

وفي الآية : ﴿فَاصْدُعْ بِمَا تُؤْمِنْ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ . (الحجر / ٩٤) فأعلن الرسول ﷺ دعوته مبتدئاً بالأقربين من عشيرته ، وهذه القصة معروفة ، وقد بيناها في القسم السابق.

وفي هذه الأثناء تعرض الرسول ﷺ إلى ضغوط متنوعة ، وتحرك الأعداء ضده من كل حدب وصوب.

والجدير بالذكر أن تحرك الأعداء ضد الرسول ﷺ كان على عدة مراحل واشكال مختلفة (ويظهر أن هذه المراحل كانت موجودة في جميع الدعوات الإلهية).

المرحلة الأولى : كانت مرحلة الاستهزاء وهي أول المراحل في زمان لم ينظر فيه المشركون بشكل جدي إلى الدين الجديد ، ولم يحسوا بخطره الحقيقي ، بل تصوروا أن السخرية والاستهزاء سينهيان الأمر سريعاً ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك ، وقد جاء تعبير عن تلك المرحلة بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُرُوا أَهْدَى الَّذِي يَذْكُرُ آلَهَتُكُمْ وَهُمْ بَذْكُرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (١). (الأنبياء / ٣٦)

ولم تنحصر السخرية والاستهزاء ببني الإسلام ﷺ بل تعرض لها جميع الأنبياء

(١) وجاء مثل هذه المعنى في الآية ٤١ من سورة الفرقان ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُرُوا أَهْدَى الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

السابقين : ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ . (الحجر / ١١)
ولما رأى المشركون أن السخرية والاستهزاء لم تؤثرا شيئاً وأن الإسلام ما زال يواصل
تقدمه دون تلکؤ ، انتقلوا إلى المرحلة الثانية :

لقد تصور المشركون أنهم سيخرجون الرسول ﷺ من ميدان الصراع بإلصاق التهم به
كالجنون او (السحر) ، او (الشعر) ، او أن ما جاء به قد تعلمه على يد هذا او ذاك او أنه
منقول من أساطير الأولين.

فمرة يقولون : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الْذِكْرُ أَنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ . (الحجر / ٦)
وآخر يقول بعضهم لآخر : ﴿إِنَّا لَنَارُكُوا أَهْلَهُنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ . (الصفات / ٣٦)

وأحياناً يقولون : ﴿هَذَا سِحْرٌ وَأَنَا بِهِ كَافِرُونَ﴾ . (الزخرف / ٣٠)
وأضاف القرآن الكريم : إنّه ليس مشرّكوا العرب لوحدهم أصّقوا تلك التّهم بالرسول
عليه السلام فحسب بل إنّ هذه التّهم قد عانى منها كل الأنبياء : على مر التاريخ : ﴿كَذَلِكَ مَا
أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ . (الذاريات / ٥٢)
وفي مكان آخر نقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ تَعْلَمُ اتَّهُمْ يَقُولُونَ انَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ
الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ اعْجَمَىٰ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١). (النحل / ١٠٣)
وأحياناً يقولون : ﴿وَقَالُوا اسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبُهَا فَهِيَ ثُمَّلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَاصِيلًا﴾ .
(الفرقان / ٥)

و «اساطير» : جمع (اسطورة) و معناها القصص الخيالية التي لا صحة لها ، وبهذا
الاسلوب أصّقوا أنواع التّهم وكل ما يختتم في أذهانهم بالرسول ﷺ ولكن لم يؤثّر أيّ منها
، وأخذ الإسلام يشق طريقه بسرعة بين الطبقات المختلفة .

المرحلة الثالثة : بدأت المرحلة الثالثة بضغوط مختلفة : اجتماعية وسياسية ولأنّهم
أدركوا مدى خطورة الإسلام عليهم سعوا إلى القضاء على الرسول ﷺ والجّموعة القليلة
التي آمنت به من هذا الطريق .

(١) جاء في التفاسير أن رجلاً يدعى (بلعام) كان في مكة وأصله عبد رومي لبني حضرم وكان المشركون يقولون :
إنّ مهداً عليه السلام تعلم القرآن منه ، وقال بعضهم : إنّ كلامه إنما نقله من عبدين نصريين أحدهما يسار والآخر
جبر أو ذكرى اسم سلمان الفارسي ، ولم تكن لغة أيّ منهم العربية بينما يعد القرآن معجزة في الفصاحة والبلاغة .

وقصة (شعب أبي طالب) معروفة إذ تم فيها محاصرة المسلمين في ذلك الوادي المفتر
لمدة ثلاث سنوات خلال السنة السادسة للبعثة حيث انتهت بموت اطفالهم وحتى بعض
كبار السن.

وكذلك قصبة الهجرة إلى الحبشة خلال السنة الخامسة للبعثة معروفة أيضاً على أثر
تعرُّض المسلمين لضغوط شديدة وتعذيب المشركين لهم.

والعجب أنه لم يتعرض المسلمين وحدهم لهذه الضغوط فحسب ، بل جاء في
التاريخ أنهم عقدوا معاهدة على مقاطعة كل بني هاشم وبني عبد المطلب سواء من أسلم
منهم أم لم يسلم فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ، وأن لا يشتروا منهم ولا يبيعوهم شيئاً
حتى يزداد الضغط على المسلمين.

مع العلم أننا لا نرى في الآيات القرآنية إشارات واضحة حول هذه المسألة ولكن مما
كان يتواصى به المشركون والكفار والمنافقون مع بعضهم في المدينة نستطيع أن نعرف وضع
مكة : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنَفِّقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ . (المنافقون / ٧)
إن هذه الضغوط لم تجدي نفعاً أيضاً ، بل ازداد تعاطف الناس شيئاً فشيئاً مع المسلمين
وصار الإسلام أنسودة على كل لسان ، حيث إن المسلمين اكتسبوا مظلومية تأثرت بما
عواطف مجتمع عظيم فانجذبوا إليهم.

وأخذت مواجهات الأعداء شكلاً أكثر حدة في :

المرحلة الرابعة : وفيها صمموا على قتل الرسول ﷺ وإراقة دمه ليتخلصوا منه إلى
الأبد أو أن يبعدوه عن مكة على أقل تقدير ، ففي (دار الندوة) محل اجتماعهم ومركز
مشاوراتهم ، اجتمعوا ووضعوا خطة شيطانية دقيقة للوصول إلى أهدافهم تلك كما يقول
القرآن : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُشْتُوَكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاْكِرِينَ﴾ . (الانفال / ٣٠)

وكما نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أبطل كل خططهم الشيطانية ونجا الرسول

الكريم ﷺ من سيف الأعداء حيث هاجر إلى المدينة تلك المحرقة الكبيرة التي تركت آثاراً عظيمة وتحولأً كبيراً في تاريخ الإسلام وفي العالم أجمع.

ومرة أخرى نتأمل في القرآن حيث يُحدّثنا بقوله تعالى : ﴿اَلَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ اَذْ اخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ اذْ هُمَا فِي الْغَارِ اذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ اَنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَانْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرُوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (التوبه / ٤٠)

وبهذا الترتيب تخلص الرسول ﷺ من الأخطار المختلفة المحيطة به بلطفي من الله سبحانه وبدأ هجرته المباركة بجدوء وسكينة ودخل الإسلام عندها مرحلة جديدة في حياته ، وباء الأعداء بالفشل الذريع في هذه المرحلة أيضاً.

انتشر الإسلام في المدينة بسرعة فائقة وكثُر اتباع الدين الإسلامي فشكل الرسول ﷺ الحكومة الإسلامية وصار للمسلمين جيش منظم وبيت للمال وكل ما تحتاجه الدولة آنذاك.

وفي مقابل توسيع الإسلام وتشييٍت أركانه احس الأعداء بخطر أكثر حدية فوسعوا مجاهمتهم ودخلوا :

المرحلة الخامسة : وهي المواجهة المسلحة مع الإسلام ، وبذلت الغزوات الإسلامية كغزوة (بدر الكبرى) و (الصغرى) و (أحد) و (خيبر) و (حنين) و واحدة تلو الأخرى وفي كل مرة . إلّا في مورد واحد . كان المسلمون يشهدون انتصارات ملفتة للنظر وكانوا في تقدم مستمر.

وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات إلى هذه المرحلة من حياة الرسول ﷺ حيث تعد من أكثر المتركتات المهمة في هذا المقطع من تاريخ الإسلام.

في الآية التالية إشارة اجمالية إلى هذه الغزوات بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرْتُكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾. (التوبه / ٢٥)

فكلمة (موطن) جمع (موطن) وتأتي أحياناً بمعنى وطن ومحل الإقامة الدائمة

وأحياناً بمعنى ساحة القتال ومن هنا جاءت «مواطن كثيرة» أي الساحات المتعددة للحروب الإسلامية حيث بلغ عدد هذه الغزوات ثمانين غزوة ، لذا نقرأ في الحديث أنه : عندما نذر أحد خلفاء بني العباس أنه إذا عافاه الله سبحانه فإنه يعطي مالاً كثيراً للفقهاء ولما تمثل للشفاء اجتمع الفقهاء حوله عاجزين عن تعين مقدار (المال الكبير) إلا أنَّ الإمام التاسع (محمد بن علي التقى عليهما السلام فسره) بـ (ثمانين) (رغمما تكون ثمانين ألف درهم) لأن الآية السالفة الذكر قد اطلقت مواطن كثيرة على الغزوات الإسلامية البالغة ثمانين غزوة^(١) .

ثم جاء الفتح المبين و (فتح مكة) وحكم الإسلام شبه الجزيرة العربية بأجمعها وحطط المسلمين آخر معقل للأعداء.

ولكن العدو المهزوم لم يستسلم فقد اضطر إلى تشكيل جمعية سرية (وهم المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام وفي الخفاء كانوا منهمكين بأنواع المؤامرات ضد الدين الإسلامي).

وبهذا الأسلوب دخلوا :

المرحلة السادسة : (مرحلة نهاية الحرب مع الأعداء) ، وبالطبع أن ظهور المنافقين بدأ مع أول انتصار للإسلام وتوسيع في مقابله وما زال مستمراً إلى الآن.

وفي هذه المرحلة فقد باهروا بالفشل الذريع أيضاً حيث كلما أرادوا التآمر على الإسلام كشفهم الله سبحانه وأبطل حيلهم ولم يبق منها سوى نارٍ خامدة تحت الرماد لم يظهر اشتعالها ثانيةً إلا بعد رحلة الرسول الكريم عليهما السلام .

نزلت آيات قرآنية كثيرة حول هذه المرحلة أيضاً تعدد من مقاطع القرآن المهمة في أسلاء العبر والدروس ، ففي سورة (الأحزاب) ، و (النوبة) ، و (المنافقون) بحوث حية ومحمية تحكي لنا عن عمق المؤامرات التي قام بها المنافقون ومن جملتها الآية الكريمة في قوله تعالى حيث ذكرت بحوثاً كثيرة حول هذه الجماعة وخالفتهم وفتنتهم وتجسسهم ،

(١) تفسير نور الثقلين ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

قال تعالى : ﴿لَقَدِ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ . (التوبة / ٤٨)

إنّ هذه المراحل الست السالفة الذكر لم تكن في مقابل الشورة الإسلامية للرسول الكريم وحده ﷺ فحسب بل في مقابل كل الشورات الإلهية وهي بدورها موضوع لقصة مفصلة نتعلم منها الكثير.

ولكن لم يفلح الأعداء بكل مساعيهم للاطاحة بالإسلام وظلت شجرته زاهيةً مثمرةً حيث غطّت باغصانها واوراقها كل أصقاع شبه الجزيرة العربية كما دلت الآية الكريمة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرٌ اللَّهُ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَذْلِكُونَ فِي دِينِ اللَّهِ افْوَاجًا﴾ . (النصر / ٢٠١)

الأشهر الأخيرة من حياة الرسول ﷺ :

إنّ السنة الأخيرة من حياة الرسول الأكرم ﷺ هي السنة التي كانت فيها (حجّة الوداع) ونزلت بها آخر سورة من سور القرآن يعني سورة (المائدة) ، ومع نزول آخر رسالة للوحي على الرسول ﷺ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ﷺ أن يعين أمير المؤمنين علياً معاشر وصيّاً له وخليفة من بعده كما في قوله تعالى : ﴿بِيَاتِهَا الرَّسُولُ بَلَّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رِّبَّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ . (المائدة / ٦٧)

وفي (غدير خم) ذلك المعبر الكبير الذي كان مفترق طرق للمجاميع التي جاءت مع الرسول الأكرم ﷺ في (حجّة الوداع) وأمام الجموع الكبير أذى الرسول الأكرم ﷺ حق الرسالة بإظهار هذا الأمر ^(١) .

وحلت الحادثة الكبيرة المؤلمة وهي رحيل الرسول الأكرم ﷺ من الدنيا في وقت كان الإسلام ثابت الأركان من جميع النواحي . وله أرضية مهيئة لانتشار في جميع أنحاء العالم . ولذا فقد كانت توقعات الأعداء هي ذهاب الإسلام مع رحلة الرسول ﷺ ولكن خابت

(١) ويعکن مراجعة تفصيل ذلك في التفسير الأمثل ، ذيل الآية مورد البحث .

ظنوهم وذهبت أدراج الرياح : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مُّتَ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾. (الأنبياء / ٣٤)

وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَأَنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾. (الزمر / ٣٠)

وقال : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ﴾. (الأنبياء / ٣٥)

إنّ هذا القانون شامل وعام لعالم الخلقة أجمع : ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطَلُونَ﴾. (الغافر / ٧٨) وتحقق وعد الله كما ورد في الآية : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْتِيَ اللَّهُ أَلَّا أَنْ يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ﴾. (التوبه / ٣٢)

وهكذا فإنّ هذا النور الإلهي يتائق يوماً بعد يوم ، وهو الآن يُثير افقاراً واسعاً من آفاق البشرية ، وفي كل سنة تتنور آفاق اخرى بنور الإسلام ليزيل الظلم والظلم عن العالم أجمع. كان هذا شرحاً مختصراً عن المراحل المختلفة لحياة الرسول ﷺ في القرآن المجيد ،

وشرح كل مرحلة منها يحتاج إلى كتاب خاص ومتصل .

* * *

الأدلة التي تثبت

صدق دعوة رسول الإسلام

الطريق الأول : اعجاز القرآن

الطريق الثاني : جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

الطريق الثالث : البشارات والإشارات

الطريق الأول : اعجاز القرآن

تمهيد :

بدون شك أنّ ادعاء أيّ مدعٍ حول أيّ قضية لا يمكن قبوله إلا بالدليل المقنع ، فكيف إذا كانت القضية غاية في الأهمية مثل نبوة الأنبياء والادعاء بنزول الوحي والارتباط بالله سبحانه ودعوة الناس إلى اتباعهم؟!.

وعلى هذا فإنّ أول المسائل التي نواجهها هي مسألة الأدلة على نبوة الرسول الأكرم

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وإنَّ هذه الدلائل التي نعلم إجمالاً بتفرعها تقع تحت أربعة عناوين وهي :

١. المعجزات.

٢. مضمون الدعوة.

٣. أخبار الأنبياء الماضين والكتب السماوية السابقة.

٤ . القرائن المختلفة : من دراسة سوابق حياته واقرائه وأصحابه والوسائل المتخذة للوصول إلى المدف ، ومقدار تأثيره في المجتمع ، ومقدار اعتقاده وايشاره في سبيل هدفه ، والأخلاق والصفات الأخرى التي تشكل أرضية لمعرفة صدق ادعائه.

بعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى معجزات النبي ﷺ فنقوم ببحث ودراسة للقرآن الذي يعتبر أول وأفضل وأخلد معجزة للنبي ﷺ وقبل كل شيء نقرأ منطق القرآن في وصف نفسه :

١ . ﴿قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ

ولو

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ . (الاسراء / ٨٨)

٢ . ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفَتَّرَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . (هود / ١٣)

٣ . ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مَّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَائِكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَتَقْوِيَّوْنَا النَّارَ الَّتِي وَقُوَّدَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ . (البقرة / ٢٣ - ٢٤)

٤ . ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . (يونس / ٣٨)

٥ . ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَوَلَّهُ بَنْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ أَنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ . (الطور / ٣٣ - ٣٤)

٦ . ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَبْعَهُ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَحِيُّوْنَا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَسْعَيُونَ اهْوَاءَهُمْ وَمَنْ اصْلَى مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنْ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهِدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾ . (القصص / ٤٩ - ٥٠)

٧ . ﴿وَقَالُوا لَوْلَا انْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ أَنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ . اوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَلَى عَلَيْهِمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَرْحَمَةً وَذُكْرِي لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ . (العنكبوت / ٥٠ - ٥١)

جمع الآيات وتفسيرها

في جميع الآيات السبع المذكورة رَكَزَ القرآن الكريم على مسألة التحدي (الدعوة إلى المعارضة) التي هي من اركان الاعجاز ، فتارة يقول بصرامة . وتارة اخرى بالدلالة الالتزامية .

انَّ هَذَا الْكِتَابُ السَّمَاوِيُّ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِذَا كُنْتُمْ فِي شُكٍ وَرِيبٍ مَّا نَزَّلْنَا فَاجْمِعُوا كُلَّ قَوْكَمْ مِنْ أَجْلِ الْإِتِيَانِ بِمُثْلِهِ أَوْ بِسُورَةٍ مِّنْهُ ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مِنْ نَتْاجٍ فَكُرُّ الْبَشَرِ فَأَنْتُمْ بَشَرٌ أَيْضًا

ولديكم فكر وذكاء ، وفي الواقع أن القرآن وبواسطة هذا المنطق العقلي الواضح أثبت اعجازه بصورة إجمالية.

إن الآية الأولى تقف بوجه المعاندين قائلة : **﴿فَلَمْ يَنْجُمْ لِنَاسٍ وَالْجِنْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضِلُ ظَهِيرًا﴾**

فهذه الآية تدعو من جهة أفراد البشر كافة دعوة عامة ، ومن جهة أخرى فهي تدعو جميع أفراد البشر في عصرنا والعصور الآتية نظراً إلى خلود دعوة القرآن ، ومن جهة ثالثة ، وبملاحظة الكلمة «اجتمعت» ، وجملة «بعضهم لبعضٍ ظهيرًا» تبين أنّها دعوة للمشركين كافة للتعاون فيما بينهم وشحذ المهم ، وتوحيد أفكارهم في مجرى واحد من أجل المقابلة بالمثل ، ومن جهة رابعة ، فإنّ إثارة الخصم والتحرش به من أجل تأجيج غيرته قد اتخذ أقوى أشكال التحدي ، وحينما خاطبهم بكلام قاطع : «لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ» ، فهو دليل قوي على ارتباطه الوثيق بعالم ما وراء الطبيعة.

إنّ هذا التحدي وهذا النداء كان موجهاً إلى أبناء البشر جائعاً في كل زمان ومكان ، لأنّ دوافع أعداء الإسلام للقضاء عليه في عصر النبوة وفي كل عصر وزمان قائمة وقوية ، ومن المسلمين أنّه لو كانت لديهم قدرة على ذلك لما تماهلو عن ذلك ، وتاريخ الإسلام وتاريخ كل العالم لم يذكر لنا بأنّ شخصاً أو جماعة قد أقدمت على هذا العمل ، وهذا دليل على عجزهم وعدم قدرتهم ، وفي النتيجة فهو دليل على عظمة واعجاز القرآن الكريم.

ويستفاد من هذه الآية أنّ الاجتماع وحده لا يؤثر في حل المشكلات ما لم يكن بعضهم ظهيرًا لبعض لحماية ومساعدة بعضهم للبعض الآخر وإسداء النصيحة لبعضهم الآخر.

كما نلقت الانظار إلى أنّ القرآن لا يكتفي في التحدي بالبلاغة وجمال البيان فقط ، بل الشبه من جميع الجوانب الشاملة للمحتوى والمعارف والأحكام وكل شيء ، وهذا ما تؤكد عليه الكلمة (مثله) الواردة في الآية.

في الآية الثانية يقلص القرآن تحديه عن الاتيان بمثله ، ويطلب من الخصم أن يأتي عشر سور وهو أقل من عشر كل القرآن قائلاً : **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأُتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مُّثِلَّهٍ مُفَتَّرِيَاتٍ﴾** ولم يكتف بهذا بل صرخ : **﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

* * *

وفي الآية الثالثة نرى أن التحدي القرآني يصل إلى أقل من ١٪ قائلاً : **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ مِمَّا نَزَّلَنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأُتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثِلِهِ﴾** ثم أضاف : **﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

فمن الواضح أن المراد من : **﴿شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾** أنصارهم وكل من اعتقد اعتقادهم لأنهم هم الذين شهدوا لصالحهم في رد وتكذيب رسالة النبي عليه السلام . ومن الطبيعي أن يتعاونوا فيما بينهم ليأتوا بسورة واحدة ماثلة لسورة من القرآن وإلا لو كان المراد من **﴿شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾** الإتيان بسورة تماثل سورة من القرآن لكان من المفروض مطالبة الله بالشهادة قبل أي شخص آخر ، ولذا فإن أول تفسير لآية نقله المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عن ابن عباس هو : المراد منها الأعون والأنصار ، وأضاف : إنه يطلق على الأعون والأنصار : شهداء ، لحضورهم وشهادتهم حين التعاون . وقدر رجح الفخر الرازي في تفسيره بعد ذكر معنيين للفظ الشهداء (أي : الأصنام ، والأعون ، والأنصار) المعنى الثاني ^(١) . وارتضى بعض المفسرين هذا المعنى أيضاً.

والسورة : تمثل جزءاً من آيات القرآن ، تبدأ بـ «بِسْمِ اللَّهِ ...». وتحتم قبل مجيء «بِسْمِ اللَّهِ» جديدة في السورة التي تليها ، ماعدا سورة واحدة وهي سورة التوبية أو سورة براءة.

وقيل : إن كلمة سورة مأخوذة من «سُور» وهو الجدار المحيط بالمدن ، فكأنما أعتبر

(١) تفسير الكبير ، ج ٢ ، ص ١١٩.

القرآن بمجموع آياته ، دولة عظيمة واسعة ، والسور القرآنية مدن هذه الدولة العظيمة. وبناءً على هذا الدليل نعتقد بوجود ترابط واتصال بين آيات السورة الواحدة ، وإن لم يكن واضحًا في الظاهر أحياناً وهذا الارتباط نظير وجود نوع من الانسجام والارتباط بين البيوت والعمارات والشوارع لكل مدينة مع أنّ فيها المساجد والمدارس والأسواق والمناطق المأهولة بالسكان ، كلّ كيان في موضعه المناسب.

ويستفاد من هذا المعنى أنّ السور كانت في وقت نزول القرآن على هذه الهيئة العالية بخلاف تصوّر بعض الجهال وإن كان بعض من الآيات النازلة أحياناً يُتخذ له مكان معين في سورة خاصة بأمر من النبي ﷺ .

وجملة : «من مثله» تتضمن معنى شيء يكون على شاكلة القرآن في كلّ أوصافه التي تشمل (الفصاحة) و (بلغة الألفاظ) مع المحتويات والمعرف القيمة ^(١).

والشاهد على هذا الكلام ما ورد في قوله تعالى : ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلَهِ﴾ . (يونس / ٣٨) ونقرأ في قوله تعالى : ﴿فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلَهِ﴾ . (الطور / ٣٤)

وعلى هذا الأساس يستبعد كثيراً احتمال عودة ضمير (مثله) إلى النبي ﷺ بأن يكون معناها : إذا كنتم مرتابين في أصل هذه الآيات السماوية فأعشروا على رجل مثل محمد ﷺ لم يكن قد درس على الاطلاق وأتوا بآيات تناظر الآيات التي أتى بها. إنّ هذا المعنى بعيدٌ وإن ذكره جماعة من المفسرين إما على وجه الاحتمال أو على وجه القبول.

ويحتمل أيضاً اجتماع التعبيرين في هذا المعنى ، ويصير مفهومه بهذا الشكل : آتوا بسورة مثل سور القرآن من شخص لا يعرف القراءة والكتابة ، كالنبي ﷺ .

والحاديذ الذي ورد في «تفسير البرهان» جمع هذين المعنين في عبارة واحدة ^(٢).

وعلى كلّ حال يقول عز من قائل في تعقيب هذه الآية : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعَدَّتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ .

(١) وبناء على ذلك فإنّ (من) إما زائدة أو بيانية.

(٢) تفسير البرهان ، ج ١ ، ص ٦٧ . ح ١

وتضمنت الآية الرابعة أيضاً التحدي بالاتيان بسورة تشابه سور القرآن فيقول عزّوجلّ : **﴿إِنَّمَا يَقُولُونَ افْرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلَهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**. إن لفظة «سورة» تشمل السور الطوال والقصار في القرآن ، والتعبير (بمثله) إشارة إلى مماثلته من جميع الجهات ، وجملة : **﴿وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾** شاملة لكل ما سوى الله تعالى.

فعلى هذا الأساس إذا كان القرآن نتاج فكر بشري ، فإنّ إنساناً آخر يستطيع أن يأتي بمثله فضلاً عن أن يستعين أيضاً بأشخاص لا يحصون ، وبالأخص مع كثرة وجود الفصحاء والبلغاء في أوساط العرب الجاهليين سابقاً.

ويستفاد ضمنياً من هذه الآية والآيات السابقة أنّ أفضل طريق للوصول إلى الأهداف المهمّة هو الاستفادة من الأطروحات المشتركة ، وقد ذكر القرآن ذلك في الوقت الذي لم تكن مسألة الاجتماعات والمؤتمرات للوصول إلى حقائق المسائل المهمّة مطروحة على صعيد الواقع وحتى مساعي وجهود العلماء كانت تتحذّص بصفة فردية وشخصية.

* * *

في الآية الخامسة ذكر هذا المعنى نفسه في قالب آخر ، يقول عز من قائل : **﴿إِنَّمَا يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾**.

و «**تَقَوَّلَ**» : مأخوذه من لفظة (تَقُول) بحسب ماورد عن المرحوم «الطبرسي» في مجمع البيان : هو بمعنى الكلام الذي يختلف ويفتعل بتكلف ومشقة ، ويستعمل عادةً في الكذب والزور ، لأنّه ليس من الواقع في شيء ولا يخلو من تكلف ^(١). ويمكن الإشارة «بhadith مثله» إلى تمام القرآن أو بعض سور أو سورة واحدة ، أو حتى أقل من ذلك لاطلاق كلمة (الحادي) على كل منها.

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٩ ، ص ١٦٨.

يقول الراغب في المفردات : كل كلام ينقل إلى الإنسان عن طريق السمع المباشر ، أو الوحي ، في اليقظة ، أو في المنام ، فهو يسمى بال الحديث .

* * *

الآية السادسة من سورة القصص تطرقت إلى الحديث عن الإتيان بكتاب يشابه هذا الكتاب (القرآن) ، يقول عز من قائل : ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَيْعُهُ أَنْ كُتِّبْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

ثم من أجل تعرية وفضح أسايرهم الملوثة ، وبيان الاعجاز القرآني يعقب الله تعالى بقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّعِنُونَ اهْوَاءَهُمْ ﴾ .

أي : إذا عجز هؤلاء عن الإتيان بمثله فهو دليل على أنَّ هذا الكتاب ليس ولد فكر البشر. وإنَّما ليس هناك مبرر لعجز الفصحاء والبلغاء الذين يعيشون بين ظهرانيهم مع كل جهودهم ومساعيهم التي بذلوها .

ولفظة (كتاب) تعني كل شيء (مكتوب) و (مدون) .

وبناءً على هذا فهو شامل لتمام القرآن ولأجزاءه المختلفة أيضاً ، خصوصاً إذا نظرنا إلى أنَّ هذه الآية جاءت في سورة القصص ، وقد نزلت في مكة ، ومن المعلوم أنَّ القرآن لم ينزل بتمامه في ذلك الزمان ، فيتضح أنَّه إضافة إلى كونه معجزة بأجمعه فإنَّ أجزاءه المختلفة معجزة أيضاً .

* * *

وفي الآية السابعة والأخيرة من البحث جاء الردُّ على المحتجين فيقول تعالى على لسانهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ ، فيرد عليهم بقوله : ﴿ قُلْ أَنَّمَا الْآيَاتِ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ثم يعقب على ذلك بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكُفِّهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَّلَى عَلَيْهِمْ ﴾ .

يعني لماذا يتطلب هؤلاء معجزات أخرى على الرغم من وجود هذه المعجزة الإلهية العظيمة؟

فعلى هذا الأساس يُعلن بصراحة عن اعتقاد القرآن ويتحدى المناوئين بالدلالة الالتزامية ويدعوهم إلى المنازلة.

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان : إنّ في إِنْزَالِ الْقُرْآنِ دَلَالَةً وَاضْحَىًّا وَمَعْجَزَةً لَائِحةً وَحْجَةً بِالْغَةِ تَنْزَاحٌ مَعَهُ الْعَلَةُ وَتَقْوِيمُ بِهِ الْحَجَةُ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى الْوَصْلِ إِلَى الْعُلَمَاءِ بِصَحَّةِ نَبُوَّتِهِ إِلَى غَيْرِهِ. عَلَى أَنَّ إِظْهَارَ الْمَعْجَزَاتِ مَعَ كَوْنِهَا إِزَاحَةً لِلْعَلَةِ تَرَاعِي فِيهِ الْمَصْلَحَةُ فَإِذَا كَانَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي إِظْهَارِ نَوْعِهِنَا لَمْ يَجُزْ إِظْهَارُ غَيْرِهَا^(١).

وتبيّن أهميّة هذا البحث من خلال التوجّه إلى النكتتين اللتين وردتا في (تفسير القرطبي) و (ظلال القرآن) :

إحداها : إنّ خوارق العادات الجسمية تتوافق غالباً مع الأفراد المبتلين بالمسائل الحسية ، وتناسب مع بداية التفكير البشري ، أمّا مثل هذه المعجزة الروحية التي تنطوي على جنّبة معنوية فهي تنسجم مع الحقبة المفتوحة للفكر البشري.

والآخر : اضافة إلى مخالفته خوارق عادات الأنبياء (نظير معجزة موسى وعيسى عليهما السلام) التي أقيمت عليها مسوح السحر تشكّل هذا الإعجاز (الذى هو من جنس الكلام) من ألفاظ يقوى عليها جميع الأفراد من أصحاب تلك اللغة^(٢).

* * *

تحصّل من ذلك أنّ القرآن الكريم أشار في سبع آيات من السور المختلفة على الأقل إلى أنه معجزة إلهية كبرى ، وقام بتحدي المنكرين له بطرق مختلفة.

ومن المعلوم أنّ أيّ شخص قام بعمل خارق للعادة ودعا جميع الناس إلى معارضته

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢٨٩.

(٢) تفسير في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٤٢٢ ؛ وتفسير القرطبي ، ج ٧ ، ص ٥٧١.

ومنازلته وعجزوا عن القيام به فذلك دليل على إعجاز عمله.

وبعبارة أخرى احتاج القرآن عليهم في هذه العبارات بكلام فريد من نوعه بقوله : إذا كنتم تعتقدون بأنّ هذه الآيات هي من صنع عقل البشر فأنتم أيضاً بشر ، ولكم عقول وأفكار ولا يندر وجود البلوغ والمتكلمين والفصحاء في أوساطكم ، فإذا كنتم صادقين في هذا الادعاء فأتوا بآيات مثل هذه الآيات. فيدعوهم إلى المشاركة في هذه المنازلة من خلال عباراته المتنوعة والمشيرة.

من جهة أخرى لو كان بإمكان أولئك الانتصار في مثل هذه المنازلة ، لخشداوا كلّ قواهم لأنّ الانهزام في هذه المواجهة يساوي التضحية بكل شيء عندهم.

لقد كان القرآن في مواجهة حادة مع اسس ثقافتهم المتمثلة في عبادة الأوثان والمتغلبة في مختلف شؤون حياتهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أنزل شيوخهم ووجهاءهم وأثرياءهم المغوروين من اوج جنوحهم وقدرهم إلى منتهى الحضيض ، وسلب منهم امتيازاتهم المصطنعة والموهومة كافة.

وبغض النظر عن الشواهد التاريخية التي سوف نشير إليها لاحقاً فإن العوامل المحركة لل مقابلة بالمثل كانت كثيرة جداً وإذا كان باستطاعتهم حقاً أن يجردوا النبي محمد^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} من السلاح بهذا الاسلوب ، لما دعت الحاجة إلى كل هذه الحروب الدموية ، والمجابحات الساخنة وحيث إننا نراهم قد توسلوا بكل شيء سوى محاولة الإتيان بمثل آيات القرآن ، فهذا بنفسه أكبر دليل على انهزامهم في هذه المنازلة.

* * *

توضيحات

أ) تأثير القرآن وجاذبيته المنقطعة النظير

هناك قصص وواقع موثقة وعجيبة يذكرها لنا التاريخ تروي من جهة عمق التأثير الذي يتركه القرآن الكريم على قلوب المخاطبين ، وحتى على أولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام

ولا بالقرآن ، ومن جهة أخرى تمثل هذه القصص دليلاً دامغاً على عجز المناوئين عن الجواب عن تحدي القرآن لهم.

إن دراسة هذه الحوادث توفر للإنسان فرصة التعرف على دروس وعبر يمكن الاستفادة منها في حياته وتبيين عظمة وإعجاز هذا الكتاب السماوي وما ورد فيه ، وهذه نماذج من هذه القصص :

١ . قصة الوليد بن المغيرة المخزومي

تحدث آيات سورة المدثر بشكل واضح عن الشخص الذي خطر في ذهنه أن يتحدى القرآن وقد آل أمره إلى مصير أسود حيث نطالع معًا هذه الواقعة التي حدثت وكانت سبباً لنزول هذه الآيات التي نقلها جم غفير من المفسرين كالطبرسي ، والقرطبي ، والمراغي ، والفارخر الرازي وغيرهم. وهي كما يأتي :

يروى أن النبي ﷺ لما نزلت عليه الآية الكريمة : ﴿ حِمْ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني خزوم فقال : « والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وإن له حلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعدق وإنه يعلو وما يعلى عليه » ، قال ذلك ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبا والله الوليد ، والله لتصبان قريش كلهم ، وكان يقال للوليد ريحانة قريش : فقال لهم أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً ، فقال الوليد : مالي أراك حزيناً يا ابن أخي ، قال : هذه قريش يعيونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد. فقام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال : أترزعمون أنَّ محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط؟ فقالوا : اللهم لا ، قال : أترزعمون أنه كاهن فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك؟ قالوا : اللهم لا ، قال : أترزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه أنه ينطق بشعر قط؟ قالوا : اللهم لا ، قال : أترزعمون أنه كذاب فهل جربتم

عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا : اللهم لا ، وكان يسمى الصادق الأمين قبل النبوة من صدقه ، فقالت قريش للوليد : فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال : ما هو إلا ساحر ، ما رأيناه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر وما ي قوله سحر يؤثر^(١).

٢ . استماع زعماء قريش إلى القرآن

نقرأ في سيرة ابن هشام : أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والاخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله عليه وآله وسنه وهو يصلّي ويتلّو القرآن في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع منه وكل لا يعلم صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رأكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نربح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا^(٢).

نعم لقد كانت حاذية القرآن شديدة إلى درجة بحيث خضع لها حتى ألد الأعداء ، فلو أزيلت عنهم حجب العصبية والنعاد والتعلق بالمصالح الشخصية لآمنوا بالله بصورة قطعية.

٣ . قصة ابن أبي العوجاء ورفاقه

ينقل المرحوم الطبرسي في الاحتجاج عن هشام بن الحكم العالم المعروف وأحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام يقول :

(١) ونقل الحديث مفسرون عديدون . بتفاوت . كالفارخر الرازي ؛ والمراغي ؛ والقرطبي ؛ والطباطبائي في الميزان ؛ وسيد قطب في الظلال.

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

اجتمع كل من (ابن أبي العوجاء) ، و (أبي شاكر الديصاني) ، و (عبد الملك البصري) ، و (ابن المفعع) وقد كانوا جميعاً من الملحدين الذين لا إيمان لهم ، اجتمعوا إلى جوار الكعبة واحتذوا يسخرون من أعمال الحجاج ويوجهون الطعن إلى القرآن.

قال ابن أبي العوجاء : **هَلْمُوا جَمِيعاً لِيُنْقِضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ قُرْآنٍ وَنَأْتِي بِشَيْءٍ مِثْلِهِ** ، وسيكون موعد لقائنا في السنة الآتية في هذا المكان ، عندما ننقض القرآن بأكمله ، لأن نقض القرآن هو السبب المؤدي إلى إبطال نبوة محمد ﷺ وإبطال نبوته هو إبطال للإسلام وإثبات لأحقية ادعائنا ، فاتفقوا وتفرقوا على ذلك.

وفي السنة المقبلة ، وفي اليوم نفسه اجتمعوا إلى جوار الكعبة وأخذ ابن أبي العوجاء يحدّثهم ويقول : منذ اليوم الذي تركتكم وابتعدت عنكم ، كنت افكر في هذه الآية : **فَلَمَّا اسْتَيَّأْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَحِيَا** . (يوسف / ٨٠)

فوجدتها على جانب كبير من الفصاحة والغزارة المعنية بحيث إنني لم أتمكن من أن أضيف شيئاً إليها ، إضافة إلى أن هذه الآية شغلت ذهني عن التفكير بغيرها.

وأما عبد الملك فقال : وأنا كذلك كنت افكر في هذه الآية حينما افترقت عنكم : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الدُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَقْدُوهُ مِنْهُ ضَغْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ** . (الحج /

(٧٣)

وقد وجدت نفسي عاجزاً عن الإتيان بمثلها.

وقال أبو شاكر : منذ ذلك الوقت الذي ابتعدت عنكم كنت افكر في هذه الآية :

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . (الأنبياء / ٢٢)

ولم أجد نفسي قادراً على الإتيان بمثلها.

وأضاف ابن المفعع فقال : «ياقوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر لأنني منذ تلك اللحظة التي افترقت فيها عنكم كنت أتأمل في هذه الآية : **وَقَيْلَ يَا أَرْضُ الْبَلْعَى مَأْكِ وَبَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي وَقَيْلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ». (هود / ٤٤)

ورأيت نفسي عاجزاً عن الإتيان بمثلها.

يقول هشام بن الحكم : في هذه الأثناء مر بالقرب منهم جعفر بن محمد الصادق عَلَيْهِ الْكَفَافُ وتلا هذه الآية : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأَنْسُ وَالْجَنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَئِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ . (الاسراء / ٨٨)

عندئذٍ أخذ ينظر كل واحد منهم إلى الآخر ويقول : إذا كان للإسلام حقيقة قائمة بذاتها ، ولم يكن يمثل محمد عَلَيْهِ الْكَفَافُ سوى جعفر بن محمد عَلَيْهِ الْكَفَافُ فتالله لا يقع نظرنا عليه في وقت من الأوقات إلا وستحوز علينا أبجته ، وتقشعر أبداننا من هيبته ، قالوا هذا الكلام وتفرقوا معترفين بعجزهم.

٤ . قصة عثمان بن مظعون

وهو أحد صحابة نبي الإسلام عَلَيْهِ الْكَفَافُ المعروفين ، قال عثمان بن مظعون : كنت أسلمت استحياءً من رسول الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ لكثرة ما كان يعرض على الإسلام وما يقر الإسلام في قلبي فكنت ذات يوم عنده حال تأمله ، فشخص بصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئاً فلما سري عنه ، سأله عن حاله ، فقال : نعم بينما أنا أحدهك إذ رأيت جبرائيل في الهواء فأتاني بهذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِنَّ اللَّهَ يَنْهَا عَلَيَّ إِلَىٰ آخِرِهَا فَقَرِيرُ الْإِسْلَامِ فِي قَلْبِي وَأَتَيْتُ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ فَأَخْبَرْتَهُ فَقَالَ : يَا أَلَّا قَرِيبُهُمْ اتَّبَعُوا مُحَمَّداً عَلَيْهِ الْكَفَافُ تَرْشِدُهُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُكُمْ إِلَّا بِمَكَارِمِ الْأَحْلَاقِ . وَأَتَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغَيْرَةَ وَقَرَأْتُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ فَقَالَ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدًا قَالَهُ فَنِعْمًا قَالَ وَإِنْ قَالَ رَبِّهِ فَنِعْمًا قَالَ (١).

٥ . قصة اسعد بن زراة

وردت هذه القصة في كتاب (أعلام الورى) و (بحار الأنوار) وقد تحدثت عن الجاذبية والتأثير الهائل لآيات القرآن في نفوس المخاطبين.

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٥ و ٦ ، ص ٣٨١ ، ذيل الآية ٩٠ من سورة النحل.

واستناداً إلى (بحار الأنوار) نقل الحكاية بصورة موجزة وكمالي:

«قدم أسعد بن زراة وذكوان بن عبد قيس في موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج ، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهراً طويلاً وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار ، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث ، وكانت للأوس على الخزرج ، فخرج أسعد بن زراة وذكوان إلى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس ، وكان أسعد بن زراة صديقاً لعبدة بن ربيعة فنزل عليه فقال له : إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئنا نطلب الحلف عليهم ، فقال له عبدة : بعدت دارنا من داركم ، ولنا شغل لا تنفرغ لشيء ، قال : وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟ قال له عبدة : خرج علينا رجل يدعى أنه رسول الله ، سفه أحلامنا وسبّ آهتنا وأفسد شبابنا ، وفرق جماعتنا ، فقال له أسعد : من هو منكم؟ قال ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً ، وأعظمنا بيّنا ، وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم : النصير وقريظة وقينقاع ، أنّ هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجره بالمدينة لنقتلنكم به يا عشر العرب ، فلما سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود ، قال : فأين هو؟ قال : جالس في الحجر وأئمّهم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم ، فلا تسمع منه ولا تكلمه فائّه ساحر يحرك بكلامه.

وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب ، فقال له أسعد : فكيف أصنع وأنا معتمر لابدّ لي أن أطوف بالبيت؟ قال ضع في أذنيك القطن ، فدخل أسعد المسجد وقد حشا أذنيه بالقطن ، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم فنظر إليه نظرة فجازه ، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه ، ما أجد أحهل مثي؟ أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أتعرفه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم ، ثم أخذ القطن من أذنيه ورمى به ، وقال لرسول الله : أنعم صباحاً ، فرفع رسول الله عليه السلام رأسه إليه وقال : «قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا ، تحية أهل الجنة : السلام عليكم ، فقال له أسعد : إنّ عهدهك بهذا لقريب ، إلى ما تدعوا يا محمد؟ قال : «إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأيّ رسول الله ، وأدعوكم إلى

«أَن لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدِينَ أَحْسَانًاٌ وَلَا تُقْتَلُوا أُولَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزَقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ
وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تُقْتَلُوا النُّفُسُ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ
وَصَّاكمْ بِهِ لِعْلَكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَمِ إِلَّا بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَلْعَظَ أَشْدُهُ وَأَوْفُوا
الْكِيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نَكْلُفُ نُفُسًا إِلَّا وَسَعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعِهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكمْ بِهِ لِعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ».

فَلَمَّا سَمِعَ أَسْعَدٌ هَذَا قَالَ لَهُ : أَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، يَارَسُولَ اللَّهِ
بِأَيِّ أَنْتَ وَامِّي أَنَا مِنْ أَهْلِ يَشْرِبِ مِنَ الْخَرْجَ ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ أَخْوَتَنَا مِنَ الْأَوْسَ حَبَالٌ مَقْطُوْعَةٌ
، فَإِنْ وَصَلَهَا اللَّهُ بِكَ ، وَلَا أَجِدُ أَعْزَزَ مِنْكَ ، وَمَعِي رَجُلٌ مِنْ قَوْمِي فَإِنْ دَخَلَ فِي الْأَمْرِ
رَجُوتُ أَنْ يَتَمَّمَ اللَّهُ لَنَا أَمْرُنَا فِيْكَ ، وَاللَّهُ يَارَسُولُ اللَّهِ لَقَدْ كَنَا نَسْمَعُ مِنَ الْيَهُودِ خَبْرَكَ ،
وَيَبْشِرُونَا بِخُرْجِكَ ، وَيَخْبُرُونَا بِصَفْتِكَ ، وَارْجُو أَنْ يَكُونَ دَارَنَا دَارٌ هَجْرَتَكَ عَنْدَنَا ، فَقَدْ
أَعْلَمَنَا الْيَهُودُ ذَلِكَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَاقَنِي إِلَيْكَ ، وَاللَّهُ مَا جَعَلَ إِلَّا نَطَّلَبُ الْحَلْفَ عَلَى
قَوْمِنَا ، وَقَدْ آتَانَا اللَّهُ بِأَفْضَلِ مِمَّا أَتَيَتْ لَهُ . ثُمَّ أَقْبَلَ ذَكْوَانٌ فَقَالَ لَهُ أَسْعَدٌ : هَذَا رَسُولُ اللَّهِ
الَّذِي كَانَتِ الْيَهُودُ تَبَشَّرُنَا بِهِ ، وَتَخْبِرُنَا بِصَفْتِهِ ، فَهَلَّمْ فَأَسْلَمَ ذَكْوَانٌ ، ثُمَّ قَالَ : يَارَسُولُ اللَّهِ
ابْعَثْ مَعْنَا رَجُلًا يَعْلَمُنَا الْقُرْآنَ ، وَيَدْعُونَا إِلَى أَمْرِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ مَصْعُبُ بْنُ عَمِيرٍ
، وَكَانَ فَتِيًّا حَدِيثًا مُتَرْفًا بَيْنَ أَبْوَيْهِ يَكْرِمَانِهِ وَيَفْضِلُنَاهُ عَلَى أَوْلَادِهِمْ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ مَكَّةَ ، فَلَمَّا
أَسْلَمَ ، جَفَاهُ أَبْوَاهُ ، وَكَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي الشَّعْبِ حَتَّى تَغَيَّرَ وَأَصَابَهُ الْجَهَدُ ، وَأَمْرَهُ رَسُولُ
اللَّهِ بِالْخُرُوجِ مَعَ أَسْعَدٍ ، وَقَدْ كَانَ تَعْلُمُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَمَعَهُمَا
مَصْعُبُ بْنُ عَمِيرٍ فَقَدَّمُوا عَلَى قَوْمِهِمْ وَأَخْبَرُوهُمْ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ وَخِبْرِهِ ، فَأَحَادِيبُ مِنْ كُلِّ
بَطْنِ الرَّجُلِ وَالرَّجُلَانِ^(١).

٦ . قَصَّةُ الْأَصْمَعِيِّ الْمُشَيْرِ

يَقْلُلُ الرَّمْخَشِريُّ فِي تَفْسِيرِ (الْكَشَافِ) عَنِ الْأَصْمَعِيِّ^(٢) أَنَّهُ قَالَ : أَقْبَلَتْ مِنْ جَامِعِ
الْبَصَرَةِ

(١) بِحَارُ الْأَنُوْرِ ، ج ١٩ ، ص ١٠٠٨.

(٢) اسْمُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ قَرِيبٍ ، عَاشَ فِي أَيَّامِ هَارُونَ الرَّشِيدِ ، اشْتَهِرَ بِكَثْرَةِ حَفْظِهِ وَمَعْلَوْمَاتِهِ الْوَاسِعَةِ عَنْ تَارِيخِ
الْعَرَبِ وَآدَابِهِمْ تَوَفَّ فِي الْبَصَرَةِ سَنَةَ ٢١٦ ، الْكُنْيَةِ وَالْأَلْقَابِ ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

فطلع أعرابي على قعود له فقال : من الرجل؟ قلت : منبني أصم ، قال : من أين أقبلت؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال : اتلى عليّ ، فتلوت «والذاريات» فلما بلغت قوله تعالى : **﴿وَفِي السَّمَاءِ رُزْقُكُمْ﴾** قال : حسبيك ، فقام إلى ناقته فنحرها وزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حجحت مع الرشيد طفت أطوف فإذا أنا بهن يهتف بي بصوت دقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصير ، فسلم على واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا؟ فقرأت : **﴿فَوَرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لِحَقٌ﴾** ، فصاح وقال : ياسُبْحَانَ اللَّهِ ، مَنْ ذَا الَّذِي أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّىْ حَلَفَ ، لَمْ يَصُدُّهُ بِقَوْلِهِ حَتَّىْ الْجَاؤُهُ إِلَى اليمين ، قالها ثلاثة وخرجت معها نفسه ^(١).

٧ . رد فعل إعرابي تجاه آية من القرآن

وروي أنّ رجلاً تعلم من النبي ﷺ القرآن فلما انتهى إلى قوله تعالى : **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** (الزلزلة / ٨ . ٧)

قال : يكفيني هذه ، وانصرف ، فقال رسول الله ﷺ : انصرف الرجل وهو فقيه

^(٢)

٨ . القصة المشيرة للسيد قطب

ينقل السيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن قصة عجيبة من حياته ، وذلك في ذيل قوله تعالى : **﴿إِنَّمَا يَقُولُونَ افْسَرَاهُ قُلْ فَأَثْوَرُوا بِسُورَةِ مَثْلِهِ﴾** . (يونس / ٣٨)

يقول : اذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة ، وذلك منذ نحو خمسة عشر عاماً ... كنّا ستة مسلمين على ظهر سفينة مصرية تبحر عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك ، من بين ١٢٠ راكباً وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم ... وخطر لنا يوم الجمعة أن

(١) الكشاف ، ج ٤ ، ص ٤٠٠ .

(٢) تفسير روح البيان ، ج ١٠ ، ص ٤٩٥ ؛ وتفسير نور التقلين ، ج ٥ ، ص ٦٥٠ ؛ وسفينة البحار ، ج ٢ ، ص ٤١٤ ، مادة (قرء) والتفسير الأمثل ، ذيل آيات سورة الزلزال .

نقيم صلاة الجماعة في المحيط على ظهر السفينة! والله يعلم . أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِنَا أَنْ نَقِيمَ الصَّلَاةَ لِذَاتِهَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ بِنَا حَمَاسَةُ دِينِيَّةٍ إِزَاءَ مُبِشِّرٍ كَانَ يَقُولُ بِمَزَاوِلَةِ عَمَلِهِ عَلَى ظَهَرِ السَّفِينَةِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَزَاوِلَ تَبْشِيرَهُ مَعْنَاهُ! ... وَقَدْ يَسَّرَ لَنَا قَائِدُ السَّفِينَةِ . وَكَانَ انجليزِيًّا . أَنْ نَقِيمَ صَلَاتَنَا ، وَسَعَ لِبِحَارَةِ السَّفِينَةِ وَطَهَاتِهَا وَخَدْمَتِهَا . وَكُلُّهُمْ نُوَيْسُونَ مُسْلِمُونَ . أَنْ يَصْلِي مَعْنَاهُ مَنْ لَا يَكُونُ فِي (الْخَدْمَةِ) وَقْتَ الصَّلَاةِ! وَقَدْ فَرَحُوا بِهَذَا فَرْحَةً شَدِيدًا ، إِذَا كَانَتِ الْمَرَةُ الْأُولَى الَّتِي تَقَامُ فِيهَا صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ عَلَى ظَهَرِ السَّفِينَةِ ... وَقَمَتْ بِخُطْبَةِ الْجَمَاعَةِ وَإِمَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَالرَّكَابُ الْأَجَانِبُ مُعَظَّمُهُمْ . مَتَّهُلُقُونَ يَرْقِبُونَ صَلَاتَنَا ، وَبَعْدَ الصَّلَاةِ جَاءُنَا كَثِيرُونَ مِنْهُمْ يَهْنَئُونَا عَلَى نَجَاحِ (الْقَدَّاسِ)! فَقَدْ كَانَ هَذَا أَقْصَى مَا يَفْهَمُونَهُ مِنْ صَلَاتَنَا! وَلَكِنْ سِيَّدَةُ مِنْ هَذَا الْحَشْدِ . عَرَفْنَا فِيمَا بَعْدِ أَنَّهَا يَوْغَسْلَافِيَّةُ مُسِيَّحِيَّةُ هَارِبَةُ مِنْ جَحِيمِ تِيَّتُو وَشِيُّوْعِيَّتِهِ! . كَانَتْ شَدِيدَةُ التَّأْثِيرِ وَالْأَنْفَعَالِ تَفِيُضُ عَيْنَاهَا بِالدَّمْعِ وَلَا تَمَالِكُ مَشَاعِرَهَا جَاءَتْ تَشَدُّدَ عَلَى أَيْدِينَا بِحَرَاءَ ، وَتَقُولُ : . فِي انجليزِيَّةٍ ضَعِيفَةٌ . أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ نَفْسَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ الْعَمِيقِ بِصَلَاتَنَا هَذِهِ وَمَا فِيهَا مِنْ خَشْوَعٍ وَنَظَامٍ وَرُوحٍ! ... وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ فِي الْقَصَّةِ ... وَلَكِنْ ذَلِكَ كَانَ فِي قَوْلِهَا : أَيْ لِغَةُ هَذِهِ الَّتِي يَتَحَدَّثُ بِهَا (قَسِيسُكُمْ)! فَالْمُسْكِنَةُ لَا تَتَصَوَّرُ أَنْ يَقِيمَ (الصَّلَاةَ) إِلَّا قَسِيسٌ . أَوْ رَجُلٌ دِينٌ . كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَهَا فِي مُسِيَّحِيَّةِ الْكَيْسِيَّةِ! وَقَدْ صَحَّحْنَا لَهَا هَذَا الْفَهْمِ! وَأَجَبَنَاها : فَقَالَتْ : إِنَّ الْلِغَةَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ بِهَا ذَاتُ اِيْقَاعِ مُوسِيقِيِّ عَجِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتَ لَمْ أَفْهَمْ مِنْهَا حِرْفًا ... ثُمَّ كَانَتْ الْمُفَاجَأَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لَنَا وَهِيَ تَقُولُ : وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ الْمَوْضِعُ الَّذِي أَرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ ... إِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي لَفَتَ حَسِيٌّ ، هُوَ أَنْ (الإِمَامُ) كَانَتْ تَرَدُّ فِي أَثْنَاءَ كَلَامِهِ . بِهَذِهِ الْلِغَةِ الْمُوسِيقِيَّةِ . فَقَرَاتْ مِنْ نَوْعِ آخَرِ غَيْرِ بَقِيَّةِ كَلَامِهِ! نَوْعٌ أَكْثَرُ مُوسِيقِيَّةٍ وَأَعْقَمُ اِيْقَاعًا ... هَذِهِ الْفَقَرَاتُ الْخَاصَّةُ كَانَتْ تَحْدُثُ فِي رِعْشَةٍ وَقَشْعَرِيرَةٍ! إِنَّهَا شَيْءٌ آخَرٌ! كَمَا لَوْ كَانَ الإِمَامُ . مَلْءُوا مِنْ رُوحِ الْقَدْسِ! حَسَبْ تَعْبِيرِهَا الْمُسْتَمَدُ مِنْ مُسِيَّحِيَّتِهَا! وَتَفَكَّرْنَا قَلِيلًا ، ثُمَّ أَدْرَكْنَا أَنَّهَا تَعْنِي الْآيَاتُ الْقُرَآنِيَّةُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي أَثْنَاءَ خُطْبَةِ الْجَمَاعَةِ وَفِي أَثْنَاءَ الصَّلَاةِ! وَكَانَتْ . مَعَ ذَلِكَ . مُفَاجَأَةٌ لَنَا تَدْعُوا إِلَى الْدَّهْشَةِ ، مِنْ سِيَّدَةٍ لَا تَفْهِمُ مَا نَقُولُ شَيْئًا^(١)!

(١) تَفْسِيرُ فِي ظَلَالِ الْقُرْآنِ ، ج ٤ ، ص ٤٢٢ .

٩ . قصة النجاشي وعلماء الحبشة المسيحيين

لقد جاءت أول هجرة للمسلمين إلى الحبشة وذلك بسبب الضغوط والأذى الذي تعرضوا له من مشركي مكة ، مما اضطرهم إلى الهجرة إلى الحبشة بأمر من رسول الله ﷺ ، وقد آواهم ملك الحبشة وعاشوا فيها بأمان.

ويعد هذا الأمر من العوامل الرئيسية التي ساعدت في انتشار الإسلام بشكل تدريجي في الحبشة ، وكذلك ساعد على انتشار الإسلام في مكة وذلك لأن المسلمين وجدوا لهم مخرجاً ، فعندما كانوا يتعرضون للاذى والمضائق فكروا أن يهاجروا إلى الحبشة.

يذكر ابن هشام في تاريخه المعروف ... :

«فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا رجلاً من قريش حَلْدِين إلى النجاشي فيردهم عليهم ليقتلوهم في دينهم ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها ، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته ... وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعوا إلى كل بَطْرِيق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم سلأه أن يُسْلِمَهُم إليكما قبل أن يُكَلِّمَهُم ، فخرجا حتى قدما إلى النجاشي هداياه وقالا لكل بَطْرِيق منهم : إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرف قومهم ليزدهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يُسْلِمَهُم إلينا ولا يُكَلِّمَهُم فإذا قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما : نعم ، ثم كلما الملك : يا أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوا بهم فيه ، فقال بطريقته الذين كانوا حوله : صدقا أيها

الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهم فليرداهم إلى بلادهم وقومهم ، فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله إذا لا أسلّمهم إليهم ولا يُكادُ قوم جاوروني ونزلوا بلادي واحتاروني على من سواي حتى ادعوهم فاسأّلهم عمّا يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلّمتمهم إليهم ورددتمهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك من عتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني . ثم أرسل إلى أصحاب محمد ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا : نقول والله ما علمنا وأمرنا به نبيّنا ﷺ فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقوته فنشروا مصاحفهم حوله ، سأّلهم : ما هذا الدين الذي فارقتم قومكم فيه ولم تدخلوا في دين أحد من هذه الملل؟ فقال جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ : «أيّها الملك كنّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ... وأمرنا بالصلوة والرّكّة ، والصيام ، فعدد علينا أمور الإسلام فصدقناه وأمنا به واتبعناه على ماجاء به من الله ... فعدا علينا قومنا فعدبوا وفتنوا عن ديننا ليروننا إلى عبادة الأوثان فخرجنا إلى بلادك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيّها الملك» ، فقال له النجاشي : هل معك ممّا جاء به عن الله من شيء؟ قال جعفر : نعم ، قال النجاشي : فاقرأه عليّ ، فقرأ جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ كهيعص ذكر رحمت ربّك عبده زكريا ، فبكى النجاشي حتى احضّلت لحيته وبكى أساقوته حتى أخضّلت مصاحفهم ... فضرب النجاشي بيده على الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال : «والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود إنّ هذا الذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، إنطلقا ، فلا والله لا أسلّمهم إليكما ولا يُكادون».

فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهم ما جاء به» ^(١).

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٥٦ ، بشكل ملخص.

١٠ . تأثير القرآن في أوساط العلماء الاجانب

لم يقتصر تأثير القرآن على العرب في الأدوار الأولى لعصر الرسالة وما بعدها ، وإنما شمل عصرنا هذا حتى أولئك الذين لا يحيطون علمًا برموز الأدب العربي ؛ فإن تأثيره بينهم قوي عجيب ؛ وهذا السبب انبثى عدد من العلماء الغربيين إلى تعظيم القرآن والاعتراف بحقائقه التي هي مورد اعتزازنا ومن جملة هؤلاء :

الدكتور (واغليري) الاستاذ بجامعة (فابل). حيث يقول في كتابه المعروف (التطور السريع للإسلام) : «كتاب الإسلام السماوي هو أحد نماذج الاعجاز ، والقرآن هو الكتاب الذي لا يمكن أن يُقلّد؟ فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب الاعجاري من إنشاء محمد ﷺ الرجل العربي الذي لم يتعلم القراءة والكتابة ، إننا نجد في هذا الكتاب من المحتويات والمضامين العلمية ما يفوق قابلية واستعداد أذكى أفراد البشر وأكبر الفلاسفة واقوى رجال السياسة»^(١).

ويقول (كارل لایل) العالم الانجليزي المعروف بتصديق القرآن : «إذا ألقينا نظرة واحدة على هذا الكتاب المقدس ، لوجدنا حقائق جلية ، وخصائص أسرار الوجود مكتونة في مضامينها الجوهرية ، بالصورة التي تبين حقيقة القرآن وعظمته بوضوح ، وهذا بحد ذاته مزية كبيرة يختص بها القرآن وتفتقر إليها كل الكتب العلمية والسياسية والاقتصادية ، وإن كانت بعض الكتب تحدث تأثيراً عميقاً في ذهنية الإنسان ، إلا أنها لا تشابه القرآن في نفوذه وتأثيره».

يدرك (جان ديون بورت) في كتابه (اعتذار إلى حضرة النبي والقرآن) : «القرآن منزه عن النواصص ، والعيوب بحيث لا يحتاج إلى أدنى تصحيح أو تقويم.

ثم يضيف على ذلك قائلاً : إنّ القسيسين أوجدوا . ولسنوات طويلة . هوة بعيدة بيننا وبين التعرف على حقائق القرآن المقدسة وعظمة المبشر به (محمد) ﷺ إلا أننا كلما قطعنا خطوة في طريق العلم والمعرفة ، كلما أنزاحت عنا حُبّ الجهل والتعصب ، وسيستقطب هذا الكتاب الغي عن الوصف العالم إلى نفسه في القريب العاجل ، ويحدث تأثيراً عميقاً في

(١) كتاب (التطور السريع للإسلام) ترجمة المرحوم سعدي ص ٤٩ (بشكل ملخص).

العلم والفكر البشري ، وسيصبح محور أفكار الدنيا ^(١).

ويقول الشاعر الألماني الكبير (غوتة) : «نحن كنا في بادئ الأمر مبتعدين عن القرآن ، ولم تنقض مدة طويلة حتى أصبح هذا الكتاب موضع توجهنا واهتمامنا وبعث حيرتنا ، إلى الحد الذي أذعنا فيه بالتسليم لاصوله وقوانيه العلمية الكبيرة».

ويقول العالم الفرنسي (جول لابن) في كتاب (تفصيل الآيات) : «إن الذي أود فتيل العلم والمعرفة في العالم هم المسلمون ، وخلوا العلوم والمعرفة من بحر القرآن واجروا منه أنحرافاً وينابيع إلى البشرية في العالم» ^(٢).

يكتب (دينورت) أحد علماء الغرب في مaily : «يجب الاعتراف بأن الفضل في انتشار العلوم الطبيعية والفلكلية والرياضيات في أوروبا إنما يعود إلى تعليمات القرآن والمسلمين وأننا مدينون لهم ، بل يمكن القول : إن أوروبا . من هذه الجهة . هي أحدى البلاد الإسلامية» ^(٣).

ويقول المستشرق الشهير (نولدكه) : «لقد فرض القرآن سيطرته باستمرار على قلوب أولئك الذين يخالفونه عن بعد وأوجد فيما بينه وبينهم ارتباطاً قوياً» ^(٤).

* * *

ب) الذين لجأوا إلى المعارضة

ذكرنا فيما سبق إن المعجزة تمثل تحدياً ودعوة للآخرين بالمواجهة ، فيعجز الجميع عن الإتيان بمثلها ، وهنا يتadar في الذهن سؤال ، وهو : لقد تحدى القرآن البشرية والجنة وعلى مر التاريخ أن لا يستطيعون الإتيان بمثله أبداً ، من أين يعلم القرآن بأن هذا التحدي سوف يستمر مفعوله على طول التاريخ؟

(١) اعتذار إلى محمد والقرآن. ترجمة فارسية ص ١١١.

(٢) المعجزة الحالدة.

(٣) المصدر السابق.

(٤) مجموعة مقالات على كتاب.

الجواب واضح ، فهذا الموضوع ليس بمسألة هامشية حتى يمكن للتاريخ أن ينساها ، بل هي مرتبطة كثيراً بمصير هذه العقيدة المهمة ومصير منافسيها الذين يمتلكون قدرة هائلة وبصرفون سنوياً مبالغ ضخمة في محاربة الإسلام ومواجهته ولو كان يقع مثل هذا الأمر ، لاتخذوا من ذلك وسيلة اعلامية وبوقاً دعائياً واسعاً ومرجحاً .

وعليه وبناءً على المثل المعروف القائل : «لو كان لبان» لابد أن ييدو للعيان كل مظهر من مظاهر المعارضة والمواجهة في هذا المجال ، ولهذا السبب كانت ترد بعض الاتهامات على عدة من الأفراد الذين قد لا يفكرون في معارضته القرآن اطلاقاً واتخذ من ذلك وسيلة دعائية ، وهذا يدل بوضوح على الاصرار الكبير على هذه المسألة من قبل المناوئين ولهذا الأمر كانوا يتثبتون بكل الوسائل الممكنة في سبيل الوصول إلى مقاصدهم الدينية .

١ . الشخص الوحيد الذي سجله التاريخ هو (مسيلمة) المشهور (بالكذاب) الذي

قام بادعاء النبوة في عصر النبي ﷺ وعلى أرض (اليماما) من منطقة شرق الحجاز .
كان اسمه الحقيقى (مسيلمة بن حبيب) وأظهر دعوته في آخر حياة النبي الأكرم ﷺ (في السنة العاشرة للهجرة) وكان يبذل ما وسعه من أجل أن يقلد رسول الله ﷺ في كل شيء .

ويدعى أن ملكاً ينزل عليه اسمه (رحمان) ويأتيه آيات تشبه آيات القرآن .
وقيل : إنه طلب من النبي أن يشاركه في النبوة ويوصي بأن يقوم مقامه بعد وفاته ﷺ حتى يكف عن المخالفة والعداء .

ونستشف من الكثير من القرائن والامارات أن أيادي العصبيه القبلية كانت وراء مسيلمة وتأييده على هذا العمل وتؤازره .

وكان أهل اليمامة يتخذون هذه الوسيلة للقضاء على سيادة قريش وحاكمية أهل مكة والمدينة التي تحققت تحت ظل مقام نبوة النبي الإسلام ﷺ .

ولهذا السبب كانوا يبحثون عن رجل يثير الشغب ويطلب الرئاسة والمال ، فوجدوا هذه الصفات عند مسيلمة .

إلا أنّ الحديث الذي ينقل عنه بعنوان المعارضة للقرآن يدل بوضوح . فضلاً عن كل ما مرّ . على أنّه رجل سخيف ، يعتمد السجع في الكلمات من دون أن يهتم بمحفوظ كلامه . من جملة عباراته المضحكه التي نقلت عنه في هذا المجال كتقليد للقرآن ، هي هذه الكلمات :

«المبذرات بذراً ، والحاصلات حصدأ ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثارادات ثرداً ، واللامقات لقماً ، إهالة وسمناً»^(١) . يبدو أنّه يريد من وراء هذه الجمل المضحكه أن يتحدى آيات سورة العاديات أو الذاريات .

يقول القرآن : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبَحًاَ فَالْمُورَيَاتِ قَدْحًاَ فَالْمُغَيَّرَاتِ صُبْحًاَ فَأَثْرَنَ بِهِ نَقْعًاَ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًاَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُوْدٌ ...﴾ انظر إلى هذا التفاوت البعيد .

ينقل عنه في عبارة أخرى أنّه نزلت عليه هذه الآيات «يا ضفدعه بنت ضفدعين نقي ماتنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الماء تكدرین ولا الشارب تمنعین»^(٢) .

وسائل الأحاديث أو بحسب زعمه الآيات الأخرى التي نقلت عنه هي على هذه الشاكلة أيضاً ، بل إنّ بعضها أسوء حالاً ، وبعضها ركيك ، فالإعراض عن ذكرها أولى . ويستفاد بوضوح من عباراته التي نقلت عنه أنه يولي السجع أهمية كبيرة ويرى ذلك كافياً ، بالضبط على غرار الأشعار التي تنظم في زماننا للاطفال وهي مطالب حاوية لا قيمة لها تصب من دون معنى مترابط في قوالب شعرية ، ويكتفون بقافيةها فقط .

يدرك المؤرخون : أنّه كان في عصره امرأة معروفة بالكذب اسمها (سحاج) على وزن حجاج ، وكانت العرب تقول : «فلان أكذب من سحاج» نظراً لما اشتهر عنها بالكذب . وهي من بني تميم ، وكانت تدعي النبوة ونزل الوحي عليها أيضاً وتبعها ثلاثة من الناس ، وأخذت هي الأخرى تنشيء الفاظ السجع كمسilmة .

(١) سفينة البحار ، مادة (سلم) ؛ تاريخ ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٣٦١ ؛ اعجاز القرآن للرافعي ، ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨ .

يقال : إنَّ أتباع هذين الشخصين المتجاورين استعد كلَّ منها للحرب مع الآخر ، إلَّا أنَّ مسيلمة توسل بأسلوب الحيلة والمكر واحتلى سجاح ، وقال لها : هل ترغبين بالزواج مني ، فتحتخد قبility مع قبility وتحمل حملة رجل واحد على العرب ، فرضيت بذلك ، ومكثت معه ثلاثة أيام وما رجعت سألاً أفراد قبilityها عن مهر هذا الزواج ، فجاءت إلى مسيلمة وطالبته بالمهر ، فأمر مسيلمة أحد الأشخاص بالنداء بين القبiliتين : إنَّ مهر سجاح هو رفع وحذف صلاتي الصبح والعشاء اللتين وردتا في شريعة محمد .

وعندما قُتل مسيلمة في حرب اليمامة بعد رحلة نبي الإسلام ﷺ على يد قاتل حمزة المعروف (وحشي) أظهرت هذه المرأة الإسلام ^(١) .

ولقد اشتهر هذان الشخصان بالكذب إلى درجة بحيث قال أحد الشعراء في حقهما :

والـت سـجـاحـ وـوـالـهـاـ مـسـيـلـمـةـ كـذـابـةـ مـنـ بـنـيـ الدـنـيـاـ وـكـذـابـ
٢ . ومن ضمن الأفراد الذين قاموا بمعارضة القرآن في آخر حياة النبي هو (الأسود العنسي) وكان هو الآخر يكتفي بتلقيق الكلمات في معارضته القرآن وإن كانت فارغة من المحتوى ، وادعى النبوة في أيام حجة الوداع (في آخر حياة النبي) ولم تستغرق مدة ادعائه للنبوة أكثر من أربعة أشهر .

وقد فرض سيطرته على بلاد (البحرين) و (نجران) وقسم من بلاد (اليمن) وسواحل (الخليج الفارسي) وغيرها ومن ثم قُتل في اليمن على يد «فيروز» الایرانی مستعيناً بزوجته ، ووصلت أنباء قتله إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ^(٢) .

ويقال : إنَّه كان يعيش في الأماكن المنحطة فكريًا وخلقيًا ، ولهذا السبب تبعه مجموعة من شذوذ الآفاق ، وكان يراهن على السجع في كلماته لمعارضة القرآن ، كما نقل عن مسيلمة ذلك آنفًا . إلَّا أنَّ أتباعه سرعان ما اطلعوا على فساد عقيدته وابعدوا عنه .

٣ . وردت بعض الاتهامات المفتعلة أيضًا إلى عدد من الشخصيات بمعارضة القرآن وإن

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، فريد وجدي وفق نقل تنزيه التنزيل للمرحوم الشهريستاني ص ١٧٦ .

(٢) دائرة معارف البستاني وفق نقل تنزيه التنزيل للسيد هبة الدين الشهريستاني ص ١٨٦ .

لم يثبت تاريخياً ، وقد يكون السبب وراء تلك الاتهامات أنَّ مجموعة من الجهال فسروا قسماً من المقاطع المسجعة لبعض الادباء العرب على أنَّها تحد للقرآن الكريم ، أو أنَّ الأعداء المحتالين أرادوا أنْ يستغلوا هذا الاحتمال.

ومن جملتهم : (عبد الله بن المقفع) وهو من الكتاب والادباء المعروفين في القرن الثاني للهجرة عاصر الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ وَيُؤْتَى عَنْهُ كَمْ كَمْ فِي بَدْيَةِ الْأَمْرِ مُسِيْحِيًّا ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وكان يمتلك الاحاطة الكاملة باللغة الفارسية ، وترجم إلى العربية بعض الكتب من جملتها كتاب (كليلة ودمنة) وقد أظهر الإسلام بوضوح في المقدمة التي كتبها لهذا الكتاب. ولكن يقال : إنَّه سمع منه أحياناً بعض الكلمات الجارحة.

ومن هُمَّ سَلَّمُوهُ إِلَى أَمِيرِ الْبَصَرَةِ (سفيان بن معاوية المهلي) فقتلَهُ بِسَبِّ بَعْضِ الْاِخْتِلَافَاتِ الْجَانِبِيَّةِ بَيْنَهُمَا ظَاهِرًا.

ويقال : إنَّه لما أراد سفيان أن يلقيه في التئور قال له : أقتلوك ولا شيء على لأنك زنديق قد أفسدت عقائد الناس. وعلى أي حال فإن عقائده ليست واضحة لنا بدقة ، ولكن المسلم به هو أنَّه لم يدع إلى معارضته القرآن ، وإن كان بعضهم يرى أنَّ كتابه المعروف (بالدرة اليتيمة) دُوَّنَ لهذا الغرض ، ومن حسن الحظ أنَّ كتابه هذا بين أيدينا وقد طبع عدة مرات. ولم نرَ فيه أية إشارة لمسألة المعارضه للقرآن ، ولا يعلم ما هو السبب وراء هذه النسبة له ولكتابه.

وعلى أيَّة حال لا توجد هناك وثيقة تاريخية تدل على معارضته للقرآن ، وكتابه المذكور وإن دون بصورة أدبية إلَّا أنَّه لا يوجد فيه شيء يدل على (تحديه) للقرآن.

٤ . من ضمن الأشخاص الذين نسبت إليهم هذه التهمة أيضاً : (أبو العلاء المعري) وهو من الكتاب والشعراء المعروفين في القرن الخامس للهجرة ، وكان رجلاً ملحداً ، نقل عنه كلام جارح ، بحيث لا يمكن القياس بينه وبين (عبد الله بن المقفع) ، إلَّا أنه . وعلى أي حال . لا يوجد بين أيدينا سند تاريخي يدل على توجهه إلى تحدي القرآن ؛ ولعل توجيهه مثل هذه النسبة إليه يعزى إلى اتهامه بالإلحاد وعدم التدين من جهة ، وإلى كونه أدبياً وشاعراً وكاتباً

من جهة أخرى ؛ يشهد على ذلك استخفافه بالعبارات المسجعة المذكورة في كتاب (التاج) لابن الروندي ، إذ يقول بصراحة في (رسالة الغفران) التي كتبها رداً ، على كتاب (التاج) :
بان قوافي وسجعيات ابن الروندي لاتعدو أن تكون نظير ما يقوله الكهنة نحو : افِ وَتُفِ
وَجَوَبِ وَخَفِ^(١).

وعلى هذا الأساس ، يرى هو الآخر أن حبك العبارات المسجوعة من دون مضمون ليس لها أية قيمة وأهمية.

ومن الجدير بالذكر ، أنه يمتلك مقالة حيدة بقصد القرآن في رسالة الغفران نفسها تدل على اعترافه بعظمته القرآن وشموخ معانيه (وإن كان لا يعتبره وحياً سماوياً) فهو يقول بصراحة : عندما تأتي آية واحدة من القرآن في حديث ما فهي كنجم مضيء يتلألأ في ليل هميم.

٥ . (أحمد بن الحسين الكوفي) الشاعر المعروف بالمتني الذي يظهر من اسمه أنه كان أدعى النبيّة ، وقد كان من أدباء القرن الرابع للهجرة ، وهو على جانب كبير من الذوق الشعري ، في بداية الأمر اعتنق الإسلام لكنه أدعى النبيّة بعد ذلك كما قيل ، ومن الجدير بالذكر أن دعوته هذه كانت في السنة السابعة عشرة من عمره.

جاء في حاشية كتاب (اعجاز القرآن) للرافعي : أنه أدعى النبيّة في سنة ٣٢٠ هـ.
وتبعه جمع من (بني كلب) ، ومن ثم ألقاه والي حمص في السجن وتفرق عنه اتباعه ، فتاب وافرج عنه ، ثم أنكر هذا الأمر بعد ذلك ، ومررت مدة من الزمن أصبح فيها مقرراً إلى (سيف الدولة) وكلما ذُكر في مجلسه أدعائه للنبيّة كان ينكر ذلك ؛ قُتل في نهاية الأمر على يد (فاتك بن أبي جهل) بسبب وقوع احتلافات بينه وبين اتباع (عاصد الدولة الديلمي)^(٢).

٦ . ومن ضمن الأشخاص الذي فكروا في تحدي القرآن : (أحمد بن يحيى) المعروف بابن الروندي ، وهو من متكلمي المعتزلة ، لازم الملحدين والمناوئين للاسلام دائماً لأنّهم

(١) اعجاز القرآن للرافعي ، ص ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق.

كانوا يلمونه كثيراً ، وكان يقول : أريد أن أحبط علمأً بعقائدهم ؛ ثم تظاهر باللحاد بعد ذلك ودخل في منازعات مع الناس ، يقال : إنّ أباه كان يهودياً ثم أسلم ، لذا قال بعض اليهود لبعض المسلمين : إنّ ابن الرواندي سيضيع كتابكم كما ضيع والده كتاب اليهود . وكتبوا عنه : أنّه لم يستقر على عقيدة معينة ، إذ كتب لليهود كتاباً في الرد على الإسلام ، مقابل أربعين درهم تحت عنوان (ال بصيرة) ولما انتهى منه ، انبرى للرد عليه ، وامتنع عن ذلك مقابل استلامه مائة درهم .

ويقال : إنّه قام بتأليف كتاب ، يتحدى به القرآن اسمه (التاج) إلّا أنه لم تقع في أيدينا نسخة منه إلى وقتنا هذا . وهو الكتاب نفسه الذي يقول عنه (أبو العلاء المعربي) : أمّا تاجه فليس إلّا نعلاً ! وهل تاجه إلّا كما قالت الكهنة : افِ وَتُفِ وَجَوَرَبِ وَخُفِ^(١) .

* * *

يُستنتج بشكل واضح من كل ما قلناه : أنّ أحداً لم يعط جواباً لدعوة القرآن إلى المناظرة والتحدي ، على الرغم من توفر الدواعي لهذا الأمر ، ابتداءً من زمن المشركين العرب وأهل الجاهلية ، وانتهاءً بجدا اليوم الذي تخصص فيه القوى الاستكبارية رؤوس اموال ضخمة من أجل القضاء على الإسلام والقرآن ، ومن الطبيعي أنه إذا كان باستطاعتهم أن يعثروا على طاقات الأدباء العرب والعلماء الاجانب للإتيان بما يماثل القرآن لما ادخلوا وسعاً في ذلك . وما نشاهد في طول التاريخ من أشخاص كمسيلمة وسجاح مع كل فضائحهما فأنّهم لم يثبتوا قدمأً واحداً في هذا وعندئذ ستدرك جيداً عدم إمكانية هذا الأمر ، وإلّا لكان ذلك ذريعة كبرى يتوصل بها أعداء الإسلام المعاندون لنشر هذا الأمر في كل مكان ، وهذا هو معنى الضعف والعجز عن تحدي القرآن .

* * *

(١) اعجاز القرآن ص ١٣٣ . ١٣٧ .

صور اعجاز القرآن

- ١ . الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة
- ٢ . الاعجاز القرآني على صعيد المعرفة الإلهية
- ٣ . اعجاز القرآن في تصور العلوم الحديثة
- ٤ . الاعجاز التاريخي للقرآن
- ٥ . الاعجاز القرآني في سن القوانين
- ٦ . الاعجاز الغيبي للقرآن
- ٧ . الاعجاز القرآني في عدم وجود التناقض والاختلاف

تمهيد :

يتصور البعض أنّ إعجاز القرآن يقتصر على جانب الفصاحة والبلاغة فحسب وهي : المحسنات اللفظية والمعاني والبلاغة ، في حين أنّ أغلب أصحاب الخبرة والمحققين في عصرنا يذهبون إلى عدم صحة هذا الكلام ، لأنّ جوانب الاعجاز القرآني متنوعة وممتددة ، حتى يمكن القول إنّا مع مرور الزمان سنقف على جوانب جديدة من اعجاز القرآن لم تتضمن معالمها لنا في الماضي.

ويمكن التعرف على الجوانب التالية للإعجاز القرآني في وقتنا الحاضر من خلال الشواهد الموجودة في القرآن نفسه :

- ١ . الإعجاز في الفصاحة والبلاغة وهو الظاهر الحسن والباطن العميق والبيان المتنّ و الصراحة والحدية والشموليّة في المفاهيم ، وانسجام الألفاظ مع المعاني.
- ٢ . الإعجاز في المعارف والاطروحات العقائدية.
- ٣ . الإعجاز في طرح المسائل التاريخية.
- ٤ . الإعجاز في سن القوانين.
- ٥ . الإعجاز في العلوم العصرية والمفاهيم العلمية المجهولة في عصر القرآن.
- ٦ . الإعجاز في التنبؤات المستقبلية والأخبار الغيبية.
- ٧ . الإعجاز في عدم وجود الاختلاف بين الآيات القرآنية التي نزلت طيلة ٢٣ عاماً بالرغم من تغيرات الظروف والأوضاع الزمانية والمكانية كافة.

ومع هذه الإشارة نعود إلى القرآن مرتّة أخرى لنبحث كل واحدة من الصور المتقدمة

بصورة مستقلة :

* * *

١ . الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة

يقول علماء المعاني في تعريف البلاغة والفصاحة : إن الفصاحة تستعمل تارة لوصف الكلمة ، وتارة أخرى لوصف الكلام وهي : عبارة عن خلو الكلام من الحروف والكلمات الثقيلة غير المحببة ذات الایقاع الرديء غير المתחانس من العبارات الركيكة والضعيفة والمنفرة والوحشية والمعقدة والمبهمة .

وأما البلاغة فهي عبارة عن تناسب الكلام مع مقتضى الحال والانسجام التام مع الغاية المتوخحة من الكلام .

وبعبارة أخرى : الفصاحة ناظرة إلى كيفية الألفاظ والبلاغة ناظرة إلى كيفية المعنى والمحظى ، أو بعبارة ثانية : الفصاحة تقتصر على الجوانب الشكلية والظاهرية للكلام والبلاغة تقتصر على الجوانب المعنوية والجوهرية .

ومما لا شك فيه أن هذين الأمرين ينطويان على جانب ذوي واستحسان فضلاً عن الجانب العلمي والقانوني ، ولكن هذا الجانب الفني والذوقي نفسه يفتح ويكتمل ويتسق في ظل التعليم والتربيه والاعتماد على القواعد التي تستقى غالباً من كلمات الفصحاء والبلغاء . نظير الحس الشعري أو القابليه على الخط اللذين يتكاملان بالتعليم والممارسة والاستعانة بالمعلم .

وعلى كل حال يعتقد بعضهم أن اعجاز القرآن والدعوة إلى التحدي التي وردت في آيات مختلفة مستندة إلى هذا المعنى نفسه ، ويمكن الاستدلال على ذلك بالأمور التالية :

- ١ . إن ما اشتهر به العرب في ذلك العصر والزمان هو فن الفصاحة والبلاغة ، بحيث بلغت

أشعار الجاهلية أوج فصاحتها ، وكان أحد أهم برامجهم هو قراءة أجمل قصائد تلك السنة خلال التجمع الاقتصادي الذي يعقد في (سوق عكاظ) بالقرب من الطائف في كل عام. وعندما يقع اختيارهم على أفضل هذه القصائد يعلقونها على جدار الكعبة بصفتها أثراً أدبياً قيّماً ، ومع مرور السنين علقت سبع قصائد عرفت فيما بعد باسم (المعلقات السبع).

وعلى هذا الأساس إذا أراد القرآن أن يدعوهم إلى التحدي والمعارضة فيلزم أن يكون في هذا المجال.

٢ . ولعل الاتهام الذي كان يوجهه المشركون العرب إلى القرآن بكونه سحراً وإلى النبي بكونه ساحراً يعود إلى التأثير السحري للقرآن ، حيث اشتمل ، على روعة الكلام والفصاحة.

٣ . نقرأ في الحديث الوارد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في صدد انسجام معجزات الأنبياء مع العلوم والفنون المنظورة في أعصارهم : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَعَثَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ السُّحْرُ فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِمْ مِثْلُهُ وَمَا أَبْطَلَ بِهِ سُحْرُهُمْ وَأَثْبَتَ بِهِ الْحِجَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ فِي وَقْتٍ قَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ الزَّمَانَاتُ (الآفَاتُ) وَاحْتَاجَ النَّاسُ إِلَى الطَّبِ فَأَتَاهُمْ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ بِمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِثْلُهُ وَمَا أَحْبَيْتُهُ لَهُمُ الْمَوْتَى وَأَبْرَأَهُمْ أَكْمَهُ وَالْأَبْرَصُ بِذَنِ اللَّهِ ، وَأَثْبَتَ بِهِ الْحِجَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي وَقْتٍ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ الْحَطْبَ وَالْكَلَامِ (وَأَظْنَهُ قَالَ : الشِّعْرُ) فَأَتَاهُمْ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِخُطْبَهِ وَمَوَاعِظِهِ وَأَحْكَامِهِ مَا أَبْطَلَ بِهِ قَوْلَهُمْ ، وَأَثْبَتَ بِهِ الْحِجَّةَ عَلَيْهِمْ» ^(١).

إِنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْقَرَائِنَ تَدْلِي إِلَى أَنَّ الْاعْجَازَ الْقَرَآنِيَّ كَانَ وَلَا يَزَالَ مُتَكَبِّرًا عَلَى جَانِبِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ إِلَّا أَنَّ وَقْعَ الْأَمْرِ هُوَ أَنَّ الْاعْجَازَ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ كَانَ مُورِدًا اهْتِمَامًا عَمِيقًا وَإِنَّ لَمْ يَنْحَصِرْ بِهِ . خَصْوَصًا أَنَّ الْجَوَانِبَ الْأُخْرَى مِنَ الْاعْجَازِ الْقَرَآنِيِّ وَاضْحَى جَلِيلَةً .

(١) عيون أخبار الرضا ، (وفق نقل تفسير نور الثقلين ، ج ١ ، ص ٤٣) ونقله أيضاً الكيلاني في الكافي والعلامة الجلسي في بحار الأنوار.

وللحصول على معلومات كافية حول اعجاز القرآن فلابد من الالتفات إلى النقاط

التالية :

١ . تقدمت الإشارة إلى أنّ عرب الجاهلية كانوا على جانب كبير من الفصاحة والبلاغة بحيث إنّ القصائد المتبقية من ذلك العصر ومن جملتها (المعلقات السبع) ما زالت تعرف بالقصائد المنتخبة لدى العرب.

إلا أننا نعلم بأنّهم جمعوا قصائدهم كلها بعد نزول القرآن وانحناوا إجلالاً أمام الفصاحة القرآنية المنقطعة النظير ، وبالرغم من امتلاكهم كل الدوافع والحوافر الذاتية لمعارضة القرآن ومنازلته إلا أنّهم أخفقوا في ابداء شيء ما.

ولقد اطلعنا على نماذج حية واضحة من تأثير القرآن في هذا المجال في البحث السابق لجاذبية القرآن.

٢ . يقف ثلة من الذين تعرضت مصالحهم الامشوّرة للخطر بوجه رجال الحق دائمًا وعلى طول التاريخ ، ليوجهوا إليهم التهم والافتراءات ، وبالرغم من كونها كاذبة إلا أنها تحكي عن بعض الحقائق الموجودة في تلك البيئة.

فعلى سبيل المثال ، من ضمن الافتراءات والتهم التي وجهت إلى نبي الإسلام ﷺ هي مسألة السحر والسحرية ، التي كانت تستخدم ضمن نطاق واسع.

ويقول القرآن في الآيات (٢٤) و (٢٥) من سورة المدثر على لسان الوليد كبر المشركين : ﴿فَقَالَ انْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ انْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾^(١) ، فالسبب الرئيس وراء هذه النسبة المفتعلة للنبي ﷺ هو النفوذ العجيب والخارق للآيات القرآنية التي استحوذت على القلوب من خلال فصاحتها وبلاغتها العجيبة ؛ بحيث لا يمكن أن يعتبروا هذا النفوذ أمراً عادياً ولذلك لم يجدوا لفظة مناسبة ينسبونها له سوى لفظة (السحر) ، التي تعني في اللغة كل عمل خارق للعادة ومجهول المنشأ ، فأولئك وإن أرادوا بهذه النسبة أن يسلّلوا الستار على هذه الحقيقة الناصعة وينكروا الاعجاز الإلهي ، إلا أنّهم اعترفوا بحديثهم هذا

(١) ورد في تفصيل قصة الوليد بن المغيرة وحديثه بصدق جاذبية القرآن في البحوث السابقة.

بدون وعي منهم بعظمته القرآن وجاذبيته السحرية.

٣ . إنَّ من يتبع آثار المؤلفين والادباء يجد أَكْثَم عادة ينقسمون إلى فترين مختلفتين : فئة تعلق اهتماماً كبيراً على الجانب الفني للألفاظ ، وتحل المعاني في بعض الأحيان ضحية للألفاظ. وبعكس ذلك فئة لا تولي اهتماماً كبيراً للألفاظ وإنما تستخدم كاملاً قدرها ونوعها في النظر إلى عمق المعاني ولهذا السبب قسم كتاب تاريخنا الادبي والآثار القديمة للشعراء الكبار ، إلى اسلوبين مختلفين ، الاسلوب العراقي والاسلوب الهندي.

الشعراء الكبار الذين نظموا قصائدهم على النحو الأول ، استخدموا قابلياتهم الفنية في مجال التفنن بروعة الألفاظ وحسنها في حين أنَّ اتباع النحو الثاني وجهوا اهتمامهم في الغالب إلى دقائق المعاني والملابسات المحيطة بها.

وما لا يقبل الانكار أنَّ الذين أبدوا اهتمامهم بكل الأمرين وخلفوا وراءهم آثاراً طيبة ، هم نزير يسير ، لأنَّ الحديث عن مدى بناهم في هذا المضمار حديث ذو شجون. والدليل على هذا الكلام واضح ، لأنَّ الألفاظ الجميلة العذبة لا تتحكم في واقع المعاني المطلوبة ، ولا تعكس حقائقها الدقيقة فيها ، ولهذا غالباً ما يقف الشاعر والمتكلّم على مفترق طرقين : جمالية اللفظ وجمالية المعنى ، ومن ثمَّ يضطر إلى اختيار أحدهما ، ولذلك في كثير من النثر والنظم تذهب المعاني ضحية للسجع والقافية.

غير أنَّ الذين اطلعوا على آداب العرب وتعرفوا على حقائق القرآن يفهمون جيداً أنَّ هذا الكتاب الإلهي العظيم حافظ على الامتياز المهم وهو الاعجاز ، فألفاظه في منتهى العذوبة والحلابة ، والجمل المحبوبة في غاية الدقة والجمال. والكلمات فيه ذات ايقاع ووزن عذب ، والمعاني قد اعطي حقها بكل خصائصها ودقتها ، وهذه هي احدى أبعاد اعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة.

إنَّ القرآن لا يتكلف بأداء المعاني ويبين مراده بوضوح وفي الوقت نفسه يضفي على المعاني ألفاظاً عذبة وفي منتهى الجمال.

٤ . اشتهر الشعراء والخطباء بهذه الصفة : وهي أَكْثَم غالباً ما يبالغون إلى حد الكذب

في

أحاديثهم من أجل التوصل إلى حلاوة البيان وطراوته ؛ وعلى سبيل المثال يجعلون الطبقات السبع للأرض ستاً ، والطبقات السبع للسماء ثمانيةً. لتصاعد غبار حوافر خيل العسكر ، في الصحراء أو وضع تسعه مقاعد من الفلك تحت قدميه ليصل إلى طول ركاب (قزل ارسلان) ، أو يجعلون من القلب بحراً ، ومن الدم ومن دمع العين نهر (جيرون) حتى قالوا :

لَا تَرَوْغُ فِي الشِّعْرِ وَفِي فَنِّهِ لَأَنَّ أَكْذَبَهُ هُوَ وَأَحْسَنَهُ

وعلى هذا الأساس فإنّ اعدب الشعر أكذبه ويشير التعبير القرآني في صدد الشعراء إلى أكذبهم غالباً ما يستغرقون في تخيلاتهم وتشبيهاتهم الشعرية : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ . (الشعراء / ٢٢٥)

غير أننا حينما نقرأ جميع آيات القرآن فلا نرى فيها أي نوع من المبالغة الكاذبة ، بالرغم من وجود كل الدقة والجمال في الالفاظ والمعاني والتي تشتراك في تبيين الحقائق. وهذا السبب نشاهد أنّ القرآن يبرئ ساحة نبي الإسلام ﷺ من تهمة الشاعرية ، وساحتها أيضاً من تهمة الشعر ^(١).

نعم على الرغم من خلو القرآن من التخييلات الشاعرية والمبالغات والاستغرافات بعيدة عن الحقيقة الشعرية ، والتشبيهات والاستعارات الوهمية ، فلا يحتوي إلا على بيان الحقائق بصورة واقعية وقطعية ، بالرغم من كل ذلك نجده في عين الوقت في منتهى العذوبة والجاذبية بحيث استقطب البعيدين عن الإسلام بل حتى المحالفين للنبي ﷺ وذكرنا أمثلة لذلك في البحث السابق عن جاذبية القرآن.

ومن الحديري بالذكر أنّ ما نقله التاريخ من أن كثيراً من الشعراء العرب عندما اصطدموا بفصاحة القرآن ، ارتضوا الإسلام طوع أنفسهم ، ومن جملة الشعراء الذين أسلموا تحت تأثير جاذبية القرآن هو (لبيد) الذي كان له في زمن الجاهلية احدى المعلقات السبع (وهي

(١) ينقل القرآن هذه التهمة عن المشركين في ثلاثة آيات في سور : الأنبياء ، ٥ ؛ والصفات ، ٣٦ ؛ والطور ، ٣٠ ؛ وينفيها الله سبحانه وتعالى عن نبيه بصراحة في آيتين من سورة يس ، ٦٩ ؛ والحاقة ، ٤١ .

سبع قصائد شعرية معروفة ومتمنية انتخبت وعلقت على حدار الكعبة). وكذلك حسان بن ثابت وهو من الشعراء الأثرياء فقد أسلم تحت تأثير جاذبية القرآن. ومن الشعراء الذين دخلوا إلى الإسلام طوعية واستفادوا كثيراً من جاذبية القرآن هم : (الخنساء) الشاعرة والنافذة العربية ، و (الاعشى) الذي كان من نوادر الشعراء في عصر الجاهلية.

٥ . من الظواهر الأخرى للفصاحة والبلاغة القرآنية هو الإيقاع الخاص الموجود في القرآن نفسه.

إنّ أحاديث الأدباء عادة إما أن تكون شعراً أو نثراً ، أمّا القرآن فليس شعراً ولا نثراً عادياً ومعروفاً ، وإنّما هو نثر ذو إيقاع خاص به ، نثر حينما يتلوه قراء القرآن يقع غالباً في قالب موزون كامل.

وإذا كان لا يمكن استعمال الكلمة (الموسيقى) فيما يخص القرآن لأنّه يمتنع في عرفنا بالمفاهيم السلبية. إلاّ أنّ بعض الكتاب العرب المعروفين نظير (مصطففي الرافعي). يقول في كتابه (اعجاز القرآن) : «الاسلوب القرآني يسبب ويوجد الحاناً تلقت اسامع كل مستمع إليها ، وهي نوع من الموسيقى الخاصة التي لم تكن في الكلام الموزون في ذلك الزمان وهذا الترتيب والنظام كان يلطف طباع العرب ويعرفهم اسلوباً جديداً في الكلام لم يكن موجوداً سابقاً».

ويقول (بولاتيتر) أحد العلماء الغربيين في هذا المضمار : «من الخطأ أن نفكّر بأنّ الفصاحة الإنسانية تستطيع أن تؤثر بمثل ما يؤثر القرآن لأنّه دائماً يسير باطراد إلى الرفعة بدون أن يرى فيه أي ضعف وفتور ، وكل يوم يفتح لنا قمماً جديدة ، نعم إنّه معجزة يتضاءل أمامها أنس الأرض وملائكة السماء» ^(١).

ويضيف إلى ذلك عالم آخر اسمه (كتت هنري دي كستري) قوله : «إذا لم تكن في القرآن غير عظمة المعاني وجمال المباني لكان كافياً لأن يتسلط على كل العقول ويجذب جميع القلوب إليه» ^(٢).

(١) إثبات المدحاة ، ج ١ ، هامش ص ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٢.

٦ . ومن الامور المهمة أيضاً : إن أي حديث يبعث الملل والسام مع التكرار عادةً ، إلا القرآن فإنه في منتهى الروعة بحيث لو قرئ مئات المرات لاحتفظ بجاذبيته ورونقه ، الأمر الذي يدركه عشاق القرآن وغيرهم بوضوح.

وهذا ما نقرأه جلياً في الحديث المشهور عن الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام والذي جاء فيه بأن رجلاً سأله الإمام الصادق عليهما السلام «ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة ، فقال : لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيمة» ^(١) .

ويقول علي عليهما السلام في جملة مختصرة وبلغة أيضاً : «لا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع»

^(٢) .

٧ . ومن دقائق الفصاحة والبلاغة في القرآن هو تحنيب كثرة الألفاظ ومراعاة الاختصار ، مع ما يؤديه من وضوح المعنى وبيان تامية المقصود ، وهو ما يسمى اصطلاحاً بترك «الإيجاز المخل» و «الاطناب الممل».

وقد تمت مراعاة ذلك في آيات القرآن على أحسن وجه ، فنجد أحياناً آية واحدة من القرآن تبين معاً مل قصبة طويلة بحيث إن كل جملة منها تتكلم عن مجال واسع من هذه القصبة ، ونقف على هذا في أمثلة كثيرة من القرآن ، ومنها الآية المشهورة التي تقول : ﴿وَقَالَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءِكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوْتُ عَلَى الْجُودِي وَقَيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ . (هود / ٤٤)

نعم هذه هي الآية نفسها التي جنى لها الأديب العربي المعروف (ابن المقفع) على ركبتيه عندما قصد القيام بمعارضة أحد أرباع القرآن حسب الاتفاق الذي عقده مع أصحابه ، وحينما وصل إلى هذه الآية أعرض عن ذلك وأقرّ في نفسه بالضعف والعجز الكامل . ذلك لأنّها تروي قصة طوفان نوح عليهما السلام باختصار بارع بكل تفاصيلها ونتائجها ، وبعبارات قصيرة وغنية بمعانٍ ، وحسب قول أحد المحققين إنّها تشتمل على ٢٣ نكتة من

(١) بخار الأنوار ، ج ١٧ ، ص ٢١٣ .

(٢) نجح البلاغة ، الخطبة ١٥٦ .

النكات الأدبية ، من قبيل : (الإستعارة ، الطباق ، مجاز الحذف ، الإشارة ، الموازنة ، الجناس ، التسهييم أو الإرسال ، التقسيم ، التمثيل ، الارداد و ...).^(١)

٨ . احدى خصائص القرآن من الناحية الأدبية ، هي الصراحة القاطعة بما يقل نظيرها ، اضافة إلى بلطفة والدقة في العبارات.

ومن المعلوم أن كل إنسان يستمتع بالنبرة الصريحة لأحد الفصحاء ، ذلك لأنّه يبيّن الحقائق بصدق وأمانة وبدون أي تشویه أو تشويش ، وليس هناك لذة تفوق لذة درك الحقائق.

إن التشدّق والتحدّث بأشكال متعددة ، يدل بوضوح (إلا في الموارد الاستثنائية) على عدم إيمان المتكلّم بأقواله ، أو على مخاوفه واحتراسه من حكم المستمعين له ، وفي كلتا الحالتين يحكي ذلك عن ضعف وعجز المتكلّم.

وتقترب الصراحة والصدق القاطع بالخشونة في أغلب الأحيان والمهم في الأمر أنّ على المتكلّم في الوقت الذي يكون صريحاً فيه أن يهتم بلطفة البيان أيضاً ، ونشاهد ذلك في آيات القرآن بشكل واضح.

ومن أهم الجبهات القتالية للإسلام هي جبهة التوحيد والشرك ، وقد استفاد القرآن من أعلى مراتب الصراحة والقاطعية في هذا المجال فتارة يقول : ﴿أَنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الْذُبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِدُوهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبُ﴾. (الحج / ٧٣)

وتارة أخرى يقول رداً على عبادة الأوثان الذين احتموا بذرية اتباع عقائد آبائهم وأشرافهم هروباً من المنطق الصاعق للقرآن : ﴿بَلْ نَتَبَعُ مَا الْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾. (البقرة / ١٧٠)

وفي موضع آخر يصعد من حدة قاطعيته في مقابل التوسل بآداب وتقالييد الأجداد بقوله على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (الأنبياء /

(٥٤)

(١) أساليب اعجاز القرآن ، ص ٥٢

ويقول في صدد الإيمان بنبي الإسلام ﷺ : ﴿فَلَا وَرِبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ / فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ . (النساء / ٦٥)

وعلى هذا الأساس يعتبر الشرط الأساسي للإيمان الصادق التسليم ظاهراً وباطناً وسراً وعلانيةً ، إضافة إلى ايجاد الانسجام بين الرغبات الذاتية والأوامر النبوية الشريفة ، وبالرغم من كل هذه الصراحة والقاطعية نشهد اللطافة والدقة في العبارات بصورة كاملة أيضاً . ونلاحظ هذه الحدية أيضاً بشكل واضح في المباحث الأخرى ، ذات العلاقة بالمبداً أو المعاد ، والقوانين الاجتماعية ، أو المسائل المتعلقة بالحرب والصلح ، أو البحوث الأخلاقية ، والتي يتطلب شرح كل واحدة منها كتاباً مستقلاً .

٩ . المثانة والتزاهة في البيان : الأشخاص الاميون لا يعبأون بعباراتهم عادة وغالباً ما يستعينون بالجمل البعيدة عن الأدب والذوق من أجل التوصل إلى أداء مقاصدهم من الكلمات ، وبالرغم من أن القرآن ظهر في أوساط هذه الفئة من الناس ، إلا أنه لم يتأثر بتلك البيئة على الإطلاق ، وحرص على مراعاة منتهي المثانة والغففة في تعبيراته وهو مما أضفى على فصاحة القرآن وبلامته طابعاً خاصاً .

وحيثما يتصدى الخطباء والكتاب الكبار لحوادث العشق أو مسائل أخرى مشابهة ، فهم يضطرون لأن يطلقوا العنان لألسنتهم وأفلامهم كيما شاؤا فيطرحون ألواناً كثيرة و مختلفة من التعبيرالمهيبة والمؤذية لرسم معاًم الصورة الواقعية للأبطال الحقيقيين في القصة ، وإنما أن يسدلوا ستار الغموض والإبهام على جانب من هذه الواقع . مراعاة للغففة والذوق العام . ويتحدثوا مع رقبائهم بشكل مغلق .

والجمع بين هذين الأمرين : أي رسم معالم الواقع بصورة كاملة ، وعدم تلوث القلم واللسان بكل ما يخدش العفة والأدب ، يعتبر أمراً في منتهي الصعوبة لا يؤديه إلا القليل . فكيف يمكن أن نتصور شخصاً أمياً ظهر في مجتمع متختلف متواوح يحدد المعالم الدقيقة كاملة للأوضاع القائمة ، ثم لا نجد في تعبيره أدنى معنى يخدش العفة والأدب ؟ وعلى سبيل المثال حينما يبدأ القرآن في وصف الواقع الحساسة لقصة يوسف الواقعية وما

اشتملت عليه من معانٍ الحب والغرام الذي اشتعل في قلب تلك المرأة الجميلة المتهورة بجده يستفيد من جميع اصول الأخلاق والعنف من دون أي تمويه وتعتيم على الحقائق ، أو إجمال الحوادث في جو من الابهام والغموض ، إنّه لا يدع أي شاردة وواردة في الحديث إلا وذكّرها ولكنّه لا يتطرق إلى أدنى اخراج عن اصول العفة في البيان ، فعلى سبيل المثال يقول في صدد شرح قصة اختلاء زليخا بيوسف عليهما السلام : ﴿ وَرَأَوْدَتْهُ النِّسِيْهُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنَّهُ رَبِّيْ اخْسَنَ مَشْوَأَيْ اَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ . (يوسف / ٢٣)

ومن الجدير بالذكر استعمال القرآن لكلمة «راود» التي تستفاد في مورد الالحاد في الطلب من إنسان ما بشيء من المهدوء والمرؤنة ، وهي تنسجم تماماً مع أداء المعنى المقصود هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، لا يذكر اسم زليخا ولا زوجها عزيز مصر بل يقول : «الّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا» من أجل أن يبيّن مروءة يوسف وعدم خيانته لモلاه ، كما يبيّن في الوقت ذاته تقواه ، ومقاومته لمن يعيش في كنفه وتحت إمرته .

ومن جهة ثالثة تشير جملة ﴿ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ التي تفيد معنى المبالغة بحكم مصدر باب التفعيل إلى مدى صعوبة الموقف وتلاطم الأحداث التي مرت بها هذه الواقعة . ومن جهة رابعة توضح جملة ﴿ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ذلك الحديث الأخير لزليخا الذي قالته لبلوغ وصال يوسف ، إلا أنها نلاحظ هنا مدى رزانته وقوته سبكه المصحوبة بنزاهة البيان وسمو المعنى .

ومن جهة خامسة يشير كلام يوسف : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنَّهُ رَبِّيْ اخْسَنَ مَشْوَأَيْ ﴾ راداً على زليخا مندداً بها وبصرامة ، بمعنى أنني لا أقوم بخيانة صاحب البيت الذي أنعم عليّ وقادسته هموم العيش ، بالرغم من الأيام القليلة التي قضيتها في هذا البيت فما بالك أنت وقد قضيت هنا عمراً طويلاً .

وتوضح الآيات اللاحقة التي يطول شرحها هذه القصة بشكل رائع ، ومن ثم ترسم معالم المقاومة الخيرة ، لعواصف الموى والتهور وتسليم الامور الذاتية بيد الله تعالى في هذه المشاهد بشكل ممتع وجميل .

وفي آية أخرى عندما يصف أحاسيس نساء مصر ، حينما دعتهن زليخا إلى ضيافتها لترئه نفسها ، يقول في جملة مختصرة : **﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَّعْنَ اِيْدِيهِنَّ وَقُلْنَ حَاسَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا اَنْ هَذَا اَلٰ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾** . (يوسف / ٣١)

ويدل تعبير **﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾** على مدى عَفَّتَه ونقاء الفائقين فضلاً عن دلالته على مدى جماله المنقطع النظير ، وهذا مثل تعبيرنا عن عفة أحد الأشخاص عادة بأنه مَلَك من الملائكة ، وكذلك توجد على أثر هذه الحوادث جمل تحوي على قدر كبير من الفصاحة والجمال ، تدلل على عظمة ومقام يوسف بصورة كاملة ذلك المثل الأعلى في العفة والطهارة^(١) .

١٠ . أمثلة القرآن : يستخدم القرآن أمثلة كثيرة من أجل تبيان الحقائق وهي بجمعها تخليلات واضحة للفصاحة والبلاغة في هذا الكتاب الإلهي العظيم ، مما يبعث على اعتزاز الإنسان واعجابه الكبير ، وهي الادوات الدقيقة التي استخدمت في هذه الأمثلة والامور الصغيرة الجذابة الممتعة التي نلاحظها في كل واحد منها :

وممّا لا يقبل انكاره أساساً هو دور المثال في توضيح وتفسير البحوث ، ولهذا السبب لا يمكن الاستغناء عن ذكره في أي مبحث مهم ، لتوضيح الحقائق وتقريبيها من الذهن . فالمثال الجيد والمنسجم مع المعنى المقصود يمكن أن يؤدي دور أحد الكتب أحياناً ، فيوضح المطالب المعقدة ويجعلها قابلة للفهم ، وهذا يعتبر التمثيل من أحد الفنون التي يعتمد عليها الفصحاء والبلغاء والادباء والشعراء في العالم ؛ يقول الزمخشري في الكشاف في صدد (المثل) :

المثل في أصل الكلام معناه المُثُلُ ويعني النظير ... ولضرب الأمثال عندهم والتحدث بالأمثال والنظائر لدى العلماء شأن رفع ذلك لأنّها ترفع الحجاب عن المعانى الخفية وتوضح النكات المبهمة بحيث يصبح الأمر المتخيل حقيقة ويقع الشيء المتوهם مستيقناً في محله وتتجلى صورة الغائب على غرار صورة الشاهد ولهذه الجهة أورد الله تعالى أمثالاً كثيرة في كتابه القرآن المبين وسائر كتبه الأخرى^(٢) .

(١) لمزيد من الاطلاع يرجى التفسير الأمثل ذيل الآية ٣١ من سورة يوسف.

(٢) أمثال القرآن ، ص ١٢٠ .

وللأمثلة فوائد عديدة ، منها أنها تجعل المسائل العقلية حسية وتقرب الطرق البعيدة ، وتوصل فهم المسائل إلى جميع الناس وبصورة شاملة ، وتصعد درجة الاطمئنان بالأمور المطروحة ، ومن ثم المثال المناسب يعتبر رداً صاعقاً على منطق المعاندين ، وقد جمع بعض المحققين أمثال القرآن في كتاب درس وحلل فيه أكثر من مائة مثال قرآن . إن أمثلة القرآن معجزة حقاً ، ويكفي من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة ، أن نجعل قسماً منها مورداً للبحث .

مقتضيات من الأمثلة الاعجازية للقرآن :

حينما يريد القرآن رسم مشهد دقيق عن الحق والباطل يقول : ﴿إِنَّرَأَيْتَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَأَلْتُ أُوْدِيَّةً بِقَدْرِهَا فَأَحْتَمَلَ السَّيْلَ زَيْدًا رَأَيْتَ وَمَمَا يُوْقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَنَاعَ زَيْدَ مَثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَمَا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُهَّافَةً وَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ . (الرعد / ١٧)

لقد بين الله تعالى معاً صورة الحق والباطل على احسن وجه في هذا المثال الغير بالمعاني والمشتمل على ألفاظ وعبارات موزونة ، وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الحقائق المهمة التي تضمنها هذا المثال :

١ . يحدث أحياناً أن تلتبس كثيراً عملية التمييز بين الحق والباطل مما يقتضي الرجوع إلى الأمثلة والأدلة .

٢ . الحق دائماً يعود على الإنسان بالخير والفائدة شأنه شأن الماء الصافي الذي هو مادة الحياة أو نظير المعدن الخالص الذي يستخدم للزينة أو لوسائل الحياة الضرورية .

٣ . الحق غني في ذاته قائم بنفسه دائماً ، أما الباطل فيستمد العون من مكانة الحق ويسعى إلى التلبس به والاستفادة من قيمه مثلاً يستمد أي نوع من أنواع الكذب وجوده وشأنه من الصدق بحيث لو لم يظهر على مسرح الوجود كلام صادق لم يتصور أحد معنى الكذب ، وإذا لم يكن للحق وجود لما عُرف بالباطل .

٤ . إن استفادة أي موجود بحسب قابليته وقدرته كما يجمع الوادي من ماء المطر على قدر اتساعه واستيعابه .

٥ . الباطل يبحث دائماً عن سوق مضطرب ، مثله كمثل الماء المنحدر من قمة الجبل فأنه ينهمر بسرعة مصحوبة بهدير وتلاطم يعلوه الزيد ، أمّا عندما يصل إلى السهل فإنّ هدирه وهيحانه سوف يهدأ وكذلك الزيد فانه يختفي ولا يبقى له أثر .

٦ . الباطل لا يظهر في صورة واحدة وإنما يظهر في كل لحظة بشكل معين ، مثلما يطفو الزيد على سطح الماء وعلى سطح المعادن في فرن صهر المعادن ، لذلك لا ينبغي الانخداع بتلك المظاهر المختلفة على الاطلاق ، ولابد من تحديد مقاييس معرفة الحق والباطل ، لتشخيص وفرز كل واحد منهما عن الآخر .

٧ . الصراع بين الحق والباطل مستمر استمرار الحياة ويتوارث من جيل لآخر فهذا ماء عذب فرات وهذا ملح اجاج ، يسري بين الخالق حتى ينفح في الصور فكما أن تساقط الأمطار من السماء وذوبان المعادن في فرن صهر المعادن مستمر و دائم ، كذلك هذا الأمر مستمر و دائم أيضاً .

٨ . الباطل يميل إلى التعالي وجلب الأنظار ، لكنه خاٍ من أي محتوى ، أمّا الحق فيمتاز بالتواضع والمدوء والمهارة في الفن .
وهنالك نكات أخرى يمكن استخلاصها من هذه الأمثلة وفي مجالات مختلفة إذا ما دققنا النظر في الزوايا المختلفة لهذه الآية .

وهذه الآية تمثل نموذجاً من الأمثال القرآنية ، وهناك أمثال أخرى نظير المثل الذي يدعو الناس للانفاق في سبيل الله سبحانه وتعالى ، ويشبه ذلك بالحروب والسنابل ، كما ورد في الآية ٢٦١ من سورة البقرة ، وكالمثال الذي ورد في ذم الأعمال المقرونة بالرياء حيث صورها القرآن كالحجر الصلب الذي يعلوه التراب ، فإذا أصابه المطر أزال عنه التراب وتركه صلداً أملساً ، أمّا الأعمال الحالصة لوجه الله فقد شبهها المثل بالجنة على مكان مرتفع وأصابها المطر فآتت ثمارها ضعفين . كل ذلك ورد في الآيتين ٢٦٤ و ٢٦٥ من سورة البقرة .

وَكَالذِّي وَرَدَ فِي صَدْدِ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ وَتَشَبِّهُهَا بِالرَّمَادِ فِي مَهْبِ الْرِّيحِ (إِبْرَاهِيمٌ / ١٨) ، أَوْ تَشَبِّهُهَا بِالسَّرَّابِ (النُّورُ / ٣٩) ، أَوْ بِالظُّلَمَاتِ الْمُتَرَكِّمَةِ فِي الْبَحْرِ عَنْدَ قَدْوَمِ الْلَّيلِ وَالسَّحْبِ تَغْطِي السَّمَاءَ (النُّورُ / ٤٠).

وَكَالذِّي وَرَدَ فِي صَدْدِ أَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ وَتَشَبِّهُهَا بِالشَّخْصِ التَّائِبِ فِي صَحْرَاءِ مَقْفَرَةٍ فِي الْلَّيلِ الْبَهِيمِ ، وَقَدْ هَزَمَتْهُ صَوَاعِقُ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَإِذَا بِهِ يَرِي لَحْظَةً وَاحِدَةً أَنَّ أَشْعَعَ الْبَرْقِ قَدْ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ وَحِينَ يَعْقِدُ الْعَزْمَ عَلَى التَّحْرِكِ فِي طَرِيقِهِ تَعُودُ الظُّلْمَةُ لَتَغْطِي كُلَّ مَا يَقْعُ عَلَيْهِ نَظَرَهُ (الْبَقْرَةُ / ١٩ وَ ٢٠).

وَكَالذِّي وَرَدَ فِي صَدْدِ تَمْسِكِ عَبْدَةِ الْأَصْنَامِ بِأَصْنَامِهِمُ الْعَدِيمَةِ الشَّعُورِ وَالْقُدْرَةِ وَتَشَبِّهُهَا بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ (الْعَنْكَبُوتُ / ٤١).

وَمَا وَرَدَ فِي صَدْدِ تَشَبِّيهِ الْمُغَتَبِينَ بِأَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَأْكِلُونَ لَحْوَ إِخْوَانِهِمُ الْمُوْتَىِ (الْحَجَرَاتُ / ١٢) وَمِنْ ثُمَّ مَا وَرَدَ فِي صَدْدِ الْذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ لِلَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَتَشَبِّهُهُ ذَلِكَ النُّورُ بِالْمُصْبَاحِ وَالْخَوَاصِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ الْمُقْتَرَنُ بِأَنْوَاعِ الظَّرَافَةِ وَالرُّوعَةِ (النُّورُ / ٣٥). وَيُمْكِنُ إِزَاحَةُ الْسَّتَّارِ فِي هَذَا الْقَسْمِ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبِلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ عَنْ مَوَارِدِ أُخْرَى كَثِيرَةٌ يَسْتَغْرِقُ الْكَلَامُ عَنْهَا وَقْتًا طَوِيلًا ، وَهِيَ بِدُورِهَا تَطْلُعُنَا عَلَى حَيَاةٍ مَلِيَّةٍ بِالْقِيمَ وَأَضْدَادِهَا تَوَاجَهُنَا فِي حَيَاةِ الْيَوْمَيْةِ وَتَبَيَّنُ لَنَا عَالَمًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ فِي حَلَةٍ مِنَ الْأَمْثَالِ الْبَدِيعَةِ.

* * *

٢ . الاعجاز القرآني على صعيد المعارف الإلهية

بعد الكلام عن مسألة الفصاحة والبلاغة وصل بنا المطاف للحديث عن المضمن وقبل كل شيء نتعرض لمسألة المعارف ونحاول بيان المسائل المتعلقة بالمب丹 والمعاد والعقائد الدينية.

ومن الامور الأساسية هي أن بيان المسائل ذات العلاقة بالمبداً والمعاد والنبوة والإمامية ، يُعدُّ أحد المعايير الفاصلة بين الأديان الحقة والباطلة ، لأنَّ بحوث هذا القسم وبالأخص ما يتعلّق بالذات القدسية لله تعالى وصفاته وسمائه في غاية الدقة والتعقييد ، بحيث يصبح الحد الفاصل بين الشرك والتوحيد أدق من الشعرة أحياناً.

إنَّ هذا القسم من الآيات القرآنية على جانبٍ كبيرٍ من الابداع والعمق والدقة ، بحيث لو لم يوجد دليل على اعجازه سوى الايضاحات الدقيقة التي يبيّنها في هذه المسائل ، لكان هذا كافياً للاستدلال عليه.

خصوصاً وأنَّ القرآن ظهر في بيئه عاكسٍ على عبادة الأصنام ملوءه بالمعابد بدءاً من الأصنام المنزليّة وانتهاءً بالاصنام العشائرية والأصنام الكبيرة العامة ، التي كانت مقصداً لكل بلد وحي.

لقد كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم من الاخشاب أو الصخور أو المعادن ، وبالرغم من علمهم بعدم امتلاكها لأدنى احساس وشعور وحركة ورؤية ، بخدهم ينسبون إليها القدرة المائلة استناداً إلى جملة من التخيلات المخضرة الركيكة التي تدور في أذهانهم ، ومن ثم يسلموها مقاليد امورهم ومقدراتهم ويخضعون لها في عجز وتضرع يتّمسونها ويُسجدون

لها ويقدمون لها القرابين حتى تصير واسطة للفيض والشفاعة بينهم وبين الله تعالى ، وكان يصل بهم الأمر أحياناً إلى أن يصنعوا أصناماً من التمر ، واتفق في احدى سني القحط أن خلت منازلهم من الطعام فحملوا على آهتهم التي صنعواها بأيديهم فأكلوها ، ومن شواهد هذه القصة هو الشعر الذي لا يزال شائعاً بين أشعار عصر الجاهلية :

أكلت حنيفة رهأا عام التقدم والجماعه لم يحدروا من رههم سوء العوقي والتابعه وهذه الأفكار هي من أسوأ الأفكار خرافية واحطاطاً وأكثرها سخافة والتي يمكن أن تخطر في ذهن إنسان.

إن الأكثريّة الساحقة من عرب الجاهلية تعتبر الملائكة بنات الله ، في حين أكّهم أنفسهم كانوا ينفرون من مجرد سماع اسم البنت . لما أثّر عنهم من تحقيّرهم للمرأة في تلك البيئة . كما نقرأ ذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَهْدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِرَحْمَنِ مَثَلًاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . (الزخرف / ١٧)

وتوجد هناك مسائل خرافية أخرى كثيرة يطول شرحها سواء في مبحث المعرفة الإلهية أو في مبحث المعاد وغيرها .

وعندما نشاهد شخصاً ظهر من تلك البيئة يدعو إلى التوحيد الخالص والمعارف الأصيلة ببيان دقيق يذعن له كبار الفلاسفة ، حينئذ لا يعترينا الشك بأنّ بيان مثل هذه المعرف لا يصدر إلا من الله عزّل ، وليس هناك أدنى مبالغة في هذا القول ولا حاجة إلى قطع طريق بعيد طويّل للتوصّل إلى الحقيقة ، فإذا أقينا نظرة على المجلد الثاني والثالث من هذا الكتاب «نفحات القرآن» حيث تضمن المجلد الثاني بحثاً عن الله سبحانه وتعالى والثالث حول معرفة الله لا طلعتنا على سعة المعرف القرآنية وعمقها ، وكذلك الحال بالنسبة إلى المعاد في القرآن فقد افرد له بحث واسع في المجلد الخامس والسادس من نفحات القرآن . لذا نقف هنا عند البحث الإجمالي ونكتفي باشارات عابرة في هذا المجال ، الغرض

منها

ان نعود بقراءنا الأعزاء إلى المجلدات السابقة.

وبالرغم من سيطرة فكرة الشرك بالله وعبادة الأصنام على تلك البيئة بحيث لا يجرؤ أحد على النيل من هذه العقيدة بادئ لوم أو اعتراض ، انبرى القرآن بقاطعية كاملة إلى ضرب تلك العقيدة الخرافية ، فتارة ينكل ذلك على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام فيقول : ﴿قَالَ افَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْقُعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ إِفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ . (الأنبياء / ٦٦ - ٦٧)

وتارة أخرى يقول في صدد قصة عجل السامرية الذي أصبح مورداً لإغواء عدة من جهال بني إسرائيل واغترارهم به : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ . (طه / ٨٩)

وبجملة مختصرة : إن القرآن يندد كثيراً بالشرك وينبذ عبادة الأصنام بحيث إنه يعفو ويصفح عن جميع الذنوب ما عدا الشرك ، فيقول : ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى أَثْمًا عَظِيمًا﴾ . (النساء / ٤٨)

إن هذا التنديد القاطع والحااسم بفكرة عبادة الأصنام يعد بحق أمراً فريداً من نوعه ؛ لأن هذه الفكرة تعتبر سُنّة معروفة للأجداد ، والثقافة الرايحة في جميع أنحاء تلك البيئة بحيث إن العدول عنها يُعد من عجائب الامور ومورداً لكل أنواع الذم والتقرير ، أمّا نحن ففي الوقت الحاضر نلقي نظرة عفوية على هذه الآيات ونعتبرها أمراً عادياً بغض النظر عن أن تلك البيئة كانت تعيش ضمن ظروف وأوضاع خاصة تختلف عن أوضاعنا ، هذا من جانب ومن جانب آخر عندما يشرع في بحث التوحيد ، يعمد إلى طرح الدلائل الفطرية والمنطقية و (برهان النظام) و (برهان الصديقين) بشكل لا يتصور الإنسان ما هو أروع منه .

ويشير في بحث التوحيد الفطري إلى المسألة التي كانت تحدث في حياة كل أولئك الناس وبأشكال مختلفة فيقول : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ . (العنكبوت / ٦٥)

وبهذه الطريقة يبيّن استقرار نور التوحيد في أعماق وجودهم ووجودهم ، وينزح النقاب

عن طوفان الحوادث تلك الشعلة المستترة في أقبية الجهل والجهالية ، فعندما يأتي إلى التوحيد الاستدلالي يقول في جملة مختصرة : **﴿أَفَيْ أَنْتَ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** . (إبراهيم / ١٠)

بعد هذا البيان الإجمالي يأخذ ييد البشرية ويحجب كل نقطة من نقاط هذا العالم الفسيح ليريهم الآيات في الآفاق وفي أنفسهم واحدة تلو الأخرى فتارة يقول : **﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾** . (الذاريات / ٢١ - ٢٠)

ثم بالبراهين المفصلة على عظمة الله تعالى وقدرته وحكمته في السماء والنجم والارض ، والنباتات والطيور ، والليل والنهار ، والهواء والمطر فيستانس الإنسان عند البحث فيها وتأخذه حالة سرور غامر ^(١) .

ونجده ييدي رأيه أيضاً حينما يشرع في بحث الصفات الإلهية وهو من أعقد الأبحاث العقائدية وواحد من أهم المزلقات الفكرية الخيرة لكثير من العلماء ؛ ففي أحد الموضع يكرم الله تعالى وينزهه من أي نوع من الصفات الممكنة المحدودة الناقصة ، فيقول في جملة مختصرة : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** . (الشورى / ١١)

وعلى هذا الأساس ينفي عنه جميع الأوصاف الممكنة ، ويثبت له الصفات الجمالية والكمالية المنقطعة النظير.

ويتوسع في كلامه أحياناً فيقول : **﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمِّيْنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيُّ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** . (الحشر / ٢٤ - ٢٢)

وفي الواقع أننا لو عقدنا مقارنة بين الوصف الذي رسمه القرآن في عدة آيات عن خالق الكون وبين الرؤية التي يمتلكها المشركون والانطباعات السائدة في بيئة ظهور القرآن عن الله تعالى ، لما أمكن تصور أن هذا البيان الساطع الفريد من نوعه هو وليد تلك البيئة الخرافية المظلمة اطلاقاً.

(١) شرحنا هذه الآيات تحت عشرين عنواناً في ج ٢ ، من هذا التفسير.

ويصف في موضع آخر العلم اللامحدود لله تعالى بهذا الرسم الذي يفوق حد التصور

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَقَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ . (لقمان / ٢٧)

في واقع الأمر أن هذه الصورة تتضمن الإشارة إلى حالة غير متناهية إلا أنها صورة حية ، لأن العدد اللامتناهي قد يستفاد منه بشكل جامد في الرياضيات والتوضيحات الفلسفية ، وقد يستفاد منه وهو ينبع بالحياة على شاكلة الصورة التي وردت في هذه الآية بحيث ترتفع بفكر الإنسان ، إلى ذرى الالهامية .

ونحن عندما نستطيع أن نقف على عمق المعارف الإسلامية فيما يخص أدق المسائل التوحيدية والأسماء والصفات الإلهية نكون قد بحثنا دورة لكل القرآن المجيد بهذا الصدد ^(١) .

* * *

وحيثما يضع القرآن للبنات الأولى لمسألة المعاد والحياة بعد الموت بحده تارة يفند جميع المزاعم والافتراضات الخاطئة للمناوئين في جملة مختصرة ويقول : **﴿كَمَا بَدَأْكُمْ تَغُوُّذُونَ﴾** . (الأعراف / ٢٩)

وتارة يقول في تبيان أوسع : **﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** .

(يس / ٨٢ - ٨١)

وتارة أخرى يجسم لهم مشهد المعاد والبعث في لوحة حية بدون أن يكلفو تفكيرهم عناء الاستدلال : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْعَةٍ مُخَلَّقٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقٍ لِتُبَيَّنَ لَكُمْ وَنُقْرُ فِي الْأَرْضِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ**

(١) يرجع ج ٣ من هذا التفسير ، للحصول على معلومات واسعة ومنظمة بهذا الصدد .

العُمُرِ لِكَيْلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ
وَانْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّهُ يُحْكِي الْمَوْتَى وَإِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٦٥﴾ . (الحج / ٦٥)

وبناء على ذلك يبين القرآن مشهد البعث في عالم الإنسان وطبيه لمختلف المراحل الجنينية التي تُعدُّ كل واحدة منها بعثاً عظيماً ، وفي عالم النباتات أيضاً نلاحظ مشهد الموت والحياة وبعثها في كل شتاء وربيع من كل سنة.

إن الآيات التي تطرقـت إلى الحياة بعد الموت والأدلة المختلفة عليها تعرضـت إلى المنازل والمشاهـد المتعدـدة للآخرـة ، وما يقع هناك من حـوادـث ، وكيفـية تجـسـم الأعـمال والحساب والكتـاب والمـيزـان والـشهـود في يوم الـقيـامـة ، وتحـتـوي هـذـه الآـيـات عـلـى اـمـور وـمـسـائـل دـقـيقـة ، تـجـعـلـ الإـنـسـانـ عـنـدـ مـطـالـعـتـهـاـ وـتـأـمـلـ فـيـهاـ فـيـ حـالـةـ غـامـرـةـ مـنـ العـجـبـ ، وـبـإـمـكـانـكـمـ مـطـالـعـةـ نـيـذـةـ مـنـ هـذـهـ الـمـسـائـلـ بـشـكـلـ مـوـسـعـ فـيـ الـمـحـلـ الـخـامـسـ وـالـسـادـسـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ .

* * *

٣ . إعجاز القرآن في تصور العلوم الحديثة

قبل الدخول في هذا البحث لابد من الإشارة إلى نقطتين لتصحيح أي نوع من سوء الفهم بقصد هذا البحث :

١ . يجب أن لا يتوقع أحد أن يبيّن القرآن الكريم جميع مسائل العلوم الطبيعية وأسرار وخصوص كل الأشياء ، لأن القرآن لم ينزل لبيان هذه الامور ، فهو ليس دائرة للمعارف أو كتاباً لعلم طبقات الأرض «الجيولوجيا» أو لعلم النبات وإنما هو كتاب للتربية والهدایة ، نزل ليقود الناس إلى حياة طيبة مقتنة بالسعادة والفضيلة ويجعلها الصدق والأمانة والنظام والرحمة ، وليوصلها في النهاية إلى القرب من الله تعالى .

وإنما الغرض من قوله تعالى في صدد القرآن الكريم :

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ . (النحل / ٨٩)

فهو لبيان كليات الامور التي تتعلق بنجاة الإنسان وسعادته وتربيته ولذلك يقول

تعقيباً على هذه الجملة :

﴿وَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ ۖ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ . (النحل / ٨٩)

ييد أن بعضاً من الآيات الإلهية ومن أسرار الخلق في العالم وفي وجود الإنسان ذاته تساعده على معرفة الله والتعرف على عظمة عالم الخلق الذي هو من صنع الله تعالى ، لذلك قد نجد أحياناً إشارات إلى هذه المسائل بين الآيات القرآنية وقد رفعت الستار عن امور خفية واستترت عن علماء العالم في ذلك الوقت .

وملخص الكلام هو : أن الإثبات ببعض أسرار العلوم وحقائق عالم الوجود في القرآن

لا لعرض العلوم الطبيعية أو لتأليف دائرة للمعارف بل الغرض منه هو تبيين الأهداف التربوية

والأخلاقية ، وتعليم درس التوحيد ومعرفة الله ، وفهم أسماء وصفات الحق ، أو الاطلاع على جانب من أسرار المعاد وما شاكل ذلك.

٢ . هل من الصحيح التشبث به مثل هذه البحوث وتطبيق الآيات القرآنية على الاكتشافات العلمية؟ هل يحق لنا أن نطبق المسائل المختلفة للعلوم الطبيعية على الآيات القرآنية ، أو بالعكس؟ في حين أن آراء العلماء لا تستقر على حال ، وهي في تغير دائم ، ولذلك ليس من المنطق في نظرنا أن نطبق أمراً ثابتاً مستحکماً على آخر متغير؟ للإجابة عن هذا السؤال لابد من القول : إن هناك ثلاثة آراء مختلفة ، فأتباع الرأي الأول وهم الذين اتخذوا جانب الإفراط في هذا المجال ، فقد طبقو الآيات القرآنية على الفرضيات العلمية لأدنى تناسب أو توافق بينهما . لا على الحقائق المسلمة والقطعية للعلوم . ظناً منهم أنّهم قد أسدوا خدمة إلى معرفة القرآن من هذا الطريق.

في حين أننا نعلم في وقتنا الحاضر أن القيام بهذا العمل يعد خطأً كبيراً لأنّه لا يعد عدم خدمة للقرآن فحسب ، بل سبباً لسقوط اعتبار القرآن ومكانته ، لأنّ الفرضيات العلمية لا القوانين المسلمة . في حالة تحول وتغير مستمر ، ولذلك ليس من المنطق ولا هي خدمة للعلم والعقيدة أن نقوم بتطبيق الحقائق القرآنية الثابتة على جملة من الامور المتحولة والمتغيرة ، والمشكوكة أو المظنونة.

وأما القائلون بالرأي الثاني : فهم الذين سلكوا طريق التفريط ، واعتقدوا بعدم جواز التطبيق في أي مورد من الموارد حتى في المسلمات العلمية التي تنسجم بصورة أو بأخرى مع العبارات القرآنية الصريحة ، وهذا يعُد نوعاً من التعصب والجمود والبعد عن المنطق والدليل أيضاً.

وأما الرأي الثالث وهو الذي يمثل الحالة الوسط بين هاتين النظريتين الخاطئتين ، فهو خرجنا من حيز الافتراضات ودخلنا في عالم القوانين العلمية الثابتة بالدلائل القطعية أو الشواهد المسلمة وكانت دلالة القرآن على هذه الامور صريحة وواضحة.

فما هو المانع من تطبيق هذه المسائل على آيات القرآن؟ ولماذا نتخوف من هذا

الانسجام الذي هو أحد الأدلة على عظمته هذا الكتاب السماوي؟ وإذن ما المانع من أن يكشف القرآن الستار بوضوح عن البحوث التوحيدية ومعرفة الله تعالى ، والمسائل التربوية المستندة لجملة من الحقائق العلمية المجهولة بصورة كاملة في ذلك العصر ، ومن ثم يوجه أتباعه ويوهفهم على هذا الأمر ، فبالإضافة إلى تحقق النتائج التوحيدية والأخلاقية من وراء ذلك ، يعتبر إمارة واضحة على حقانية القرآن فضلاً عن أنه يفتح باباً واسعاً للعلوم والمعارف.

وعلى هذا الأساس سنتطرق بدقة إلى نقطتين مهمتين في هذا البحث المتواصل وهما :

١ . ستحتار المسائل الثابتة والمسلمة مائة بمالئه من العلوم الطبيعية مثل قانون الجاذبية ، والزوجية في عالم النباتات ، حركة الأرض ، وحركة المنظومة الشمسية ، وأمثال ذلك مما ثبت بالأدلة الحسية في يومنا هذا.

٢ . سنتنخب من الآيات في هذا المجال ما هو صالح للانطباق على القواعد العلمية العصرية بدون أدنى تكليف أو تأويل ، أو بعبارة أخرى فدالة الآيات التي تقع مورداً للقبول ، هي التي تكون وفق القواعد الأدبية التي يكثر فيها استفادة المعاني من الجمل والكلمات.

* * *

١ . القرآن وجاذبيته العامة

نقرأ في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ . (الرعد / ٢)

ما يستحق الإهتمام في هذه الآية ، أن القرآن لا يقول : إن السماء ليس لها عمد ، وإنما يقول : ليس لها عمد قابل للرؤية والمشاهدة. يستفاد جيداً من هذا التعبير أن أعمدة السماء غير مرئية وأن هذه الأعمدة هي التي أرست دعائيم السماء ^(١).

(١) يستفاد من ظاهر الآية أن «ترونها» وصف لـ«عمد» ، وقول البعض : إن مفهوم الآية «ترونها بغير عمد» هو أنكم ترون السماء بغير عمد (وعلى هذا ، فعبارة «بغير عمد» حار وجحور ومضاد إليه متعلقة بـ«ترونها» ، خلاف الظاهر أولاً ، وثانياً ، إن هذا التعبير يشير إلى أنكم ترون السماء بدون عمد في حين أن لها أعمدة في حقيقة الأمر.

ونقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد سأله أحد أصحابه وهو «حسين بن خالد» عن معنى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْحُكْمِ﴾ ... (الذاريات / ٧) فقال الإمام عليه السلام : «سبحان الله ، أليس الله يقول : «بغير عمدٍ ترونها»؟ قلت : بل ، فقال : ثمَّ عمدٌ ولكن لا ترونها»^(١).

فهل يوجد توجيه وتفسير لهذا الحديث سوى العمد الذي نطلق عليه في عصرنا هذا باسم «التوازن بين القوة الجاذبية والدافعة».

وتوضيح ذلك ، يكمن في أن النظرية الوحيدة التي غزت أفكار علماء ذلك العصر . زمان نزول القرآن الكريم . ومن ثم القرون السابقة واللاحقة ، هي نظرية «الميئنة» لبطليموس التي سيطرت بقوة تامة على المخالف العلمية الدولية . ووفقاً لذلك صورت السماوات على شكل كرات متداخلة نظير طبقات البصل المتلاصقة وكانت الأرض في مركزها ، ومن الطبيعي أن تستند السماوات كل منها إلى الأخرى .

إلا أنه ثبت بطلان هذه العقيدة بالأدلة القطعية بعد مرور زهاء الالف سنة من نزول القرآن ، وذهبت تماماً نظرية الأفلاك . قشور البصل . إلى غير رجعة ، وأصبح من المسلمات أنَّ كلاً من هذه الكرات السماوية معلقة وثابتة في مدارها وموضعها ، وأنَّ الجامع والمنظومات متحركة ، والشيء الوحيد الذي يحافظ على ثباتها واستقرارها هو نفس هذا التعادل بين القوة الجاذبة والدافعة .

إنَّ الذي يتسبب في التحرك السريع لكل الكرات السماوية ومن ثم اجتماعها في مركز واحد ، هو القوة الجاذبة . التي تقول : إنَّ الجاذبية بين كل جسمين تتناسب طردياً مع وزنיהם ، وعكسياً مع الحذر التربعي للمسافة بينهما . ، يَيدَ أنَّ الحركة الدورية موجودة في الكواكب السيارة أو المنظومات . ولا يخفى أنَّ الميزة الدورية هي نفس القوة الطاردة المركزية وهي التي تؤدي إلى الابتعاد السريع لهذه الكرات والمنظومات عن بعضها (على

(١) تفسير البرهان ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ . ورد هذا الحديث في التفسير المزبور عن طريقين ، عن تفسير علي بن إبراهيم ، وكذلك عن تفسير العياشي .

شاكلة المروب من دائرة النار في حالة دورانها وذلك عندما ينقطع سلوكها ويتطاير الشرر من قطع النار المتقاذفة) ، أمّا لو كانت القوة الجاذبة متساوية مع القوة الدافعة بدون أدنى نقطصة أو زيادة ، فسيظهر في هذه الحالة العمد اللامرئي القوي حتى يثبتها في موضعها الخاص كما أنّ الكرة الأرضية تتحرك في دورانها حول الشمس بمدار معين ملائين السنين بدون أن تقترب منها أو تبتعد عنها ، وهذه من دلائل عظمة الله وإعجاز القرآن.

ومن الظريف أنّ المفسرين القدامى وقفوا على هذه النكتة إجمالاً بيد أنّهم لم يعبروا عنها سوى بالقول بمسألة القدرة الإلهية ، بحيث يقول «ابن عباس» وفقاً لنقل الطبرسي في «مجمع البيان» والآلوي في «روح المعانى» : إنّ معنى الآية هو أنّ السماء تكون بدون عمد قابل للمشاهدة ، وعليه يكون عددها هو القدرة الإلهية الهائلة ^(١) .

* * *

٢ . القرآن وخلق العالم

إنّ للقرآن الكريم تعبير وإشارات متعددة حول حدوث العالم ، إذ يقول في أحد الموضع : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعَيْنِ﴾ . (فصلت / ١١)

وفي موضع آخر يقول : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رُتْبًا فَقَتَّبْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ . (الأنبياء / ٣٠)

لقد اشير في هاتين الآيتين إلى ثلات نكات مهمة في صدد خلق العالم وال موجودات

الحياة :

- ١ . كان العالم في بادئ الأمر على شكل غاز وبخار.
- ٢ . كان العالم متصلًا في البداية ثم فصلت الكرات السماوية عن بعضها الأخرى.
- ٣ . بدأت خلقة الموجودات الحية من الماء.

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ ؛ و تفسير روح المعانى ، ج ١٣ ، ص ٧٨ .

وهذه هي نفس الامور التي عرفت في هذا اليوم بعنوان النظريات العلمية المسلمة. ويترقرر توضيح ذلك : بأنّه بالرغم من وجود فرضيات مختلفة لم تخرج عن حدود الفرضية في صدد كيفية نشوء العالم ، إلّا أنّه نظراً للمطالعات التي اجريت على المجرات والمنظومات التي تتجه نحو التكون والحدوث ، بدا من المسلم أنّ العالم كان على شكل أكواخ من الغاز في بادئ الأمر نظير الشيء المضغوط الذي تتعزل منه قطعاته وتتطاير أو صالح على أثر دورانه حول نفسه ، وهذه القطع تبرد شيئاً فشيئاً ثم تظهر بشكل مائع أو جامد في كثير من الأحيان لتشكل الكرات المسكونة وغير المسكونة.

وبعبارة اخرى تدل دراسات العلماء الفلكيين في مجال السحب ، والعالم بعيدة عن متناول اليد والتي تأخذ طريقها نحو التكامل على أكمل أخرجوها هذه النظرية وهي كون الدنيا على شكل أكواخ من غاز البخار من حيز الفرضية واعتبروها من النظريات القطعية ، والتي تم تأييدها من قبل المحافل العلمية الدولية.

وكذلك نقرأ في بداية الآية الاولى بصرامة بـ «أن السموات» الكرات السماوية كانت في بداية الأمر على هيئة دخان وهذه الآية تنسجم مع الاكتشافات العلمية للعلماء التي لم تزل حديثة العهد ، وفي ذلك دلالة واضحة على الاعجاز العلمي للقرآن الذي يكشف عن الحقيقة التي كانت مجهولة في زمن نزول القرآن بصورة كاملة.

والآية الثانية أيضاً تُعبّر عن حالة الارتباط الموجودة في العالم في بادئ الأمر ، ومن ثم انفصال أجزائه الاخرى وهذا أيضاً أيدته المحافل العلمية كأصل من الأصول في يومنا هذا ، وكذلك الحال بالنسبة إلى ظهور الموجودات الحية من ماء البحار في بادئ الأمر . سواء كانت نباتية أو حيوانية . هي الاخرى تعتبر اليوم من النظريات العلمية المعروفة ، وإن كان البحث قائماً على قدم وساق بين العلماء في صدد كيفية التحول والتطور ، وظهور الأنواع المختلفة للنباتات والحيوانات.

والقرآن أيضاً يفصح عن حقيقة ظهور كافة الموجودات الحية من الماء في الآية الثانية المتقدمة الذكر ، وفضلاً عن ذلك تصرح الآيات التي تنسب خلقة الإنسان إلى التراب ، بأنّ

هذا التراب كان متزجاً مع الماء على هيئة طين.

ونقرأ أيضاً في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَائِيٍّ مِّنْ مَاءٍ﴾ . (النور / ٤٥)

وللمفسرين أحاديث مطولة في صدد «الرطق» و «الفتق» الواردتين في الآية الثانية واللذين هما في الأصل بمعنى «الاتصال» و «الانفصال».

اختار البعض المعنى المتقدم ، وهو السماء والأرض واللتين كانتا على هيئة كُتل عظيمة من البخار والغاز المحترق ، وتجزأت شيئاً فشيئاً على أثر الانفجارات الداخلية وحركتها حول نفسها ، ومن ثم ظهرت الكواكب والنجوم ، من جملتها المنظومة الشمسية.

ويرى البعض الآخر أن ذلك إشارة إلى الوحدة النوعية في مواد العالم ، بحيث كانت متداخلة في بداية الأمر حيث ظهرت على هيئة مادة واحدة ، لكنها انفصلت عن بعضها الآخر ، وتشكلت مع مرور الزمان بتراكيبات جديدة.

وذهب جم آخر أيضاً إلى أن ذلك إشارة إلى عدم نزول المطر ونمو النباتات من الأرض ، بمعنى أن السماء كانت في بداية الأمر متصلة مع بعضها الآخر ، ولم يكن ينزل المطر ، والأرض أيضاً كانت متصلة مع بعضها الآخر ، فلم يكن للنبات وجود فيها ، ثم بأمر من الله تعالى انفجرت السماء ونزل المطر ، وتفتحت الأرض فخرجت النباتات.

وقد أشارت إلى المعنى الأخير روايات متعددة من طريق أهل البيت عليهم السلام ، وكذلك قسم من الروايات الواردة من طريق العامة ^(١) ، في حين تضمنت بعض الروايات الأخرى الإشارة إلى المعنى الأول ^(٢) ، وتبدو الإشارة إلى هذا الاتصال أيضاً في الخطبة الأولى من نجاح البلاغة ، وفي كل الأحوال ينسجم ظاهر الآية مع التفسير الأول ، علاوة على عدم وجود مانع من الجمع بين التفاسير المتقدمة ، فمن الممكن الجمع بين كل من المعاني الثلاثة في المفهوم الجامع للآية.

وممّا يسترعي الإنتباه ما ورد في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا إِمَّ السَّمَاءُ بِنَهَا ...﴾

(١) راجع تفسير نور الثقلين ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ ، الأحاديث ٥٢ ، و ٥٣ ، و ٥٤ ، و ٥٥ ؛ و تفسير در المشور ، ج ٤ ، ص ٣١٧.

(٢) المصدر السابق.

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَهَا* اخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴿. (النازعات / ٢٧ .

(٣٢)

وتدل هذه الآيات بوضوح أيضاً على كون السماء مخلوقة قبل الأرض ، ثم إن ظهور الماء والنباتات والجبال كان بعد الانتهاء منها.

وبناءً على ذلك ، يكون هذا الأمر هو الشيء الذي يؤكد عليه العلم الحديث ، وهو يرى أن الأرض وجدت بعد وجود الشمس ، ويعتبر ظهور الماء من سطح الأرض ، ومن ثم النباتات وكذلك ظهور الجبال بعد خلق الأرض.

* * *

٣ . القرآن وحركة الأرض

نقرأ في قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾. (النمل / ٨٨)

تتجلى في هذه الآية عدة نكات :

أولاًً : إن الجبال التي تبدو ساكنة في نظركم ، هي في حركة سريعة كسرعة حركة السحب ، (وينبغي الالتفات إلى أن السرعة الفائقة تُشبّه عادة بسرعة السحاب ، إضافة إلى خلو الحركة السريعة للسحب من التزلل والصخب).

ثانياً : إن هذا هو صنع الله الذي خلق كل شيء بميزان معين.

ثالثاً : إن الله عزّوجل مطلع على أفعالكم.

عند التأمل بدقة في هذه الجمل الثلاث ، يتضح أن الآية لا ترتبط بيوم القيمة كما تخيل بعض المفسرين ، بل ترتبط بنفس هذه الدنيا ، إذ تقول : «أنتم تتخيلونها وتتصورونها هكذا في حين أنها ليست كذلك» ، وأما حركة الجبال في القيمة أو على مشارف القيمة فليست هي من الامور المخفية والمبهمة ، بل إنها واضحة ومهولة بحيث لا يقوى أحد على تحملها والصبر على مشاهدتها.

إضافة إلى أن الاتقان في الخلقة وحاكمية النظم والموازين فيها ، هو إشارة ودلالة على وضعها الفعلي لا على زمن اقتراب يوم القيمة ، حيث سيلاشى النظام العالمي ليبنى على أنقاضه نظام جديد.

فضلاً عن ذلك فإن العلم الإلهي بالأفعال التي تقوم بها يرتبط بأفعالنا في هذه الدنيا ، وإلا فإن القيمة يوم حساب لا يوم عمل.

ويتضح من خلال هذه القرائن الثلاث أن هذه الآية لا تطابق حركة الجبال في نهاية مسيرة العالم ووقوع يوم القيمة بأي شكل من الأشكال ، غاية ما في الأمر أن جماعة من المفسرين لم يتمكنوا من إدراك عمق المفهوم في الآية ، فما وجدوا بُدّاً سوى القبول بخلاف ظاهر الآية ، وتفسيرها بمسألة القيمة.

كما تتضح هذه المسألة أيضاً وهي أن حركة الجبال لا تنفصل عن حركة الأرض ، بل هما متربطان مع بعضهما الآخر كوحدة واحدة ، فإذا تحركت الجبال تحركت الأرض حركة الدائبة.

وربما ينقدح في الذهن هذا السؤال : لماذا اقتصر الله تعالى على ذكر الجبال ، ولم يقل إنك ترى الأرض فتحسبها ساكنة في حين أنها متحركة.

والجواب عن هذا السؤال واضح ، لأن الجبال من أعظم الموجودات على وجه الأرض ، وهي مظهر من مظاهر الصلابة والصمود والاستحكام ، ولذا نقول لضرب المثل المعروف : «إن الشخص الغلابي منيع وصامد كالجبل» ، ولذلك يمكن اعتبار حركة الجبال على عظمتها وصلابتها وثباتها ، أحد العلام على القدرة اللامتناهية للحق تعالى ، لكن مما لا جدال فيه أن حركة الجبال هي أحد التجليات الواضحة لحركة الأرض.

وفي كل الاحوال ، تعتبر الآية المذكورة أحد المعاجز العلمية المهمة للقرآن ، إذ من المعلوم أن العقيدة الرائجة والحاكمة لدى كافة المحافل العلمية الدولية في عصر نزول القرآن وزهاء ألف سنة بعد ذلك هي نظرية ثبات الأرض ودوران الكواكب حولها ، والتي نشأت من هيئة «بطليموس».

ومن العلماء الأوائل الذين اكتشفوا حركة الأرض هم كل من «غاليليو» الإيطالي ، و«كيرنيلك» البولندي ، وذلك بعد مرور ما يقارب ألف سنة ، إذ أعلنوا عقيدتهم في آخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين ، مما أثار على الفور حفيظة أرباب الكنيسة بشدة بحيث هددوهما بالقتل ، في حين أن القرآن الكريم كشف الستار عن هذه الحقيقة بعشرة قرون قبلها ، وطرح بعباراته البدعة المتقدمة حركة الأرض باعتبارها إحدى علائم التوحيد والعظمة الإلهية.

وعلى كل حال ، فمما لا شك فيه أن هذه الآية تتحدث عن حركة الجبال (وبتعبير آخر حركة الأرض) في هذه الدنيا ، ذلك لأن حركة الجبال عند وقوع يوم القيمة ، تحدث زلزالاً قوياً في الكورة الأرضية بحيث يقول تعالى عنها **﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمِّلَ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ...﴾** (الحج / ٢)

وهذا الكلام لا ينسجم مع جملة : **﴿تَحْسِبُهَا جَامِدَةً﴾** على الاطلاق.

إضافة إلى أنه لا يقى مجال لأفعال الخير والشر في تلك اللحظات الحرجة ، حتى يتأتى القول بأن الله تعالى مطلع على الأفعال التي تقوم بها.

والقول بأن الآيات التي تسبق الآية المتقدمة أو ما بعدها ترتبط بالقيمة لا يمكن اعتباره دليلاً قطعياً على أن مفهوم هذه الآية يرتبط بالقيمة ، لأن هذا ليس أحد المصادر النادرة في القرآن ، فرب آية تتحدث في مسألة معينة وتحدث الآية قبلها أو بعدها عن مسألة أخرى. وبعبارة أخرى فالاطلاع على محتوى الآية نفسها والقرائن الموجوحة فيها أهم وأفضل من الملاحظات الأخرى.

وهذه النكبة تستحق الاهتمام أيضاً وهي أن التشبيه بحركة السحب بالإضافة إلى أنه إشارة إلى السرعة الفائقة لها ، يعتبر جواباً قاطعاً عن هذا السؤال ، وهو إذا كانت الأرض متحركة فلماذا لا نشعر بها؟ فيأتي الجواب إنها تتحرك ببطء ومرنة وهدوء بحيث لا يمكن تشخيص ذلك ، كما لو صعد أحد على السحاب مثلاً ، فإنه لم يكن يشخص حركتها أيضاً.

ومما يدعو إلى الاهتمام بهذه النكبة أيضاً وهي أن القرآن يقول : **﴿إِنَّمَا نَجْعَلُ الْأَرْضَ**

﴿كِفَاتٌ أَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ﴾ . (المرسلات / ٢٥ . ٢٦)

ونشاهد في قواميس اللغة التي من جملتها «المفردات» للراغب وكتاب «العين» أنه قد ذكر معنيان للفظة «كِفَات» المأكولة من مادة «كَفْت» وهو الجمع والطيران السريع ، فإذا كان المعنى الأول هو المقصود ، يكون مفهوم الآية على أن جعلنا الأرض محطة لاجتماع بني البشر في حياتهم ، وما تحت الأرض مقراً لاجتماعهم بعد مماتهم ، وإذا كان المقصود المعنى الثاني ، يكون مفهومها الطيران السريع للأرض. وهذا يتناسب مع الحركة الانتقالية للأرض حول الشمس التي تسير دائرياً بسرعة فائقة . تقدر بـ (٢٠) كيلو متر في كل ثانية و (١٢٠٠) كيلو متر في كل دقيقة . ثم إنها تحمل الأموات والأحياء معها وتدور بهم حول الشمس .

ولعل السبب في اطلاق لفظة «كَفْت» على الطيران السريع ، هو أن الطيور عندما تريد أن تطير بسرعة فائقة في السماء تجتمع أحجتها بصورة كاملة وبشكل متناوب وتسبح في الفضاء ، لكن نظراً لكون لفظة «كَفْت وَكِفَات» تحتمل معنيين ، لم نذكر هذه الآية بعنوان أحد الأدلة القطعية على مسألة دوران الأرض .

* * *

٤ . القرآن وحركة المنظومة الشمسية

يقول القرآن الكريم : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقْرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ . (يس / ٤٠ . ٣٨)

كما تقدمت الإشارة إليه من قبل أن النظريات التي تحدثت في صدد السماء والأرض وسيطرت على المخالف العلمية في عصر نزول القرآن والقرون السابقة واللاحقة عليه ، هي نظرية الميئنة لـ «بطليموس» الذي كان يعبر الأرض مركز العالم ، ويعتقد أن التحوم والشمس مندكة في قلب الأفلاك البلورية ، ويتصور أن الأفلاك تدور حول أطراف الأرض .

ويذكر القرآن في الآيات أعلاه مطلباً يتنافى مع هذا الكلام بصورة كاملة ، فهو يقول

:

أولاً : إنّ الشمس تتحرك باتجاه احدى المقرات (أو إنّ الشمس تتحرك في قرارها المختص بها) ، لا أنّ الشمس مع فلكها البلوري تدور حول الأرض.

ثانياً : إنّ كلاًّ من الشمس والقمر يسبح في فلكه الخاص به.

وبعد إخيار دعائيم فرضية «بطليموس» على أثر اكتشافات القرون الأخيرة ، وتحرّر الأجرام السماوية من قيود الأفلاك الخارجية ، استحکمت هذه النظرية التي ترى أنّ الشمس ساکنة وثابتة في مركز المنظومة الشمسية ، وتدور حولها المنظومة الشمسية بأكملها.

وفي هذا المضمار أيضاً لم تكن هناك معلومات عن حركة الشمس باتجاه قرارها الخاص أو في دائرة نفسها.

وهكذا تطور العلم أكثر فأثبتت من خلال مشاهداته النحوية بالاستفادة من المراصد الفلكية القوية جدّاً أنّ للشمس حركتين على أقل تقدير : الحركة الموضعية حول نفسها ، والحركة الانتقالية بصحبة المنظومة الشمسية بأكملها باتجاه نقطة معينة من السماء ، او بتعبير آخر باتجاه نجم «ويكا» وهو يعتبر من نجوم الصورة الفلكية التي تسمى «الجاثي على ركبتيه»^(١).

جاء في إحدى دوائر المعارف : أنّ للشمس . بالإضافة إلى الحركات الظاهرة . حركة واقعية ، «الحركة الدورية للمجرات تسير بالشمس وتدور بها في الفضاء بسرعة مليون ومائة وثلاثين ألف كيلو متر في الساعة تقريباً ، وكذلك ليست الشمس ثابتة في داخل المجرات ، بل تتحرك باتجاه الصورة الفلكية التي تدعى «بالجاثي» بسرعة تناهز (٧٢) ألف كيلو متر في الساعة ، والسبب في عدم اطلاعنا على الحركة السريعة للشمس في الفضاء هو الدورة الفلكية للأجرام السماوية».

(١) تطلق الصورة الفلكية «الجاثي على ركبتيه» على النجوم التي تكون بمجموعها على هيئة شخص جاث على ركبتيه يريد القيام ، ونجم «ويكا» يعد من هذه المجموعة التي تدور حولها المنظومة الشمسية بما فيها الشمس.

ثم تضيف على ذلك بالقول : إن للشمس في دورانها حول نفسها حركة دورية موضعية أيضاً (الدورة الموضعية لحركة الشمس في استوائهما تستغرق ٢٥ ليلة تقريباً^(١) . إذن مما لا يقبل الشك أن الآية : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ لا تتلاءم مع نظرية الأفلاك البليورية ل (بطليموس) التي أثبتت كل واحدة من الكواكب في موضعها الخاص ، وتنسجم تماماً مع اكتشافات العلم الحديث ، علاوة على أن الحركة باتجاه «المستقر» إشارة أخرى إلى حركة الشمس باتجاه أحد جوانب المجرات أيضاً ، وفي الواقع فإن بيان هذا الموضوع يُعدُّ معجزةً .

* * *

٥ . القرآن واتساع العالم

نقرأ في قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهَا إِيَّاِنِّي وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ . (الذاريات / ٤٧) «أيَّدِ» : (على وزن صيِّدٍ) معناه القدرة والقدرة ، كما جاء هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن أيضاً ، وذكر بعض المفسرين إضافة إلى ما قلناه معنى (النعمَة) لـ «أيَّدِ» أيضاً ، في حين أن «يَدِ» تأتي بمعنى «النعمَة» في بعض الأحيان والتي يكون جمعها «أيَّادِي» وجمع جمعها «أيَّادِي» .

وعلى أية حال ، تدل جملة «إِنَّا لَمُوسِعُونَ» بوضوح على أنَّ الله تعالى الذي خلق السموات بقدرته التامة يضفي عليها عامل الاتساع والاستيعاب بصورة مستمرة ، وبناء على عدم وضوح هذا المطلب بالنسبة للعلماء والمفسرين سابقاً ، فقد فسَّرَ الكثير منهم هذه الجملة بأَنَّها تعطي معنى سعة رزق الله تعالى على عباده من خلال نزول المطر ، أو من خلال طرق مختلفة . وفسَّرَها بعض أَنَّها تعطي معنى الغنى والكافاف ، وبأنَّ الله تعالى كلما أَحْزَل نعمة وأَعْطَى لَا تنتهي خزائنه أبداً . ييدَ أَنَّنا لو أَقْرَبْنا نظرة على ما أَثْبَتَه المشاهدة النجمية بواسطة المراصد الفضائية نلاحظ أنَّ المجرات تبتعد إِحداها عن الأخرى بسرعة ، وأنَّ

(١) قاموس دهخدا ، ج ٢٢ ، مادة (الشمس) «باللغة الفارسية» .

«لقد كشفت أحدث وأدق الحسابات على طول مسيرة الأمواج التي تبعث من النجوم ، الستار عن إحدى الحقائق العجيبة والمدهشة ، حيث بيّنت أنّ مجموعة النجوم التي تشكل هيئة العالم تبتعد بسرعة فائقة عن مركز العالم بصورة مستمرة ، وكلما اتسعت الفاصلة بينها وبين مركز العالم كلما زاد ذلك من سرعة سيرها ، ويبدو أنّ النجوم بأكملها كانت مجتمعة في هذا المركز في يوم من الأيام ثم تشتت شملها بعد ذلك ، وانفصلت عنها مجموعة من النجوم الكبيرة لتشق طريقها في مسالك الفضاء المختلفة ، علاوة على أنّ العلماء استفادوا من هذا الموضوع على أنّ للعالم نقطة شروع في بداية الأمر» ^(١).

ونقل في نفس الكتاب عن «جورج كاموف» قوله في كتاب «خلق العالم» :

«إنّ فضاء العالم المكون من مليارات المجرّات ، في حالة اتساع مطّرد ، وفي الحقيقة أنّ عالمنا ليس في حالة سكون وإنّما في حالة انبساط ، والتوصل إلى الحقيقة القائلة بأنّ هذا العالم هو في حالة انبساط وتوسيع ، هو المفتاح الذهبي للتعرف على لغز هذا العالم ، قوله : إنّ العالم في حالة انبساط حالياً ، يستلزم منه أنّ العالم كان في حالة انقباض شديد جداً في يوم من الأيام» ^(٢).

ونقرأ في كتاب «حدود النجوم» مؤلفه «فورد هوويل» حول سرعة الانبساط واتساع

العالم مايلي :

«تصل أقوى درجات السرعة لتفهّر الكرة التي خضعت للقياس إلى وقتنا هذا إلى حدود ستة وستون ألف كيلو متر في الثانية ، إنّ نور المجرات الأبعد يبدو ضعيفاً بنظرنا إلى درجة بحيث يتعرّض علينا قياس سرعتها ، نظراً لعدم وجود النور الكافي ، لقد بيّنت الصور التي التقطت من السماء بوضوح أنّ فاصلة هذه المجرّات أبعد بكثير من فاصلة المجرّات القرية» ^(٣).

(١) بداية ونهاية العالم ، ص ٧٤ - ٧٧ (باختصار).

(٢) المصدر السابق.

(٣) حدود النجوم ، ترجمة رضا أقصى ، ص ٣٣٨ ، عن النسخة الفارسية.

وعلى هذا الأساس نقف على تفسير واضح جدًا في صدق الآية السابقة واتساع السموات ، والتي تكشف الستار عن السر وراء أحد المعجزات العلمية للقرآن .

وممّا يستحق الاهتمام أيضًا أنّ عبارة : «إِنَّا لَمُؤْسِعُونَ» والتي استعمل فيها اسم الفاعل والجملة الإسمية للدلالة على حالة الاستمرار والديمومة ، وعلى تداوم حالة التوسيع والانبساط .

* * *

٦ . القرآن ووجود الحياة في المجرات الأخرى

جاء في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَ فِيهِمَا مِنْ ذَائِبٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ . (الشورى / ٢٩)

يا ترى هل العيش والحياة مختص بالكرة الأرضية ، والكرات الأخرى ليست مسكونة إطلاقاً؟ لقد كان العلماء الأوائل يتبعون هذه المسألة دائمًا بشيء من التردد أو الحكم المنفي ، بيده أنّ التحقيقات الأخيرة للعلماء أثبتت لنا أنّ الحياة لا تختص بالكرة الأرضية .

ونقرأ في كتاب «الحياة في العالم» من منشورات مجلة «لـايف» ما يلي :

«من الممكن حسب احصاءات العلماء أن تتوارد في مجرتنا ملايين النجوم التي تكون سياراتها التابعة لها آهله بالسكن» .

وذهب البعض إلى أكثر من ذلك حيث اعتقدوا بوجود موجودات حية في بعض الكرات السماوية تفوق حالة التطور لدى الإنسان بكثير ، فالإرسالات الراديوية التي يبثونها في الفضاء ولا نستطيع الإتيان بمثلها ، قابلة للاطلاع عليها بصورة كاملة من خلال أجهزة الاستقبال التي بحوزتنا ، وإن كنّا لا نفهم لغتهم ولا نعي معزها .

وعلى آية حال فتصريح الآية المتقدمة بالقول : إنّ الله تعالى بث الموجودات الحية في السموات والأرض ، يخبر عن حياة الموجودات الأخرى بشكل واضح ، ومن الاشتباه يمكن أن نتصور أنّ المقصود من الموجودات الحية في السماء هي (الملائكة) ، وذلك لكون

كلمة «دابة» تطلق على الموجودات الجسمانية فحسب ولا تطلق على الملائكة. وهذا ففي الموضع الذي يزيد القرآن الكريم أن يذكر الملائكة يتحدث عنها بصورة مستقلة بعد ذكر كلمة «الدابة» ، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى : **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَائِيَةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُنْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾** . (الحل / ٤٩)

حيث نجد أن «الملائكة» جعلت في قبال «الدابة» ، وهذا يدل على عدم شمول الكلمة الدابة للملائكة في الآية التي جاء ذكرها في بحثنا هذا.

ومن الظريف ما يقوله «الفخر الرازي» في تفسير الآية الواردية في بحثنا هذا بأنه : «لا يستبعد أن يقال إن الله خلق في السموات أنواعاً من الموجودات الحية تمشي كما يمشي الإنسان على وجه الأرض» ^(١).

ونقرأ في حديث ظريف عن الإمام علي عليه السلام ما يلي : «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمود من نور» ^(٢).

ووردت في بعض المصادر الإسلامية روايات أخرى في هذا المجال ^(٣).

ومن المعلوم أن هذه المعلومات استقىت من نفس المصدر الذي استقاه القرآن الكريم ، وإلا لم يطلع أحد على هذه المسائل في ذلك العصر.

* * *

٧ . القرآن وخلق الجبال

وردت في القرآن الكريم عبارات مختلفة وغنية في معانيها في مجال خلق الجبال ، يقول تعالى في أحد الموضع : **﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيٌّ اَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَانْهَارَأَ وَسُبُّلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** . (الحل / ١٥)

وفي موضع آخر يقول تعالى : **﴿اَلْمَ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ اُفَنَادًا﴾** . (النبا / ٦)

ونقرأ في آية أخرى قوله عز وجل : **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَاسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾** . (المرسلات / ٢٧)

(١) تفسير الكبير ، ج ٢٧ ، ص ١٧١ .

(٢) سفينة البحار ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ ، مادة (النجم) .

(٣) لمزيد من الاطلاع راجع كتاب «الميئنة والإسلام» .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ انْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ . (لقمان / ١٠)

وهناك آيات أخرى بهذا المضمون أو قريبة منها في القرآن الكريم أيضاً .
الأمر الذي نواجهه لأول وهلة في هذه الآيات ، هو تأثير وجود الجبال في الحفاظ على استقرار الأرض ، والتي عبر عنها تارة بـ «الأوتاد» والتي تستخدم عادة في إغفال أقسام مختلفة من الأبواب والصناديق والسفن وما شابه ذلك ، أو صيانة المخيمات وتقويتها في مقابل هبوب الرياح .

وتارة أخرى عبر عنها بـ «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» المأحوذة من مادة «مَيْدَان» بمعنى الاهتزاز والاضطراب ، ومعنى ذلك أنّ الجبال تَحْدُ دون اضطراب الأرض واهتزازها . ولم يطلع أحد على هذا المطلب في ذلك العصر ، ونحن في هذا الوقت نعلم جيداً مدى دور الجبال على هذا الصعيد ، وذلك للنقطات التالية :

أولاً : إنّ الجبال في واقع الأمر هي في قوة أحد الدروع الفولاذية التي تحيط بالأرض من كل جوانبها ، ونظرأً لقوتها ارتباطها واتصالها باعمق الأرض تشكل بدورها أحد الشبكات القوية الشاملة ، وإذا لم يكن كذلك وكانت الرمال الناعمة تعطيه صعيد الأرض ، لوّقت تحت تأثير الجاذبية القوية للقمر بكل سهولة ، وهنّ الجزر والمد كل شيء على اليابسة نظير المد والجزر في البحار ، واستولى الاضطراب والاهتزاز والحركة على وجه الأرض في الليل والنهار ، ولتعرض لإمكان الانهدام والسقوط كل مبني من المباني .

يبدأ أنّ وجود هذا الحصن المنيع في الأرض ينزل بالمد والجزر إلى أدنى مستوى ، وحالياً تأخذ القشرة السميكة للأرض بالارتفاع والانخفاض بمقدار ثلاثين سانتيمتراً في كل يوم وليلة أيضاً ، وهذا يعكس البحار التي ترتفع وتختفي على أثر الجزر والمد امتاراً متعددة أحياناً .
وتوجد جاذبية الشمس المد والجزر أيضاً وإن كان ضعيفاً ، ولو وقع مسير الشمس والقمر في خط واحد واتصلت الجاذبيتان في جانب واحد ، لاشتتدت قوة هذه الحركات

وتضاعفت قوتها ، إلّا أنّ القرآن يذهب بالقول إلى أنّ الجبال التي هي أوتاد الأرض تصونها من الاهتزاز.

ثانياً : إنّ الضغط الداخلي للأرض بواسطة حرارتها المركزية المائلة يؤثّر على قشرة الأرض بصورة دائمة ، ولو لا وجود الجبال لأصبح مصدراً من مصادر الاضطراب المستمر للأرض.

والآن تدبّروا لو اشتتد الاضطراب الناجم عن المد والجزر والضغط الداخلي على أثر مرونة قشرة الأرض وطراوتها ، فهل ستنتهي بالمدود والاستقرار الذي نعيشه الآن على الكره الأرضية؟ وهل سنجد بيتاً وملجأً وموئلاً نلحّاً إليه؟

ثالثاً : لقد ثبت في وقتنا الحاضر أنّ الجبال بأعمدتها القوية تحرّك معها الهواء الحاصل في أطراف الأرض ، والآن لو فرضنا أنّ الأرض تتحرّك في دورانها حول نفسها بسرعتها الذاتية المعهودة . أي ما يقارب الثلاثين كيلو متر في الدقيقة . ، فلو لم تكن الجبال ، لما تحقق مثل هذا الدوران للهواء الموجود في أطرافها ، وشارت ثائرة العواصف والأعاصير والرياح الشديدة على أثر اصطدام جزيئات الهواء بوجه الأرض ، فضلاً عما يولّد ذلك من حرارة هائلة تحرق الأخضر واليابس . كما أنّ الطائرات السريعة لو سارت في الطبقات السفلية للجو لارتفاع درجة حرارة أجنبتها بحيث قد يؤدّي ذلك إلى عوّاقب وخيمة ، لهذا تضطر إلى الصعود في الطبقات العليا للجو لتنحرّك في وسط الهواء الرقيق جدّاً حتى يقل احتكاكها بالهواء الذي هو المنشأ لإيجاد الحرارة.

أجل ، لقد أزالت منخفضات ومرتفعات وجبال الأرض هذه الازمة وحرّكت الطبقة السميكة للجو مسافاً إلى حركة الأرض ، تماماً كدوران أسنان الدواليب ذات المقود التي تدور مع دورانها بقية الأشياء الأخرى.

فبناءً على ذلك ، تعتبر الجبال وسيلة من وسائل استقرار الأرض واستقرار ساكنيها سواء في مقابل جاذبية القمر والشمس ، أو في مقابل الضغط الداخلي ، أو في مقابل العواصف الشديدة والمستمرة ، أو في مقابل تولد الحرارة الشاقة.

من جهة أخرى ، تقدّمت الإشارة في الآيات السابقة إلى وجود العلاقة بين الجبال

وبين

نزول المطر وارتواء الأرضي والحصول على الماء الفرات وهو «الماء العذب» ، يقول عزّ من قائل : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَاسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ .

ممّا لا يقبل الشك هو أنّ العلاقة بين الاثنين . الماء والجبال . لم تكن معروفة في السابق ، إلّا أنّا نعلم في الوقت الحالي :

أولاًً : أنّ الجبال هي سبب من أسباب تجمّع بخار الماء ، أي تراكم السحب .

وثانياً : أثّها سبب من أسباب بروادة طبقة الهواء المجاور لها .

وثالثاً : أثّها تحتفظ بالقسم الأكبر من الأمطار على شكل ثلج ، كما أثّها مصدر من مصادر الطاقة المستمرة لجريان المياه على سطح الأرض ، ومن ثم صيانة المياه من الهدر والضياع . بالإضافة إلى أنّ الامتداد الواسع للجبال ، وقشرتها المترعرعة تقلب أمواج الماء وتعرضها للهواء النقي ، فيصفو الماء ويتحول إلى «ماء فرات» وهو (الماء العذب) .

وبغض النظر عن كل ذلك ، فإنّ النكتة الظرفية الأخرى التي استأثرت باهتمام بعض العلماء في صدد جبال الأرض ، هي أنّ الجبال في مقابل تغيرات الضغط الأرضي في قبة «الدولاب الثابت» الذي يحول دون تبدل السرعة .

توضيح ذلك : أنّ المقصود من «الدولاب الثابت» هو نفس الشيء الموجود في جميع الوسائل التي لها حركة دورية مشابهة ، وذلك في صورة دولاب ثقيل يدعى بالدولاب الطيار أو الدولاب الثابت ، ينصب في محورها حتى ينظم سرعتها ، وعلى سبيل المثال لو ورد ضغط من الخارج على هذه الوسيلة ذات الحركة الدورية ثم انقطع الضغط فجأة لقفزت إلى الأمام ووجهت صدمة إلى ذلك الجهاز ، أمّا إذا نصب الدولاب الثابت عليها لاحتفظت بهذا الضغط في داخلها ، ثم تدفعه بالتدريج بدون أن تتجه أي صدمة إلى ذلك الجهاز (تأمل جيداً) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى بإمكان العواصف المائية التي تهب أحياناً في الجهة المخالفة أو الموافقة لحركة الأرض أن تؤثر على حركتها ... ، وحينما تحدأ فورة العاصفة تتحول الأرض إلى حالة من الاندفاع العشوائي الذي يوجه ضربة قاسمة إلى جميع

الموجودات الأرضية ، بحيث يولد الاضطراب في كل شيء.

إلا أنَّ لوجود الجبال التي هي بمثابة «الدولاب الثابت» دور في الاحتفاظ بكل هذه الضغوط المشبطة فيها والمنفية فتحدُّ دون حدوث الصدمات ، وتحافظ على الحركة المتوازنة للأرض ، وعلى حد تعبير القرآن تقف مانعاً دون حدوث الاهتزازات وزعزعة الاستقرار. ولو كان البحث في زمن هذه الآيات قائماً على قدم وساق في مجال مباحث «الدولاب الثابت» وأثاره في ذلك العصر ، لما كانت التعبيرات في هذه الآيات مدهشة ومثيرة ، ولكن نظراً إلى عدم وجود مثل هذه المسائل في ذلك الزمان على الإطلاق ، خصوصاً أنه لم يكن للفيزياء معنى في محيط الجزيرة العربية ، فضلاً عن هذه المسائل المعقدة ، فلابد من الاعتراف بأنَّ بيان مثل هذه الآيات تعبير عن أحدى المعاجز العلمية الكبرى (١). والنكتة الأخرى هي أنَّ القرآن الكريم عندما يتحدث عن تكوين الجبال يقول : **﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾**. ويقول في مكان آخر : **﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي﴾**. (النمل / ٦١)

هذه التعبيرات ونظائرها التي تكررت في القرآن تبين بوضوح أنَّ الجبال خلقت بعد خلق الأرض ، وقد أثبتت العلم الحديث هذا المعنى بوضوح أيضاً ، وذهب إلى القول بأنَّ الكثير من الجبال حدث على أثر إتساع الأرض ، والبعض حدث على أثر المواد الدائبة الحرقـة ، والبعض الآخر حدث بسبب تنقية المواد الرخوة من اطراف المواد الصلبة للأرض الذي يحصل على أثر نزول المطر ، وكل ذلك تحقق بعد خلق الأرض واجدادها .. وممَّا لا ريب فيه أنَّ هذه المسائل لم تكن معروفة حين نزول هذه الآيات من القرآن.

* * *

٨. عنصر الزوجية بين النباتات في القرآن

وردت الإشارة إلى عنصر الزوجية في عالم النباتات في آيات خمس من القرآن

(١) ما تقدم أعلاه موجز من مقال محقق تحت عنوان «أثر الجبال في استقرار الأرض» (مسألة الدولاب الثابت) في المجلة الدينية والعلمية المدرسة الإسلامية العدد ٨ ، السنة ١٣ (ص ٦٨ - ٧٣) باللغة الفارسية ، ولمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع والوقوف على جزيئاته راجع المقال المذكور.

الكريم ، فنقرأ في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَبْتَسَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ .^(١)
(لقمان / ١٠)

وقوله تعالى ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ حَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَسَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ .^(٢) (الحج / ٥)
ونقرأ أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَيْئًا ﴾ .^(٣) (طه / ٥٣)

عندما وصل أغلب المفسرين الأوائل إلى هذه الآيات فسروا «زوج» بمعنى «النوع» «الصنف» ، و «الأزواج» بمعنى «الأنواع» و «الأزواج» المختلفة للنباتات ، لأن حقيقة الزوجية في حقل النباتات بمعناها المعروف لم يكن معروفاً في ذلك الزمان.
إن الناس في سالف الزمان وإن كانوا يعلمون نوعاً ما عن أن بعض أنواع النباتات يتكون من جنسين ، الذكر والأنثى ، وأنهم كانوا يستخدمون عملية التلقيح من أجل تكثيرها (خصوصاً شجرة النخل التي يعلم بوجود الذكر والأنثى فيها منذ قديم الزمان ، وأنهم كانوا يحرضون على إنماطها عن طريق التلقيح) ، لكن أحد العلماء المعروفين في حقل النباتات من السوييد يدعى **لينه** كشف عن هذه المسألة لأول مرة في أواسط القرن الشامن عشر للميلا德 وهي أن عنصر الزوجية (بين الذكر والأنثى) في عالم النباتات تعتبر من أحدى المسائل العامة ، ولما تتفق عليها ، وأن النباتات كأغلب الحيوانات إنما تتکاثر وتتمو من خلال الامتزاج بين نطفة الذكر والأنثى ، ومن ثم تعطى الثمار.

إلا أن القرآن الكريم . كما رأينا . قد كشف النقاب عن هذه الحقيقة قبل هذا العالم بإثنين عشر قرناً ، وأشار إلى عنصر الزوجية في عالم النباتات في موارد متعددة ، إلا أنه نظراً لعدم امتلاك هؤلاء للجرأة في التصريح بهذه الحقيقة ، عمدوا إلى تفسير الزوجية بمعنى آخر على خلاف ظاهرها.

(١) وورد نفس المضمن في كل من الآية (٧) من سورة الشعرا والآية (٧) من سورة (ق).

(٢) ورد نفس هذا المضمن في الآية ٧ من سورة الشعرا والآية ٧ من سورة ق.

ومن الظريف أن النباتات مختلفة من هذه الجهة ، ففي كثير منها يجتمع الذكر والأنثى فيها في أصل واحد ، وفي البعض الآخر تنفصل أشجار الذكر عن أشجار الأنثى . خذوا وردة من الورود ثم افصلوا أوراقها عنها ، وتأملوا بدقة في داخلها تجدون عالماً مليئاً بالعجائب والأسرار . وفي الواقع ينعقد هناك محفل كبير ، ييدأ أنه لا صحب فيه ، وينخلو من أي لون من ألوان العنف والاعتداء ، حيث أن المياسم الظرفية واللطيفة التي تحمل معها أكياس حبوب اللقاح تحيط بما حولها ثم تتحرك مع هبوب الرياح ، لتشعر تلك الحبوب على المدقة . إن الحبات المذكورة التي تمثل كل واحدة منها خلية صغيرة جداً ، تتجذر بسرعة وبعد العبور من على عنق المدقة تمتزج مع نطفة الأنثى في المبيض في أصل الورد لتشكل بدورها بذرة الورد أو الفاكهة .

وكان الأوراق الزاهية للورد بمنزلة احدى معاشر الزينة لهذا المحفل الغرامي العجيب أو الاستار الموضوعة على الحجرة المزينة للعروسين ، ثم تُدعى الحشرات والفرشات الجميلة والنحل إلى هذا المحفل البهيج أيضاً .

ويتناول كل منهم الحلوى المخصوصة والمعدة له من قبل رحيم الأزهار ويعشون لنا حصةً منها ، وما نشاهده من العسل في الأسواق ، هو نصيبنا من ذلك المحفل . وعلى أية حال استناداً إلى تصريح القرآن في آيات مختلفة على شمولية عنصر الزوجية للنباتات ، وبالرغم من بعض الاستثناءات القليلة الواهية الموجودة في كل قانون كلي ، يكون قد رفع الستار عن هذا السر المهم الذي خفي عن أنظار العلماء في ذلك العصر والقرون التي تلته وهذه بحد ذاتها من المعاجز العلمية البدية .

٩ . القرآن والزوجية العامة

نقرأ في قوله عز من قائل : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .
(الذاريات / ٤٩)

ويقول تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا

لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ . (يس / ٣٦)

فهذه الآية تبين . بوضوح أكثر . شمولية عنصر الزوجية للنباتات والبشر والأشياء الخارجة عن حدود العلم البشري ، ونظرًا لأنّ كثيراً من المفسرين لم يجدوا هنا مفهوماً للزوجية بالمعنى الحقيقي (أي عنصري الذكر والأنثى) ، فقد عمدوا إلى تفسيرها بالأصناف المختلفة لل موجودات في العالم التي تبدو على شكل زوج زوج مثل : النهار والليل ، النور والظلمة ، البحر والبر ، الشمس والقمر وغيرها.

لكننا نجد تفسيراً أدق لهاتين الآيتين في وقتنا الحاضر ، حيث إنّ التحقيقات العلمية أثبتت هذه الحقيقة بوضوح وهي أنّ جميع الموجودات لعالم المادة تتشكل من أجزاء صغيرة جدّاً تدعى بالذرة ، وهذه الأجزاء التي عرفت قديماً بالموجود الذي لا يتجزأ (أجزاء لا تتجزأ) وسمى بـ «الذرة» لهذا السبب قد تحطم على أثر تطور القدرة العلمية والفكرية للإنسان ، ومن هذا المنطلق نشأت القوة الذرية والصناعات المتعلقة بها.

وعندما حلّلوا الذرة وجدوا أنها مركبة من أجزاء متكونة غالباً من الألكترونات (الجزئيات التي تغلف النواة ، وتحمل شحنة سالبة) ، البروتونات (الجزئيات التي تحمل شحنة موجبة) .

وعلى هذا الأساس نستنتج من ذلك معنى أدق للزوجية في كل ذرات عالم الوجود وهو توفر عنصري (الذكر) و (الأنثى) ، (الموجب) و (السالب) ، (الفاعل) و (القابل) وبدون أي استثناء أيضاً ، في حين أنّ التفسير الذي قال به العلماء الأوائل بالرغم من عدم انسجامه الكامل مع مفهوم الزوجية ، فإنّ فيه استثناءات كثيرة أيضاً.

وعلى أي حال ، توجد هناك جاذبية قوية بين الزوجين الحقيقيين ، وكذلك بين جسمين بشحتين كهربائيتين مختلفتين سالبة و موجبة ، وهي كثيراً ما تشبه الجاذبية الجنسية ، في حين لا يوجد أي نوع من أنواع الجاذبية بين الليل والنهار ، النور والظلمة ، البحر والبر ، وما شابه ذلك.

ومن الجدير بالذكر ما صرّح به بعض المفسرين القدامى من خلال ما استلهموه من

الآيات السالفة ، بأنّ المقصود من الزوجين في هذه الآيات هو عنصري الذكر والأنثى نفسيهما ، وإن لم يوضحوا هذا المطلب بصورة كاملة ^(١) .

* * *

١٠ . القرآن يكشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنين

وردت ضمن الآيات القرآنية المرتبطة بعالم التوحيد ودلائل المعاد إشارات غزيرة المعانى إلى مسألة خلق الإنسان من النطفة ومن ثمّ مراحل تطور الجنين . والتي يمكن عدّ بعض منها في قائمة المعجزات العلمية للقرآن .

من جملتها ما نقرأ في الآية الثانية من سورة الإنسان : ﴿أَنَا خَلَقْتُ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبَتِلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ .

«النطفة» : في اللغة بمعنى الماء الصافي أو الماء القليل ^(٢) . (الامشاج) جمع مشج (على وزن نسج أو على وزن سبب) . أو جمع مشيج بمعنى الشيء المختلط . وقد أبدى المفسرون احتمالات متعددة في صدد الجواب عن ما هو الشيء الذي تختلط به النطفة . فتارة تصوروا أنّ ذلك إشارة إلى تركيب نطفة الإنسان من «الحيامن» و «البويضة» ، وتارة أّنه إشارة إلى كونها مركبة من الاستعدادات المختلفة من الناحية الجسمية أو الروحية (القبح والحسن ، الذكاء والغباء و ...) . وانحرى إلى أّنه إشارة إلى أنّ نطفة الإنسان مركبة من مواد مختلفة من المعادن ونحوها .

بطبيعة الحال أّن ذلك كله حسن ، ولعله كان من أفضل التفاسير في عصره ، إلّا أنه لا ينطبق بدقة على معنى الآية . ذلك أّن لفظة الأمشاج جمع ، واطلاقها على شيئين أي (البويضة والحيامن) خلاف الظاهر ، هذا أولاً ، ثانياً : أّن وجود الاستعدادات المختلفة في

(١) جاء في تفسير مجمع البيان ، ج ٩ ، ص ١٦٠ ، عن أحد المفسرين القدماء ويدعى «ابن زيد» أّنه قال في تفسير الآية ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ...﴾ الزوجين الذكر والأنثى . كما ورد هذا المعنى نفسه عن قتادة في تفسير الآية ﴿سَبَحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهُمَا﴾ . (تفسير القرطبي ، ج ٨ ص ٥٤٧٠) .

(٢) تمت الإشارة إلى المعنى الأول في معجم مقاييس اللغة والمفردات ، والى المعنى الثاني في لسان العرب .

الأشخاص بشكل مستقل لا يتلاعُم مع معنى الأمشاج ، وكذلك ليس من المناسب القول بتركيب النطفة من أنواع المعادن واشباهها ، لأنّ هذا الأمر لا ينحصر في النطفة فقط ، وإنما تتركب من هذه المواد كل الموجودات العالية نظير الإنسان والنبات وألوان الأطعمة ، اضافة إلى أنّ الكلمة النطفة في آيات متعددة من القرآن جاء في خصوص نطفة الرجل.

فمثلاً نقرأ في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّنْ مَنِّيْ يُمْنَى﴾؟ (القيامة / ٣٧)

لكن مع تطور العلم واتساع نطاق تحقیقات العلماء ثبتاليوم أنّ القطرات القليلة للمني والتي تدعى بـ (النطفة) مركبة من مياه متعددة تفرزها الغدد المختلفة للجسم ، وبشكل رئيسي فهناك خمس غدد تتواظف فيما بينها لكي تصنع المني من ترشحاتها ، وهي عبارة عن : غدتان تقعان في أكياس قريبة من غدة البروستات وتدعى بـ (البيضة).

والآخرى هي غدة البروستات نفسها ، وكذلك غدتـا «الكوبـر» و «الليـترة» اللتان

تقـعـانـ بالـقـرـبـ مـنـ الـمـجـارـيـ الـبـولـيـةـ هـذـاـ مـاـ أـتـيـتـهـ الـعـالـمـ الـفـرـنـسـيـ الـدـكـتـورـ (بـوكـارـيـ) (١).

وتحتلـطـ هـذـهـ الـمـيـاهـ الـخـمـسـةـ مـعـ بـعـضـهـاـ بـنـسـبـ دـقـيـقـةـ وـمـوـزـونـةـ لـتـشـكـلـ مـادـةـ الـحـيـاـةـ.

(النطفة).

ويعتقد هذا العالم الفرنسي أنّ التعبير بـ (الأمشاج) الوارد في القرآن هو إشارة إلى تلك النكتة الدقيقة التي خفيت عن أنظار علماء ذلك العصر.

وممّا يسترعي الانتباه هو قوله تعالى في ذيل الآية السابقة : ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ ، بمعنى أنّ نعمة السمع قد تقدمت على نعمة البصر ، لاحتمال أن يكون السبب في ذلك كما ذهب إليه العلماء هو أنّ الحس الأول الذي يبدأ بالعمل لدى الرضيع هو السمع ، فهو يستعد لالتقاط الأصوات في الأيام الأولى من حياته. بل إنّ له قبل ذلك نشاطاً محدوداً في العالم الجنيني أيضاً.

(١) مقتبس من كتاب (مقارنة بين التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) تأليف الدكتور «بوكاري» ترجمة المهندس «ذبيح الله دبیر» باللغة الفارسية . ص ٢٧١ . الملفت للنظر أنّ هذا الدكتور الفرنسي يميل كثيراً إلى القرآن حينما يضمّ على مقارنة هذه الكتب فيما بينها ، وحيث إنّ ترجمات القرآن المتداولة لا تشفي غليله ، نراه يستفيد من الأدب العربي ويجيئ به احاطة تامة ليتمكن من الحصول على ما يحتاجه من القرآن مباشرة دون حاجة للرجوع إلى ترجماته.

وهذا بخلاف البصر فأنه يستعد للإبصار بعد ذلك ولعله بعد مرور أسبوعين ، لعدم امتلاك العين المغمضة أي استعداد لرؤية أمواج النور في البيئة المظلمة للرحم. ولهذا السبب فإنّ عين الرضيع تبقى مغمضة بعد ولادته مدة من الزمن أيضاً ، حتى تعتاد على الضياء بالتدريج.

من جانب آخر يقول تعالى : ﴿اَلَّمْ نَحْلُقُكُمْ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ اَلَى قَدْرٍ مَّعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ . (المرسلات / ٢٠)

لقد توصل علماء الأجنحة اليوم من خلال مطالعاتهم ومشاهدتهم الدقيقة والمصورة عن تحولات الجنين إلى هذه النكتة ، هي أنّ لقاء (الحيامن والبيوض) إنما يتم خارج الرحم وفي الممرات المنتهية إليه. ثم تتعقد النطفة لتشق طريقها نحو قرارها الأصلي وهو الرحم فتلتصق بجداره.

ويتبين هذا المعنى بوضوح في الآية الآنفة الذكر أيضاً ، ففي البداية تتحدث عن حلقة الإنسان ، ومن ثم عن استقراره في قرار الرحم (وينبغي الالتفات إلى أنّ «ثم» تُستعمل في لغة العرب عادة للترتيب بشيء من الفاصلة) ، وعليه فإنّ الأمر الذي غاب عن أنظار جميع العلماء في ذلك العصر وما بعده قد جاء في القرآن بشكل واضح.

والتعبير بـ «القرار المكين» هو الآخر تعبير غني جداً في معناه والذي كان مجھولاً في ذلك الزمان قطعاً.

ونعلم في وقتنا الحاضر أنّ هناك خصائص مهمّة أخذت بنظر الاعتبار في خلق الرحم بحيث أصبح من آمن الأماكن للجنين.

وبغض النظر عن الأغشية الثلاثة التي تحيط بالجنين من كل جوانبه (غلاف بطن الام ، جدار الرحم ، الكيس الخاص لاستقرار الجنين). فإنّ كل جنين يسبح في كيس يحتوي على ماء لرج ، ويستقر هناك تقربياً في حالة من انعدام الوزن وعدم الاتكاء على شيء معين ، وهو يتحمل كثيراً من الصدمات التي ترد على أجواء جسد الأم ، ذلك لأنّ الصدمات في الواقع تصيب (كيس الماء) لا الجنين نفسه مباشرةً ، وبعبارة أخرى يمكن أن نسمى ذلك

الكيس ومحتواه بالجهاز المضاد للصدمات نظير النواصي المزنة للسيارة التي تخفف من تأثير عرائيل الطريق. فضلاً عن ذلك أنه يحول دون تسلط ضغط على أعضاء جسم الجنين ، ذلك لأنّ هذا الضغط يلحق الضرر بذلك الجسم اللطيف ، إضافة إلى أنّ البرودة والحرارة الخارجية لا تنتقل إلى الجنين بسهولة كما لا يخفى ، لأنّها وفي طريقها إلى الجنين لابد أن تخترق ذلك الكيس المملوء بالماء ، فتصل إليه معتدلة الحرارة ، وإلا فمن الممكن أن يختزل وضع الجنين بصورة كاملة عند استحمام واحد لِلُّام بالماء البارد أو الحار.

وبناءً على هذه الامور التي توضح لنا مفهوم (القرار المكين) بصورة كاملة لا يعتبر الرحم ملحاً آمناً ومناسباً للجنين فحسب ، بل إنّ هذا الأمن والخصوصية تساريه في المراحل التي تمر بها ولادته أيضاً.

وكما قال بعض المفسرين الجدد : إنّ المادة السائلة الخاصة التي يسبح فيها الجنين تتسبب في اتساع فوهة الرحم حين الولادة وتعقيم المجرى الذي يمر منه الجنين ليتمكن من اجتياز هذا المجرى المتلوث بأنواع الميكروبات عادة فيخرج إلى الدنيا سالماً ، في منتهى الأمان والراحة ^(١).

وممّا يستحق الاهتمام أنّ القرآن الكريم عندما يريد أن يفصح عن سلسلة المراحل التكاملية للجنين يقول تعالى : **﴿ثُمَّ خَلَقْنَا الْطُّفْلَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضَغَّةً فَخَلَقْنَا الْمُضَغَّةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ اشْنَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ * فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾** . (المؤمنون

(١٤ /

ومن طريف القول هو ما اثبته علم الأجنحة حالياً أنّ الجنين عندما يطوي مرحلة كونه علقة ومضغة ، تتبدل كل خلاياه إلى خلايا عظمية ، ثم تغطيها العضلات واللحم بالتدريج (وقد أثبتت ذلك الأفلام الدقيقة الباهضة التكاليف التي أخذت لكل المراحل الجنينية).

وهذا هو ما جاءت به الآية السابقة بدقة إذ تقول : **﴿فَخَلَقْنَا الْمُضَغَّةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾** ، وهذه هي احدى المعجزات العلمية للقرآن الكريم ، ذلك أنه لم يكن في ذلك الزمن

(١) تفسير المراغي ، ج ١٨ ، ص ١١ .

ما يسمى بعلم «الأجنحة» ، وعلى الخصوص في محيط جزيرة العرب الذي لم يتتوفر فيه الاطلاع على أبسط المسائل العلمية^(١).

* * *

١١ . القرآن يتحدث عن الآثار المهمة للغلاف الجوي للأرض

نقرأ في قوله تعالى : **﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعَرْضُونَ﴾** .
(الأنبياء / ٣٢)

لقد أبدى المفسرون القدماء وجهات نظر مختلفة في صدق بيان حقيقة السقف السماوي المحفوظ ، فتارة يذهبون إلى : إنّه محفوظ من نفوذ الشياطين ، وتارة يقولون : إنّه محفوظ من السقوط على الأرض ، وتارة ثالثة : إنّه محفوظ من الانهدام بالرغم من تقادم الزمن^(٢).

إنّ السر وراء هذه التفاسير المهمة هو عدم اطلاع البشر على السماء اطلاعاً دقيقاً في ذلك العصر.

وعندما وُجد علم الهيئة الجديد أثبت أنّ الكواكب بأجمعها تسبح في الفضاء اللامتناهي ، وأنّه لا يوجد سقف أساساً ، أصبح مفهوم هذه الآية أكثر تعقيداً بالنسبة لبعض المفسرين ، حتى لجأوا إلى القول : إنّ معناها هو أنّ السماء كالسقف المحفوظ الذي يحول دون حدوث أي اختلال في نظام الوجود.

وعلى هذا الأساس صار المبادر إلى الذهن من معنى السقف هو المعنى المجازي والذي جاء بصورة التشبيه والكلنائية.

إلا أنّ العلم البشري لم يزل يواصل تقدمه نحو الأمام ، وأصبح مفهوم هذه الآية أكثر وضوحاً نظراً إلى ما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة عن طبقات الغلاف الجوي ، فثبتت أنّه يوجد سقف محفوظ بمعناه الحقيقي.

(١) أشار سيد قطب في كتابه في ظلال القرآن ج ٦ ص ١٦ إلى ذلك. وقد شاهدنا ذلك أخيراً في فيلم وثائقي عجيب عن المراحل التكاملية للنمو الجنيني.

(٢) تفسير مجمع البيان ، ج ٧ ص ٤٦ ، والتفسير الكبير ، ج ٢٢ ، ص ١٦٥ وتفاسير أخرى.

توضيح ذلك : أنه توجد طبقة عظيمة للهواء تحيط بالأرض من كل أطرافها تسمى «الغلاف الجوي» يصل سمكها مئات الكيلو مترات ونظرًا لضخامة هذه الطبقة الشفافة ظاهراً والمتكونة من الهواء وبعض الغازات الأخرى ، بجدها على جانب كبير من القوة والمقاومة يقدرها بعض العلماء بمقاومة سقف فولاذي سمكه عشرة أمتار ، تُصان به الكرة الأرضية من ألوان المخاطر.

فمن جهة يقف سداً منيعاً أمام سقوط الصخور المستمرة . ليلاً ونهاراً والمعروفة بـ (الشهب) المنجدية نحو الأرض بسرعة هائلة وتشكل خطراً كبيراً فيما لو اصطدمت بإحدى الأماكن .

وتتصحّح أهميّة هذه المسألة أكثر من خلال النظر إلى ما قاله العلماء : إنّ ملايين من هذه الشهب تتجه نحو الأرض في كل يوم وليلة ، وعندما تصطدم هذه الأحجار السريعة بـ مقاومة الغلاف الجوي تولد حرارة فتحترق وتشتعل متحولة إلى رماد ، ينزل إلى الأرض رويداً رويداً ، وفي بعض الأحيان تكون هذه الأحجار كبيرة جدّاً فتحتاز الغلاف الجوي (بعد أن يحترق جزء منها) فتصيب نقطة من الكره الأرضية ، وتحدث أضراراً مخيفة ، وقد سُجلت خواذج لها في التاريخ ، ولعله إنذار موجه إلى الغافلين بأنّ الله تعالى لو لم يخلق هذا السقف المحفوظ ، لتعرضتم بأجمعكم إلى هذا القصف الخطير ، ولما كان للهدوء والاستقرار معنىًّ في حياتكم .

ومن جهة أخرى نعلم أنّ الشمس تبعث منها أشعة تدعى بالأشعة فوق البنفسجية (تلك الأشعة هي نفسها التي تقع فوق اللون البنفسجي عندما يتحلل ضوء الشمس ولا تشاهد بالعين المجردة) والمقدار القليل منها مفید ونافع جدّاً ، فضلاً عن أنه لا يلحق الضرر بأحد ، وبالأخص إنّ له دوراً كبيراً في قتل الميكروبات ، إلا إذا ازداد وكثير فانه يحرق البدن بدون أن يشعر الإنسان بالحرارة ، (إنّ السبب وراء الحرائق التي تصيب جلد الرأس والوجه والبدن في المناطق القريبة من خط الاستواء في فصل الصيف هو أنّ الشمس تستطع بصورة عمودية وتحتاز طبقة قليلة من الهواء ، فلا تحظى بقدر كافٍ من التصفية) ولو لم يوجد هذا

(السقف المحفوظ) وهو «الغلاف الجوي» لم يستطع أي إنسان أن يقاوم الشمس ولو لحظة واحدة.

من جهة ثالثة أن الإشعاعات المميتة المسممة بـ(الأشعة الكونية) تتجه بسرعة نحو الأرض مما وراء المنظومة الشمسية فيقف جزء من الغلاف الجوي ويسمى بـ«طبقة الأوزون»^(١) مانعاً من نفوذ هذه الأشعة القاتلة ويعاونها كالسقف المحفوظ.

أخيراً بزرت مخاوف كثيرة للعلماء على أثر الثقب الذي حدث في طبقة الأوزون بسبب تصاعد الغازات الضارة من بعض أجزاء السيارات في الهواء وإلهاقها الضرر بتلك الطبقة ، هذه المخاوف ظهرت بصورة جدية بحيث أخذ رجال الدول والعلماء يفكرون في وضع مقررات دولية تمنع حدوث هذه الاضرار.

هذا ما توصلنا إليه حالياً من التعرف على الآثار العجيبة لهذا (السقف المحفوظ) ، أي الطبقات العظيمة للهواء ومن الممكن الكشف عن حقائق أهم وأكثر في هذا المضمار مستقبلاً.

وقد يخطر في الذهن هذا السؤال وهو : هل يمكن اطلاق اسم «الغلاف الجوي» على السماء فتصدق عليه؟ وهل تعني السماء الكواكب والأجرام السماوية والمنظومات وال مجرّات؟

في الجواب عن هذا السؤال نقول : إن القرآن الكريم هو الذي اطلق مراراً هذه الكلمة على الغلاف الجوي ومن جملة ذلك ما نقرأ في قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَابِ رِزْقًا لَكُم﴾^(٢) . (البقرة / ٢٢)

ويتحلى بوضوح نموذج آخر لهذا المعنى في قوله عز من قائل : ﴿الَّمْ يَرَوَا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوَّ السَّمَاءِ﴾^(٣) . (النحل / ٧٩)

(١) الأوزون ، غاز أزرق اللون ذو رائحة نفاذة ويعد أخطر من غاز الأوكسجين. ويكون عند التفريغ الكهربائي للأوكسجين ، ويستعمل لاغراض الصباغة وتصفية الماء والهواء.

(٢) وورد نظير هذا المعنى في البقرة ، ١٦٤ ؛ الأنعام ، ٩٩ ؛ الأعراف ، ٩٦ ؛ يونس ، ٢٤ ؛ هود ، ٤٤ ؛ الرعد ، ١٧ وآيات أخرى متعددة.

١٢ . القرآن والغلاف الجوي للأرض أيضاً

نقرأ في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلَلَ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَانَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . (الأنعام / ١٣٥)

ورب سؤال يتबادر إلى الذهن وهو :

ما هي العلاقة بين الصعود إلى السماء وضيق الصدر؟

وهو سؤال لم يجد له المفسرون الأوائل جواباً دقيقاً.

قال كثير منهم : إن المقصود من ذلك هو كما أن الصعود إلى السماء أمر عسير أو محال كذلك تحصيل الإيمان بالنسبة إلى الكفار المعاندين والجهلاء المتعصبين ^(١) .

في حين أن الأعمال الشاقة والمستحبة كثيرة على وجه الأرض فليس هناك مبرر للتشبيه ، إضافة إلى أن هذا التفسير بحاجة إلى تقدير : وهو أن الإيمان يشابه الصعود إلى السماء ، في حين أن القرآن يقول : ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَانَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ .
وقالوا في بعض الموضع : شبه الله الكافر في نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يطيقه ، كما أن صعود السماء لا يطاق ^(٢) ، ولا يخفى عدم تناسب هذا التفسير مع محتوى الآية أيضاً.

أما بالنظر إلى الاكتشافات الأخيرة فإن لآلية المتقدمة تفسيراً آخر يناسب هذا المعنى

من كل الجهات وهو :

لقد ثبتاليوم أن الهواء المحيط بأطراف الكرة الأرضية مضغوط بصورة كاملة في الأماكن المجاورة لسطح الأرض ويلاائم تنفس الإنسان ويناسبه ، لأنّه يحتوي على الاوكسجين الكافي ، وكلما ابتعدنا عن سطح الأرض أصبح الهواء أقل كثافة فيغدو التنفس شاقاً جدّاً على ارتفاع عشرة كيلو مترات عن سطح الأرض بدون استخدام الإنسان نفّاقاً الاوكسجين ، ويصاب بحالة من الضيق الحاد في التنفس ، وكلما ارتفع إلى الأعلى أكثر ،

(١) تفاسير مجمع البيان ؛ روح البيان ؛ تفسير القرطبي و ... ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير روح البيان ، ج ٣ ، ص ١ .

ازدادت حدة الضيق في تنفسه حتى يصل إلى الوقت الذي يغمى عليه لقلة الأوكسجين. إذن توجد هناك علاقة وثيقة بين ضيق النفس والصعود إلى السماء ، ولم تتبادر هذه الحقيقة في ذهن أي شخص في ذلك العصر ^(١). بيد أنها قد تبلورت في اذهان الجميع في يومنا هذا ، فقد سبق لنا أن سمعنا هذا الحديث من مضيق الطائرة عدة مرات أثناء سفرنا بها ، بأن الهواء الموجود داخلها ينظم بجهاز خاص ، فإذا حدث خلل فيه ، فحينئذ ينبغي الاستفادة من نفاث الأوكسجين ، لتسغل الطائرة سرعتها وتصل إلى الطبقات السفلية للجو الأكثر ضغطاً.

كما أن العلاقة بين هذا المعنى وبين تفسير الآية واضحة جلية.

وهي في الواقع تشبيه المعقول بالمحسوس ، فقد شبّه الجمود الفكري والتعصب واللحاجة وقصر نظر الضالين المعاندين في اعتقادهم للإسلام ، بضيق التنفس الناجم عن قلة حصول الأوكسجين بالنسبة للشخص الذي يصعد إلى السماء.

ونهي هذا البحث بمقدمة للمراجي في تفسيره هذه الآية ، إذ يقول : «سبحانك ربّي نطق كتابك الكريم بقضية لم يفهم سرها البشر ، ولم يفقه معرفة كنهها إلاّ بعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرناً ، وتقديم فن الطيران ، الآن علم الطيارون بالتجربة صدق ما جاء في كتابك ، ودلّ على صحة ما ثبت في علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوي في مختلف طبقات الهواء ، وقد عُلم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة من الطبقات التي هي أسفل منها ، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر باللحاجة إلى الهواء وبضيق في التنفس نتيجة لقلة الهواء الذي يحتاج إليه ، حتى لقد يحتاجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير في تلك الطبقات ، وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جلياً لأنّهم لم يهتدوا لسرّها ، وجاء الكشف الحديث وتقديم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبته العلم ، ومن هذا صحة قولهم ، «الدين والعلم

(١) يُصاب الإنسان أحياناً بضيق في النفس عند تسلق الجبال ، هذا صحيح ومعروف منذ الأيام السالفة ، ويحصل نتيجة للجهد البدني الشديد ويشاهد في حالة الركض على الأرض المستوية أيضاً ، غير أن القرآن يقول : إنّ ضيق النفس يسببه الصعود إلى السماء لا الجهد البدني الشديد.

صِنوان لا عَدُونَ» ، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفي أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين» ^(١) .

* * *

١٣ . القرآن وأسباب نزول المطر والثلوج

نقرأ في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابَةً ثُمَّ يُؤْلِفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَبَابِرُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ . (النور / ٤٣)

في هذه الآية تعابير مختلفة ، لم تتوضّح معانيها بدقة في الماضي.

«يرجي» : مأخوذه من مادة (إرتجاء) ومعناها في الأصل هو الدفع أو التحرير الملائم الماديء.

يقول الراغب في المفردات : «التزجية» معناها هو التحرير على سبيل الترتيب والتسلسل.

واستعمل القرآن الكريم هذه الكلمة لحركة السفن على أثر هبوب الرياح في البحر كما رودت في سورة الاسراء ، الآية ٦٦ .

«الرِّكَام» : (على وزن غلام) وتعني الأشياء الموضوعة فوق بعضها.

«وَدْقٌ» : (على وزن شرق) ، وهي حسب رأي بعض المفسرين بمعنى قطرات المطر ، وحسب رأي البعض الآخر بمعنى البرق.

«البَرَد» : على وزن (سَبَدٍ) والمقصود به قطرات المطر المنجمدة ، وهي في الأصل مأخوذه من مادة بَرْدٌ على وزن (فَرْدٌ) وهي البرودة. ولأن قطع البرد ذات طبيعة باردة وتبعد على برودة الأرض أيضاً اطلقت هذه الكلمة عليها ^(٢) .

(١) تفسير المراغي ، ج ٨ ، ص ٢٥ .

(٢) جاء في كتاب (التحقيق) : «البرودة في الماء أن يبرد إلى أن يصل حد الانجماد فيقال له البرد» .

«جَبَلٌ» : جمع جَبَلٍ ، جاء في (معجم مقاييس اللغة) هو : بمعنى تجمع الشيء مصحوباً بالارتفاع ، وورد هذا المعنى في (التحقيق) أيضاً ، وعليه فالجبل لا يراد منه جبال الحصى والرمال فحسب ، بل إن كل مرتفع متراكم ومخزون يقال له في لغة العرب : جبل. واستناداً إلى ما قيل في هذا المجال نعود إلى الآية الآنفة الذكر : **﴿وَيَنْرُلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾**.

لم يدرك أحد في ذلك العصر بدقة أن السحب في السماء على هيئة جبال بارتفاعات متفاوتة نشاهد قاعدها غالباً. لأننا نراها بصورة لوحة واسعة في السماء ، لكن عندما نخلق بالطائرة إلى أعلى السحب ، نشاهدها جبلاً وودياناً ومرتفعات ومنخفضات ، كما نشاهد ذلك على سطح الأرض ، وبعبارة أخرى : إن السطح الأعلى للسحب غير مستوي وعلى غرار سطح الأرض يحتوي على تضاريس كثيرة ، وفي كثير من الأحيان يكون متراكماً على هيئة جبل.

ومن أجل أن يتضح مفهوم الجبال في الآية أكثر يمكن أن نضيف النكتة الدقيقة والتي ثبّتت نتيجة لتطور العلوم وازدهارها وهي :

ذكر أحد العلماء في تحليله الشخصي ما خلاصته : إن السحب المرتفعة عبر عنها بجبال الثلج ، في الآية التي وقعت مورداً للبحث ؛ لأن العلماء في تحليلاتهم الجوية اصطدموا بسحب مكونة من إبرٍ ثلجية ، يصدق عليها عنوان (جبال من الثلج) واقعاً ، ومن الغريب هو ما ذكره بصددها أحد العلماء الروس أثناء شرحه لبعض (السحب الخملة بالأمطار) بأنّها جبال من الثلج ، أو جبال من السحب.

هذا كله من جهة ومن جهة أخرى ، ذهب علماء معاصرون في صدد كيفية نشوء البرد في السماء إلى القول : إن قطرات المطر تنفصل عن السحاب وتتصطدم بالمناطق العليا الباردة للجو فتنجمد ، ولكنها صغيرة جداً تتدفق إلى الأعلى من جديد تيارات هوائية شديدة مسلطة على تلك المنطقة فتنفذ تلك الحبيبات داخل السحب مرّة أخرى لتسقى مقابلها صفحة جديدة من الماء ، تنجمد مرّة ثانية حينما تنفصل عن السحاب ، ويحدث أحياناً أن

يتكرر هذا الأمر عدّة مرات حتى يصبح حجم البرد كبيراً ، ولا تقوى التيارات الهوائية على دفعه إلى الأعلى أو أن تحدأ تلك التيارات بصورة مؤقتة ، فحينئذ يشق طريقه إلى الأرض ويسقط باتجاهها بدون أي مانع ، ويحدث أن يكون كبيراً ثقيلاً في بعض الأحيان فيلحق أضراراً بالمزارع والبساتين والحيوانات وحتى أفراد البشر أيضاً.

من هنا يتبيّن أنّ وجود برد كبير الحجم ثقيل الوزن ممكّن عندما تراكم الحبيبات المنجمدة فوق قمم السحب الجبلية إلى أن تظهر رياح شديدة فتقاذفها وسط السحب ، وتحمّل مقداراً أكثر من الماء ، فتصبح ثقيلة الوزن.

وعلى هذا الأساس تعتبر السحب الجبلية منبعاً مهماً لتكون برد كبير الحجم ، سبقت الإشارة إليه في الآية.

وتتضح المسألة أكثر فيما لو قلنا : إنّ هذه الجبال هي الأكواخ المتكونة من الذرات الثلوجية نفسها ^(١).

والسؤال الوحيد الذي يبقى هنا هو : لماذا وجه القرآن الكريم الخطاب إلى النبي عليهما صلوات الله عليهما بقوله : (أَمْ تَرَ) في حين أَنّا نعلم أنّ هذه المسألة لا تقبل الرؤية على الاطلاق ، وإنّما تمكن ملاحظتها في عصرنا فقط من خلال التحليل بالطائرة؟

والجواب عن هذا السؤال واضح ، ذلك أنّ (أَمْ تَرَ) والجمل المشابهة لها يراد منها **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾** ، ولهذا يقول القرآن مخاطباً النبي في سورة الفيل الآية ١ : **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِاصْحَابِ الْفِيلِ﴾** ، بالرغم من ولادته صلوات الله عليه في عام الفيل (العام الذي هاجم فيه أوروبا مكة المكرمة) وعدم حضوره تلك الواقعة.

* * *

(١) ذهب المفسرون في تفسير : **﴿وَيَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جَبَلٍ فِيهَا مِنْ بَرْدٍ﴾** إلى قولين يمكن استنتاجهما من سياق ترکيب الآية ؛ الأول : إنّ الجار والمحور في «من برد» متعلق بينزل وهي في حكم المفعول فيصبح معنى الآية : إنّ الله ينزل قطع الجليد من جبال في السماء (وهنا ذكرت الجبال بصورة مطلقة). والثاني : إنّ الجار والمحور متعلق بفعل مخدوف يقع صفة ل «جبال» فيصبح معنى الآية بناء على ذلك : إنّ الله ينزل بردًا من جبال الثلوج التي في السماء (وهنا يكون مفعول «ينزل» مخدوفا ويفهم من سياق الكلام). وكل التفسيرين يوضح الاعجاز العلمي للقرآن وفقا لما ذكرناه سالفاً. لأنّ قوله تضمن ذكر جبال من الثلوج ، وقولاً آخر تضمن جبال السحاب ، وكلاهما لم يكن معروفاً في زمانه.

٤ . القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر

ورد الحديث عن الرعد والبرق في القرآن الكريم بشكل مكرر ثم وردت الإشارة إلى هطول الأمطار بعد ذلك مباشرةً.

ورد في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحِيِّ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . (الروم / ٢٤)

ونقرأ في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَشِّئُ السَّحَابَ التَّفَالَ﴾ . (الرعد / ١٢)

وفي الماضي لم يكن أحد يعرف بدقة منشأ (الرعد) و (البرق) ، ولذا فقد كان كل واحد يختلف لنفسه فرضية معينة ، ويفضي عليها أحياناً طابع الأساطير والخرافات ، أما اليوم فقد أصبحى مسلماً أن حدوث الرعد والبرق يرتبط بالتفريغ الكهربائي بين سحابتين لهما شحنتان كهربائيتان مختلفتان (أحدهما موجبة والآخر سالبة).

وفي الواقع مثلما يتصل سلكان كهربائيان أحدهما بالآخر فتحدث شرارة كهربائية يصحبها الصوت والحرارة معاً ، كذلك يحدث هذا الأمر بين السحب . (فالبرق) هو الشرارة الكهربائية الهائلة ، و (الرعد) هو صوت تلك الشرارة.

وقد يحدث هذا التفريغ الكهربائي بين قطع السحاب التي لها شحنتان كهربائيتان موجبة وبين الأرض ولها شحنة كهربائية سالبة عادة ، فتقذف شرارة نارية إلى سطحها يطلقون عليها اسم (الصاعقة) والتي تسبب الحرائق الكبيرة في الصحراء والغابات وحتى في المباني والمعماريات في بعض الأحيان.

وبإمكانها أن تُحْوِلْ قطبيعاً كبيراً من الحيوانات إلى رماد في لحظة واحدة وإذا ما ضربت جبالاً ما فسوف يتلاشى وينهار ، أو إذا اصابت سطح البحر قبضت على كل ذي روح يعيش في ذلك الموضع منه ؛ ويعزى ذلك كله إلى أن الحرارة الناجمة من تلك الشرارة النارية هائلة جداً ، (تصل إلى حدود خمسة عشر ألف سانتيكراد ، أي ضعف حرارة سطح الشمس تقريراً) ، فتحييل كل الأشياء إلى دخان ورماد.

وإذا ما كان البرق والرعد من المظاهر المرعبة لعالم الطبيعة إلاّ أهّمًا بالرغم من ذلك يشتملان على فوائد ومعطيات كثيرة أيضًا.

فمن أحدى آثارهما المهمة هي نزول الأمطار الغزيرة ، وذلك لأنّ الحرارة المتولدة من البرق ، تُسخّن مساحة واسعة من الهواء المحيط بها ، فيقلّ ضغطه ، ومن المعلوم أنّ السحب ستفرغ ما فيها من أمطار على أثر قلة الضغط ، ولهذا السبب تهطل أمطار غزيرة بعد حصول الرعد والبرق.

وممّا يجدر ذكره : عندما تقترب السحب المتراكمة من الأرض لتظللها يصبح الجو مظلّمًا ، ويسمع صوت الرعد المخيف وتتراءى أنوار البرق ، في الوقت ذاته تؤثّر العواصف العاتية على السحب فتجعلها محملة ب قطرات كبيرة غزيرة و تؤدي إلى تزايد وزنها ^(١) ، وهذا هو عين ما قرأناه في الآيات السابقة التي تحدثت عن السحب الثقيلة بعد أن أشارت إلى مسألة البرق ، إضافة إلى أنّ الحرارة الشديدة للبرق تؤدي إلى أن تتركب قطرات المطر من مقادير أكثر من الاوكسجين ، فينتج من ذلك ماء مؤكسد ويسمونه بالماء الثقيل أيضًا H_2O .

ولهذا الماء الثقيل تأثير كبير في القضاء على كثيّر من الميكروبات والآفات النباتية ، ولذا ذهب العلماء إلى القول بتكرار الآفات النباتية في السنة التي يقل فيها الرعد والبرق (وهذا تفسير آخر في صدد السحب الثقيلة).

وإضافة إلى ذلك فإنّ حامض الكربوني يولد من قطرات المطر الممتزجة بكاربون الجو وبواسطة الحرارة الشديدة للبرق ، وبعد سقوطه على الأرض يتفاعل مع مواد أخرى ليينتج مركبات تعد من أفضل الأسمدة لنمو الأعشاب ، حتى ذهب العلماء إلى القول : إنّ مقدار الأسمدة الناشئة من الرعد والبرق في الكرة الأرضية تصل إلى حدود العشرة ملايين طن في جميع أنحاء الكرة الأرضية ، وهو رقم كبير جدًا.

وتتوضح عظمة القرآن العلمية بالمقارنة بين هذه الاكتشافات والآيات الآنفة الذكر ،

(١) العواصف والأمطار ، ص ١٣٨ .

خصوصاً إذا أخذ بنظر الاعتبار عدم وجود أدنى أثر لهذه العلوم في ذلك العصر وفي بيئه الجزيرة العربية.

* * *

١٥ . القرآن وكشف هوية الإنسان

نقرأ في قوله عز من قائل : ﴿إِيَّاهُسْبُ الْإِنْسَانُ إِنَّ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَاهُ﴾ . (القيامة / ٤٠ - ٣)

جاء في الروايات ، أن أحد مشركي العرب ويدعى (عدي بن ربيعة) وكان رجلاً معانداً ومتعصباً جداً ، أتى إلى النبي ﷺ وسأله عن يوم القيمة وكيفية وزمان تتحققه ، وقال : إنني لا أصدقك ولا أؤمن بك وإن رأيت ذلك اليوم بأم عيني ، كيف يمكن التصديق بأن الله تعالى يجمع هذه العظام النخرة ، هذا مما لا يقبل التصديق فنزلت الآية المذكورة أعلاه .^(١)

«بيان» : في اللغة بمعنى الأصابع ، وقد ورد أحياناً (بمعنى رؤوس الأصابع) ، وهو مأخذ من مادة (بن) بمعنى الإقامة .

وبناءً على كون الأصابع ، أداة لإصلاح أحوال إقامة الإنسان في العالم ، اطلق عليها هذا الاسم^(٢) .

إن للأصابع دوراً مهماً جداً في حياة الإنسان ، وتعد من عجائب الخلقة ، وإن غفلنا عن أسرارها. لأنها تحت تصرفنا دائماً ، ولو قطعت أصابع يد أحد ما ، فإنه سوف لا يستطيع أن ينجز عملاً دقيقاً بأي شكل من الأشكال ، وستتحيل عليه الكتابة ، وتصفح أوراق الكتاب ، وتناول الطعام بسهولة ، والاتصال بالهواتف ، وفتح الأبواب بالفاتح وأنواع الصناعات الدقيقة وستتحيل عليه بقية الصناعات الأخرى كأنواع الأعمال المتعلقة بالسيارات ، وحتى أخذ الأشياء الثقيلة باليد أيضاً ، بل ويمكن لنقص أحد الأصابع أن يوجه

(١) التفسير الكبير ، ج ٣ ، ص ٢١٧ ؛ وتفسير القرطبي ، ج ١٠ ، ص ٦٨٨٥ .

(٢) المفردات للراغب ؛ وجمع البحرين ؛ ومعجم مقاييس اللغة ، مادة (بن) .

ضربة عنيفة لكتير من الأعمال اليومية التي يقوم بها الإنسان. ولهذا السبب تنجز الحيوانات ذات الأربع كثيراً من أعمالها بفمها أو رأسها.

وبعبارة أخرى يمكن القول : إن وجود الأصابع لدى الإنسان يعتبر من العوامل المهمة للتقدم الحضاري له ، والتعبير بـ «البنان» المأخذ من مادة الإقامة والدوم ، إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة نفسها ، وذلك لصعوبة وجوده في العالم بذوهما.

يقول الله تعالى في الآية الآنفة الذكر : إن بإمكاننا أن نعيد العظام الصغيرة الدقيقة في يوم القيمة أيضاً فضلاً عن العظام الكبيرة.

واحتمل جماعة من المفسرين أيضاً أن المقصود من تسوية البنان هو وصالها مع بعضها وخارجها بصورة حافر حيوان من ذات الأربع وليس لهذا التفسير تناسب مع آيات السورة.

من الأمور التي يمكن استنتاجها من هذه الآية هو هذا الاكتشاف المهم ، فقد أصبح من الثابت أن معرفة هوية أحد ما يتم بوسيلة رؤوسه أصابعه. وهي أوثق وأدق من كل امضاء ولا يستطيع أحد تزويره ، في حين أن التزوير قادر على التسرب إلى أعقد التواقيع ، ولهذا السبب أصبحت مسألة «أخذ البصمات» من الحقائق العلمية في عصرنا الحاضر واستحدثت لأجلها دائرة خاصة في المراكز الأمنية ، من خلالها يكشف النقاب عن كثير من المجرمين ، فيكتفي أن يضع أحد السارق يده على مقبض الباب ، أو زجاج الغرفة ، أو على القفل والصندوق والكرسي عند دخوله لأحد الغرف أو المنازل فيبقى أثراها على تلك الأشياء ، أو يتم العثور على سلاح في قضية قتل ، عليه بصمات أحد الأشخاص ، وهذا يكتفي لأنخذ نماذج فورية لها فتتم مطابقتها على بصمات الأشخاص المشكوك بهم في تلك الحادثة ، إضافة لما لديهم من معلومات عن المجرمين والسارق . ومن ثم يلقون القبض على الجاني.

إذن يكون مفهوم الآية بناءً على هذا التفسير : إننا لسنا قادرين على أن نجمع العظام الكبيرة والصغرى فحسب ، بل إن في مقدورنا أيضاً أن نعيد الأصابع وبصماتها بجميع

مزاياها ، التي هي من أدق ما في البدن من خصوصيات إلى حالتها الأولى. وبعبارة أخرى أنّ مفهوم تسوية البنان (ومعناها التنظيم والترتيب) ، شامل لجميع الخصوصيات والجزئيات ، من جملتها بصمات الأصابع.

ومن الجدير بالذكر هو ما نجده من توافق بين هذا المعنى وبين مسألة القيامة ، المحكمة الكبرى للعدل الإلهي ، التي يجب التحقيق فيها مع الجرميين والمذنبين ، ذلك أنّ هذه المسألة يستفاد منها أيضاً في محاكم الدنيا ، قبل أي مكان آخر.

* * *

١٦ . القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات

نقرأ في قوله تعالى : ﴿لَخْلُقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . (المؤمن / ٥٧)

صحيح أنَّ أغلب المفسرين اعتبر هذه الآية ردًاً على جدال المشركين في (المجاد) ^(١) ،
أي إنَّكم تشكُّون في بعث الإنسان من جديد ، في حين أنَّ خلق الإنسان ليس بأعظم من
خلق السماوات ، بل إنَّ خلق السماوات والأرض أَهْم من ذلك وأَعْظَم ، بيدَ أنَّ جملة
ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ  ، هي إشارة إلى حقيقة أنَّ عظمة السماوات كانت مجهولة
لدى معظم الناس سابقًاً.

وبالرغم مما اكتشفه العلم الحديث من اسرار عظيمة ومهمة جدًا عن وجود البشر لم يكن واحد من الألف منه معروفاً في العصور السابقة ، إلا أن الاكتشافات التي تحققت في مجال عظمة السماوات ، تدل على أن حلقها والأرض يفوق براتب خلق البشرية بكل ما تنتطوي عليه من عجائب.

إن آخر ما توصل إليه العلماء بقصد السماوات وبالأخص المجرات يقول : إنّه قد اكتشف إلى اليوم أكثر من مiliارd مجرة بواسطة المراصد الفلكية الكبيرة ، ومنظومتنا الشمسية ما هي

(١) تفاسير مجمع البيان ؛ الصافي ؛ الكبير ؛ الكشاف ؛ روح المعانى ؛ وروح البيان.

إلا جزء ضئيل من احدى المجرّات التي تسمى بـ « درب التبانة » ، ففي مجرتنا فقط أكثر من مائة مiliارd كوكب والشمس بعظمتها هي احدى النجوم المتوسطة في هذا الجيش المجرّار للنجوم.

الفضاء واسع جداً بحيث إن سير اغواره ليس يستحيل بالمركبات الفضائية البشرية فحسب ، بل إننا لو ركينا ذرات الضوء . التي تسير بسرعة فائقة تصل إلى ثلاثة الف كيلو متر في الثانية الواحدة . لاستغرقت رحلتنا هذه مiliارات السنين الضوئية أيضاً حتى يمكننا أن نقطع المساحة المكتشفة في هذا العالم .

وكلما كان حجم المراصد الفلكية أكبر وأدق ، كلما كشفت لنا الحجب عن عوالم جديدة أخرى .

بالرغم من هذه الاكتشافات فإننا لحد الآن لم نتوصل إلى ما وراء ما عرفناه وشاهدناه ، وإن ما اكتشف بأكبر المراصد هو زاوية صغيرة وتفاهة من هذا العالم العريض . وحسب قول أحد العلماء : فإن كل هذا العالم الواسع الذي نشاهده ليس إلا ذرة صغيرة ، وجزء لا حدود له من عالم أكثر عظمة^(١) .

ومن هنا نقف على عمق الآية الآنفة الذكر التي تقول : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

ونتساءل ألا يُعدُّ بيان مثل هذه الامور من قبل فرد امي في عصر نزول القرآن وفي بقعة من أكثر بقاع العالم تأخراً ، معجزة؟ وبهذا النحو نصل إلى نهاية بحث الاعجاز العلمي للقرآن ، وإن كانت لا تزال هناك ملاحظات كثيرة لم نتطرق إليها .

ونعتقد أن البحث في النماذج الستة عشر السابقة أثبت بشكل منصف ولكل إنسان واع حقيقة استحالة أن يكون هذا الكتاب العظيم أي (القرآن) من صنع عقل البشر .

* * *

(١) مجلة الفضاء ، العدد ٥٦ ، سنة ١٩٧١ .

٤ . الاعجاز التاريخي للقرآن

دور التاريخ في المسائل التربوية :

مما لا يقبل الشك أنّ القرآن ليس كتاباً تاريخياً ، لكنه ولأسباب مختلفة فإنه يضم بحوثاً تاريخية متنوعة ، وذلك لأنّ المسائل التربوية وبالأخص الاجتماعية لا يمكنها أن تنفصل عن المباحث المرتبطة بـ (تاريخ القدماء) لأنّ التاريخ من أكبر معلمي الحياة وهو معيار جيد لتحديد وتبيين مزايا وخصائص المباديء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفصل الحقائق عن الأوهام والمخاليف عمّا ينافقها.

إنّ عظمة التاريخ تكمن في اظهاره المسائل الفكرية والعلقانية في قالب محسوس تؤدي خدمة كبيرة لفهم المسائل الإنسانية بصورة صحيحة ، فمن جملة المسائل التي تُستنبط من التاريخ هي : إلى أين تؤول عاقبة الظلم والجحود والاستبداد ، وما هي نتيجة الاختلاف والتشرذم ، وما هي خاتمة التعصب والعناد والانانية ، وعدم الاعتناء بالحقائق الواقعية؟ ولهذا السبب يمكن القول : إنّ التاريخ هو معين الحياة الذي يمد الإنسان بالعمر والبقاء ، فمن خلال مطالعة تاريخ القدماء نحصل على صفحات مركزة هي عصارة آلاف السنين من التجارب الإنسانية توضع بين يدي جيل الحاضر والمستقبل.

وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة المهمة بجملة مختصرة إذ يقول :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَذَّكَّرُونَ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ يُؤْمِنُونَ﴾ . (يوسف / ١١١)

والجدير بالذكر هنا أن القرآن بينَ هذا المفهوم بعد قصة النبي يوسف عليهما السلام بالحوادث وال عبر التي يستفاد منها في الأبعاد المختلفة للمسائل التربوية.

وفي موضع آخر يعتبر القرآن قصص وتاريخ القدماء وسيلة لإيقاظ الأفكار والعقول

فيقول : **﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** (الأعراف / ١٧٦)

وفي آيات أخرى يُعد تاريخ الأنبياء الأوائل وسيلة ناجحة لـ (تشييت قلب) النبي الإسلام عليهما السلام وتنمية إرادته ولتوسيع المؤمنين وايقاظهم ، فيقول عز من قائل : **﴿وَكُلُّا نَّفْصُ عَلَيْكَ مِنْ انبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُّسِّبُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**

(هود / ١٢٠)

ويقول الله سبحانه وتعالى في صدد التعريف بقصة نوح عليهما السلام : **﴿وَلَقَدْ تَرْكَنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾** (القمر / ١٥)

ويذكر الآثار المتبقية للقدماء بعبير حي جميل ، فيقول : **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَاتَّعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْأُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾** (الحج / ٤٦)

وعلى هذا ، فالأحداث التاريخية المفصلة والآثار التاريخية الغابرة للقدماء تساهم في إنارة البصائر وفتح آفاق جديدة رحبة.

ومن خلال هذه الإشارة إلى فلسفة تاريخ القدماء نعود إلى القرآن مرة ثانية لنلقي نظرة على الاعجاز التاريخي للقرآن.

* * *

الخطوط العريضة للتاريخ في القرآن :

سبق القول إلى أن مقطعاً مهماً من المباحث التربوية والمواعظ والنصائح والبشائر والذرر والعبود والأمال القرآنية يُبيّن بصفتها مسائل تاريخية شديدة ومعبرة ومؤثرة تجذب السامع تلقائياً نحو الأهداف العليا ، ولا تستطيع الوقوف على عظمة البحوث التاريخية

المعجزة في القرآن مالم نطالع بدقة سورة يوسف ، والأنبياء ، وطه ، والقصص ، ومريم ، وأآل عمران ، وأمثالها .

وتنطوي البحوث التاريخية على الخصوصيات الأساسية التالية :

١ . الاستناد إلى المقاطع الحساسة وإلقاء نظرة فاحصة ونافذة على المسائل التربوية المهمة .

٢ . خلّوها من أي شكل من أشكال الحشو والإضافات .

٣ . خلّوها من حالات التضاد والتناقض وعدم السنخية والانسجام .

٤ . خلافاً لأسلوب كتابة التاريخ المتعارف في ذلك الزمان (وحتى في القرون التي تلته) ، حيث طرح التاريخ فيها كمادة مسلية ، ووسيلة للإطلاع على اوضاع الماضين ، فلم يشتمل على أية نظرة فاحصة مخللة تشكل فلسفة التاريخ والدروس وال عبر المستلهمة من حياة القدماء .

بينما اهتم القرآن المجيد في تواريخته بأصول المسائل وبظواهرها أيضاً بشكل ينمّي روح حب الإطلاع في نفس القارئ والمتلقي ويففز ذهنهما على التفكير الدقيق في الحوادث . ومن الجدير بالذكر : إنه لم يرد ذكر للحوادث التافهة التي لا هدف لها سوى اطالة الكلام وإتلاف الوقت في أي واحدة من آياته .

٥ . أولى القرآن اهتماماً بالغاً وبشكل دقيق بمسألة فصل الحقائق التاريخية عن الأساطير ، وهي من المسائل المعقّدة أحياناً ، لأنّ هناك عوامل مزجت التاريخ بالأساطير الكاذبة دائماً : من جملتها ، الترفية وإرضاء العواطف الطفولية ، إدارة الخيال وإيجاد الروابط المفتعلة ، بحيث يمكن القول : إنّ الأساطير والخرافات تستأثر بقطع عرضي من تواريخت القدماء وتشكل أحد أركانها الأساسية .

فبناءً على ذلك لو فرضنا أنفسنا في زمن نزول القرآن وأجواء حياة نبي الإسلام

عليه وآله وسلم لشاهدنا مدى امتزاج تواريخت ذلك الزمان بخرافات تُتناقل على الألسنة وتعد في قائمة

المسلمات بحيث لا يستطيع المتعلمون الفصل بينهما ، فضلاً عن أحد الأميين.

وقد كان علماء ذلك العصر من الريانبيين و (أحبار) اليهود والنصارى ومشركي العرب يدافعون عن هذه الأساطير والخرافات ، ومن الطبيعي أنّ من يعيش في مثل تلك البيئة ويصل سنّه إلى الأربعين تنسج أفكاره بهذه الأساطير والخرافات ويستحيل الفصل بينها عادة ، ترى هل يستطيع أحد أن يُنقِي التاريخ في تلك البيئة المظلمة ويفصل الحقائق عن الأوهام والخرافات؟ إنّ أحداً من المحقّقين ، والمطلعين على التاريخ في يومنا هذا لا يتمكّن من القيام بمثل هذا العمل إلّا بشق الأنفس ، فكيف يمكن توقع ذلك من شخص امّي لا يعرف القراءة في ذلك العصر؟

والآن نتوقف عند بعض الأمثلة في القرآن وبشيء من المقارنة يتضح ما قبلناه سابقاً :

* * *

١. كيفية خلق «آدم» كما ورد في القرآن وفي العهدين

بين القرآن الكريم (حلقة) الإنسان في سورة البقرة في الآيات (٣٠ إلى ٣٧) بالشكل

التالي :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فَالْأُولَاءِ اتَّجَهُوا إِنَّمَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِلُ الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ أَنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ اتُّبُشِّرُونِي بِاسْمَاءِ هُؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ إِنِّي هُنْ بِاسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَبَاهُمْ بِاسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَفْلَمْ لَكُمْ أَنِّي أَعْلَمُ عَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبَدُّونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنَيَ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغْدًا حِبْسُ شِسْتَمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَاخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ قَتَابَ عَلَيْهِ أَنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ . (البقرة / ٣٠ - ٣٧)

وقد أشير إلى هذا المعنى أيضاً في سور قرآنية أخرى كالأعراف وطه. ويستفاد من الآية (١٢) من سورة طه بشكل واضح ، أنّ الشيطان خدع آدم من خلال قوله له : إنّ هذه الشجرة ، شجرة الحياة الأبدية ، في حين أنّ آدم تلقى إنذاراً مُسبقاً يقضي بأنّ الشيطان عدوٌ لك فلا تغتر بأقواله. وكذلك يستفاد من الآية (٢٦ و ٢٧) من سورة الأعراف و (١٢١) من سورة طه هذا المعنى أيضاً هو أنّ آدم وزوجته كانا يرتديان الأثواب في الجنة لكن عندما تناولا من تلك الشجرة المحرمة عليهم ، خلعت عنهما أثواب الجنة. وصنعوا لأنفسهما لباساً من أوراق اشجار الجنة ، واستناداً إلى الآيات السابقة نستنتج مايلي :

أولاً : من المميزات الأساسية لشخصية آدم عليه هي نيله مقام الخلافة الإلهية وسجود الملائكة له ، وهي نفس حالة اطلاعه على «علم الأسماء» وعلمه بالحقائق والأسرار الكونية.

ثانياً : السبب وراء خروج آدم من الجنة ، هو تناوله من تلك الشجرة التي حُظرت عليه من قبل وإن كان القرآن لم يذكر اسمها لهذه الشجرة ، لكن ظاهر الأمر أنها كانت تحمل فاكهة طيبة ولذيدة والغاية من الأمر بتركها هو اختبار آدم عليه وامتحانه من أجل غريلة إيمانه وصقل إرادته في مقابل الوساوس النفسانية والشيطانية.

ويتضح من عبارة **﴿فَأَرْلَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾** معنى أنّ التناول من تلك الشجرة المحظورة لا يعود أن يكون مخاضاً من المخاضات وليس هو من نوع ارتكاب الذنب والطغيان أمام قدرة الله وانتهاء حرمة العبودية.

والآن نعرج على التوراة لنرى كيف امترت هذه الحادثة التاريخية بأنواع الخرافات والمسائل غير المنطقية والصبيانية؟

جاء في الفصل الثاني من (سفر التكوين ٧ . ٢٥) مايلي :

* ثم صور الله تعالى آدم من صعيد الأرض ونفخ في أنفه نسمة الحياة ، فأخذ روح آدم ينبع بالحياة.

* وغرس الله تعالى بستانًا في الجانب الشرقي من عدن ، وأنزل الإنسان الذي صوره هناك.

* وأنبت الله تعالى كل شجرة بدعة ولذيدة المطعم ، وانبت شجرة الحياة وسط البستان وشجرة المعرفة (بالحسن والقبح) ... * وأنحد الله تعالى آدم وأنزله في بستان عدن ليرعاه ويحرسه.* وأمر الله تعالى آدم وقال إنك مخير بأن تأكل من كل اشجار البستان.* ولكن لا تأكل من شجرة المعرفة ، لأنك ستستحق الموت حين تناولك منها ... * وكان آدم وزوجته كلاهما عاريين ولا يستحيان.

ووردت تتمة هذه الواقعة في الفصل الثالث من (سفر التكوين) نفسه على النحو

التالي :

١ . خلق الله الأفعى (الشيطان) أمكر من كل ذي روح يدب على وجه الصحراء ، فقالت للمرأة : هل قال الله حقاً لا تأكلوا من جميع أشجار البستان.

٢ . وقالت المرأة للافعى بأننا نأكل من فاكهة أشجار البستان.

٣ . إلا أن الله تعالى أمرنا بأن لا نأكل من ثمار الشجرة التي في وسط البستان ولا نلمسها حتى لا نموت.

٤ . وقالت الأفعى للمرأة وبالطبع لا تموتن.

٥ . الحقيقة أن الله يعلم أنكما يوم تأكلان منها تنتور بصيرتكما ، وتصبحان كالآلهة (الملايكه) الذين يعلمون الحسن والقبح.

٦ . فرأت المرأة أن من الصلاح أن تأكل من الشجرة التي تبدو رائعة المنظر ، جذابة لمن يعشق المعرفة فوظفت من ثمارها وأكلت واعطت لزوجها أيضاً فأكل.

٧ . حينئذٍ تنتور بصيرتكما ، وعلما أنكما عاريان فحاكاكا من أوراق شجرة التين إزاراً لهما.

٨ . وسمعا صوت الله تعالى حينما كان يتبحتر صباهاً في البستان ، فاختفى آدم وزوجته بعيداً عن حضرة الله بين الأشجار.

٩ . ونادى الله آدم وقال له أين أنت؟

١٠ . فأجابه إني سمعت نداءك في البستان وأصابني الهلع ، لأنني عاري من اللباس ولهذا اخفيت.

١١ . فقال الله من قال لك إنك عاري؟ هل تناولت من الشجرة التي أمرتك أن لا تأكل منها؟

١٢ . وقال آدم : إن المرأة التي منحتها لي لتكون معي هي التي أعطتني من تلك الشجرة فأكلت.

١٣ . وقال الله تعالى للمرأة ما هذا الذي فعلت؟ قالت المرأة لقد أغوتني الأفعى فأكلت.

١٤ . وقال الله تعالى للأفعى : لأنك فعلت ذلك فأنت ملعونة من بين كل البهائم ، والحيوانات الصحراوية ستمشين على بطنك وستأكلين التراب طيلة أيام حياتك ...

٢٢ . وقال الله تعالى نظراً لأن آدم أصبح واحداً ممن ا Learned بالحسن والقبح ، فلا ينبغي أن يمد يده إلى شجرة الحياة أيضاً فیأكل منها ويعيش عيشاً أبداً.

٢٣ . إذن لهذا السبب ابعد الله تعالى من بستان عدن ، ليشتغل بزراعة الأرض التي نشأ منها.

٢٤ . وأبعد آدم واسكن الكروبيين (الملائكة) في الجانب الشرقي من «بستان عدن» و كانوا يطوفون حول شجرة الحياة بالسيف البtar ليحرسونها.

وخلاصة ما جاء في التوراة بصدق تاريخ خلق آدم وخروجه من الجنة على النحو التالي

:

خلق الله آدم ، وأسكنه بستانـاً في الجانب الشرقي من عدن ، ليرعاه ، وختـم هذا البستان بين أشجاره شجرتين.

إحداهما : (شجرة العلم ، بالحسن والقبح) وهي شجرة يحصل من يأكل من ثمارها على العقل والذكاء ، ولأن آدم لم يكن قد تناول منها شيئاً ، فلم يدرك معنى الحسن والقبح. ولهذا السبب لم يستطع من عريـه هو وزوجته قـط ، والآخرـى : كانت (شجرة الحياة) ومن أكل منها حـظـي بالعمر الحالـد.

وأمر الله تعالى آدم أن لا يتناول شيئاً من شجرة العلم ، المعرفة والحسن والقبح على الاطلاق وإلا فسيموت ، وسرعان ما ألقى الشيطان وسواسه في روع زوجة آدم (حواء) وقال لها : لم لا تأكلـين من (شجرة العلم ، والمعرفة) لأنك لو أكلـت لـأـكلـت بصـيرـتك ولا طـلـعت على الحـسن والـقـبح كـالمـلـائـكـة ، وكان منـظـرـ تلكـ الشـجـرـةـ جـذـابـاًـ جـمـيـلاًـ ،ـ وـمـنـ ثـمـ

أكلت منها حواء واعطت منها آدم أيضاً ففتحت عيناهما ، واطلعا على الحسن والقبح ، وأدركما قبح العري فصنعا من الورق العريض لشجرة التين ستراً لهما وربطوه حولهما ، حينما كان الله تعالى يتمشى في الجنة عمد آدم إلى أخفاء نفسه بين أشجارها ، فلم يشاهده الله تعالى وناداه أين أنت؟ فأجاب الله تعالى إتي هنا بين الأشجار وقد أخفيت نفسي لأنني عارٍ فسأله الله تعالى : من أين علمت أنك عارٍ؟ لعلك تناولت شيئاً من شجرة الحسن والقبح (شجرة العلم والمعرفة) ، فالقى التبعة على عاتق زوجته ، لما عُوتيت حواء ألقت التبعة على عاتق الأفعى (الشيطان) ، هنا عاقب الله الأفعى ، بأن تزحف على بطنها ، وتأكل من تراب الأرض طيلة حياتها.

من ناحية أخرى ، بعد أن تناول آدم من (شجرة العلم والمعرفة) وأصبح كأحد الآلهة ، احترس الله تعالى من أن يتناول من (شجرة الحياة) أيضاً ويخظى بالعمر الحالد. ولذلك أصدر الله تعالى أمراً بإخراجه من الجنة وأمر الملائكة أن يحرسوا شجرة الحياة بالسيف البار لئلا يقترب منها آدم.

ولا يخفى علينا أنّ هذا هو التوراة نفسه الذي يعد اليوم (الكتاب المقدس) لجميع يهود ومسيحيي العالم ، ويؤمن جميعهم بمحتواه ويعتقدون أنّه الكتاب عينه الذي كان في أيدي اليهود والنصارى في عصر نزول القرآن.

وبطبيعة الحال فإنّنا لا نعتقد بوجود مثل هذا النوع من الخرافات الصبيةانية المبتذلة في الكتاب السماوي لموسى عليه السلام ، أو أنّ الأنبياء بعده دافعوا عنه ، ولكن على أي حال احتوت هذه الأسطورة الغريبة على أمور جارحة في حق الله تعالى ، بحيث إنّ كل واحدة منها أشنع من الأخرى ومن جملتها :

- ١ . نسبة الكذب إلى الله تعالى استناداً إلى ما نقلوه من قوله أنّكما لو تناولتما شيئاً من شجرة (العلم والمعرفة) فستموتان.
- ٢ . نسبة البخل إليه جل وعلا بمنقلوه من أنه لم يوفق على أن يأكل آدم وحواء من شجرة العلم والمعرفة ، فيحظيا بالعقل والإدراك وكان يريد لهما البقاء على جهلهما وعدم معرفتهما.

٣ . إنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَنْحِمِمَا الْعُقْلُ وَالْعِلْمُ الْكَافِيْنَ لِيَدْرِكَا قَبْحَ كَوْنِهِمَا عَارِيْنَ ، بَلْ وَكَانَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَرْتَضِي لَهُمَا هَذِهِ الْحَالَةَ.

٤ . الْقَوْلُ بِأَنَّ لَهُ جَسْمًا وَأَنَّهُ يَتَمَشِّي عَلَى قَدْمِيهِ فِي الْبَسْتَانِ ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ يَغْفَلُ وَلَا يَعْلَمُ بِمَا يَدْوِرُ حَوْلَهُ ، بِحِيثِ يَمْكُنُ لَآدَمَ وَحْوَاءَ أَنْ يَتَوَارِيَا عَنْ نَظَرِهِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ تَلْكَ الْأَمْوَرِ يَعْدُ كُفْرًا ، وَلَا يَنْسَجِمُ مَعَ مَقَامِ الْأَلْوَهِيَّةِ اطْلَاقًا.

٥ . إِنَّ الشَّيْطَانَ (نَعُوذُ بِاللَّهِ) أَشَدُ حَرْصًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى آدَمَ وَحْوَاءَ لِأَنَّهُ أَرْشَدَهُمَا إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَسْنِ وَالْقَبْحِ ، وَهُوَ لَمْ يَكُفْ عَنْ اضْلَالِهِ فَحَسِبَ بِلْ دُعَاهُمَا إِلَى طَرِيقِ التَّكَامِلِ ، بَيْنَمَا الْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّنَا نَدِينُ الشَّيْطَانَ فِي عِلْمَنَا وَمَعْرِفَنَا .

٦ . إِنَّ الْجَنَّةَ مِنْزِلُ الْجَهَالِ وَالْأَغْبَيَا لِأَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمَ وَحْوَاءَ مِنَ الْجَنَّةِ بِجَرِيْرَةِ حَصْوَلِهِمَا عَلَى الْعِلْمِ .

٧ . إِنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا لَعِنَ وَطَرَدَ مِنْ سَاحَةِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَطْلَبُ الْخَيْرَ لِآدَمَ ، فَعُوْقَبَ مِنْ دُونِ أَنْ يَرْتَكِبْ ذَنْبًا مَعِيْنًا .

وَكَذَلِكَ فِيمَا يَخْصُ الْخَرْفَاتُ الْأُخْرَى ، كَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْحَيَاةِ ، وَثَمَارُ أَشْجَارِ الْبَسْتَانِ ، أَوْ أَنَّ غَذَاءَ الْأَفْعَى هُوَ التَّرَابُ دَائِمًا ، وَأَمْثَالُ ذَلِكِ .

وَالآنَ يَمْكُنُنَا اجْرَاءُ مَقَارِنَةٍ بِسِيْطَةٍ بَيْنَ مَا يَبْيَنُهُ الْقُرْآنُ فِي صَدْدِ تَارِيخِ نَشْوَءِ آدَمَ وَصَرَاعَهِ مَعَ الشَّيْطَانَ ، وَبَيْنَ مَا قَرَأْنَا فِي الْعُبَارَاتِ السَّابِقَةِ ، لَنَعْلَمُ أَيِّهِمَا هُوَ الْكِتَابُ السَّمَاوِيُّ وَأَيِّهِمَا نَتَاجٌ عَقْلٌ إِنْسَانٌ جَاهِلٌ؟

* * *

٢ . لِقَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الْأَنْبَيْلَةُ بِالْمَلَائِكَةِ

يَبْيَنُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قَصَّةَ مُجِيءِ الْمَلَائِكَةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فِي حَالَةِ مُسِيرِهِمْ إِلَى قَوْمٍ (لَوْطٍ) لِإِنْزَالِ الْعِقَابِ بِحَقِّهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ، عَلَى النَّحوِ التَّالِيِّ :

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ابْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامٌ قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ انْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ * فَلَمَّا رَأَهَا اِيْدِيهِمْ لَأَتَصِلُّ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ اَنَا ارْسَلْنَا

إِلَى قَوْمٍ لُّوْطٍ * وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَّحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِاسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ اسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتِي إِنَّا لَدُّنَّا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّحِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْغُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمٍ لُّوْطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهُ مُنْبِيٌّ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرَضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتَيْهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * (هود / ٦٩ - ٧٦).

في هذا المقطع التاريخي لا نواجه شيئاً غريباً ومعقداً وغير متعارف أو غير منطقى مطلقاً ، فالقصة واضحة المعالم بكل تفاصيلها : حيث أمر الله الملائكة بمعاقبة قوم لوط عليهما السلام ، وقبل ذلك جاءوا إلى إبراهيم عليهما السلام يبشرونـه بأنه سيـرـزـقـ ولـدـاـ ، فـقرـرـ أنـ يـطـعـمـهـمـ ، وـسرـعـانـ ماـ اـطـلـعـ عـلـىـ حـقـيـقـةـ الـأـمـرـ وـأـرـادـ أـنـ يـشـفـعـ لـقـوـمـ لـوـطـ عـلـيـلـاـ لـيـدـفـعـ الـعـذـابـ عـنـهـمـ ، غـيرـ أـنـ الـأـمـرـ قـدـ اـنـتـهـىـ فـقـوـمـ لـوـطـ لـاـ يـسـتـحـقـونـ الشـفـاعـةـ ، ثـمـ يـبـشـرـونـهـ وـزـوـجـتـهـ بـولـادـةـ اـبـنـ لـهـماـ ، وـتـنـتـهـيـ فـصـوـلـ هـذـهـ الـقـصـةـ.

ولكن لنرى ماذا نسج الكتاب المقدس . (كما يسمونه) ، وهو مورد قبول اليهود والنصارى من أساطير في هذا المجال وما الذي طرحته من مسائل غير منطقية؟

نقرأ في الفصل الثامن عشر من سفر التكوان مابلي :

«وَظَهَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَعْبَرٍ يُسَمَّى «بِلُوْطِسْتَان» بِيَنِمَا كَانَ (إِبْرَاهِيمَ) جَالِسًا عَلَى بَابِ الْخِيمَةِ فِي يَوْمٍ قَائِظٍ ، وَمَا أَنْ فَتَحَ عَيْنِيهِ حَتَّى رَأَى ثَلَاثَةَ أَشْخَاصٍ وَاقِفِينَ أَمَامَهُ . وَحِينَمَا رَأَهُ أَحَدُ يَعْدُو مِنَ الْخِيمَةِ لِاستِقْبَالِهِ وَانْخَنَى إِلَى الْأَرْضِ وَقَالَ : سِيدِي الْآنَ وَقَدْ حَرَثَ عَلَى التَّفَاتَةِ مِنْكَ أَرْجُوكَ أَلَا تَرْحِلْ قَبْلَ أَنْ آتِيَكَ بِقَلِيلٍ مِنَ الْمَاءِ لِأَغْسِلَ رِجْلَيْكَ ، وَتَسْتَرِيعَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَسَأْجِلِبُ بَعْضَ الْخَبِزِ لِتَقْوِيَ بِهِ قَلْبَكَ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَرْحِلْ لِأَنْكُمْ سَيَقُولُونَ لِقَدْ عَمِلْ كَمَا أَمْرَهُ عِنْدَمَا عَبَرْ بِالْقَرْبِ مِنِّي .

ثُمَّ هَرَعَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى (سَارَةَ) فِي الْخِيمَةِ ، وَقَالَ : عَجْلِي فِي ثَلَاثَةِ مَكَابِيلِ مِنَ الْخَنْطَةِ أَعْجَنِيهَا وَأَخْبِزِيهَا أَقْرَاصًا بِالْتَّنُورِ ، ثُمَّ اسْرَعَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى قَطِيعِ الْأَبْقَارِ وَأَخْذَ عَجَلًا ذَكَرًا يَافِعًا وَاعْطَاهُ لِشَابٍ فَأَعْدَهُ وَحْضُورَهُ بِسُرْعَةٍ ثُمَّ حَمَلَ الْبَيْدَ وَالْحَلِيبَ مَعَ الْعَجَلِ الَّذِي أَحْضَرَهُ وَوَضَعَهُ أَمَامَهُ وَوَقَفَ بِالْقَرْبِ مِنْهُ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ لِيَتَناولَ طَعَامَهُ !

ثم قال له : أين امرأتك سارة؟ فقال : ها هي في الخيمة ، وقال آخر : سأعيد لك عمرك وهذه امرأتك سارة سيكون لها ولد ، وكانت سارة عند باب الخيمة وراءه تسمع ذلك وهي وإبراهيم كانوا عجوزين طاعنين في السن ، وانقطعت عن سارة عادة النساء ضحكت سارة من دون قصد ، وقالت : بعد أن هرمت أنا وزوجي هل يمكن أن أكون مسورة؟! ثم قال الله تعالى لإبراهيم : لماذا ضحكت سارة؟ قالت : هل سألد حقاً بعدما أصبحت عجوزاً ، وهل يصعب على الله أمر ما ، والحال سأعيد لك عمرك في الوقت الموعود ، وسيكون لسارة ولد ، وانكرت سارة وقالت : لم أضحك ، لأنّها ذُعرت ، فقال : ليس كذلك بل ضحكت حقاً!

ونقض هذا الشخص من هناك واتجه إلى سدوم وشايشه إبراهيم ليسلك الطريق. وقال الله : لا أخفى على إبراهيم الأمر الذي أفعله ، لأنّ إبراهيم سيكون حقاً قوماً عظيماً وكبيراً وتبرك به كافة طوائف الأرض ...

وقال الله تعالى : حيث إنّ صيحة (سدوم) و (عمورا) وعالية ذنوبهم عظيمة فسأهبط لأرى هل قاموا بهذه الصيحة كما أخبرت ، وإذا لم يكن كذلك فسأطلع على الأمر ، وتوجه هؤلاء الأشخاص من هناك وتحركوا باتجاه (سدوم) والحال أنّ إبراهيم لازال واقفاً أمام الله ، ثم أخذ إبراهيم يتقرب وقال : هل ستقوم باهلاك الصالح مع الطالع حقاً؟ من الممكن أن يوجد ٥٠ فرداً صالحاً ، في أعماق المدينة ، هل يمكن أن تهلك المكان ولا تنقذه بسبب ما يوجد في الأعماق من ٥٠ فرد صالح ، حاشا لك أن تقوم بهذا العمل وتحلك الصالحين مع الطالحين فيكون الصالح مساوياً للطالع ، حاشا لك ، هل يمكن لمن يحكم الأرض بآجمعها أن لا يكون عادلاً؟

ثم قال الله تعالى : إذا وجدت ٥٠ فرداً صالحاً في وسط مدينة سدوم فسأخلص كافة أهل ذلك المكان بسببيهم ، وقال إبراهيم في الجواب : الآن وقد شرعت في الكلام من التراب والرماد ، أطلب من سيدي ، لو انقصنا خمسة أفراد من مجموع ٥٠ فرد صالح .. هل يمكن أن تهلك كل أهل المدينة بسبب أولئك الخمسة أفراد؟ فقال الله : لو وجدت ٤٥ فرداً لما أهلكتها.

وتحدث معه مرة أخرى ، قال لو وجد فيها ٤ شخصاً ، فقال هو : لا أقوم بهذا الأمر بسبب ٤ شخصاً ، وقال : إبراهيم أرجو أن لا يغضب سيدي حتى أتكلم بل وجد فيها ٣٠ شخصاً ، قال : لو وجدت فيها ٣٠ شخصاً لما فعلت ذلك.

وقال أخرى : والآن وقد منح لي أن أتكلم مع سيدي ، بل وجد هناك ٢٠ شخصاً ، قال هو لا أهللها بسبب ٢٠ شخص ، وقال تارة أخرى ، أرجو أن لا يغضب سيدي حتى أتكلم مرة أخرى بل وجد هناك ١٠ أشخاص ، فقال هو سوف لا أهللهم بسبب ١٠ أشخاص وعندما قضى الله الكلام مع إبراهيم بدأ المسير وعاد إبراهيم إلى مكانه»^(١).

استناداً إلى هذه المخطوطة في التوراة إطلع الله تعالى وثلاثة من الملائكة على إبراهيم في معبر يدعى «بلوستان» في أحد الأيام الحارة ، ويقوم إبراهيم باستقبال الملائكة الثلاثة استقبلاً حاراً ، وهم بدورهم يتناولون من طعامه (وفهم البعض من هذه العبارة أن الله تعالى أكل من طعامه!! وأن هؤلاء النفر الثلاثة كانوا من المظاهر الثلاثية لله وفقاً لعقيدة التشليث) وعلى كل حال حمل الله البشرة إلى «سارة» بأنها سترزق ولداً ، إلا أن سارة ضحكت وعاتب الله سارة بالقول لماذا ضحكت ذلك بأنّها لم تضحك إلا أن الله أكد عليها بأنّك ضحكت.

ثم إن هؤلاء عزموا على الرحيل وأخذ إبراهيم يشأ عليهم ، وفي منتصف الطريق يحدث الله نفسه بأنه لماذا لا يخبر إبراهيم بالقرار الذي يريد أن يتخذه في حق قوم لوط ، لذلك قال له : سمعت ضجة كبيرة من بلاد قوم لوط وقد نقل عنهم ارتكابهم لمعاصي كثيرة ، فهبطت من السماء لاحق النظر فيما أخبرت به هل كان صحيحاً أم لا ، وإذا كان صحيحاً فسأبىدهم عن آخرهم ، ثم إن هؤلاء الثلاثة تحركوا تجاه «سدوم» غير أن إبراهيم لم ينزل واقفاً أمام الله تعالى ، وبدأ بالمحاورة والجادلة أو بالاصطلاح (الرد والبدل) فقال : ليس من العدالة يمكن أن تهلك هذه البلاد لو وجد فيها ٥٠ فرداً صالحاً ، فطمأنه الله تعالى على أنه لو وجد فيها ذلك لما أهللهم ، ثم يبدأ إبراهيم بالعد التنازلي بشيء من الحيطة والحذر ، وفي كل مرة

(١) التوراة ، سفر التكوين ، الفصل ١٨.

يشرع في حديثه يطلب العفو والمساحة لئلا يغضب الله تعالى ، حتى أنه قال مرتين بصراحة : (أرجو أن لا يسبب ذلك في ازعاجك وغضبك) إلى أن وصل العدد إلى عشرة ، ويبدو أن إبراهيم لم يجرأ على التنزيل أكثر من ذلك ، لذا في هذه الحالة اختار السكوت على مواصلة الحديث ، ولما وصلت المخاورة إلى طريق مسدود ، انتهى كلام الله مع إبراهيم وتحرك الله تعالى باتجاه (سادس) وعاد إبراهيم إلى مقره الأصلي ، وانطلاقاً من أن المقصود من الله عزوجل في هذه الآيات (أو بالأصح ، الجمل) هو نفس باري هذا الكون يمكن أن نستنتاج المطالب التالية .

أ) نسبة الجسمانية إلى الله تعالى وقد لاحظنا هذا الموضوع في موارد متعددة من هذه العبارات .

ب) نسبة الجهل إلى الله تعالى وذلك بقوله هبطت إلى الأرض ، لاحق النظر في شأن قوم لوط .

ج) التعصب والتشدد الإلهي ! بحيث يلتمس منه إبراهيم أن لا يغضب ، وكان يتولى بالحيل اللطيفة ، من أجل النزول بحالة الغلظة والحدة الإلهية ازاء عباده إلى ادنى مستوى ممكن !

د) الملائكة يتناولون الطعام !

هـ) (سارة) تلك المرأة المؤمنة العارفة ضحكت على أثر بشرارة الله ثم بعد ذلك أنكرت أيضاً .

هذه من نقاط الضعف الواضحة لهذه الأسطورة الكاذبة في التوراة المحرفة التي نسبت إلى الله عزوجل ولكن عندما نطالع أصل الواقع في القرآن ، لا نشاهد أية واحدة من هذه الاشتباكات والنسب الشنيعة ، فمن خلال هذه المقارنة تتبيّن حقائق كثيرة في هذا المضمار .

٣ . منشأ اختلاف اللغات

من المسائل المثيرة التي كانت تقع دائماً في قائمة الأولويات الأساسية هي مسألة

اختلاف ألسنة شعوب العالم بالرغم من تولدهم جيئاً من وأب واحد وام واحدة ، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخِلَافُ الْسَّتَّةُ كُمْ وَالْأُولَانِ كُمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾** . (الروم / ٢٢)

إننااليوم نعلم أنّ منشأ اختلاف اللغات في الواقع يكمن في شيئين :

أولاًً : وجود قدرة (الابتكار) والاختراع في ذهن البشر فهم يعمدون إلى خلق لغات جديدة وصياغة جمل جديدة في سبيل تأمين حاجاتهم الذاتية.

وثانياًً : الفواصل القائمة بين الملل والشعوب ، ففي العصور السابقة عندما كانت الأقوام والشعوب تبتعد عن إحداها عن الأخرى ، كانت تتحقق تغيرات وتحولات في ألفاظهم وعباراتهم القائمة شيئاً فشيئاً ، وذلك لعدم وجود وسائل الإعلام وأخذت هذه التغيرات تتضاعف عبرآلاف السنين فبدأت اللغات والألسنة تنفصل إحداها عن الأخرى فكان ذلك سبباً لبداية نشوء الاختلافات في الألسنة واللغات.

وانطلاقاً من كون اختلاف اللغات هي أحد دعائم التعرف على الأقوام المختلفة واعتبر ذلك من العوامل المساعدة والمؤثرة في مسألة التعرف على المجتمع البشري وإذا كان القرآن الكريم يعده اختلاف اللغات إلى جانب اختلاف الألوان من آياته وعلاته فهي إشارة إلى هذه الحكمة نفسها ، لأنّ كلاًً من اختلاف الألوان واللغات وسيلة وأداة للتعرف ، غاية ما في الأمر أن الأول خارج عن اختيار البشر والثاني له ارتباط واضح بالإبتكار والإبداع البشري.

والآن لننظر إلى ما تقوله (التوراة) المحرفة على صعيد اختلاف اللغات.

فقد ورد في الفصل الحادي عشر من سفر التكوين مايلي :

«وكان اللسان والكلام واحد في جميع أنحاء الأرض . وحدث عندما أخذوا بالرحيل من الجانب الشرقي «إشارة إلى أبناء نوح وقبائلهم» أن وجدوا وادياً في أرض شنعار «الاسم القاسم لبابل» وسكنوا فيه . وقال بعضهم للآخر هلموا لصنع الآجر وذلك بحرق اللبن بالنار ، وكان الآجر يستعمل بدلاً عن الحجر ، والطين اللازم بدلاً عن الجص . وقالوا

هموا لبني لنا بلدة وبرجاً ينطاح السماء ، ولنختار لنا إسماً لئلا تفرق على وجه الأرض . ولأن الله تعالى أراد أن يرى ما يصنعه بنو البشر من بلدة وبرج ، نزل . وقال : إن هؤلاء القوم مجموعة واحدة وهم على حد سواء في اللسان وشرعوا بالقيام بهذا العمل ، ولا شيء يمنعهم عما يريدون . بناءه . تعال لتنزل إلى الأسفل وهناك نقوم بخلط ألسنتهم حتى لا يفهم أحدهم لسان الآخر . ومن هناك عمد الله إلى تفريقهم على وجه الأرض بأكملها ، وحال دون اتمام بناء البلدة وصار سبباً لتسميتها بابل ، لأن الله خلط كل الأرض فيها ، ومن هناك فرقهم على جميع وجه الأرض»^(١).

ووفقاً لهذه الرواية الموجودة في التوراة ، كانت لغة جميع الناس واحدة على وجه الأرض في البداية إلى أن اجتمع أبناء نوح وقبائلهم في (شنعار) بابل ، وصمموا على عمل مهم ، وهو بناء بلدة كبيرة وبرجاً عالياً ، ولم يكن هذا العمل مرضياً عند الله تعالى ، فكان قلقاً من تحركهم وما يؤول ذلك من نتائج لذا قال لبعض الملائكة هيا اهبطوا إلى الأرض لاجتاز الاختلاف في ألسنتهم حتى يتفرقوا (فأوجد الاختلاف بينهم حتى افرض هيمنتي الإلهية) ووقع هذا الأمر ، ونظراً لعدم فهم أحدهم لغة الآخر انتشروا في البقاع المختلفة ، وحال دون اتمام بناء البرج العظيم .

وقد أشير في كتاب (أعلام القرآن) إلى وجه تسمية «بابل» بهذا الاسم بالقول :

(رواية القصة ظنوا أن لفظة «بابل» مأخوذة من بلبل وقالوا إن الناس اجتمعوا في هذه المدينة بعد طوفان نوح وشيدوا فيها برجاً لتصبح علامة على مركزيتهم وشكلوا فيها المجتمع الرسمية ولكنهم عندما ناموا في الليل واستيقظوا في الصباح اختلفت ألسنتهم وأخذ كل منهم يتكلم بلغة جديدة ، وعلى أثر عدم حصول التفاهم بينهم افترقوا في أنحاء العالم ونشأ من كل واحد منهم شعب من الشعوب^(٢)).

هذه الاسطورة تنطبق تماماً مع ما نقلناه سابقاً في متن التوراة التي دلت على أن

(١) التوراة ، سفر التكوين ، الفصل ١١ ، من الجملة ١ إلى ٩ .

(٢) اعلام القرآن ، ص ٢٣٨ .

الاختلاف في اللغات تحقق من قبل الله تعالى من أجل مقارعة قدرة المجتمع البابلي. إلا أن السيد «هاكس» مؤلف كتاب «القاموس المقدس» له كلام آخر لتبرير ما ورد من جمل في التوراة إذ يقول : «كانت الدنيا بجمعها تمتلك لهجة ولغة واحدة إلى حدود الألفين عام تقريباً ... لكن بعد مائة سنة من الصوفان ، أي في زمن عصيان الكوشيون ^(١) في بابل ، أوجد الله تعالى بشكل خارق للعادة الاختلاف في لغاتهم ، وبسط ولايته على وجه الأرض مع هذه الأقوام المختلفة والألسنة المتنوعة» ^(٢).

وفي موضع آخر يقول :

«بناء على عدم كون هذه المسألة وهي (بناء البرج العالى) موافقة للإرادة الإلهية أوحد الله تعالى الاختلاف في أسلوبهم بحيث لم يكن بمقدور أحدهم أن يفهم كلام الآخر ولهذا السبب انتشروا في جميع بقاع المعمورة وتحقق على إثر ذلك امنية الله تعالى وتعمرت الأرض» ^(٣).

هذه التعبير توحى إلى أن الغاية الإلهية من ايجاد هذا التبعثر في لغة مجتمع بابل ، هي العمران والتشييد ، والحال أن التوراة في العبارة التي نقلناها تقول بصرامة : إن المدف من ذلك لم يكن سوى إضعاف مجتمع بابل وكسر قدرتهم ووحدتهم وشوكتهم ، لأننا نعلم على كل حال بأن منشأ اختلاف اللغات لم يكن مثل هذا الأمر على الاطلاق ، وأن العامل الأساسي لهذا الأمر هو مرور الزمان وتباعد الأقوام فيما بينهم ، ولازال الحديث في المطلب متواصلاً أيضاً.

* * *

٤ . عباده العجل من قبلبني اسرائيل

وردت الإشارة إلى قصة عجل السامري في القرآن الكريم فبعدما جاء موسى عليه السلام إلى

(١) «كوشيان» ، هو اسم والد نمرود.

(٢) القاموس المقدس ، مادة (اللغة).

(٣) المصدر السابق ، مادة (بابل).

ملتقى الوعد الإلهي (جبل الطور) ليتسلم آيات الوحي وجه الله تعالى إليه الخطاب بالقول :

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَاضْلَلْنَاهُمُ السَّامِرِيُّونَ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ عَصْبَانَ اسْفَأَ قَالَ يَا قَوْمَ الَّمْ يَعْدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدْدًا حَسَنًا افْتَأَلَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَحْلَقْتُمُ مَوْعِدِيَّةَ قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمُلْكِنَا وَلَكُنَا حُمِّلْنَا أَفْزَارًا مِنْ زِيَّةِ الْقَوْمِ فَقَدْفَتَهَا فَكَذَلِكَ الْقَوْمِ السَّامِرِيُّونَ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجَالًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا الْهُكْمُ وَالْمُوْسَى فَنِسِيَ إِفْلَأَ يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمَ إِنَّمَا فُتَّنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَاطْبِعُونِي امْرِيَ قَالُوا لَنْ نَبْرَحْ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ أَذْرِيْتُهُمْ ضُلُّوا إِلَّا تَنَعَّمُنَ افْعَصَيْتَ امْرِيَ قَالَ يَبْتُؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي أَنِّي خَشِّيْتُ أَنْ تَقُولُ فَرَقْتَ بَيْنَ بَنِي اسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْفَبْ قَوْلِي قَالَ فَمَا حَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّونَ قَالَ بَصَرْتُ بِمَا لَمْ يَمْسِرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثْرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ . (طه / ٨٥ - ٩٦)

* * *

يستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ بني اسرائيل في غياب موسى قد غرّر بهم «السامري» ذلك الرجل المنحرف والذي يقال إنّ له خبرة في صياغة الذهب ، فصنع لهم من خلبيهم وزينتهم عجلاً من ذهب وانبرى هارون إلى منازلتهم. إلى أن يقول القرآن في مقام اعتذار هارون من موسى : ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ . (الأعراف / ١٥٠) وأخيراً انزعج موسى عليه كثيراً من هذه القضية ، وألقى باللائمة على أخيه ، وعاتب السامري ، وأحرق صنميه بالنار ، وذرّ رماده في البحر ، ووجه عقاباً صارماً إلى بني اسرائيل ، والآن لنلقي نظرة على ما تقوله التوراة في هذا المجال :

جاء في الفصل الثاني من سفر الخروج في التوراة ما يلي :

«ولما رأى القوم أنّ موسى عليه يترى في هبوطه من الجبل ، اجتمع أولئك القوم

عند

هارون) ؛ وقالوا له : انحض واصنع لنا آلة تسير أمامنا ، لأننا لا نعلم ما حلّ بذلك الرجل الذي أخرجنا من ملك مصر . وقال لهم هارون أخرجوا الأقراط الذهبية من آذان نسائكم وصبيانكم ! وبناتكم واجلبوها عندي . فاخرج جميع القوم الأقراط الذهبية التي كانت في آذانهم وجاءوا بها إلى هارون ، فأخذتها من أيديهم ، فصورها بشكل بارز ، وصبت على شكل عجل وقالوا : يا إسرائيل هذه هي آهتك التي أخرجتك من أرض مصر .

وعندما رأى هارون ذلك أقام مذبحة مقابل ذلك ، ونادى هارون وقال غداً سيكون عيداً نعده لهذا الإله . وقاموا في وقت السحر وقربوا القرابين المحترقة وقدفوا المدايا بالقرب منها للحفظ والسلامة وجلسوا للأكل والشرب وقاموا من فورهم للّعب . وقال الله تعالى لموسى عليه السلام انزل إلى قومك ، لأنّ القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر قد فسدوا . بل إنّهم انحرفو بسرعة عن المسلك الذي أمرتهم به ، وصنعوا لأنفسهم عجلاً أعدوه من قبل وسحدوا له وقدموا له قرياناً أيضاً ، وقالوا لإسرائيل هاهي آهتك التي أخرجتك من أرض مصر ، لكن موسى طلب من ربه وقال : لماذا تصب غضبك على القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر بحولك العظيم لكي لا يتكلم أهل مصر بأنّك أخرجتهم لقصد سيء ، حتى تقضى عليهم في وسط الجبال ولتبدهم من على وجه الأرض ؟ تنازل من شدة سخطك ! وغير إرادتك بصدّ انزال البلاء على قومك ، واذكر عبادك إبراهيم واسحاق واسرائيل ، لأنّهم أقسموا بذاتك من أجلكم ، قلت لهم : بآني سأبارك في ذريتكم واجعل عدّكم بعدد النجوم .

ووقع الأمر بالفعل ، فعندما اقترب من المخيم شاهد العجل والمهولين وثارت ثائرة موسى ، فألقى الألواح من يده ، وكسرها تحت الجبل ، وأخذ العجل الذي صنعوه وأحرقه بالنار وسحقه إلى أن أصبح تراباً ثم نشره في الماء ، وسقى بني إسرائيل منه ! وقال موسى لهارون : ماذا فعل بك هؤلاء القوم حتى أقدمت على ارتكاب هذا الذنب العظيم ، فقال لهارون : لا تشر ثائرة سيدك لأنّك تعلم أنّهم يمليون إلى الخطايا ، وقالوا لي اصنع لنا آلة نقتدي بهم ونمضي خلفهم ، لأنّ موسى الرجل الذي أخرجنا من أرض مصر ، لا نعلم ماذا حلّ به ، وأنا قلت لهم : ليخرج كل من كان لديه قطع ذهبية ، ثم أعطوني إياها والقيتها في نار حامية فخرج هذا العجل ...

ورجع موسى إلى ربه ، وقال وأسفني على ما ارتكب هؤلاء القوم من ذنب عظيم
لأنّهم صنعوا لأنفسهم آلة من ذهب ، والآن لو رفعت عنهم وزرهم وإلا التمس منك أن
تحو إسمي من الكتاب الذي عهده لي (مقام النبوة) !
وقال الله تعالى لموسى : كل من أقام على الذنب امحوا اسمه من كتابه ، فإذا ذن تحرك
الآن وارشد هؤلاء القوم إلى المكان الذي أوصيتك به ^(١) .

ويستفاد من العبارات السابقة المنقولة عيناً من كتاب العهد القديم عدّة نكّات :

- ١ . إنّ الأمر بصنع الصنم وعبادته صدر من هارون ، كما أنّ الأمر تحقق بمعونته أيضاً وهو فضلاً عن عدم نفيه عن هذا العمل كان مروجاً له ومرسياً لدعائمه ، ولم يأت الحديث عن السامری في هذا الفصل مطلقاً ، ترى هل يمكن تتحقق هذا العمل من قبل شخص يقوم مقام موسى ، بصفته وزيراً مساعداً وملازماً ورئيساً لكهنة بنی اسرائیل . بشهادة التوراة . كيف يصدق العقل والمنطق أن تُنسب هذه النسبة القبيحة والمخجلة إلى هارون ^(٢) ؟
- ٢ . إنّ الله تعالى اشتد غضبه على أثر هذه القضية بحيث أراد أن يبيد قوم موسى لكن موسى نبه الله تعالى إلى نكتتين (خصوصاً أنه يخاطب الله تعالى بجملة واحدة ويقول لا يعزب عن بالك ليهدا من فورة غضبه وسخطه ، الاولى : إنّك إذا قمت بهذا العمل فإنّ أهل مصر سيقولون : ألم هذه الغاية أخرجت بنی اسرائیل من مصر ، كي تقتلهم في وسط الجبال وتبيدهم من على وجه الأرض ، والآخرى ، هي أنّك اعطيت موئلاً بأني سأزيد من نسل أبنائكم بعدد نجوم السماء ، وهذا العمل لا ينسجم مع هذا القول والقسم ! وتغيرت مشيّة الله تعالى على أثر تبيهات موسى له كما هو المصرح به في التوراة .
- ٣ . إنّ موسى عليه السلام بعد أن أحرق العجل بالنار ، نشر رماده في الماء وأعطى هذا الماء لبني اسرائیل كي يشربوا منه فهل كانت هناك خصوصية في الرماد المتبقى من العجل حتى يشربوا من مائه؟!

(١) نقلأً عن التوراة المترجم والذي طبع في بريطانيا سنة ١٨٧٨ ص ١٠٤ و ١٠٥ ، (سفر الخروج الباب ٢٣) .

(٢) مؤلف كتاب «القاموس المقدس» هاكس الاميركي يقدم توجيهأً مضحكأً لهذه القصة إذ يقول : «لقد قام هارون بهذا العمل لإسكات القوم» ، فمع أنّ هذا الكلام يصدق عليه القول المعروف «العذر أভى من الفعل» ، فهو لا ينلائم أبداً مع اقامة المذبحة والأمر بالقربان وتعيين العيد .

٤ . حينما اعرضت موسى على هارون ، قال هارون بمحدوء تام له : أنت تعلم مدى ميل هؤلاء القوم نحو الخطايا وهم طلبوا مني وأنا لبيت طلبهم (ياله من عذر؟! ...) وموسى لم يعرض عليه في المرة الثانية (فياله من مصلح متلاعس).

٥ . وفي نهاية المطاف ذهب موسى عليهما السلام إلى محضر القدس الإلهي ، وهدد الله بالاستقالة من مقام النبوة قائلاً : إذا غفرت لهؤلاء العاصين فهو الأحسن وإنما فامحو اسمي من الكتاب الذي دونته! (واعهد بهذه المهمة الشاقة إلى شخص آخر ...). لاحظوا جيداً إلى ما رسمته التوراة عن الله ، والنبي ، ووزيره ، ثم قارنوها بعد ذلك بين هذا الفصل التاريخي وبين ماورد في القرآن!

* * *

٥ . قصة النبي داود عليهما السلام وزوجة اوريا

من المفاجئ التاريخية الأخرى للقرآن الكريم ، هي مسألة «قضاء داود» النبي عليهما السلام التي دارت بين أخوين متخاصمين.

ويفصل القرآن القول في هذه القصة بالنحو التالي :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبِيُّ الْخَصِيمِ اذْ تَسْوُرُوا الْمُحْرَابَ * اذْ دَخَلُوا عَلَى دَاؤِدَ فَفَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخْفَ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُنْسِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الْصَّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً وَلَى نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ اكْفِلْنِيهَا وَعَزِّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمْكَ بِسُؤَالِ نَعْجِنَكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَعْبُرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاؤِدُ إِنَّمَا فَتَنَاهُ فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَأْكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرَنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزَلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاؤِدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَشَيَّعْ الْهَوَى فَيُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ . (ص / ٢١ - ٢٦)

في هذا المقطع التاريخي من حياة داود عليهما السلام ، لانقع على أي مفهوم سلبي سوى أنه

تسرع

شيئاً ما في إصدار الحكم ، فحينما طرح أحد هذين الأخرين ادعاءه ، أعرب عن قوله ومن دون أن يستمع إلى ادعاءات الأخ الثاني : إن أخاك قد ظلمك وأنه لا ينبغي أن ينزعك في صدد نعجة واحدة مع كل ما يمتلكه من المال والثروة ، وإن كان هذا لا يمثل الحكم النهائي لداود عليه السلام ، إلا أن نفس هذا المقدار من التسوع في إصدار الحكم لا يصلح لمقام القضاء العادل بصورة عامة ، وقضاء النبي داود عليه السلام بصورة خاصة ، ولعل هذا هو السبب في توبته واستغفاره وسجوده.

ولأجل هذه الدقة في مسألة القضاء والتماس المغفرة والمساحة من هذه الزلة أعطاه الله المقام المحمود.

والشاهد على هذا التوجيه للآيات السابقة هي الآية التي وردت مباشرة بعد هذه الآيات وذلك عندما يقول : **﴿يَا دَاوُدُ انّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَنْسِبْ لِهَوَى فَيُضْلِلَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾**

هذه الآية تدل بوضوح على أن المخالفه ، أو بعبارة أصح ، ترك الأولى الذي صدر من النبي داود عليه السلام لم يكن يتضمن في حقيقته بعض الامور التي هي من قبيل الغرام والتعلق بزوجة أحد قادة جيشه الذي يدعى باسم (اوريا) وأمثال ذلك من المفاهيم التي نسجتها ذهنية أهل الأساطير استناداً إلى ما جاء في التوراة.

والآن نعود إلى التوراة الفعلى المحرف لننظر إلى ما يقوله في هذا المجال :

نطالع في الكتاب الثاني لاشمئيل هذه الحادثة :

«ووَقَعَ عِنْدَ الْغَرْوُبِ عِنْدَمَا نَحْضَرَ مِنْ فَرَاسَهُ وَطَافَ حَوْلَ سَطْحِ بَيْتِ الْمَلْكِ ، وَرَأَى مِنَ السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحْمِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ غَايَةً فِي الْجَمَالِ وَالرِّشَاقَةِ ، وَأَخْذَ دَاؤِدَ يَسْتَفْسِرُ عَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ ، وَقَالَ شَخْصٌ أَلِيْسَتْ «بَثْ شَيْعَ» ^(١) (وَهَذَا اسْمُهَا) وَهِيَ بَنْتُ «الْيَعَامَ» ^(٢) زَوْجَةِ «أُورِيَا حَتِّيَ» ^{(٣)؟}

(١) «بَثْ شَيْعَ» اسْمُ تَلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي رَأَاهَا دَاؤِدَ . طَبِيقاً لِمَا تَقُولُهُ التَّوْرَاةُ . عَارِيَةً مِنْ سَطْحِ الْبَيْتِ وَعَشْقَهَا ، وَهِيَ ابْنَةِ الْيَعَامَ أَحَدُ أَصْحَابِ الْمَنَاصِبِ الْعَرَبِيَّةِ .

(٢) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ .

(٣) «أُورِيَا» ، بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ اسْمُ أَحَدِ الْقَادِهِ الْبَارِزِيِّنِ فِي جَيْشِ دَاؤِدَ ، وَ«حَتِّيَ» بِتَشْدِيدِ التَّاءِ وَكَسْرِ الْحَاءِ نَسْبَةً إِلَى «حَتْ بْنُ كَنْعَانَ» الَّذِي يَعْرُفُ قَوْمَهُ بِ«بْنُ حَتْ» .

وأرسل داود اليجيان فأمسكها وجيء بها إليه ، فاضطجع معها وبعد التطهير من النحاسة ذهبت إلى بيتها وحملت المرأة ، وأرسلت إلى داود من يخبره أنها حاملة وأرسل داود إلى «يواكب» (قائد جيشه) أن أبعث إلى «اورياه حي» وبعث يواكب اوريyah إليه وقدم عليه ، فسأله داود عن سلامه يواكب وسلامة القوم وعن استقرار أوضاع الحرب.

وقال داود لاوريyah انزل إلى بيتك واغسل رجليك ، وخرج اوريyah من قصر الملك وخرج من ورائه مقداراً من طعام الملك ، إلاّ أنّ اوريyah نام مع سائر عبيده سيده في رحبة القصر ولم ينزل في بيته فحينما خبروا داود أنّ اوريyah لم ينزل في بيته ، فقال داود لاوريyah ألم تأت من السفر فلم تنزل في بيتك؟ فقال اوريyah لداود : إنّ الصندوق واسرائيل وبهوداه يسكنون تحت السقوف ويجلس سيدتي يواكب وعيده في خيمة وسط الصحراء ، فهل يجوز لي أن أذهب إلى البيت لأقضى وطري من الطعام والشراب والنوم مع زوجتي ، أقسم بحياتك أن لا أقوم بهذا العمل قط ...

وتحقق الأمر بالفعل بأنّ كتب في الصباح رسالة إلى «يواكب» وبعثها بيد اوريyah ، وكتب الرسالة بهذا المضمون. ألقوا بأوريyah في اتون حرب ضارية ثم امتنعوه من الانسحاب ، حتى يصاب ويموت «أي يقتل» وتحقق الأمر بالفعل بعدما ألقى يواكب نظرته على المدينة ، ووضع اوريyah في الموضع الذي علم بوجود الرجال الشجعان فيه وخرج رجال المدينة ، وقاتلوا ضد يواكب ، وسقط البعض من القوم عبيد داود ومات «اورياه حي» أيضاً ... وعلمت زوجة اوريyah أنّ زوجها قد مات وأقامت العزاء في حق زوجها وبعد انتهاء العزاء أرسل على أثرها داود عليهما وأتى بها إلى بيته وأصبحت زوجته! ... غير أنّ العمل الذي أقدم عليه داود لم يكن مرضيا عند الله تعالى!»^(١).

خلاصة القصة أن داود عليهما عندما كان في «اورشليم» صعد في يوم من الأيام إلى سطح القصر ، فرقعت عيناه على البيت المجاور له ، فشاهد امرأة عارية فوقع حبّها في قلبه وجلبت بعنف إلى قصره واضطجع معها فحملت منه!.

(١) نقل عن الكتاب الثاني شموئيل الفصل ١١ ، من الجمل ٢ ، وحتى ٢٧.

وكان زوج هذه المرأة من القادة المرموقين بجيش داود وكان رجلاً محبولاً على الصفاء ونقاء الطبع بحيث إنّه عندما عاد من ميدان القتال لم تطاوّعه نفسه أن يذهب إلى بيته ويضطجع مع زوجته ويستمتع بالأطعمة الممتازة موساً منه لأنّه المقاتلين الذين لازلوا في ميدان القتال يعيشون في الخيمة ، بالرغم من ذلك أصدر داود قراراً محفّزاً جداً ، فكتب رسالة إلى قائد عسكره (يواه) وأعطاهما يد (اورياه) نفسه ليوصلها بدوره إلى قائد العسكر ، وقد كتب في هذه الرسالة أنّه لابدّ من تحديد مسؤوليته في أحدى المواقع الخطيرة لساحة القتال ، ثم تخلية أطرافه كي يقضى عليه بسيف الأعداء ، ونفذ هذا القرار الاجرامي المشؤوم ، وقتل على أثره اورياه الطاهر القلب والنقي والشجاع واستأثر داود عليه السلام بزوجته!! ونقرأ في الجملة الأخيرة من هذا الفصل «أنّ هذا العمل لم يقع مورداً لرضا وقبول الحق تعالى!».

والآن نعود إلى تسمة الحكاية ، فقد ورد في الفصل الآتي من التوراة مايلي :

«وبعث الله تعالى «ناثان» ^(١) إلى داود فجاء إليه ، وقال له : كان في أحدى المدن شخصان أحدهما غني والآخر فقير ، كان الغني يمتلك غنماً وبقرًا كثيرةً جداً ، ولم يكن الفقير يمتلك سوى اثنى واحدة من الغنم ، اشتراها ورثاها وتعاهدها مع أولاده بالرعاية تأكل من طعامه وتشرب من إنائه وتنام في احضانه وكانت كأحد بناته . وقدم مسافر إلى هذا الغني وآل على نفسه أن يأخذ من أغنامه وأبقاره حتى يعده للمسافر الذي قدم عليه وأخذ نعجة ذلك الرجل الفقير وذبحها على شرف الرجل المسافر الذي قدم عليه .

وثارت ثائرة داود وقال ل (ناثان) أقسم بالله الحي القيوم ، أنّ الرجل الذي فعل ذلك يستحق القتل ! وبسبب فعله هذا وعدم اعنتائه يجب أن يؤخذ منه! .
حيثـنـدـ قال ناثان لداود : إنّ ذلك الرجل هو أنت ، يقول الله تعالى رب إسرائيل : أنا الذي

(١) «ناثان أو ناتان» أحد أنبياءبني إسرائيل وكان مستشاراً لداود.

جعلتك سلطانا على إسرائيل وأنقذتك من رقة «شاوول»^(١) ... لماذا استهنت بأمر الله تعالى ، وارتكتبت عملاً قبيحاً لدليه فضررت ، (ورياه حتى) بالسيف ، وفعلت مع زوجته فعلاً قبيحاً ، إنك قتلته بسيف «بني عمون»^(٢) ، والآن لن يفارق بيتك السيف أبداً ، والسبب في ذلك هو تحقيرك لي ، أخذت امرأة (ورياه حتى) لتكون زوجتك ، والله تعالى يقول سأشعل فتيل البلاء عليك من قصرك وساحذ زوجاتك من أمم عينيك واعطيها لصاحبك! وسينام مع نسائك في عين هذه الشمس! لأنك قمت بهذا العمل سرًا أمًا أنا فسأنفذ العقاب في وضع النهار بمرأى ومسمع من بنى إسرائيل.

وقال داود لـ «ناثان» : إني خالفت أمر الله تعالى بارتكابي الذنب ، وقال «ناثان» لداود أيضاً : إن الله قد عفى عن ذنبك ولن تموت ... وقد داود التعازي إلى زوجته «بنت شبع» وقاربها ، نام معها فأنجبت ولدًا سماه (سليمان) وقد أحبه الله تعالى^(٣) .

تظهر في هذا المقطع من القصة بعض الملاحظات التي ينبغي التدقيق فيها :

أ) لم يأت إلى داود عليهما من يطالب بإجراء العدالة وإنما جاء إليه أحد أنبياء بنى إسرائيل في ذلك العصر وقد كان مستشاراً لداود وذكر له على سبيل المثال أحد القصص للموعظة والنصيحة ، ولم يتطرق الحديث في هذه القصة إلى الأخوين ، وإنما اتجه البحث إلى الرجلين الغني والفقير وكان أحدهما يملك قطيعاً كبيراً من الأبقار والأغنام والآخر لا يملك سوى نعجة واحدة ، كما أنه لم يتطرق الحديث في هذا الموضوع أيضاً إلى مسألة استدعاء الشخص الأول من الثاني ، بل غاية ما في الأمر أنه حينما قدم ضيف إلى الرجل الغني ذبح النعجة التي كررت على يد الرجل الثاني واعدها طعاماً للضيوف.

ب) ذهب داود عليهما إلى الاعتقاد بأن مثل هذا الظالم يستحق القتل (ولماذا يتوجب القتل من أجل اغتصاب نعجة واحدة؟!).

(١) «شاوول» ، أحد سلاطين بنى إسرائيل.

(٢) «بني عمون» ، كانت من الشعوب المخارية التي تعيش في الطرف الشرقي من «البحر الميت» وقد حاربهم داود.

(٣) الكتاب الثاني ، شموئيل الفصل ١٢ ، من الجملة ١ ، وحتى ٢٤ .

ج) حكم داود عليه السلام بإعطاء أربع نعجات عوضا عن نعجة واحدة (فلماذا أربع مقابل واحدة!).

د) اعترف داود عليه السلام بذنبه وعمله القبيح في صدد قضية زوجة «أورياد».

هـ) وعفى الله تعالى عن داود (بهذه البساطة؟!).

و) وقدر الله تعالى لداود حزاء دنيوياً واحداً وهو أن تقع نساؤه في أيدي أصحابه فيمارسون معهن هذا العمل في وضع النهار وعمرأى من بنى إسرائيل!.

ز) وبالتالي أصبحت إحدى هذه النساء أمّاً لـ(سليمان) وولد منها سليمان وكان الله تعالى يحبّه أيضاً؟!

إذا اعتقدنا بنبوة داود من قبل الله تعالى ، كما يقر بذلك جميع المسلمين ومؤيدوها مقاطع من عبارات التوراة ، فليست هناك أدنى حاجة للبحث والمناقشة في منفأة هذه الأعمال لمقام النبوة ، ولا يقتصر هذا الأمر على عدم انسجامه مع منزلة النبوة بل يعتبر من الأفعال الإجرامية الكبيرة. والذي يعد حدوثه من قبل شخص عادي أمراً شاداً وغريباً من نوعه ويستحق العقاب ، فكيف يمكن التصديق بأن الله تعالى يغفو ويتسامح بهذه البساطة عن إنسان قاتل عرض أحد قادة جيشه للقتل عمداً ، من أجل الإستيلاء على زوجته ثم اقترف الزنى بها قبل الزواج منها؟!

وإذا اعتبرناه ملكاً من ملوك بني إسرائيل فقط . كما وردت أحواله في كتاب الملوك والسلطانين في التوراة . لا يقبل منه ذلك أيضاً على الاطلاق لأنّه :

أولاً : لم يكن ملكاً عادياً ، فالتوراة أفصحت عن عظمة داود ومقامه الشامخ في فصوله المختلفة ، وأنّه هو الذي وضع الحجر الأساس للمعبد الكبير لبني إسرائيل والذي لم يكتمل بناؤه في زمانه بسبب الحروب الكثيرة وأقيمت مسؤولية أكماله على ابنه سليمان ، ترى هل يمكن صدور هذا العمل من قائد يمتلك مقاماً معنوياً مموداً ويكون مسدداً ومؤيداً من قبل الله تعالى؟!

ثانياً : من الكتب المعروفة للتوراة كتاب «مزامير داود» وأناشيد الاعتقادية ومناجاته،

فهل يمكن أن تقع مناجاة ودعوات «قاتل ارتكب الزنى بالمحصنة» ضمن الكتب السماوية؟ إلا أننا عندما نعود إلى القرآن ، نجد أنه لا أثر لأي حديث عن عشق داود وإجرامه واقترافه للذنب ولا على فقرات هذه القصة الكاذبة ، وإنما ورد الحديث عن حكاية لأحد المحاكم العادلة . وذلك بشكل جدي لا على شكل مثال . والذي سبق شرحه من قبل ، وممّا تحدّر الإشارة إليه هو خلو القرآن من هذه التهم ، والنكتة التي ينبغي ذكرها في هذا الموضوع أيضاً هي أنّ من المؤسف وقوع بعض المؤرخين والمفسرين الإسلاميين تحت تأثير الأساطير الكاذبة للتوراة ونقلهم إياها في كتبهم ، ومن البديهي أنّ أحاديث هذا النمط من الأفراد لا تمتلك أي قيمة علمية وتاريخية وتفسيرية ، وذلك لعدم وجود أدنى دليل على مقالاتهم في المنابع الإسلامية المعترية.

والحدير بالذكر هو مانقل عن الإمام علي عليه السلام قوله : «لا اوري برجل يزعم أن داود تزوج امرأة اوريا إلا جلدته حدين حداً للنبيّة وحداً للإسلام» ^(١) .

* * *

٦ . هل أن سليمان عليه السلام بنى معبداً للأصنام؟!

ورد التعريف بشخصية سليمان عليه السلام في القرآن الكريم على كونهنبياً كبيراً وقائداً مقتدرأً امتلك سلطة عريضة وفريدة من نوعها ، واشيد بعظمته وصلاحه في سور قرآنية مختلفة ، من جملتها سورة البقرة ، النساء ، الأنبياء ، النمل ، سباء وص ، فعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاؤِدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ . (ص / ٣٠)

القرآن في حكاياته المفصلة نوعاً ما التي أوردها في السور المتقدمة الذكر عن هذا النبي الكبير ليس فقط لا ينسب له نسبة عبادة الصنم وصناعته مطلقاً وإنما يعدّ كافة جوانب حياته نزية من أي لون من ألوان التلويث بالشرك والمعصية.

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٨ ، ص ٤٧٢ .

يكفي في هذا المجال مراجعة سورة الأنبياء (الآيات ٢٨ إلى ٨٢) وسورة النمل (الآيات ١٥ إلى ٤٤) وسورة ص (الآيات ٣٠ إلى ٤٠) وعلى الخصوص قصة هداية (ملكة سبا) وانقاذهما من براثن الشرك ودعوتها إلى التوحيد الحالص ، وخاصصة عندما يقول : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ . (النمل / ٤٣) وأساساً ، يستفاد من الآيات الموجودة في نفس السورة أنّ المدف الرئيسي لسليمان في واقعة ملكة سبا يكمن في محاربة الشرك والوثنية وانقاذهما وقومها من وطأة هذا الانحراف ، والآن نعود إلى التوراة الفعلية لحرف لتنظر إلى ما يقوله في شأن سليمان وما يختلفه من صورة بشعة عن هذا النبي العظيم ، صورة لرجل مفتون بالأهواء بحيث ساقه هوسه وهواد إلى حد الشرك والوثنية وحتى بناء معبد للأصنام.

جاء في الكتاب الأول للملوك والسلطانين مايلي : «أَحَبَّ الْمَلَكَ سَلِيمَانَ نِسَاءَ أَجْنِيَّاتٍ كَثِيرَةٍ مِّنَ الْأَمْمِ الَّتِي قَالَ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي شَأْنِهَا : لَا تَذَهَّبُو إِلَيْهِنَّ وَلَا يَذَهَّبُ إِلَيْكُمْ فَإِنَّكُمْ يَسْتَمِلُونَ قُلُوبَكُمْ إِلَى اتِّبَاعِ آهَمَتِهِنَّ ، فَتَعْلَقُ بِهِنَّ سَلِيمَانَ حَبَّاً لَهُنَّ ، وَكَانَ لَهُ سَبْعَ مَائَةَ زَوْجٍ وَثَلَاثَ مَائَةَ جَارِيَّةً فَازَاغَتْ نِسَاءُهُ قَلْبَهُ ، وَفِي زَمْنٍ شِيَخُوَّةٍ سَلِيمَانَ تَمَكَّنَ أَزْوَاجَهُ مِنْ امْلَأَةِ قَلْبِهِ إِلَى اتِّبَاعِ آهَمَةِ أُخْرَى ، فَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ مُخْلِصاً لِلرَّبِّ إِلَهِهِ ، كَمَا كَانَ قَبْلَ دَاؤِهِ فَتَبَعَ سَلِيمَانَ عَشْتَرَوْتَ آهَمَةِ الصَّيْدُونِيَّينَ ، وَمُلْكُومَ بَنِي عَمُونَ وَوَضْعَ الشَّرِّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ وَلَمْ يَتَّبِعَ الرَّبِّ اتِّبَاعاً تَامَّاً مِثْلَ أَيِّهِ دَاؤِهِ .

حيثَلِدِ بَنِي سَلِيمَانَ مُشَرِّفًا لِكَامُوشَ صَنْمَ قَبِيلَةِ مُوَّاَبَ فِي الْجَبَلِ الْمُقَابِلِ لِأُورْشَلِيمِ وَمُلْكِ صَنْمِ بَنِي عَمُونَ ، وَكَذَلِكَ صَنْعُ جَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيَّاتِ الْلَّوَاتِي كَنْ بَحْرَقَنَ الْبَخْرُورَ وَيَذْبَحُنَ لِآهَمَتِهِنَّ ، فَغَضَبَ الرَّبُّ عَلَى سَلِيمَانَ ، لِأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلِ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ وَأَمْرَهُ فِي ذَلِكَ أَنْ لَا يَتَّبِعَ آهَمَةَ أُخْرَى ، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَمْرَهُ الرَّبُّ بِهِ ، فَقَالَ الرَّبُّ لِسَلِيمَانَ : بِمَا أَنَّ أَمْرَكَ هَذَا ، وَأَنْتَ لَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِي الَّتِي أَمْرَتُكَ بِهَا ، فَسَأَنْتَزِعُ الْمَلَكَ عَنْكَ وَاسْلَمُهُ إِلَى عَبْدِكَ ، إِلَّا أَنِّي لَا أَفْعُلُ ذَلِكَ فِي أَيَّامِكَ نَظَرًا لِدَاؤِكَ أَيِّكَ ، بَلْ انتَزِعُهُ مِنْ يَدِ ابْنِكَ» ^(١) .

(١) سفر الملوك الأول ، الفصل ١١ : ٣٣ : ٣٤ .

يستخلص من مضمون هذه القصة الكاذبة للتوراة مايلي :

أ) كان سليمان عليه السلام علاقات كثيرة بنساء الطوائف المشركة ، وقد استولى على قسم كبير منها خلافاً لأمر الله ثم أخذ يميل إلى معتقداهن شيئاً فشيئاً ، وبالرغم من كونه شخصاً ميالاً للنساء فقد حاز على ٧٠٠ امرأة بالعقد الدائم و ٣٠٠ امرأة بالعقد المنقطع! إلا أن تعلقه الشديد بالنساء أدى به إلى ابعاده عن طريق الله تعالى! .

ب) أصدر سليمان قراراً معلناً ببناء معبد للأصنام ، وبنى على الجبل المطل على «أورشيلم» تلك البقعة المقدسة لإسرائيل ، معبداً لصنم كموش . الصنم المعروف لطائفة الموابيان . وصنم مولك . الصنم المختص بطائفة بني عمون . وبرزت في نفسه علاقة خاصة بصنم «عشتروت» الصنم المنسوب إلى الصيدونيان ، وقد تحقق ذلك كله في عهد شيخوخته!

ج) ووجه الله تعالى له عقاباً على هذا الانحراف والذنب العظيم ، وتبادر هذا العقاب في أن يسلب منه ملكته وسلطانه ولكن لا يسلبه من يده شخصاً وإنما يسلبه من يد ابنه «رجم»! وسيمنحه فرصة البقاء في الحكم متى شاء ، وهذا الأجل لكونه من عباد الله المقربين ؛ لقد كان والد سليمان هو داود ، ذلك العبد المقرب عند الله والذي أقدم على قتل النفس وارتكاب الزنى بالمحصنة ، وهي زوجة أحد قادة جيشه!!

هل يمكن لأحد الأشخاص العقلاء أن ينسب هذه التهم الفظيعة إلى ساحة إنسان مقدس كالنبي سليمان؟!

إذا اعتقدنا بنبوة سليمان عليه السلام . كما صرّح به القرآن . فالأمر واضح وإذا وضعناه في قائمة ملوك بني إسرائيل ، فكذلك لا يمكن أن تصدق في حقه مثل هذه التهم أيضاً . ولو أننا أنكرنا نبوته فمن المسلم أنه كان تالياً للنبي من بعده ، لأنّ من الكتب التي اشتتملت على أقوال هذا الرجل الإلهي الكبير كتابين من كتب العهد القديم أحدهما يقع تحت عنوان «مواعظ سليمان» أو «حكم سليمان» والآخر تحت عنوان «نشيد سليمان» بالإضافة إلى أنّ التوراة في الفصل الثالث من الكتاب الأول لتاريخ الملوك «الجمل من ٥

إلى الأخير» يقول بصراحة : «لقد تخلى الله تعالى لسليمان في المنام ليلاً ، ومخاطبه بالقول ، أطلب مني ما تشاء ونظرأ لصغر سنه وقلة تجربته طلب سليمان من الله الحكمة ، واستجاب الله دعاءه وأعطاه الفهم والحكمة وقال : إن هذا الفهم والحكمة التي أعطيته إليك لم أعطه لأحد من قبلك ولا من بعده».»

هل يعقل أن يتلقى أحد الأشخاص هذا النوع الفريد من العلم والحكمة من الله تعالى في أيام شبابه ثم يقدم على بناء معبد للأصنام ارضاءً لرغبات زوجاته في عهد كبره ونضج عقله واتكمال إدراكه؟!

مما لا يقبل الشك أن هذه الأساطير الكاذبة كانت من صنع الأدمغة العاجزة في السابق ، ومن المؤسف حقاً أن عدّة من الأفراد الجهلاء وضعوها في سلسلة الكتب السماوية بعد ذلك ، وقد أطلقوا على هذا الكلام «اللا مقدس» اسم «الكتاب المقدس» لكن ، هل ترى واحدة من هذه النسب السيئة في الواقع والحوادث التي ينقلها القرآن؟ فإذا دققت وبحثت فسوف يكون الجواب بالنفي .

* * *

٧ . المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو

القرآن الكريم يسدي احتراماً بالغاً لابراهيم عليه السلام وابنه «اسحاق» وحفيده «يعقوب» ويشيد بعظيمتهم واحلاظهم ، فنقرأ في قوله تعالى : ﴿وَادْكُرْ عَبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ دِكْرِي الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنَّدَنَا لَمِنَ الْمُصَطَّفِينَ الْأَخْيَار﴾ . (ص / ٤٥ - ٤٧)

وفي موضع آخر في قوله تعالى في شأن هذه الأسرة : ﴿وَوَهَبَنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَمِمَّةٍ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ . (الأنبياء / ٧٢ - ٧٣)

هذه التعبيرات إن دلت على شيء فانما تدل على أن هؤلاء رجال موحدون ، على

جانب

كبير من الإيمان وصفاء السريرة وعلى اطلاع ولياقة عالية في قيادة البشرية ، ولذا فهم مطهرون ومنزهون عن كل رجس ودنس ، لكن عندما يدّون تاريخ حياة هؤلاء على أيدي أصحاب الخرافات يرسمون عنهم صورة قبيحة جدّاً تنزل بهم إلى مستوى الأشخاص الانتهازيين والجشعين والمتحللين الذين لا يدخلون وسعاً في سبيل التوصل إلى منافعهم اللامشروعة ، ولإثبات حقيقة هذا الكلام نلتجيء إلى التوراة المحرف لنرى ما اختلفه من ملامح ومعالم رهيبة عن «اسحاق» و «يعقوب» والأخ الأكبر ليعقوب «عيسو» :

«وَحَدَثَ لِمَا شَاخَ اسْحَاقَ وَكَلَّتْ عَيْنَاهُ عَنِ النَّظَرِ فَدَعَا عِيسَوَ ابْنَهُ الْأَكْبَرَ وَقَالَ لَهُ : يَا بَنِي ، فَقَالَ هَأْنَا ، فَقَالَ : إِنِّي قَدْ شَخْتَ وَلَا أَعْرِفُ يَوْمَ وَفَاتِي فَالآنَ حَذِّرْتُكَ ، وَاسْلَحْتُكَ وَقُوْسَكَ وَأَخْرَجْتُكَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَتَصَدَّيْتُ لِي صَيْدًا وَاصْنَعْتُ لِي أَطْعَمَةً كَمَا أَحَبُّ ، وَائْتَنِي بِهَا لَا كَلْ حَتَّى تَبَارَكَنِي نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ.

وَكَانَتْ رِيقَاهُ سَامِعَةً لِكَلَامِ اسْحَاقَ مَعَ عِيسَوَ ابْنِهِ ، فَذَهَبَ عِيسَوَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ كَيْ يَصْطَطِدَ صَيْدًا لِيَأْتِيَ بِهِ ، وَأَمَّا رِيقَاهُ فَكَلَمَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا قَائِلَةً : إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَبَاكَ يَكْلُمُ عِيسَوَ أَخَاهُ قَائِلًا : ائْتِنِي بِصَيْدٍ وَاصْنَعْ لِي أَطْعَمَةً لَا كَلْ وَابْنَكَ أَمَامَ الرَّبِّ قَبْلَ وَفَاتِي ، فَالآنَ يَا بَنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي فِي مَا أَمْرَكَ بِهِ ، اذْهَبْ إِلَى الْغَنْمِ وَخَذْ لِي مِنْ هَنَاكَ نَعْجَتَيْنِ جَيْدَتَيْنِ ، فَاصْنَعْهُمَا أَطْعَمَةً لِأَبِيكَ كَمَا يَحِبُّ وَحْضُورُهَا إِلَيْهِ لِيَأْكُلْ حَتَّى يَبَارَكَكَ قَبْلَ وَفَاتِهِ ، فَقَالَ يَعْقُوبُ لِرِيقَاهُ أَمَّهُ : هُوَ ذَا عِيسَوَ أَخِي رَجُلُ أَشْعَرٍ ، وَأَنَا رَجُلُ أَمْلَسٍ رَمَّا يَجْسُنِي أَبِي فَاكُونُ فِي عَيْنِيهِ كَمْتَهَا وَأَجْلَبْ عَلَى نَفْسِي لَعْنَةً لَا بَرْكَةً ، فَقَالَتْ لَهُ أَمَّهُ : لَعْنَتُكَ عَلَيَّ يَا بَنِي ، اسْمَعْ لِقَوْلِي فَقَطْ وَادْهَبْ . فَذَهَبَ وَأَحْضَرَ لَأَمَّهِ فَصَنَعْتُ مِنْهَا أَطْعَمَةً كَمَا كَانَ أَبُوهُ يَحِبُّ وَأَخْذَتْ رِفْقَةَ ثِيَابَ عِيسَوَ ابْنَهَا الْأَكْبَرِ الْفَاحِرَةِ الَّتِي كَانَتْ عَنْدَهَا فِي الْبَيْتِ وَأَلْبَسَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الْأَصْغَرَ ، وَشَدَّتْهُ عَلَى يَدِيهِ وَعَنْقِهِ جَلُودٌ جَدِيدٌ الْمَعْزِي وَاعْطَتْ الْأَطْعَمَةَ وَالْخِبَرَ الَّتِي صَنَعْتَ فِي يَدِ يَعْقُوبَ ابْنَهَا فَدَخَلَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ : يَا أَبِي ، هَأْنَا . مَنْ أَنْتَ يَا إِبْنِي؟ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِأَبِيهِ : أَنَا عِيسَوَ بَكْرُكَ ، قَدْ فَعَلْتَ كَمَا كَلَمْتَنِي ، قَمْ وَاجْلَسْ وَكُلْ مِنْ صَيْدِي لَكِي تَبَارَكَنِي نَفْسِكَ.

فَقَالَ اسْحَاقُ لَابْنِهِ : مَا اسْرَعَ مَا اصْطَدَتْ يَا بَنِي؟ فَقَالَ : إِنَّ الرَّبَّ إِلَهُكَ قَدْ يَسْرِلِي

فَقَالَ

اسحق ليعقوب : تقدم لا حسک يابني ، أنت هو ابني عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه؟ ، فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو ، ولم يعرفه لأنّ يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه بباركه ، وقال : هل أنت ابني عيسو ، فقال : أنا هو ، فقال قدم لي لأكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي ، فقدم له فاكيل واحضر له خمرا فشرب ، فقال له اسحق أبوه : تقدم وقبلني يابني ، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر ، رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب .

فليعطيك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة الخنطة والخمر ، ليستعبد لك شعوب ، وتسجد لك قبائل ، كن سيداً لاخوتك وليسجد لك بنو امك ، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين ، وحدث عندما فرغ اسحق من بركة يعقوب وفي حين خروج يعقوب من عند أبيه فإذا بعيسو اخاه قد اتى بصيده ، فصنع هو اطعمة ودخل بها إلى أبيه ، وقال لابيه : ليقم أبي ويأكل من صيد ابني حتى تباركني نفسك فقال له اسحق أبوه : من أنت؟ فقال؟ : أنا ابنك ، بكرك عيسو فارتعد اسحق ارتعاداً عظيماً ، وقال : فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إلى فأكلت منه قبل أن تحييء وباركته؟ فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة وقال لأبيه : باركتني أنا أيضاً يا أبي ، فقال : قد جاء أخوك بذكر وأخذ بركتك» ^(١) .

ونطالع في الفصل الآتي هذا المعنى :

«ثم إنّ اسحاق استدعي يعقوب ودعى له بالخير والبركة ، وأوصاه أيضاً بوصية وقال لا تتزوج بامرأة من بنات كنعان ... وإنّ الله القادر المطلق سيبارك لك وسيحيطك برعايته وعنايته لكي تصبح قيّماً على جماعة الامم ، وليمدك الله ولدك ولنسلك ببركة إبراهيم حتى ترث الأرض التي اعطها الله لابراهيم ليسافر فيها» ^(٢) .

خلاصة الحكاية تقع في أنّ اسحاق كان له ولدان الأكبر يسمى «عيسو» والأصغر

يسمى

(١) التوراة ، سفر التكوين ، فصل ٢٧ ، الجمل ١ . ٤٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، فصل ٢٨ ، الجمل ١ . ٤ .

«يعقوب» ، وفي آخر أيام حياته حينما فقد بصره قرر أن يجعل ولده الأكبر وصيّاً ونائباً عنه من بعده ويارك له (يستفاد من القرائن أن المقصود من هذه البركة هو نفس مقام النبوة والروح الرسالية وقيادة الامة) إلأنّ يعقوب توسل بالحيلة وليس ثوب أخيه الأكبر بأمر من أمه التي كانت متعلقة به وفضل له أن يقوم مقام اسحاق ، ثمّ ربط على يده وعنقه قطعة من جلد الغنم لأنّ بدن أخيه كان مكتسيّاً بالشعر ، مما قد يفضي به ذلك إلى إفشاء سره لدى أبيه (الإنسان الذي يكسوه الشعر إلى هذا الحد بحيث يكون بدنك كالغم غريب في بابه واقعاً) وبالتالي شغل مكان أخيه الأكبر بالحيلة والكذب والخداع ، واقتنع ولده العجوز بلمس يده المكسوة بالصوف فقط مع أنه قد عرف صوته في الولهة الأولى ثمّ إله دعا في حقه وبارك له في عمله وأعده وصيّاً ونائباً عنه وقيّماً على أهله وأسرته ، وحينما اطلع أخوه الأكبر على القضية بكاءً مرّاً ، إلأنّ الأمر قد انقضى ، فحينما طلب من أبيه أن ينزل البركة عليه أيضاً ، سمع جواباً يقضي بانتهاء البركة وأنّ ما كان منها استأثر به أخيه يعقوب ولم يعد هناك فرصة لاعادة النظر !!

والغريب في الأمر هو ماذهب إليه إله اسحاق من تأييده هذا العمل أيضاً ، وتسليم مقام النبوة لرجل محتال وكذاب ومزيف ، وعلى حد قول التوراة أنه انشأه وتعاهده وطاف به كثيراً وجعله مالكا للجماعة والامم ووارثا ملوك وآثار نبيه (إبراهيم) العظيم ، وليس فقط اسرة اسحاق مأمورة باتباعه فحسب ، بل إنّ سائر الناس مأمرون باتباعه والخضوع له تعظيمها واجلاً له.

كيف يمكن اعتبار هذه الاسطورة الكاذبة والمضحكة على أهلاً وحي سماوي؟!
لو أنّ شخصاً استولى على مقام بسيط بالحيلة والكذب . كأن يرتدي على سبيل المثال زياً عسكرياً متواضعاً . فإنه بعد الكشف عن حقيقته ليس فقط يسلبون منه ذلك ، ويخلعون عنه هذا اللباس بل يعاقبونه على هذا العمل أيضاً ، لكن كيف يمكن الاستيلاء على مقام النبوة والحصول على البركة الإلهية وقيادة المجتمع بالخداع والمكر ، ثم الإبقاء عليه بعد الكشف عن حقيقته المخزية؟!

* * *

٨ . نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح عليه السلام

أولى القرآن الكريم احتراماً بالغاً للسيد المسيح عليه السلام وتحدث عنه في سور متعددة (من قبيل سورة البقرة وآل عمران والمائدة وبعض السور الأخرى) ، وأشار إليه بكلونه أحد أنبياء أولي العزم (صاحب شريعة وكتاب سماوي) وله معجزات كثيرة ، نقرأ في قوله تعالى :

﴿وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَالْتَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ﴾ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جَئْنُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْرِ كَهْيَةً طَيْرًا فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَاحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرِجُونَ فِي بِيُوتِكُمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَهِيَّ لَكُمْ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . (آل عمران / ٤٨ - ٤٩)

وبناء على ذلك تشكل المعاجز الأربع من (خلق الطير) و (شفاء المرضى الميؤوس من معالجتهم) و (إحياء الأموات) و (الإخبار عن الغيب) (التي كانت تتحقق بإذن الله) عظمة معاجز السيد المسيح عليه السلام (وفقاً لبيان القرآن).

وفي موضع آخر بعد نزول المائدة السماوية (طعام الجنّة) إحدى معاجز المسيح عليه السلام وذلك في (سورة المائدة آية ١١٥) نظراً إلى اعتبار المسائل المعقولة والمقبولة من المعاجز بصورة عامة ، والآن لنلقي نظرة على ما تقوله (الأنجيل) في هذا المجال ، ففي الباب الثاني من «أنجيل يوحنا» الأنجليل الرابع من الأنجليل الأربع ورد هذا المعنى :

«وفي اليوم الثالث كان في قاناي الجليل (أحد مدن بيت المقدس) عرس ، وكانت ام يسوع هناك فدعى يسوع وتلاميذه إلى العرس ونفذت الخمر ، فقالت له امه : ما بقي عندهم خمر ، فأجابها : وما لي ولك يا امرأة ما جاءت ساعتي بعد ، فقالت امه للخدم : اعملوا ما يأمركم به.

وكان هناك ستة جرات من حجر يتظاهر اليهود بعائدها على عادتهم ، يسع كل واحد منها مقدار مكيلين أو ثلاثة ، فقال يسوع للخدم : املأوا الجرات بالماء فملأوها حتى فاضت فقال لهم : استقروا الآن وناولوا رئيس الوليمة ، فناولوه فلما ذاق الماء الذي صار خمرا ، وكان لا يعرف من أين جاءت الخمر ، لكن الخدم الذين استقروا منه كانوا يعرفون ، دعا

الرئيس

وقال له : جميع الناس يقدمون الخمر الجيد أولاً ، حتى إذا سَكَرَ الضيوف ، قدموا إليهم الخمر الرديء ، أما انت فأخرت الخمر الجيد إلى الآن» ^(١).

يستشف من هذه القصة النكبات التالية :

- ١ . لما دخل السيد المسيح مع امه مريم عليها السلام إلى محفل العرس ونفذت المشروبات الخمرية ، أقدم بإيعاز من امه على حلق المعجزة ، وأبدل ست جرات ممتلئة بالماء إلى خمور صافية ، بحيث إن الطعم اللذيد لها استهوى على أفهنة الحاضرين.
- ٢ . هذه هي المعجزة الاولى من نوعها للسيد المسيح عليه السلام والتي تحققت بإيعاز من امه.
- ٣ . عظم شأن السيد المسيح وجل قدره من خلال هذه المعجزة (تبديل الماء إلى خمر) مما أدى ذلك إلى إيمان تلامذته به.

والطريف هنا أن أهالي مدينة قانا الجليل ، لم يرحو يصنعون جرات الماء وبيعوها للزوار والسياح احتفاء بذكرى جرات الخمر التي حدثت بإعجاز السيد المسيح عليه السلام.
ومما لا شك فيه أن هذه هي اسطورة من الأساطير المفتعلة والكاذبة المنسوبة إلى هذا النبي العظيم ، ولا يخفى على أحد ما للخمر من قبح وأضرار غير قابلة للحصر ، وقد منعت وحرمت في كافة الأديان السماوية ، حتى أَنَّه سبق التصريح بها في نفس الكتب المقدسة لليهود والنصارى ، كما ورد ذم الخمر بلهجة شديدة في كتاب «أمثال سليمان» إذ يقول هناك :

«من الويل من الشقاوة لمن المخاصمات لمن الكرب لمن المجروح بلا سبب لمن ازمهار العينين ، للذين يدمون الخمر الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج ، لا تنظر إلى الخمر إذا إحمررت حين تظهر حبها في الكأس وساعت مرقوقة وفي الآخر تلسع كالحية وتلدفع كالاقحوان» ^(٢).

يفهم من هذه العبارة جيداً أن مفاسد الخمرة كثيرة جداً فهي السبب الأساسي لكل

اللام

(١) إنجيل يوحنا عرس قانا الجليل ص ٢٥٦.

(٢) العهد العتيق ، كتاب أمثال سليمان ، فصل ٢٣.

الجسدية والهموم النفسية والفكيرية والمنازعات والمصادمات والاختلافات الاجتماعية ، وهي من عوامل شقاء الإنسان وبؤسه ، وتفعل فعلها في وجود البشر كسم الحياة وهي مبرر كاف على انعدام العفة والسقوط في وحل الانحرافات الجنسية السيئة والوقوع في شرك أنواع التخيالات والابتلاءات التي طرحت في هذه العبارات بشكلٍ واضح جدًا.

ونقرأ في موضع آخر من كتاب «أمثال سليمان» هذه العبارة : الخمرة المستهزلة (وهي التي تدعو الإنسان إلى أن يقوم بحركات ويتحدث بكلمات تفضي إلى الاستهزاء والسخرية) والمسكرات الصالحة (وهي التي تسبب المنازعات والمخاصل) وكل من يقع في أسره لا يصبح حكيمًا^(١).

كما ونقرأ في الفصل ٢٨ من كتاب اشعياء هذه العبارة أيضًا : «أما هؤلاء (إشارة إلى مجموعة من المنحرفين) فقد ضلوا طريقهم وفقدوا صوابهم بفعل الخمر والمسكرات أيضًا». وجاء في موضع آخر من نفس الكتاب هذا المعنى : «الويل لأولئك الذين استعنوا بشرب الخمرة على الغلة وبمزج المسكرات على القوة»^(٢) ، أي أنّ قواهم تتحرك من خلال شرب الخمرة وتستعد للنزاع.

وجاء في كتاب هوشيع (من التوراة) : «إن الزنا والخمر وعصير العنب «بصورته المسكرة» كل منهم يؤذّي إلى ضعف القلب»^(٣).

يتضح من هذه العبارات جيداً أنّ المعول في حرمة الخمر ليس كونها من المشروبات العادية إنما لكونها من المائعات المسكرة التي تلحق الضرر بالجسم والروح الإنسانية وتؤدي إلى الضياع والشقاء.

بناء على هذا أليس من المخجل أن يقال إنّ المعجزة الأولى للسيد المسيح عائلاً التي ظهرت في مدينة قاناي الجليل تبلورت في التحول الذي طرأ ببركته على عدّة ظروف كبيرة

(١) عهد عتيق ، كتاب أمثال سليمان ، فصل ٢٠ ، جملة ١.

(٢) كتاب اشعياء ، فصل ٥ ، جملة ٢٢.

(٣) كتاب هوشيع فصل ٤ ، جملة ١١.

ممتلئة بالماء إلى خمور صافية ، وعندما نقارن ذلك مع المعاجز القرآنية للسيد المسيح يتضح لنا مدى الفاصلة بين التواريχ المختلفة في ذهن البشر وبين التاريخ الواقعي الناشيء من طريق الوحي .

* * *

٩ . المسيح عليه ودعوى الالوهية

القرآن يبريء ساحة السيد المسيح عليه من أي لون من ألوان الادعاء المزيف على صعيد الالوهية ، ويقول بصرامة : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَأْعِيسَى ابْنَ مَرِيمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَمَّى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ أَنْ كُثُرْ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلُمُ مَا فِي نَفْسِكَ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ * ما فعلت لهم إلا ما أمرتني به إن اعبدوا الله ربّي وربّكم و كنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد﴾ . (المائدة / ١١٦ - ١١٧)

والآن لننظر إلى ما تقوله الأنجليل في صدد المسيح عليه .

نقرأ في انجيل يوحنا هذا المعنى :

«وجاء عيد التجديد في اورشليم ، وذلك في الشتاء وكان يسوع يتمشى في الميكل في رواق سليمان فتجمع اليهود حوله وقالوا له : «إلى متى تبقينا حائرين؟ قل لنا بصرامة : هل أنت مسيح؟

فأجابهم يسوع : «قلت لكم ، ولكنكم لا تصدقون ، الأعمال التي أعملها باسم أبي تشهد لي ، وكيف تصدقون وما أنتم من خرافي ، خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها وهي تتبعني اعطيها الحياة الأبدية فلا تحملك أبداً ولا يخطفها أحد مني الأب الذي وهبها لي هو أعظم من كل موجود ، وما من أحد يقدر أن يخطف من يد الأب شيئاً ، أنا والأب واحد».

وجاء اليهود بحجارة ليرجموه فقال لهم يسوع : «أرتكم كثيراً من الأعمال الصالحة من عند الأب ، فلابد من عمل منها ترجموني .

أجابه اليهود : لا نرجمك لاي عمل صالح عملت بل لتجديفك فما أنت إلا إنسان ، لكنك جعلت نفسك إلها .

فقال لهم يسوع : «أما جاء في شريعتكم أَنَّ اللَّهَ قَالَ : أَنْتُمْ أَهْمَةُ؟ مَاذَا كَانَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا بِوَحْيٍ مِّنَ اللَّهِ يَدْعُوْهُمُ اللَّهَ أَهْمَةُ ، عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي لَا يَنْقُضُهَا أَحَدٌ ، فَكَيْفَ تَقُولُونَ لِي ، أَنَا الَّذِي قَدَّسَهُ الْأَبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ : أَنْتُ تَجْدِفُ لَأَنِّي قَلَّتْ : أَنَا ابْنُ اللَّهِ؟ إِذَا كُنْتَ لَا تَعْمَلُ أَعْمَالًا أَبِي فَلَا تَصْدِقُونِي وَإِذَا كُنْتَ اعْمَلُهَا فَصَدَّقُوا هَذِهِ الْأَعْمَالِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَصْدِقُونِي حَتَّى تَعْرَفُوا وَتَؤْمِنُوا أَنَّ الْأَبَ فِي وَأَنَا فِي الْأَبِ» ^(١).

يتضح من خلال هذه العبارات عدّة نكّات :

- ١ . اَنَّمَّا الْيَهُودُ عِيسَى مِنْ ذِي قَبْلَةِ اَنَّهُ اَدْعَى الْاَلْوَهِيَّةَ وَأَصْدَرُوا حَكْمًا بِتَكْفِيرِهِ وَرَمِيهِ بِالْحَصْنِ .
- ٢ . يَقُولُ الْمَسِيحُ تَارَةً فِي صَدَدِ الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ : أَنَا الَّذِي قَلَّتْ إِنِّي ابْنُ اللَّهِ ، وَأَنِّي ابْنُ اللَّهِ ، وَتَارَةً اخْرَى يَقُولُ : أَنَا أَقُومُ بِأَعْمَالٍ إِلَهِيَّةٍ ، وَلَوْ لَمْ أَنْجُزْ ذَلِكَ فَلَا تَصْدَقُوا كَلَامِي ، وَلَوْ أَنْجُزْتَ ذَلِكَ فَصَدَّقُوا أَنِّي حَالٌ فِي اللَّهِ وَاللَّهُ حَالٌ فِي نَفْسِي . إِنَّ التَّعْبِيرَ بِالْأَبِ وَالْابْنِ وَالْقِيَامَ بِأَعْمَالٍ إِلَهِيَّةٍ ، وَالْقُولُ بِمَحْلُولِ الْإِنْسَانِ فِي اللَّهِ وَاللَّهُ فِي الْإِنْسَانِ ، كُلُّهَا تَعْبِيرَاتٍ إِلَهَيَّةٍ ، لَا تَلْتَئِمُ مَعَ كَافَةِ الْمَوَازِينِ الْمَنْطَقِيَّةِ ، وَلَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ يَدْلِي أَحَدُ الْأَنْبِيَاءِ بِمَثَلِ هَذِهِ الْعَبَارَاتِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَوْ بِصُورَةٍ مَجَازِيَّةٍ ، لَأَنَّ ذَلِكَ يُؤْدِي إِلَى وَقْوَةِ الْبَسْطَاءِ فِي دَوَامَةِ الْاَشْتِبَاهِ وَالْاَلْتَبَاسِ ، وَيُسَاهِمُ فِي أَنْ يَجْدِدَ الْأَعْدَاءُ الْذَرِيعَةَ الْمُنَاسِبَةَ لَأَنَّ يَرْمُوهُ بِالْحَصْنِ مَتَى مَا شَاءُوا .

هَذَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَقُولُ الْقُرْآنُ فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَلُونُهَا سَابِقًا بِصَرَاحَةٍ تَامَةٍ إِنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ مِنَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ أَيْ اَدْعَاءٍ سَوْيَ الْعَبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَدُعُوَ النَّبُوَّةِ وَالرَّسُالَةِ وَكَانَ فِي غَايَةِ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ فِي مَحَالِ الْعَبُودِيَّةِ وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَفِي آيَاتٍ اخْرَى يَقُولُ أَيْضًا : إِنَّ كُلَّ مَا أَنْجَزَهُ مِنْ مَعْاجِزٍ كَانَ جَيِّعَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، نَقَرَأَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطَّيْرِ كَهْيَةً الطَّيْرَ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبَرِّئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمُؤْتَى بِإِذْنِي﴾ . (الْمَائِدَةُ / ١١٠)

(١) انجيل يوحنا ، باب ، اليهود يرفضون المسيح ، ص ٢٨٩ .

إن المقارنة بين هذا النوع من المسائل التاريخية في القرآن وبين ماورد منها في الانجيل من شأنه أن يضع الحدود الفاصلة بينهما وبين أيهما هو الصادر من قبل الله حقاً ، وأيهما هو المحرف والمخالق من الذهن البشري.

* * *

١٠ . حضور المرأة العاخصية في مجلس السيد المسيح عليه السلام

لم تظهر في الآيات المختلفة للقرآن التي وردت في حق السيد المسيح حتى الحد الأدنى من ترك الأولى ، وقد وصفت الآيات التي وردت في شأن أمه مريم قداستها في أجلى صورها ، بحيث إنها ذعرت بشدة والتحجأت إلى الله حينما شاهدت ملك الوحي الذي جاءها من قبل الله ليهبهما ولداً ، (لأنه ظهر أمامها على هيئة شاب جميل مجهول) حتى أنها لما قاست من آلام وضع الحمل ، وجدت في مخيلتها مستقبل حياتها ، بأنّ من الممكن أن ينسب لها الأعداء والبسطاء النسب القبيحة ؛ قالت : ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾.

(مريم / ٢٣)

غير أنّ نبياً بهذه القداسة بحيث ينطلق لسانه بأمر من الله في المهد ، ويرهن عملياً على طهارة امه ، ويتحدث عن الصلاة والزكاة ، وكل مظهر من مظاهر التقوى من تلك اللحظة ، مثل هذا النبي يرد وصفه في بعض الأناجيل بأوصاف تبعث كلّ قارئ على الدهشة والاستغراب.

والآن لنستمع وننظر إلى ما بينه «انجيل لوقا» عن حكاية المرأة السيدة الصيّت التي جاءت إلى المسيح عليه السلام وتابت : «وَدَعَا أَحَدُ الْفَرِيسِيِّينَ (إِحْدَى فِرْقَ الْيَهُودِ) ، وَالْفَرِيسِيُّ بِعْنَى الْمَعْتَزِلِ) إِلَى الْطَّعَامِ عَنْهُ فَدَخَلَ بَيْتَ الْفَرِيسِيِّ وَجَاءَتْ إِلَى الْمَائِدَةِ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةٌ خَاطِئَةٌ فَعَلِمَتْ أَنَّ يَسُوعَ يَأْكُلُ فِي بَيْتِ الْفَرِيسِيِّ وَجَاءَتْ وَمَعَهَا قَارُورَةٌ طَيِّبٌ ، وَوَقَفَتْ مِنْ خَلْفِ عَنْدِ قَدْمِيهِ وَهِيَ تَبْكِي وَاحْدَدَتْ تَبْلَقَ قَدْمِيهِ بَدْمَوْعَهَا وَقَسَحَهَا بَشَعْرِهَا ، وَتَقْبَلَهَا وَتَدْهَنُهَا بِالْطَّيِّبِ فَلَمَّا رَأَى الْفَرِيسِيُّ صَاحِبَ الدُّعَوَةَ مَا جَرِيَ ، قَالَ فِي نَفْسِهِ : «لَوْ كَانَ

هذا

الرجل نبياً لعرف من هي هذه المرأة التي تلمسه وما حالمها فهي خاطئة!» فقال له يسوع : «ياشمعون ، عندي ما أقول لك» ، فقال شمعون : «قل يامعلم» ، فقال يسوع : «كان لمدين دين على رجلين : خمسين دينار على أحدهما وخمسون على الآخر وعجز الرجال عن إيفائه دينه ، فاعفاهما منه فأيهما يكون أكثر حباً له؟».

فأجابه شمعون : «أظن الذي أعفاه من الأكثرا» فقال له يسوع : «أصبت» والتفت إلى المرأة وقال لشمعون ^(١) : «أترى هذه المرأة؟ أنا دخلت بيتك فما سكبت على قدمي ماء ، وأمّا هي فغسلتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها ، أنت ما قبلتني قبلة ، وأمّا هي فما توقفت منذ دخولي عن تقبيل قدمي ، أنت ما دهنت رأسي بزيت ، وأمّا هي فبالطيب دهنت قدمي ، لذلك أقول : غفرت لها خططيها الكثيرة لأنّها أحبّتني كثيراً ، وأمّا الذي يغفر له القليل فهو يحب قليلاً» ثم قال للمرأة : «مغفورة لك خططياك!» فأخذ الدين معه على المائدة يتساءلون ، من هذه حتى يغفر خططيها ^(٢).

ملخص هذه الحكاية أنَّ السيد المسيح ينزل في بيت لأحد الفريسيين وهم كانوا طائفة من اليهود ، ولا يبدي له صاحب البيت احتراماً بالغاً ، وما أن أطلعت المرأة العاهرة والمنحرفة ^(٣) التي تسكن ذلك البلد على حضوره حتى توجهت إلى بيت اليهودي وكانت العادة الجارية في ذلك العصر على غسل رجل الضيف أكراماً له ، وطلبي شعره بالدهن أحياناً لأنَّ الناس كانوا يمشون حفاة غالباً ، ونظراً لعدم امتلاكهـم وسيلة للتغطية والحفظ في الأسفار كانت شعور وقشور أبدانهم تصاب بالجفاف على أثر هبوب الرياح.

ووفقاً لهذه الحكاية المفتعلة قامت المرأة العاهرة بغسل رجلي المسيح عليهما بدموعها عوضاً عن الماء ، وجففتهما بشعرها الطويل عوضاً عن المنشفة ، وقبلتهما بشفتيها بحرارة ،

(١) شمعون في الأصل يعني السامع ، وقد اشير إلى اسماء ١٠ أشخاص في الكتاب المقدس للمسيح طبقاً لما قاله مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) ، وكان أحدهم شمعون الفريسي.

(٢) إنجيل لوقا ، باب يسوع يغفر لامرأة خاطئة ، ص ١٨٣.

(٣) هذه المرأة هي مريم مجذلية كانت عاهرة ومتملة ، فأعلنت عن توبتها على يد السيد المسيح عليهما طبقاً ل Magee في إنجيل لوقا في الباب الثامن.

بحيث أدى هذا المشهد المثير إلى استياء الرجل اليهودي صاحب البيت وقلقه ، وقال في نفسه إن كان هذانبياً ووافقاً على سيرة هذه المرأة لصدها عن هذا العمل على الأقل ، المسيح بفراسته علم بذلك ، وأقنعه بذلك من حلال المثال الذي ضربه في صدد الشخصين المديونين وأعرب له : إنني كنت ضيفك إلا أنت لم تقم بما قامت به المرأة المنحرفة من حسن الضيافة ، فأنت لم تغسل رجلي بالماء وهي غسلته بدموع عينيها وأنت لم تقبلني وهي قبلت رجلي بلا انقطاع ، ولم تدلك رأسي بالدهن وهي دلكت رجلي بالعطر.

والآن لنبدأ قليلاً بتحليل هذه القصة ، لنرى هل من المناسب لهذا النبي العظيم وحتى المؤمن عادي أن يضع نفسه تحت تصرف امرأة عاهرة كي تعامله بمثل هذه المعاملة.

أولاً : إن السيد المسيح عليهما السلام كان شاباً ينافر عمره الثلاثين عاماً في ذلك العصر ، ولا بد أن تكون تلك المرأة العاهرة شابة وجميلة أيضاً ، ولا يعقل أن تكون قبيحة المنظر منهوكة القوى في الأعم الأغلب فكيف يتأنى النبي عظيم بعث لتهذيب الأخلاق ونشر مظاهر التقوى أن يسمح لامرأة فاجرة بأن تتمسح برجليه مرات متعددة ثم تغسلهما بدموع عينيها وبجفونهما بشعرها الناعم وتدهنهما بيديها الظريفتين وتطبع عليهما قبلات حارة ، فهل يعقل هذا؟

وعلى فرض أنها أرادت التوبة من وراء ذلك فإن للتوبة حدوداً وقيوداً أيضاً ، وهل سبق لأحد إلى يومنا هذا أن يتعامل مع أحد الروحانيين أو الرهبان العاديين بمثل هذه المعاملة ، حتى تصل إلى النبي من أنبياء الله؟

وعلى كل حال فالآثار الخرافية لهذه الرواية ظاهرة من بين ثناياها بصورة كاملة ، فضلاً عن أن ما ذكره السيد المسيح عليهما السلام من المثال لا يعتبر حواباً عن استفسار اليهودي على الإطلاق.

فإشكال اليهودي لم يقع على عظم محنة هذه المرأة حتى يأتي الجواب على أن عظم محنتها وشدة تعلقها ناتج عن كثرة ذنوبها ، وإنما وقع للاستفسار عن السبب في سماح النبي من أنبياء الله بأن تمسح امرأة عاهرة وسيدة السمعة برجليه إلى هذه الدرجة ثم تغسلهما

بدموع عينيها ، وتحففهما بشعرها ، وتدركه بالعطر والدهن ، فمما لا شك فيه أنّ كثرة الذنوب وقلتها لا صلة له بهذا العمل من قريب أو بعيد .

وعليه مما جاء في تواريخ القرآن من وقائع وحوادث عن السيد المسيح عليه تزنه وتبوء ساحتة من مثل هذه النسب السيئة .

* * *

نتيجة البحث :

يستنتج مما ذكر سابقاً ضمن هذه النقاط العشر ومن خلال ما أجريناه من مقارنة واضحة بين تواريخ العهدين (الكتب المقدسة لليهود والنصارى) هي نفس الكتب التي عُدّت من أهم المصادر التاريخية للأديان في عصر نزول القرآن . على أنّ القرآن لا يمكن أن يكون وليد الفكر الإنساني اطلاقاً ، لأنّ ذلك يستلزم أن يتأثر بها ، وقابلية التأثر هذه تترك أثراً في نقل وقائع هذه القصص ، فدللت نزاهة التواريخ التي ينقلها القرآن من هذه الخرافات والنسب القبيحة خصوصاً فيما يتعلق بشرح وقائع الأنبياء على أنه صادر من مصدر العلم الرباني وأنّه معجزة خالدة على مر الدهور .

* * *

٥ . الاعجاز القرآني في سن القوانين

من المعلوم أنه قد ورد في القرآن الكريم بالإضافة إلى المعرف والتعاليم المرتبطة بالبدأ والمعاد والمسائل الأخلاقية والتاريخية والتشريعات المتعلقة بالعبادات ، مجموعة من القوانين الاجتماعية أيضاً ، والتي ترسم معاً معاً القانون الأساسي للإسلام وبعض القوانين المدنية ، الحقوقية والجزائية المتعلقة به .

إن الدقة والحكمة الموجدتين في النصوص القرآنية تكفيان لوحدهما في اظهار معجزة القرآن استناداً إلى أن ظهور وبروز هذه القوانين الحكيمية جداً . والتي ستأتي أمثلتها فيما بعد . في محيط تحكمه شريعة الغاب ، أو بعبارة أخرى : في جو يضج بالفوضى والتسيب ، هذه القوانين بإمكانها أن تحمل كل فرد منصف على التسليم والاذعان ، لذا نحن لسنا ملزمين بأن نفتش عن عظمة هذا الكتاب السماوي واعجازه في المسائل المرتبطة بالفصاحة والبلاغة ، أو المعرف والعلوم والجوانب التاريخية فقط ، بل إن الاقتصار على البحث في مجموعة القوانين القرآنية يفتح نافذة بوجه هذا العالم الكبير .

وهنا ينبغي . وقبل كل شيء . أن نقدم مقدمة قصيرة حول بيان معنى القانون الصالح وحقيقة ، وذلك من أجل تدعيم أساس هذا البحث .

ما هي أفضل القوانين؟

من الصعوبة الجواب عن هذا السؤال ، ولكن إذا وقفنا على الحكمة الواقعية من وراء وضع القوانين في المجتمعات الإنسانية فإن معاً معاً الطريق ستصبح واضحة .

إنّ المسألة تكمن في كون الإنسان يميل فطرياً إلى الحياة الاجتماعية ، ويعود الفضل في رُقيه وتطوره إلى حياته الاجتماعية ، فمن خلال هذه الحياة تتلاعج أفكار العلماء والمفكرين وتتآزر الاكتشافات والاختراعات والإبتكارات العلمية الموجودة في المجتمع وتنتقل من جيل إلى جيل آخر ، ففي كل يوم نشهد تطهراً وتقديماً ورقياً على صعيد العلوم والتفكير والخسارة الإنسانية.

وأيّاً كان الدافع من وراء الاهتمام بهذا التعايش المشترك فإنّ له موضوعاً مستقلاً للبحث ، ولكن ممّا لا شك فيه إذا كانت حياة الناس بمعشرة ومشتقة شأنها شأن حياة الحيوانات الأخرى لم يكن هناك أي فرق بين إنسان اليوم وإنسان العصر الحجري ، ولا يوجد معنى للعلم والحضارة والاختراع والاكتشاف ولا الصناعات والفنون ولا اللغة والأداب ولا لأي شيء آخر ، إلّا أنّ هذه الحياة الاجتماعية طواريء ومشاكل إذا لم تتم الوقاية منها بشكل صحيح فإنّها تؤدي إلى حدوث نكبات ووبيلات ثوّدي بحياة الأجيال فضلاً عما يترتب على ذلك من توقفٍ لعجلة التكامل والرقي.

إنّ هذه الإفرازات عبارة عن : الصراعات التي تنشأ من تعارض المصالح وتزاحم الحقوق وطلب الاستعلاء ، وحب الاستئثار ، والأنانيات والمنافع الشخصية والتي تؤدي بدورها إلى حدوث الخلافات والنزاعات والمناوشتات الفردية أو الجماعية ونشوب الحروب الأقلية ، أو الدولية ، وهذا أدرك المجاميع الإنسانية منذ تلك اللحظة هذه الحقيقة وهي أنه لو لم توضع المقررات الالزامية لتعيين حدود صلاحيات الأفراد وحقوقهم واسلوب حل المنازعات والدعوى والمشاجرات ، لانقلب الموازين الاجتماعية رأساً على عقب وأدت إلى حدوث كارثة كبرى.

وأساساً إنّما يأخذ المجتمع الواقعي طريقه إلى الوجود والظهور بعد أن تسوده حالة التعاون والتعاضد والتعاطف بين أفراده ، ومثل هذا الأمر لا يتحقق إلّا في ظل وضع القوانين والمقررات ، وفي الواقع ليس هناك مفهوم للتعاون من دون تعهد أخلاقي ، وهذا التعهد بحد ذاته منشأ حدوث القانون.

علاوة على ذلك فإنه من الخطأ أن نعتبر وظيفة القانون منحصرة في نطاق الحد من حدوث الاعتداءات وإنهاء النزاعات . وإن كان هذا هو المدف من وضع الكثير من القوانين . بل يقع على عاتق القانون قبل هذا مسؤولية توثيق العلاقات الاجتماعية وإيجاد الضمانات والتعامل معها بصدق وأمانة وتأمين الحرية الالزمة من أجل تكين وتربيه القابليات وتنميتها ، وتمرر القوى وتبعد الإمكانيات بالجاه معين من أجل توسيع رقعة التكامل .

والواقع إن القانون هو بمثابة الدم الباركي في عروق المجتمع البشري ، لهذا لا بد من القول بصرامة : إنه إذا انعدم القانون لم يكن لوجود المجتمع معنى ، ولم يتحقق التقدم والازدهار .

إذن لم يعد الجواب عن السؤال المتقدم صعباً ، فالقانون الأفضل هو الذي يمتلك صلاحية أكثر في تأمين الأمور التالية :

١ . أن يجمع بين كافة القوى المؤلفة للمجتمع الإنساني تحت راية واحدة قوية ، ويحل مشكلة الاختلافات الموجودة فيه كاختلاف الألوان والقوميات واللغات .

٢ . أن يهيء الأرضية المناسبة لنمو الاستعدادات الكامنة وتطوير القدرات الخلاقة لدى المجتمع .

٣ . أن يؤمن الحرية الواقعية حتى يتمكن جميع الأفراد من العمل على تنمية استعداداتهم في ظلها .

٤ . يحدد الحق المشروع لكل شخص من الأشخاص وكل فئة من الفئات كي يقف حاجزاً دون حصول النزاعات والاختلافات والاعتداءات .

٥ . أن يعمق في النفوس روح الاعتماد والاطمئنان من خلال تعين نظام إجرائي صحيح مضمون .

٦ . القانون الصالح ليس كما يتصوره البعض بأنه القانون الذي يحمل معه مجموعة من القوانين العريضة والموسعة والتي تشتمل على الأجهزة القضائية الواسعة والشرطة والسجون الكثيرة ، بل إن هذا يدل على ضعف ذلك القانون وذلك المجتمع وعجزهما ،

فالقانون الصحيح هو الذي يتخذ إجراءات وقائية مناسبة من خلال وضع التعليمات الثقافية والمقررات الصحيحة حتى لا تدعوا الحاجة إلى التوسل بمثل هذه الامور. إن الأجهزة القضائية والعقوبات والسجون بمثابة الطب العلاجي ، أو بعبارة أصح ، بمثابة إجراء عملية حراحية للمرض ؛ بينما القوانين السليمة والمقررات الدقيقة بمثابة الطب الوقائي الذي يعتبر أقل مؤونة وأسلم طريقة لخلوه من الطواريء والأخطار. بعد هذه المقدمة نعود إلى القرآن مرة أخرى لندقق في قوانينه ونبحثها.

مزايا القوانين القرآنية :

قبل كل شيء نرى من اللازم أن نذكر هذه النكتة وهي : إن جميع هذه القوانين إنما خرجت في محيط الحجاز ، ذلك المحيط الذي لا يعرف للقانون معنى تقريباً ، والأمر الوحيد الذي حكم بشكل قانوني في أواسط قبائله هي العادات والتقاليد المحدودة والمترجحة بالحرافات ، لذا فإن ظهور القوانين الإسلامية في مثل هذا المحيط يعد بحق ظاهرة عجيبة لا يمكن تبريرها وتصورها تصوراً طبيعياً وعادياً ، ومن هنا فلابد أن نتعرف على خصائص القوانين الإلهية ، وليس لنا سوى القبول والتسليم بأن ذلك كله صادر من الله تعالى.

أولاً : الشمولية والسعنة

بالرغم من أن القرآن نزل في محيط مغلق من جهات مختلفة ، ومحدود في ارتباطه مع عالم ما وراء شبه الجزيرة العربية ، وكان الطابع الذي يسود ارجاءه هو طابع القومية والعنصرية والحياة القبلية ، فكان من الطبيعي حتماً أن يصطبغ مثل هذا المحيط بصبغة القومية العربية ، بل بصبغة التعصب القبلي مما يلفت النظر إلى أن القوانين لم تصطبغ بهذه الصبغة بأي شكل من الأشكال حتى أنه لم يرد الخطاب بـ (يا أيها العرب) ولا مرة واحدة في القرآن ، بل إن الخطاب كان موجهاً إلى عامة الناس في كل المواضيع والخطابات حيث

ورد بصيغة . يا بني آدم ^(١) ويا أيها الناس ^(٢) ويا أيها الذين آمنوا ^(٣) ويا عبادي ^(٤) ويا أيها الإنسان ^(٥) . فالمخاطبين في القرآن هم جميع أهل العالم ، وقوانينه ناظرة إلى البشرية جماء . وممّا يدل على هذا المدعى أيضاً هذه الآية : **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** .

(الأنبياء / ١٠٧)

والآية : **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾** . (الفرقان / ١)

والآية : **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾** . ونظائرها . (يوسف / ١٠٤)

لقد نبذ القرآن التمييز العنصري . في ذلك المحيط العنصري . بحيث أولى اهتماماً كبيراً وعناية فائقة للأواصر الأخوية وجمع أبناء البشرية من خلال اطروحته الرائعة المتضمنة هذا المعنى «أنتم جميعاً أبناء آدم وخلقتم من أب واحد وام واحدة» فأنتم جميعاً أخوة لاسرة واحدة ، يقول عزّ من قائل في هذا المضمار : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَانْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتْقَانُكُمْ﴾** . (الحجرات / ١٣)

وفي موضع آخر ينفي كافة الارتباطات المحدودة ويلور العلاقة القائمة بين المؤمنين في إطار الاخوة والصداقة التي هي من أقرب العلائق التي تقوم على أساس المساواة والمواساة ، إذ يقول عز من قائل : **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾** (الحجرات / ١٠)

وممّا يدعو إلى الانتباه والالتفات إلى ما في هذه الآية هو مجيء كلمة **«إنما»** التي تستعمل للحصر ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أحاطت هذه القوانين بشموليتها سائر أنحاء الحياة البشرية بدءاً بأهم المسائل الاعتقادية (كالتوحيد) وانتهاءً بأبسط المسائل الأخلاقية والاجتماعية ، (كالرد على السلام وعلى أي لون من ألوان التحية والاستقبال) ،

(١) وردت ٥ مرات.

(٢) وردت ٢٠ مرتة.

(٣) وردت ٨٠ مرتة.

(٤) وردت ٥ مرات.

(٥) وردت مرتين.

فعلى سبيل المثال يقول تعالى في أحد الموضع : ﴿وَإِذَا حُسِّنَتْ هِيَةٌ فَحَسِّنُوا بِإِحْسَانٍ مِّنْهَا وَأُدْوِنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾. (النساء / ٨٦)

وقد ضمَ القرآن الكريم بين دفتيره آيةً تُعدُّ من أطول الآيات القرآنية التي دار الحديث فيها حول كتابة الديون والحقوق ، فقد ذكر فيما يتعلق بهذه المسألة عشرين حكماً إلهياً ، وهي (الآية ٢٨٢ من سورة البقرة) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن تطرق القرآن للمسائل المرتبطة بالعقائد والمعارف الإسلامية لا يتلافى بتاتاً مع بيانه للأحكام الضرورية العملية أيضاً ، ولا نقصد من ذلك أنَّه قد تمَ بيان جميع جزئيات الأحكام والقوانين على صعيد الظواهر القرآنية ، لأنَّ ممَّا لا يقبل الشكُ أنَّ حجمها يعادل أضعاف حجم القرآن ، وإنما المقصود أنَّه تعالى قد بيَّنَ الأصول والقواعد الضرورية في كل مورد من الموارد القرآنية. ولا يضر في هذا المجال أن نشير إشارات مختصرة إلى مقتطفات من هذه الأصول :

* * *

١. أكَّدَنَا أنَّ القرآن الكريم استند في المسائل الاعتقادية قبل كل شيء على (أصل التوحيد) ، وقد ذَكَرَ هذا المفهوم مئات المرات في الآيات القرآنية ، بحيث رسم الخطوط العريضة لأدق المفاهيم التوحيدية إلى أن يقول في صدد الحديث عن ماهية الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. (الشورى / ١١)

وقد بين صفاتِهِ الجلالية والجمالية في مئات الآيات ، ويمكنك في هذا المجال مراجعة المجلد الثالث من هذا الكتاب (نفحات القرآن) ، ولا يقتصر الأمر عند تعريفه بوحدانية الله من كل جهة ، بل يعتبر نبوة الأنبياء دعوة واحدة أيضاً ، بحيث لا يرى وجود اختلاف والتفرقة بينهم ، لذا يقول : ﴿لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُسُلِهِ﴾. (البقرة / ٢٨٥)

وبالرغم من حمل كل واحدٍ منهم مسؤولية خاصة به وفقاً للمتطلبات الزمنية التي يعيش فيها كل نبي ، إلَّا أنَّ حقيقة دعوَّتهم وجواهرها واحدة في كل الموضع. بالإضافة إلى أن مسألة

التوحيد تفرض سيطرتها على مراقب المجتمع الإنساني أيضاً ، وكما قلنا سابقاً : يعتبر أفراد البشر أعضاء لأسرة واحدة ، ويعبر عنهم بالأخوة المولودين من أب واحد وأم واحدة.

٢ . **﴿العدالة الاجتماعية﴾** وتعتبر من أهم تعاليم الأنبياء يقول تعالى : **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا**

رُسُلًاٍ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْذَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولَ الَّذِينَ بِالْقِسْطِ﴾ . (الحديد / ٢٥)

وتعقيباً لهذه الغاية فقد حرّض الله تعالى كافة المؤمنين على هذا الأمر سواء كونهم كباراً أو صغاراً ، شيئاً أو شباباً ، وبغض النظر عن انتسابهم العنصري أو اللغوي ، فيقول : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى النُّفُسِ كُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ**

وَالْأَقْرَبِينَ﴾ . (النساء / ١٣٥)

٣ . وأما على صعيد «الروابط الاجتماعية» والاتفاقيات وكل عهد ومياثق فيدعوه الله الجميع إلى الالتزام بهذا الأصل ، ويقول : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اُفْلُوْبِالْعُقُودِ﴾** . (المائدة / ١)

ويقول أيضاً : **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْوُلَلًا﴾** . (الاسراء / ٣٤)

إنّ امتداد وسعة هذه الآيات شملت حتى المعاهدة والمفاوضة مع غير المسلمين ، وفرضت سيطرتها على العلاقات الاجتماعية والفردية والاتفاقيات الدولية أيضاً.

٤ . وعلى صعيد «الوقوف بوجه الاعتداءات» ، وتفادي الاحباطات ، يقول تعالى في عبارة مختصرة وحقيقة جداً : **﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾** . (البقرة / ١٩٤)

٥ . وعلى صعيد «الدفاع» يقدم اطروحة أصلية ومتينة عامة متّجدة بقوله تعالى :

﴿وَاعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْحَيَلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ﴾ . (الأنفال

٦٠ /

وفي هذا الصدد يوصي «بإعداد القوة وتعزيز القوى بصورة عامة» ، وتجهيز القدرة الحربية لذلك العصر بصورة خاصة «بعنوان أحد المصادر» وذلك من أجل الحد من وقوع الحرب ، والارهاب ، وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء ، وهذا من الأهداف المنطقية الكبرى لتنمية البنية العسكرية.

٦ . وأما من ناحية المناوشات الكلامية والنزاعات التي تقع بين أصحاب المذاهب والرقباء الاجتماعيين فله وصية أخرى يقول فيها : بدلًا من المقابلة بالمثل وإعداد القوى استخدمو أسلوب مقابلة الضد بالضد ، ورددوا القبيح بالحسن كي تُقْتَلَع بذرة النفاق والعداوة من جذورها ، يقول عز من قائل : ﴿أَدْفَعْ بِالْأَتْيَ هَيْ أَخْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكُ وَبَيْنَهُ حَدَادَةٌ كَانَهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْفَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْفَهَا إِلَّا ذُو حَظٌ عَظِيمٌ﴾ . (فصلت / ٣٤) .

(٣٥)

٧ . أما بقصد **المصير الإنساني** يقول بصرامة : إنّ مصير كل شخص بيده ، و موقف على جهده وسعيه : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْتَةٌ﴾ . (المدثر / ٣٨) ﴿وَانْ لَيْسَ لِإِنْسَانٍ إِلَّا مَا سَعَى * وَانْ سَعَيْهُ سَوْفَ يُرَى﴾ . (النجم / ٤٠ - ٣٩)

٨ . وحول « حرية العقيدة» وإنه لا يمكن النفوذ في الحيز الفكري لشخص معين إلا عن طريق الاستدلال وتوضيح معالم الدين يقول تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ﴾ . (البقرة / ٢٥٦) .

وفي مجال « حرية الإنسان» يقول : إنّ أحد الأهداف المهمة لبعثة نبي الإسلام ﷺ هو اطلاق سراح الناس من قيود وسلسل الأسر والعبودية : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ أَصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ . (الأعراف / ١٥٧)

ولهذه الأغلال مفهوم واسع بحيث تشمل كافة أنواع سلب الحرية الإنسانية.

٩ . وفي صدد « عدم التدخل في الأمور الشخصية لآخرين » ، والمحافظة على كرامة الأفراد ، وعدم هتك حرمتهم يقول تعالى : ﴿بِإِيمَانِهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَبَوْا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجْسِسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ . (الحجرات / ١٢)

١٠ . ومن المباديء التي أكد عليها القرآن الكريم هو مبدأ « التعايش السلمي » مع كافة الأفراد المسلمين الذين يعدونهم من أهل التفاهم والحوار في الأهداف المشتركة ، أو على الأقل من الذين اخذوا طريق الحياد والاعتدال ، لذا يقول تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ إِنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ، ثم يعقب على ذلك بقوله : ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ

وَأَخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهِرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوْلُوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٠﴾ . (المتحنة / ٩٠)

* * *

ثانياً : تقوية الروابط الاجتماعية

إن المجتمع البشري هو المصدر الرئيسي لكل تطور وتقدير علمي واجتماعي ويستطيع أن يصل إلى هدفه المطلوب عندما تحكمه روابط وثيقة ومحكمة جدًا ، وفيما عدا ذلك فسوف يتحول إلى جحيم لا يطاق يحمل في طياته مأساة وويلات اجتماعية ، هذا فضلاً عن عدم استثماره لمعطياته ومكتسباته الذاتية ، فمن جانب يؤكد على الوحدة الشمولية للعالم البشري بصفتهم أعضاء لأسرة واحدة ، وإخوة من أب واحد وأم واحدة ، كما جاء ذلك في سورة الحجرات الآية ١٣ وأشارنا إليه سابقًا.

ومن جانب آخر يعتبر المؤمنين أعضاء لكيان واحد بغض النظر عن الاختلافات الموجودة بينهم من الناحية اللغوية والعرقية ، لهذا يقول تعالى : ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ . (آل عمران / ١٩٥)

ويقول في موضع آخر : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُوْلَئِكُمْ بَعْضٍ﴾ . (التوبه /

(٧١)

ولم يكتفي بهذا الأمر فقط ، فبالإضافة إلى العلاقات الإنسانية والإيمانية أوصى وأكده على الروابط الشخصية أيضاً والتي تتحقق في نطاق أضيق وأقرب . ولذا يعتبر نقض هذا العهد والخلف جريمة كبرى ، يقول تعالى في هذا الصدد : ﴿الَّذِينَ يَنْقَضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيَاهِقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ . (البقرة / ٢٧)

ونقرأ في سورة محمد الآية ٢٢ و ٢٣ قوله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ أَنْ تَوَلَّنِي أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْسَمُهُمْ وَاعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ .

وبناءً على ذلك يرى أن قطع هذه العلاقات مقارن للفساد في الأرض ، ومن دواعي فقدان البصيرة والحمدود الباطني .

وتبشق أهمية هذه الروابط في الإسلام من أن كل ما يساهم في تحكيم العلاقات الاجتماعية يعتبر أمراً ضرورياً ، حتى أن الكذب الذي هو من أبشع الذنوب يعد جائزاً لأجل إصلاح ذات البين ، وعلى العكس من ذلك فإن كل ما يساهم في تضييف هذه الارتباطات وتفككها يعتبر أمراً منبوذاً ومرفوضاً تحت أي عنوان وإسم كان .

* * *

ثالثاً : احترام حقوق الإنسان

إن القانون الناجح والممتاز هو القانون الذي يقدم . بالإضافة إلى امتيازاته الأخرى . أطروحة جامعة ودقيقة في مجال حقوق الإنسان ، وبناءً على هذه الحقيقة ، كلما ألقينا نظرة حول الآيات القرآنية التي وردت في هذا المجال تجلّت عظمة هذه القوانين أكثر فأكثر .

فالقرآن حرص كثيراً على مسألة حفظ النفس والمال والنوميس البشرية ، بحيث وصل به الأمر إلى أن يعتبر النفس الإنسانية الواحدة مساوية لنفوس الناس جميعاً ، لنقرأ قوله تعالى : ﴿مَنْ قَاتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَمَا قَاتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ . (المائدة / ٣٢)

ولا نجد لهذا التعبير مثيلاً في أي قانون آخر .

ويذهب القرآن في صدد مسألة حقوق الإنسان إلى أن أصل العدالة يحتل مركز الصدارة على جميع الأمور في إجراء الحقوق ، ويحذر من أن تقضي النزاعات الشخصية أو العلاقات الحميمة إلى عدم إجراء العدالة والعمل بها .

يقول تعالى في محكم كتابه : ﴿وَلَا يَحِرْفُنَّكُمْ شَنَّانُ قَوْمٍ عَلَى إِلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلْتَّحْقِيقِ﴾ . (المائدة / ٨)

وفي مجال آخر يتعرض القرآن الكريم إلى تأثير الصدقة على إجراء العدالة حيث

يوجه هذا الإنذار بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالاَقْرَبَيْنَ أَنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ . (النساء /

(١٣٥)

وتتضمن هذه المسألة أكثر من خلال التأكيدات الكثيرة للقرآن على مسألة رعاية الأيتام والمراقبة الدقيقة لأوضاعهم ، والتعهد بكفالتهم إلى أن يكبروا ويلغوا سن الرشد ، فيقول في هذا الصدد : ﴿أَنْ تَقْوُمُوا لِلِّيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ . (النساء / ١٢٧)

والجدير بالذكر أنَّ القرآن الكريم جعل مسألة الحماية والرعاية للأيتام مرادفة للتوحيد وللمسائل الإنسانية والأخلاقية الأخرى ، فيقول عزَّ من قائل : ﴿... لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ احْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالِيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الرِّزْكَةَ﴾ . (البقرة / ٨٣)

ومن طريف القول : إنَّه تعالى قرر خمسة قوانين إنسانية لها علاقة بحقوق الإنسان في ضمن شعيرتين من أهم الشعائر الإسلامية على صعيد الاعتقاد والعمل ، ألا وهم . التوحيد والصلوة .

* * *

رابعاً : الحرص على تأمين الحرية والأمن

من أهم الأمور التي اهتمت بها القوانين القرآنية هي : حرية العقيدة ، وحرية الإنسان ، واستقرار الأمن على في الأصعدة والمحالات كافة ، وتشير إلى هذا المعنى الآية الكريمة : ﴿لَا أَكْرَاهُ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ . (البقرة / ٢٥٦)

ومن الأهداف المهمة لبعثة الرسول الأكرم ﷺ هي القضاء على الأسر والقيود والاغلال إذ يقول سبحانه : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ أَصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ . (الأعراف / ١٥٧)

وفي موضع آخر يخاطب المؤمنين بقوله : ﴿يَا عَبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ ارْضَى وَاسِعَةٌ فَأَيَّاَيَ فَاعْبُدُونِ﴾ . (العنكبوت / ٥٦)

وينقل القرآن قصة عجيبة عن « أصحاب الاخدود » ، أولئك الذين كانوا يعذبون

المؤمنين

ويلقوهم في حفر النيران لا لشيء إلا لأنهم حملوا اعتقادات راسخة ، لذا يصفهم بالقول : إن هذه الزمرة المتسلطة ما أقدمت على عملها هذا إلا لأجل سلب حرية العقيدة والإيمان ، ثم يبين لهم أشد العقوبات الإلهية النازلة بحقهم لنقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُؤْمِنُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلَّا يَرَوْهُ﴾ . (البُرُوج / ١٠)

وكثيراً ما يُشيد القرآن الكريم بنعمة ﴿الْأَمْن﴾ بحيث يعتبره مقدماً على أي شيء آخر ، ولهذا السبب حينما قدم إبراهيم الخليل عليهما السلام على الأرض القاحلة ، ذات الحرارة المحرقة والخالية من النبات والشجر في مكة ، وبني الكعبة ، فإن أول حاجة طلبها من الله تعالى لساكني هذه الأرض مستقبلاً هي نعمة الأمان كما ورد ذلك في القرآن : ﴿رَبُّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الشَّمَرات﴾ . (البقرة / ١٢٦)

وقد ورد هذا الموضوع في مكان آخر من القرآن وبتعبير آخر ، فيقول تعالى : ﴿رَبُّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْبَنِي وَبَنِي انْ تَعْدَ الْاَسْنَامَ﴾ . (ابراهيم / ٣٥)

ففي الآية الأولى تقدم ذكر الأمان على الأمور الاقتصادية ، وفي الآية الثانية تقدم ذكره أيضاً على مسألة التوحيد ، ولعله إشارة إلى عدم تحقق الضمان الديني والدولي للمجتمع بدون انتشار الواقع الأمني في المحيط القائم ، بالإضافة إلى أن القرآن يصف حالة انعدام الأمان بأنها أسوأ حالاً من القتل وسفك الدماء ، فيقول : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ . (البقرة / ١٩١)

وبالرغم من أن للفتنة معانٍ كثيرة ، (كالشرك ، والتعذيب والتنكيل والفساد) ، ولكن لا يستبعد أن يكون مفهوم الآية شاملًا بحيث يستوعب كل هذه المعانٍ.

وعليه فإن إيجاد حالة من انعدام الأمان والفساد تفوق بمراتب حالة سفك الدماء لأنها بالإضافة إلى كونها مصدراً لسفك الدماء ، هي مصدر للمفاسد الأخرى أيضاً.

وتجدر الإشارة إلى هذه النكتة أيضاً وهي : إنّه قد تقرر في الإسلام نوع خاص من «الْأَمْنِ» لم يسبق له وجود في أي قانون من القوانين الدولية ألا وهو الحفاظ على حيّة الأفراد وكرامتهم ، حتى في دائرة أفكار الآخرين.

وبتعبير أدق : إن الإسلام لا يسمح لأي مسلم أن يحمل في نفسه الظن السيء والتفكير الخاطيء تجاه الآخرين فيعمد إلى خدش كرامة الآخرين وحرمتهم في دائرة التفكير الشخصي ، وقد تجسد هذا المعنى بقوله سبحانه في الآية : **﴿يَا إِيَّاهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجْسِسُوا﴾** . (الحجرات / ١٢)

إن الإسلام يريد أن تسود حالة الامن والاطمئنان التام في المجتمع الإسلامي ، ولا يقتصر الأمر على النزاعات الشخصية بين الآخرين فحسب ، وإنما يشمل المناوشات الكلامية ، وأكثر من ذلك على صعيد الاتجاهات الفكرية بين الأفراد مع بعضهم البعض ، بحيث يشعر كل واحد منهم بأن أحبيه لا يسدد باتجاهه سهام التهمة والافتراء ، وهذه الحالة تمثل أعلى مستويات الأمان ولا تتحقق إلا في ظل وجود المجتمع الإيماني وسيادة القوانين الإسلامية.

والحدير بالذكر إنه قد ورد النهي عن الكثير من الظنون ، ولكن في أثناء بيان العلة يقول : إن بعض الظنون إثم ، ولعل منشأ التفاوت في التعبير عائد إلى أن الظنون السيئة تجاه الآخرين تطابق الواقع أحياناً ، ولا تطابقه أحياناً أخرى ، وبناءً على أن النوع الثاني يعد ذنباً من الذنوب ، فلابد من الابتعاد عن كل الظنون السيئة الواقعة تحت عنوان «كثيراً من الظن» .

النكتة الأخيرة في هذا البحث : هي أن الإسلام انطلاقاً من اهتمامه الكبير بتحقيق الأمن الداخلي في المجتمعات الإسلامية أجاز التوسل بالقوة والقدرة العسكرية لحل الاختلافات والمجابحات الداخلية في حالة فشل الأساليب والطرق السلمية ، ونطالع هذا المعنى في قوله تعالى : **﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَسَلُوا فَاصْلِحُوهُا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ أَحَدُهُمَا عَلَى الْأَخَرِي فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَنْتَهِ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوهُا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَاقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** . (الحجرات / ٩)

إن من يمعن النظر جيداً في تعبير هذه الآية : يجد أن كل مقطع من المقاطع فيها يحكي عن تحديد صورة لمنهج يقضي بإنهاء أي شكل من أشكال الاضطراب والفتنة

الاجتماعية وذلك من خلال استخدام أفضل السبل السلمية ، أو اللجوء إلى القوة في نهاية المطاف إذا لم تثر الأسلوب الأخرى.

ومن البديهي أن المقصودين بالخطاب في هذه الآية هم أفراد المجتمع الإسلامي ، أو بعبارة أخرى الحكومة الإسلامية.

* * *

خامساً : ضمانات تنفيذ القوانين القرآنية

إن وجود القوانين الدولية لا يمثل سوى حبر على ورق ، وغاية ما ت تقوم به من تأثير ذاتي أنها تنقل النصيحة والموعظة لكن بدون الاستناد إلى أي دليل ، وبعبارة أخرى فإن القوانين بحد ذاتها لاتنطوي إلا على بعد ذهني وفكري ، وحتى تكتسب قيمة اجتماعية تحتاج إلى أن تستند إلى قاعدة معينة تلزم أفراد المجتمع باتباعها والانصياع لها ، وهذه القاعدة هي التي يطلقون عليها عنوان «الضامن التنفيذي» أو «الضمانة التنفيذية».

يتضح جيداً من هذه المقدمة أن قيمة القانون وصلاحيته متوقفة على مدى قوّة الضمانات لتنفيذ هذه القوانين وقدرتها ، فمما كانت الضمانة الإجرائية لأحد القوانين أقوى وأدق كانت قيمتها الاجتماعية أعلى وأكثر.

إن الكثير من الضمانات التنفيذية للقوانين تنطوي على آثار سيئة للغاية ، وتخلق مشاكل ومساويء على صعيد المجتمع ؛ وتؤدي أحياناً إلى الاصطدام وانعدام الثقة ، وسوء الظن بين الأفراد ، أو أنها تعكس القانون بشكل صارم ورهيب وهذه بحد ذاتها تعتبر خسارة كبرى.

ولو كانت الضمانة التنفيذية تستند إلى مجموعة من المباني الثقافية والأخلاقية والعاطفية ، لما اشتملت على أيّ من هذه المساويء.

إن العالم المعاصر ومن أجل تطبيق القوانين الوضعية يمر في دوامة قاتلة. وهذه الدوامة ناشئة من عدم وجود ما يضمن تنفيذ هذه القوانين سوى العقوبات

المادية

والتي تشمل العقوبات الجسدية أو الغرامات المادية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى عدم سن القوانين التي تقضي بمعاقبة المجرمين بالإعدام عند ارتكابهم للجرائم والمخايبات الفجيعة والتي يستحق فاعلها ذلك.

إنّ عدم وجود الواقع النفسي والوحدي الذي يضمن تنفيذ القوانين الوضعية ، وكذلك ضعف الضمانات التنفيذية الخارجية ، أدى إلى حصول الكثير من المحالفات القانونية وقد ترتب على ذلك ابتعاد الناس عن الضوابط والمقررات وتحذر حالة عدم المبالاة يوماً بعد يوم ، والدليل على ذلك هو كثرة المؤسسات القضائية والسجون في العالم.

وهذا الوضع هو الذي يمكن أن يطلق عليه عنوان «أزمة الضمانة التنفيذية» ، وله نتائج وعواقب غير محمودة ، الأمر الذي جعل المجتمعات الإنسانية بأسرها تدفع ضرائب ثقيلة ، ويمكن الوقوف على شواهد من هذا القبيل في أرقى الدول الصناعية في العالم. ومن العقبات الأخرى للضمانات التنفيذية في القوانين الدولية المعاصرة ، هو الاقتصار على الأحكام الجزائية وفقدان الجانب الإيجابي في الجزاء أي الاتكاء على العقوبة وترك المكافأة.

إنّ الإنسان يتمتع بقوتين «القوة الجاذبة والدافعة» أو بعبارة أخرى : الميل للحصول على المنافع ودفع المضار ، ولا بدّ من الاستعانة بكلّا الجانبين في إجراء القوانين ، في حين أنّ عالم اليوم يحصر جلّ اهتمامه على دفع المضار وفي دائرة محدودة أيضاً ، والدليل على ذلك واضح ، لأنّ العالم المادي ليس في جعبته شيء ليجعله بعنوان مكافأة تقديرية أجزاء كل من يعمل ببنود القانون.

* * *

وعلى ضوء هذه المقدّمات نعود إلى مسألة «الضمانة التنفيذية للقوانين القرآنية» لنرى اشتغاله على أقوى الضمانات التنفيذية وأجمعها ، وهذا الامتياز ينفرد به دون غيره. وقد أخذت بعين الاعتبار ثلاثة أنواع من الضمانات التنفيذية في القرآن :

- ١ . الضمانة التنفيذية المستمدة من الدولة الإسلامية.
- ٢ . الضمانة التنفيذية المستندة إلى الرقابة العامة.
- ٣ . الضمانة الذاتية الداخلية أو بتعبير آخر ، الضمانة الناشئة من الإيمان والاعتقاد بمباديء الإسلام والقيم الأخلاقية والعاطفية.

ففي المورد الأول تقع على عاتق الدولة الإسلامية مسؤولية الوقوف بصورة حّدية بوجه أي شكل من أشكال المخالفات القانونية ، فالخطوة الأولى التي أقدم عليها نبي الإسلام ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ، وبعد التغلب على المشاكل العالقة ، هي إرساء دعائم الدولة الإسلامية ، وبيان معالم القوانين الإسلامية ، وملائحة أي نوع من أنواع الانحراف والشذوذ باعتباره من الذنوب التي تدخل في دائرة (العقوبة الجزائية).

لقد اعتبر الإسلام القوانين القرآنية حدوداً إلهية ، ووجه العقوبة إلى كل من يتجاوز هذه الحدود.

فمن جهة يُعرّف المخالفين بأنّهم ظالمون يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ . (البقرة / ٢٢٩)

ومن جهة أخرى يؤكد على محاربة الظالمين.

فحينما يذهب القرآن إلى القول : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًاٍ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولُوا النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَاسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ . (الحديد / ٢٥)

فإنّ معناه : إنّ شخص نبي الإسلام ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء وسيدهم هو الذي تقع على كاهله هذه المسؤلية قبل أي شخص آخر.

هذا من جانب ، ومن جانب آخر يدعو كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية إلى المراقبة في اجراء القوانين الإلهية ، ووفقاً لمبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ، يلزم الجميع بأن لا يتهاونوا ويتخاذلوا في الوقوف بوجه الانحراف عن القوانين الربانية.

لذا يقول سبحانه في أحد الموضع : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمُ اولِيَاءُ بَعْضٍ

يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}.
(التوبة / ٧١)

وتتحلى الأهمية القصوى لهاتين الوظيفتين في الآية الكريمة من خلال تقديم ذكرهما على الصلاة والزكاة وإطاعة الله والرسول ، والسر في ذلك يقع في أن أركان الصلاة والزكاة والطاعة لاستقيم أعمدتها من دون هذه الرقابة العامة على إجراء القوانين.

وفي موضع آخر حينما يعمد تعالى إلى طرح الصفات المختصة بالمجاهدين في سبيل الله أولئك الذين اشتروا الجنة من الله تعالى بأموالهم وأنفسهم ، يقول بعد بيان ست صفات من الصفات المتعلقة بمؤلاء المجاهدين : ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالسَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾. (التوبة / ١١٢)

ومما يلفت النظر : إنه نظراً إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له مراحل مختلفة تبدأ من النصيحة والإرشاد والمواعظ الأخوية ، وتشق طريقها حتى تصل إلى مرحلة التشدد والحرز العملي ، بناءً على ذلك فقد قسمها القرآن إلى قسمين ، جعل القسم الأول في متناول الجميع ، أمّا القسم الثاني فقد جعله في متناول جماعة خاصة تمارس أعمالها تحت إشراف الحكومة الإلهية ، ولذا يشير إلى هذا التقسيم بقوله تعالى : ﴿وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أَمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (آل عمران / ١٠٤)

ومن البديهي إنّ الأمة التي تأخذ على عاتقها مسؤولية الرقابة ، على إجراء القوانين ويشاطرها في هذا الشعور بالمسؤولية كافة أفراد المجتمع ، سيكون القانون في أوسعها معززاً مكرماً وصالحاً للتطبيق في الوقت المناسب.

وحينما نخرج من دائرة الرقابة العامة يأتي الكلام عن الرقابة الذاتية ، والروحية والاعتقادية والوجدانية للأفراد على حسن إجراء القوانين وهكذا رقابة تعتبر بحقّ أفضل أنواع الرقابات وذلك لوجود الرادع الذاتي للفرد.

أمّا «الإيمان بالمبأ» أي بالله عَزَّلَ الذي هو حاضر في كل حين وهو أقرب إلى العباد من أنفسهم : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. (ق / ١٦)

وبسنان الذي : ﴿يَعْلَمُ خَاتَمَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ . (غافر / ١٩)
والله الذي جعل الأرض والزمان حتى أعضاء بدن الإنسان رقيباً عليه وشاهدأ
وشهيداً على أفعاله ^(١).

و «الإيمان بمحكمة القيمة الكبرى» بحيث لو كان في صحيفه أعمال الإنسان مقدار
ذرة من عمل الخير أو الشر لا حضرواها أمامه ، ويلقي حسابه وجزاؤه : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ . (الزلزلة / ٨ - ٧)

وليس الأمثلة السابقة هي التي تعكس آثار الإيمان بالmbداً والمعاد فحسب ، بل لدينا
مئات الأمثلة من هذه الآيات في القرآن الكريم يعد الاعتقاد بها من أفضل الضمانات لتنفيذ
القوانين الإلهية.

وكم هو الفرق بين من يرى نفسه مراقباً من قبل القوى الامنية والعسكرية التي لا
تتجاوز أعدادها الواحد بالالف وبما تمتلك من إمكانيات محدودة ونواقص كثيرة عندما تكون
رقيبة على أعمال الآخرين ، ومع ما تراه لازماً من اتخاذ الاستعدادات الكافية من أجل
الدخول في الأماكن الهامة والمنازل العامة ، وما أبعد المدورة بين هذا الشخص وبين من يرى
نفسه في كل الأحوال والأمكنة وبدون استثناء خاضعاً لرقابة الله المستمرة والملائكة ، ويعتقد
أن الموجودات من حوله وحتى أعضاء بدنها ستتحفظ بأعماله وتعلن عنها في حينه.

إن الضمانة التنفيذية لا أثر لوجودها في العالم المادي إطلاقاً ، وهذا السبب لم
تتمكن الضمانات التنفيذية الأخرى بأي شكل من الأشكال أن تقف حاجزاً أمام
المخالفات الأخرى ، في حين تنحسر هذه المخالفات القانونية في ظل الأحوجة الدينية
الواقعية التي يكون هذا الضامن التنفيذي فيها فعالاً ، كما تحقق ذلك في زمن النبي
الأكرم ﷺ ففي ذلك الزمان لم يكن لوجود السجون معنى على الإطلاق ، وقلما كانت
تعقد المحاكم القضائية ، فقد كانت شكاوى الناس تتلخص بمحاجة بعض الأشخاص أحياناً
إلى محضر النبي ﷺ في المسجد ويطرحون دعاواهم ، فيستمعون إلى الأجوبة في المكان
نفسه ويخرجون راضين بالحلول العادلة.

(١) الزلزلة ، ٤ ؛ ويس ، ٦٥ ؛ والنور ، ٢٤ .

وفي الوقت الحاضر أيضاً تصل الجنسيات والانحرافات إلى الحد الأدنى في المجتمعات الدينية خاصةً في المناسبات الدينية (من جملتها مناسبة شهر رمضان المبارك).

* * *

سادساً : إحياء القيم الروحية

بالرغم من أنّ الوجود الإنساني مركب من مادة وروح أو من جسم وروح ، وحياة الإنسان مكونة من جانبين ، جانب مادي وجانب معنوي ، إلّا أنّ جميع القوانين في العالم المادي ناظرة إلى القيم المادية ، فأي عمل لا يتعارض مع المسائل المادية للمجتمع يعتبر جائزاً ومشروعًا في نظرهم ، ويدخل في هذا المضمار تصويب الكثير من القوانين المخزية والتي يبعث ذكرها على الاشتئاز والتقرّز ، والحال أنّ هذا الفصل لا يوجه ضربة إلى الشخصية الإنسانية المرموقة ويحطّها إلى مستوى الحيوان فحسب ، بل يُعرض نفس القيم المادية للخطر أيضاً ، وذلك لعدم إمكانية الفصل عملياً بين هذين الأمرين.

وانطلاقاً من كون القرآن منسجماً مع الخلقة والفطرة الإنسانية فهو يأخذ بالاعتبار كلاً من القيم المادية والمعنوية معاً ، فحينما يتطرق في حديثه إلى اختيار الزوجة يقول :

﴿الرَّأْيِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالرَّأْيُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٍ وَحُرْمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ . (النور / ٣)

ويقول أيضاً : ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالْطَّيِّبُ وَلَوْ اعْجَبْكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولَئِكُ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ . (المائدة / ١٠٠)

من الواضح إنّ ذكر الخبيث والطيب في هذه الآية إما ناظر إلى الطهارة المعنوية وعدمهما ، وإما ناظر على الأقل إلى العموم فيشمل المعنى المادي والمعنوي معاً ، لذا فإنّ كثرة الأوبئة وانتشار الموبقات لا يمكن أن يكون دليلاً على مشروعيتهم وحقانيتهم. وتبلور هذه المسألة أكثر في القوانين والدساتير المرتبطة بالزواج خاصة لأنّه يحدث كثيراً أن يقع كل من الجمال الظاهري والمعنوي على طرف نقيض ، فيقترب جمال الظاهر مع

تلوث الباطن ، وحسن الباطن مع عدم جمال الظاهر. ففي هذه الحالة يرجح القرآن الكريم الكفة الثقيلة لجمال الباطن وجاذبية الروح والأخلاق والإيمان فيقول : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَنَّ وَلَا مَّأْمُونَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ اعْجَبْتُمُّوهُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُو وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ اعْجَبْتُمُّوهُمْ أَوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ . (البقرة / ٢٢١)

ومن المؤسف حقاً هو عدم الاهتمام بالقيم المعنوية في وضع القوانين والمقررات الاجتماعية في عالم اليوم حيث أصبح من العوامل المهمة للكثير من المأسى والويلات ، علاوة على أنّ هؤلاء لا يجدون الطريق إلى هذه القيم في الواقع ، لأنّ الاعتراف بهذه القيم لا يتمّ بدون الاستناد إلى رؤية معنوية للكون تقيم وزناً لها وتحتفظ بقيمتها ، لذا أصبح العالم المادي عاجزاً عن الوصول إليها ، وما يشاهد حالياً في المتون القانونية لعالم اليوم من قبيل حقوق الإنسان مثلاً فهو الآخر عرضة للتفسير المختلفة دائماً ، أو مبرر لتجويه الابتزازات المادية ، وغطاء للتستر على الأهداف اللامشروعة المنافية للأصول المنسجمة مع الإنسانية في كل الحالات.

* * *

سابعاً : الأصول الثابتة والمتغيرة

من المعلوم لدينا أنّ مسلمي العالم يعتقدون من خلال ما استلهموه من القرآن والأحاديث الإسلامية المعتبرة أنّ نبي الإسلام هو خاتم الأنبياء ، وأنّ الدين الإسلامي هو الدين الخالد ، ومع التسليم بهذا الاعتقاد يبرز هذا السؤال وهو : كيف يمكن الحفاظ على بقاء الأحكام والمقررات الثابتة والخالدة مع حدوث التغييرات المستمرة للحياة الاجتماعية للجنس البشري ، وكيف يتم حصول المتطلبات المتغيرة مع وجود قوانين ثابتة؟ إنّ القوانين القرآنية عالجت هذه المشكلة وذلك من خلال تصنيف القرآن لهذه القوانين

إلى صنفين : الصنف الأول منها هي القوانين الكلية التي أصلها ثابت ، ومصداقها موضوعها الخارجي في تغير وتبديل مع مرور الزمن ، والصنف الثاني منها هي القوانين الخاصة والجزئية بالاصطلاح وهي غير قابلة للتغيير.

وتوضيح ذلك : يُؤخذ من خلال ما خاطب به القرآن المؤمنين بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اوْفُوا بِالْعُهُودِ﴾ . (المائدة / ١)

هذه هي إحدى الأصول العامة السائدة على مر العصور والأزمنة ، وإن كان موضوعها ومصداقها في حالة تغير وتبديل ، فمثلاً ظهرت مع مرور الزمن سلسلة من الارتباطات الحقيقة الجديدة والاتفاقيات المستحدثة بين أوساط الناس لم يسبق لها وجود في عصر نزول القرآن ، فعلى سبيل المثال لم يكن يedo للعيان شيء اسمه «التأمين» ، أو أنواع الشركات المختلفة في ذلك الزمن ، والتي تحققت في عصرنا هذا حسب حصول المتطلبات اليومية ، يبدأ أن القانون العام الأنف الذكر قد شمل كل هذه الأمور ، فأي شكل من أشكال الاتفاقيات والمعاملات الجديدة والعقود والمواثيق الدولية ، التي تظهر على مسرح الوجود حسب المتطلبات إلى نهاية العالم وتكون منسجمة مع الاتفاقيات الإسلامية تقع ضمن هذا الشمول ، ونجد قسطاً وافراً من هذه القوانين في الإسلام بصورة عامة والقرآن بصورة خاصة.

ولننظر في قوله عز من قائل : ﴿وَمَا جَعَلْتُ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ . (الحج / ٧٨) بناءً على ذلك إذا تعذر أداء إحدى التكاليف الإسلامية في ظروف خاصة فإنما تخرج من دائرة الوجوب والإلزام تلقائياً ، فيتبدل الوضوء في ظروف قاسية إلى التيمم ، والصلاحة من وقوف إلى الصلاة من جلوس ، والصلاحة من جلوس إلى الصلاة في حالة الاضطجاع ، ويتبدل صوم الأداء إلى صوم القضاء ، ويرتفع الحج في مثل هذه الظروف.

وقد وردت إشارات إلى «قاعدة لا ضرر» في موارد خاصة من آيات قرآنية متعددة تدل على خطر الأمور التي تلحق الضرر والأذى بشكل أو بآخر ، ولذلك تحدد وتضيق دائرة

الأحكام والمقررات التي بينت على شكل حكم عام حينما تصل إلى موارد الضرر والخرج.

يقول القرآن في موضوع النساء المطلقات : ﴿وَلَا تُضَارُوهُنَّ﴾ . (الطلاق / ٦)

ويقول في موضوع آخر : ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا﴾ . (البقرة / ٢٣١)

ويقول في مورد الوصية : ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينٍ خَيْرٍ مُضَارٍ﴾ . (النساء /

(١٢)

ويقول في مورد الشهود وكتاب السنادات : ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ . (البقرة /

٢٨٢) إنَّ هذه القاعدة المطروحة بشكل أكثر تفصيلاً في الروايات الإسلامية تعتبر من القواعد المهمة التي تقوم بتطبيق الأحكام الإسلامية (من خلال التغيرات الطارئة على الموضوعات) ، على الاحتياجات والضروريات الواقعية لكل زمان ، وقد تمَّ شرح ذلك في كتب «القواعد الفقهية» ، وعلى أي حال فإنَّ من الشواهد الأخرى لهذا المدعى هي : «قاعدة العدل والانصاف» ، وقاعدة : «عدم تكليف مالا يطاق» ، وقاعدة : «المقابلة بالمثل» ، في المسائل المتعلقة بالجنيات والقصاص والاضرار المالية ، وكلها لها جذور قرآنية ، وخلاصة الكلام : إنطلاقاً من «خاتمية نبوة النبي ﷺ وفقاً للآية ٤ من سورة الأحزاب» واستمرارية القرآن الكريم ، فإنَّ القوانين القرآنية طرحت من الدقة بمكان بحيث لم تسنح لظروف الزمان وتحولات الظروف والمتطلبات البشرية التي عفا عليها الدهر وعلها غبار الزمن الغابر.

وفي الوقت التي كانت تسد الاحتياجات القانونية لعصر النبي ﷺ الذي هو عصر نزول القرآن كانت ناظرة أيضاً إلى الأزمنة والقرون الآتية ، ومن الأمثلة الراهنة والجلية هو مانلاحظه في الآية المتضمنة لمفهوم (إعداد القوى) وتعبيتها حفاظاً على بيعة الإسلام والمسلمين : ﴿وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ فُؤُلْهُ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ﴾ . (الانفال / ٦٠)

فمن جهة يضع بصماته على المستلزمات الضرورية لذلك العصر ويتحدث عن الخيول

المجرَّبة ، ولكن من جهة أخرى يُنوه إلى أصل عام يتوافق مع ذلك العصر ، ومع كل عصر

حتى قيام الساعة ، وهذا الأصل هو تحية شتى أنواع القوى والقدرات التي تشمل كافة الوسائل القديمة والخالية والمستقبلية .

وأروع ما ورد في هذه الآية هو هذا المعنى : إنّ الغاية من كل هذه الأمور هو إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ليقف ذلك حاجزاً دون وقوع الاعتداء وال الحرب ، لا أن يؤدّي ذلك إلى مزيد من إراقة الدماء .

* * *

٦ . الاعجاز الغيبي للقرآن

إشارة وتبيه :

بالرغم من وجود أصول وجذور للحوادث المستقبلية في الماضي والحاضر إلا أنه لن يستطيع أحد أن يكشف النقاب بدقة عن الحوادث المستقبلية ، وبالرغم من إرادة الإنسان وعزمه المستمر في التعرف والاطلاع على الحوادث المستقبلية ، وبالرغم من المساعي الكثيرة التي بذلها في هذا الطريق ، إلا أنه لم يصل إلى وسيلة ناجحة ترفع الحجب الكثيفة التي حالت بينه وبين المستقبل.

إن الرغبة الشديدة التي يحملها الإنسان للاطلاع على الحوادث المستقبلية هو الذي بعث الحماس والحماسة في سوق الكهان والمنجمين وأصحاب الخرافات ، بل حتى الذين يقرؤون الطالع والفال ، وهؤلاء بدورهم كانوا يستثمرون حالة النهم والولع لدى الناس بالاستفادة من ألاعيبهم وخدعهم الماكرة ، ويسّرونهم بسلسلة من العبارات المبهمة أو الأقاويل المملة التي كان يتمكن كل شخص أن يطبقها على مراده ومقصوده بسهولة ، وكانوا يكسبون المنافع والأرباح من هذا الطريق.

وفي يومنا هذا أيضاً تحصل نبوءات كثيرة في عالم السياسة وغيرها من العوالم الأخرى ترمي الوصول إلى أهداف خاصة غالباً ، وهي جزء لا يتجزأ من المخطط السياسي للدول ، لكن الكثير منها لا يتحقق في الخارج. ويختلف ما هو عليه واقعاً.

والجدير بالذكر إن هذه الأقاويل الخاطئة لا تقف مانعاً أمام التنبؤات المستقبلية في مثل هذا النوع من المسائل أيضاً ، بيد أن الحقيقة التي لا يمكن التعتمد عليها هي لو أن شخصاً

عمد إلى بيان الأمور المستقبلية بدقة وبكل تفاصيلها (لا بصورة طرح المعاني الكلية والبيانات المبهمة والعبارات المتضاربة) فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه مطلع على أسرار الغيب بصورة إجمالية ، وإذا تكرر وقوع هذا التنبؤ وكان متقارناً مع دعوى النبوة أو الإمامة فحينئذ يمكن التعويل عليه بصفته أحد البراهين والأدلة.

من خلال هذه الإشارة نعود مرة أخرى لبحث أمثلة كثيرة من هذا القبيل في القرآن

ال الكريم :

١ . ﴿اَلَّمْ * غُلِبَتِ الرُّوْمُ * فِي ادْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مَنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سَنِينَ لِلَّهِ الْاَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَخُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرٍ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . (الروم / ٦٠ - ٦١)

٢ . ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرَّوْبَأَنَّ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ اَنْ شَاءَ اللَّهُ اَمِنِينَ مُحَلَّقِينَ رُؤْسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَحَاوُفُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَنَحَا قَرِيبًا﴾ .

(الفتح / ٢٧)

٣ . ﴿وَعَدْكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَ اِيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَاخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ احْاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ . (الفتح / ٢٠ - ٢١)

٤ . ﴿اَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعُ مُتَّصِرِّينَ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُرَ﴾ . (القمر / ٤٤) .

(٤٥)

٥ . ﴿وَادْ بِعِدْكُمُ اللَّهُ احْدَى الطَّائِفَتَيْنِ اَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُونَ اَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوَّكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَبِرِيدُ اللَّهِ اَنْ يُحَقَّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحَقَّ الْحَقُّ وَيُبَطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرَهَ الْمُجْرُمُونَ﴾ . (الانفال / ٨ - ٧)

٦ . ﴿اَنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِرَادُكَ اَلِي مَعَادِ﴾ . (القصص / ٨٥)

٧ . ﴿تَبَّتْ يَدَا اِبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا اغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْنَلَى نَارًا ذَاتَ

لَهَبٍ﴾ . (تبت / ٣ - ١)

٨ . ﴿اَنَا اعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحِرْ * اَنْ شَانِئَكَ هُوَ الْاَبْشَرُ﴾ . (الكوثر / ١)

(٣ .

٩ . ﴿لَنْ يَضْرُوكُمُ الْاَذَى وَانْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمُ الادِبَارَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ﴾ . (آل عمران /

(١١١)

١٠ . ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلْلَةُ اِيْنَ مَا تَفَقَّعُوا الْاَ بِعَجْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَجْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ . (آل

عمران / ١١٢)

* * *

١ . الأخبار عن هزيمة الأعداء في أقل من عشر سنين

في الآية الأولى إخبارٌ عن هزيمة الروميين ﴿عَلَيْتِ الرُّومُ﴾ ، ثم يتحدث بعد ذلك عن محل وقوع هذه الحادثة فيقول : ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ ، والمقصود منها أراضي الشام بحد ذاتها أي (المنطقة الواقعة بين بصرى وآدرعات) ، وهي داخلة ضمن دائرة الروم الشرقية ، وكانت تعتبر من المناطق القريبة بالنسبة إلى سكان الجزيرة العربية .

وقد وقعت هذه الحرب بحسب ما ورد عن بعض المؤرخين المعاصرين في عهد «حسرو برويز» وهي حرب طويلة الأمد دارت رحاحها بين الفرس والروم في حدود عام ٦١٧ ميلادي ، حينما قام اثنان من القادة الايرانيين المعروفين ، وهما «شهر براز»^(١) و «شاهين» بمهاجمة أراضي امبراطورية الروم الشرقية ، وتمكنوا من إلحاق هزيمة مرة بجيش الروم ، وكانت منطقة الشامات ومصر وآسيا الوسطى مسرحاً لهذه العمليات ، وقد آلت امبراطورية الروم أثر هذه العمليات إلى السقوط والانقراض بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بها ، وقد استولى الايرانيون على كل ما بسط الروم نفوذهم عليه في منطقة آسيا ومصر ، وقد وقعت هذه الحرب في حدود السنة السابعة لبعثة الرسول الأكرم ﷺ .

(١) اسمه فرخان ، قائد ايراني حارب الروم في زمان خسرو برويز واستولى على مصر سنة ٦١٦ ميلادي ، معجم دهخدا . مادة (براز) .

وفرح أعداء الإسلام والمشركون في مكة بهذه الواقعة وتفاءلوا بها خيراً واستدلوا على حقانية أهل الشرك فقالوا : إنّ الإيرانيين «مجوس» ومشركون و «وثنيون» أمّا الروميون فهم مسيحيون أهل كتاب ، فكما تغلب الإيرانيون على الروميين ، سيكون النصر حليفنا أيضاً نحن المشركين ، وستطوى صحيفة حياة محمد ﷺ وتكون الغلبة لنا ولمعتقداتنا . إنّ هذا النوع من الاستنتاج والتفاؤل وإن لم يستند إلى أي قاعدة منطقية ، إلّا أنّه لم يخل من تأثير إعلامي في أواسط ذلك الحيط ، ولهذا السبب كان تأثيره شديد الوطأة على المسلمين .

ويضيف القرآن تعقيباً على الآية السابقة : اعلموا أنّ هذه الغلبة للفرس لا تدوم زمناً طويلاً ﴿وَهُم مَن بَعْدَ غَلَبَهُمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ أي الروم ، ثم يشير إلى الجزئيات بعد ذلك بقوله : ﴿فِي بَضَعِ سَيِّنَةِ اللَّهِ الْأَمْرُ مَن قَبْلُ وَمَن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يُفْرَخُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

إلّا أنّ هذا الفرج والسرور ليس قائماً على أساس التفاؤل بالخير بالنسبة لغلبة الإسلام على الشرك فحسب ، بل السبب الأساسي لغبطتهم هذه هو حصولهم على المدد الإلهي (بالنصرة على مجموعة من الأعداء في محيطهم الداخلي) ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

ومن أجل ترسیخ هذا المعنى أكثر ، وازالة أي لون من ألوان الشك والتردد ، يقول تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

إنّ هذا التنبؤ العجيب المشتمل على ذكر الجزئيات ، والذي يخبر عن أحد المسائل العسكرية والسياسية المهمة ، كيف يمكن له أن يتحقق بدون الإحاطة بأسرار الغيب؟ فمن جهة يخبر عن أصل وقوع الانتصار للروميين المندرجين الذين وصل بهم الاحتياط والهزيمة إلى حد الانقراض وفقدوا مساحة شاسعة من أرض بلادهم ، ولم يعد هناك أمل بأنّ يستعيدوا قواهم ويثبتوا كيامهم بهذه السهولة ، ومن جهة أخرى يصرح بأنّ هذا الأمر سيتحقق في بضعة أعوام .

ويضيف على ذلك بقوله : إنّ هذا سيقترب بنصر آخر للMuslimين على الكفار ، وفضلاً عن

ذلك كله يؤكد تأكيداً قاطعاً على أنّ هذا الوعد الإلهي حتمي الوقع وانّ الله لن يخلف وعده.

ونرى أنّ هذا الوعد تحقق فعلاً بكل جزئياته ، فقام ملك الروم «هرقل» بإلحاق المزمحة تلو المزمحة بمعسكر «خسرو برويز» في سنة ٦٢٦ م أي بعد ٩ سنوات تقريباً حيث كانت نتائج هذه المزحة لصالح الروميين إلى سنة ٦١٧ م وحققوا النصر الكامل والشامل ، وأصيّب «خسرو برويز» بالفشل الذريع فأزاحه الإيرانيون من على دسّة الحكم وأجلسوا مكانه ابنه «شيرويه».

خلاصة الكلام : إنّ هزمحة الروميين وقعت في سنة ٦١٧ م المافق للسنة السابعة للبعثة النبوية الشريفة ، واستعاد الروميين نصرهم من جديد في سنة ٦٢٦ م حينما ألحقوا هزمحة «بالمجيش السياسي» ، ووصلت هذه المزمحة إلى أوجها في السنة القادمة أي (سنة ٦٢٧ م) ذلك أنّ هرقل زحف إلى «دستجرد» الواقعة على بعد عشرين فرسخاً من «تيسفون» عاصمة إيران وموطن «خسرو برويز» ، واندحر «خسرو برويز» ولاذ بالفرار ، وعزل على أثرها من مقام السلطة مما أدى ذلك إلى قتله ، وبندق أَنَّ الفاصلة بين هذين لم تتجاوز التسع سنوات ، وهو مطابق تماماً لمعنى «بعض سنين» ، لأنّ «البعض» في قاموس اللغة وعلى حد قول الراغب في المفردات : هو بمعنى حصة من العدد عشرة ، فكل ما يقع بين الثلاثة والعشرة يقال له : بعض ، وقال البعض : إنّ البعض يطلق على العدد الذي يكون أكثر من خمسة وأقل من عشرة.

وجاء في معجم مقاييس اللغة أيضاً أنّ «البعض» هو العدد الذي يقع بين الثلاثة والعشرة. ومهما تحدّر الإشارة إليه أنّ هذه النبوءة أصبحت من الأمور المتعارفة والمسلّمة لدى المسلمين حتى كان البعض منهم على استعداد لأنّ يراهن على هذه المسألة مع المشركين في مكة ، وتحقق هذا الرهان بالفعل ، وفي بداية الأمر وقع الرهان على خمس سنوات ، ولما لم يتغير من الأمر شيء جاءوا إلى النبي وأخبروه بحقيقة الأمر ، وما جرى عليهم مع المشركين ، فقال لهم : كان ينبغي عليكم أن تناوروهم على أقل من عشر سنوات ،

وهكذا حصل وتحقق النصر بعد الهزيمة في أقل من عشر سنوات.

ومن النكبات المهمة الأخرى هي اقتران هذا النصر بانتصار المسلمين في «معركة بدر» لأنّ معركة بدر وقعت في السنة الثانية للهجرة ، والمقطع الزمني الفاصل بين السنة السابعة للبعثة والسنة الثانية للهجرة هو تسع سنوات . هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار نفس السنة السابعة أيضاً وبدونها تكون الفاصلة بينهما ثمان سنوات.

من هنا كان انتصار الروميين وانتصار المسلمين متقاربين ، وفي الواقع إنّما فرج المسلمين لأمررين ، الأول : هو الذي حققه أهل الكتاب أي الروميون على المحسسين الذي كان أحد مشاهد انتصار العبودية لله تعالى على الشرك ، في الوقت الذي كانت هزيمة الروم مدعاهة لارتياح مشركي مكة وغضبهم ، والآخر : هو ما حققوه من انتصار كبير على المشركين في معركة بدر.

* * *

٢ . التنبؤ عن نصرين هامين آخرين

تكشف الآية الثانية . في هذا البحث . الستار عن اثنين من الحوادث المهمة الأخرى المرتبطة بمستقبل المسلمين. الحادثة الأولى تكشف عن هذه الحقيقة للMuslimين وهي : إنّكم ستدخلون المسجد الحرام وتقيمون هذه الشعائر الكبرى في منتهى الأمان والأمان في المستقبل القريب بالرغم مما يحمله المشركون من رفض واعتراض على دخول المسلمين إلى المسجد الحرام وأدائهم لمناسك الحج والعمرة ، والآخر تبيّن هذه الحقيقة لهم وهي : إنّ النصر الحقيقي سيكون حليفكم قبل ذلك.

يقول عزّ من قائل : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِيْنَ مُحَلَّقِيْنَ رُوْسَكُمْ وَمُفَقَّرِيْنَ لَا تَخَافُوْنَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوْ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَسْحَاً قَرِيباً﴾.

تُخبر هذه الآية عن أنّ النبي رأى في منامه رؤيا تعبر عن أنّ المسلمين سيدخلون

المسجد الحرام آمنين لأداء مناسك الزيارة لبيت الله.

كان البعض يتصور أن هذه الرؤيا ستتحقق مباشرة في السنة نفسها ، فعندما توجه المسلمون إلى مكة للزيارة واعتراض طريقهم مشركون مكة في الحديبية (وهي القرية التي تقع مسافة ٢٠ كيلومتر عن مكة واشتق اسمها من البئر أو الشجرة الموجودة فيها) مما أدى ذلك إلى التوقيع على اتفاق الصلح المعروف بصلح الحديبية ، عندئذٍ أخذ البعض يراوده الشك والتردد في أن لا تكون لهذه الرؤيا مصداقية ، على مستوى الواقع ، حتى أئمّهم بدأوا يسألون النبي ﷺ في هذا المجال عن السبب وراء عدم تحقق هذه الرؤية الرحمانية؟ فأكّد لهم النبي ﷺ على أنه لم يقل : إن ذلك يتحقق في هذه السنة وإنما قصد وقوعه في المستقبل القريب ، في هذه الأثناء نزلت الآية المذكورة وأول ما أكدت عليه هو صدق هذه الرؤيا ، ثم أشارت بعد ذلك إلى الجزئيات وقالت : إنكم ستدخلون المسجد الحرام قريباً وتؤدون مناسك الحج بكل حرية واطمئنان ، كما أن النصر سيكون حليفكم قبل أداء هذه المناسك ، وتحقق هذه النبوة وفقاً لما ذكرها جميع المؤرخين ، واستطاع جمع غفير من المسلمين أن يؤدون مناسك العمرة في السنة التالية لواقعة «الحديبية» وهي (السنة السابعة للهجرة) ، وسميت هذه المناسك (عمره القضاء) لأنّها في الواقع قضاء للعمرة التي أراد الجميع أن يؤدونها في السنة الماضية.

نخرج من كل ما قيل سابقاً بهذه النتيجة : أنه قد تم الإعلان بقوة وحزم في هذا المقطع من الآيات عن مسألة غير متوقعة الحدوث ، والتي كانت مورداً من موارد مثار الاختلاف ونزاع شديد بين المسلمين والشركين ، كما اشير فيها إلى التفاصيل أيضاً بالإضافة إلى ما حصل من تنبؤ عن اقتران ذلك بنصر آخر لل المسلمين ، وهذا في حد ذاته بيان مضاعف فيما يرتبط بهذا التنبؤ الحام.

هناك بحث ونقاش بين المفسرين حول المقصود «بالفتح القريب» فقد تحقق لل المسلمين على مقربة من هذه الواقعة ، أحدهما هو صلح الحديبية الذي كان من دواعي الانفتاح ، والآخر هو «فتح خير» الذي تحقق في أوائل السنة السابعة للهجرة ، أي بعد واقعة الحديبية

بعدة أشهر ، والظاهر أن «الفتح القريب» هو إشارة إلى الواقعة الثانية كما ذهب إليه الكثير من المحققين على أساس قوله تعالى : ﴿مَغَانَمٌ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .
(الفتح / ١٩)

صحيح أن للغنية مفهوماً واسعاً وشاملاً لكل أنواع الغنية المادية والمعنوية ، ولكن المبادر في مثل هذه الموارد هو معنى الغنائم الظاهرة في الأعم الأغلب ، وممّا نعلمه أنّ الغنائم الظاهرة كانت موجودة في «فتح خير» لا في صلح الحديبية .
إذن ، يمكن الخروج بهذه التبيّنة بوضوح وهي : إنّ مثل هذه التنبؤات الدقيقة ، والصادرة بكل قاطعية وجدية ، وبدون أن يشوبها الاحتمال والتّردد ، لا يمكن أن تتأتى إلا من خلال الارتباط بعالم الغيب .

* * *

٣ . الغنائم الكثيرة في المستقبل

يُخبر القرآن في الآية الثالثة . تعقيباً على قضية «صلح الحديبية» وما تبنّاً به من «عمره القضاء» و «فتح خير» . عن فتوحات أخرى متتالية وحائزه على غنائم وافرة فيقول : ﴿وَعَدْكُمُ اللَّهُ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ .
ثم يضيف إلى ذلك قائلاً : ﴿وَآخَرِي لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ احْاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .

في هذه الآيات ورد الإخبار عن انتصارين على الأعداء مع الحصول على غنائم كثيرة ، أحدهما قصير المدى والآخر بعيد المدى .

تلك الغنائم والفتوحات التي عجز عنها المسلمون بحسب الظاهر قد جعلها الله في اختيارهم وطوع إرادتهم بحوله وقوته الكاملين .
ومنه نقاش واختلاف بالرأي بين المفسرين في تحديد نوعية الغنائم والفتوحات ، فقد

ذهب الكثير منهم إلى أن المقصود من الغنائم التي يحظى بها المسلمين في فترة قصيرة هي «غنائم خير» ، وإن احتمل البعض أنها إشارة إلى «الغنائم المعنوية لصلاح الحديبية» ، إلأن هذا الاحتمال ضعيف كما قلناه سابقاً.

وأيضاً في صدد الغنائم طويلة الامد فقد ذهب الكثير من المفسرين إلى أنها إشارة إلى «غنائم حرب حنين» وقبيلة «هوازن» ^(١) و ^(٢) .

واحتمل البعض أيضاً أنها إشارة إلى الفتوحات الكبيرة القادمة نظير فتح بلاد ايران والروم واليمن ، وبالرغم من أن فتح حنين والحصول على غنائم قبيلة هوازن لم يكن مستبعداً من قبل المسلمين ، إلأن التوصل إلى فتح «ايران والروم» وما شابهها كان بالنسبة إليهم أمراً شاقاً وبعيد المنال ، ولهذا حينما أعطى النبي ﷺ البشارة وفقاً لرواية معروفة بفتح ايران والروم واليمن في حرب الخندق بدأ المنافقون يسخرون من ذلك ، والسبب في ذلك يعود إلى عدم إمكان تتحققه من ناحية الاسباب الظاهرة ، لكن الله تعالى القادر على كل شيء هو الذي جعل الوصول إلى هذه الفتوحات ، والحصول على الغنائم الثمينة قيد الإمكان والتحقق ، فكشف الستار عنها قبل التوصل إليها بستين طويلاً ، وبيتها بشكل تنبؤ صادق في الآيات المتقدمة ، فيا ترى هل يمكن حصول هذه التنبؤات بدون الارتباط بعالم الغيب؟

* * *

٤ . التنبؤ بالهزيمة الساحقة للاعداء

في المقطع الرابع نقف على صورة اخرى للتنبؤ.

نزلت هذه الآيات في مكة عندما كان اعداء الإسلام يسرحون ويرحون في أوج قدرتهم ، في حين كان المسلمون في غاية الضعف وقلة العدد.

(١) اشير إليه في تفاسير مجمع البيان ؛ الكبير للفخر الرازي ؛ وروح المعانى ؛ والميزان.

(٢) إن غنائم حنين كانت عظيمة حتى أن البعض قدرها بـ ٢٤ الف ناقة و ٤٠ الف شاة و مقدادير كثيرة من الفضة (تفسير روح البيان ج ٩ ، ص ٤٢ ؛ متنهى الآمال ج ١ ، ص ٦٥).

وكان الأعداء يفتخرون بقدركم وشوكتهم ويقولون : نحن جماعة قوية ومتحدة وسننتقم من مناونا ونتصر عليهم : ﴿إِنَّمَا يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ﴾ ، إِلَّا أَنَّ الْقُرْآنَ يعقب على ذلك مباشرة بقوله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُوْنَ الدُّبُرُ﴾.

إنّ من المسلم هو عدم إمكان حصول التوقع والحدس بالانتصار السريع لل المسلمين وكسر شوكة أعداء الإسلام في ذلك الزمان ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ تَمَّ فَتْرَةٌ قَصِيرَةٌ مِّنَ الزَّمْنِ حَتَّىٰ هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ وَعَظَمَتْ قَدْرُهُمْ وَشَوْكُهُمْ بِحِيثِ إِنَّهُمْ وَجَهُوا ضَرَبَةً قَوِيَّةً وَمُبَاغِتَةً إِلَىٰ نُحُورِ الْأَعْدَاءِ فِي أَوَّلِ اصطدامٍ مِّنْ نُوْعِهِ مَعَ الْأَعْدَاءِ فِي سَاحَةِ مَعرِكَةِ بَدْرٍ.

والجدير بالذكر أَنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ كَمَا جَاءَ عَنْ أَبْنَى عَبَّاسٍ بِدَأْ بِالدُّعَاءِ فِي خِيمَتِهِ وَمَنْ ضَمَنَ مَا كَانَ يَدْعُو بِهِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : (اللَّهُمَّ أَقْسِمْ عَلَيْكَ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدْتَهُ مَعْنَا) ، ثُمَّ لَمَّا خَرَجَ بِلَامَةِ الْحَرْبِ مِنَ الْخِيمَةِ وَدَخَلَ سَاحَةَ الْقِتَالِ تَلَّا هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُوْنَ الدُّبُرُ﴾ أَيْ أَنَّ الْوَعْدَ الإِلَهِيَّ سَيَتْحَقِقُ هَذَا الْيَوْمِ^(١).

وبطبيعة الحال فقد استمرت هزائم الأعداء ونكوصهم على اعتاقهم مراراً وتكراراً ، ولم تمرّ أَعْوَامٌ حَتَّىٰ اذْعَنَتْ «شَبَهُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ» كَافِيَةً . فَضَلَّاً عَنْ كُفَّارِ مَكَّةَ . بِالْتَّسْلِيمِ وَالْانْقِيَادِ لِلْمُسْلِمِينَ.

ونقل في تفسير القرطبي عن بعض المفسرين : إنّ هذِهِ الْآيَةِ نَزَّلَتْ فِي مِيدَانِ مَعرِكَةِ بَدْرٍ ، فِي حِينَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ وَالْمَشْهُورَ هُوَ نَزُولُ سُورَةِ الْقَمَرِ بِأَجْمَعِهَا فِي مَكَّةَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَنْ شَأْنَ الْأَشْتِبَاهَ رَاجِعٌ إِلَى نَفْسِهِ مَا تَقْدَمَتِ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِأَنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرَرَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سَاحَةِ بَدْرٍ ، فَكَانَتْ إِشَارَةً وَاضْحَىَ إِلَى تَحْقِيقِ الْوَعْدِ الإِلَهِيِّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، لَهُذَا ظَنَ الْبَعْضِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَّلَتْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ فَهَذِهِ هِيَ أَحَدُ التَّنبِيَّاتِ الْقَاطِعَةِ لِلْقُرْآنِ الَّتِي تَحْقَقَتْ عَلَىٰ حِينَ غَرَّةٍ فِي فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ.

* * *

(١) نَقْلٌ هَذِهِ الْحَدِيثِ عَنْ صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ عَنْ أَبْنَى عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ ظَلَالِ الْقُرْآنِ ، جَ ٧ ، صَ ٦٥٧ «مَعَ التَّلْخِيصِ».

٥ . نبوءة أخرى عن الانتصار في معركة بدر

يدور الكلام في الآية الخامسة عن أحد الوعود الصريحة بالنصر الذي منَّه الله على المؤمنين من قبل ، يقول عز من قائل : ﴿وَإِذْ يَعْدُكُمُ اللَّهُ أَحَدًا الطَّائِفَتَيْنِ إِنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقَّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَيُقْطَعَ دَابِرُ الْكَافِرِينَ﴾ .

ثم يضيف على ذلك بقوله : ﴿لِيُحَقَّ الْحَقُّ وَيُبَطِّلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

وتوضيح ذلك أنّ «أبو سفيان» سيد مكة وزعيم المشركين كان في حال عودته من الشام على رأس قافلة كبيرة تحمل معها بضائع تجارية تقدر بخمسين الف دينار كانت تتعلق به وبجماعة من أساطين مكة وأكابرها .

وأصدر رسول الإسلام ﷺ أمراً إلى أصحابه بأن يعدوا أنفسهم للهجوم على القافلة ، وذلك لتحطيم جزء من القدرة الاقتصادية للأعداء عن طريق مصادرة أموالهم لأنّهم لم ينفكوا لحظة واحدة في اظهار العداء للمسلمين وإيجاد العرقليل .

اطلع أصحاب «أبو سفيان» في المدينة على هذه القضية مما حدا بهم إلى اتصال الخبر إلى مسامع أبي سفيان .

فلما علم بذلك أسرع في إرسال أحد الأشخاص إلى مكة ليطلعهم على الخطر الكبير الذي يهدد أموالهم وممتلكاتهم ، ولم تمض إلأفتة قصيرة حتى تحركت رجالات قريش وقواتها مع سبعمائة بعير ومائة فارس ، وكان يقود عسكرهم أبو جهل ، وقد حملت هذه المسألة على محمل كبير من الجد والخطورة بحيث أخذ زعماء مكة يهددون بخدم بيت كل من يستطيع الالتحاق بجبهة الحرب ثم يمتنع عن ذلك .

من جانب آخر سلك أبو سفيان طريقاً آخر لينجو من قبضة المسلمين وأخذ يسير في طريق مجهول لكي يبعد نفسه عن مواطن الخطر .

ووصل «نبي الإسلام» مع أصحابه البالغ عددهم ٣١٣ . مع عدّة وعند حرب بسيط ولكن بقلوب مملوءة بالإيمان والعزّم والإرادة . على مقرية من منطقة بدر أحد المنازل القرية الواقعة بين مكة والمدينة ، وجاءه الخبر هناك بتحرك جيش قريش المسلح من مكة

إلى المدينة ، فبدأ يشاور أصحابه في ذلك المكان وما يرتوونه من ملاحقة القافلة التجارية أو الوقوف بوجه معسكل الأعداء ، فوافق البعض على مواجهة الأعداء لأن البعض الآخر كان يميل باطنياً إلى ملاحقة القافلة والسبب في ذلك يعود إلى أنهم لا يجدون في أنفسهم الاستعداد الكافي لمواجهة القدرة العسكرية الهائلة للأعداء.

لكن النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختار المسلك الصحيح وأصدر أمراً بالتحرك باتجاه العدو ، ووصل الجيش الإسلامي إلى ناحية بدر (وبدر هو اسم لبئر في تلك المنطقة من الأرض نسبة إلى صاحبها الأصلي المسمى بهذا الاسم ، اطلق على جميع هذه الأرض بعد ذلك).

إن الآية السابقة ناظرة إلى هذه الواقعة حيث تقول : إن الله وعدكم أن تكون أحدى الطائفتين (جيش قريش أو قافتلهم التجارية) من نصيكم ، لأنكم أحببتم الحصول على الطائفة غير المسلحة أي القافلة التجارية ، لكن الله يريد اظهار الحق والقضاء على الكافرين. لذا خاطب النبي المسلمين في ذلك الموضع أن الله تعالى قد وعدنا أن تكون أحدى الطائفتين لنا وستتحرك باتجاه جيش الأعداء ، وسننتصر عليهم وأننا سنشاهد بأعيننا مصرع «أبي جهل» ومحل قتله

وتحقق هذا الوعد كما أراده الله ورسوله حيث اشتباك الجيشان مع بعضهما البعض ، وبعد حرب طاحنة وتضحيات جسمية وردت تفاصيلها في محمل التاريخ الإسلامية ، انتصر المسلمون وهزموا مشركي مكة هزيمة مُرّة بحيث خلّفوا وراءهم سبعين قتيلاً ، وسبعين أسيراً ، ولاذ الباقون بالفرار.

وقدت هذه الحرب في اليوم السابع عشر لشهر رمضان المبارك في السنة الثانية للهجرة ، وترك تأثيراً بالغاً جدّاً في مسيرة التاريخ الإسلامي ، بحيث إن مجاهدي بدر كانوا يعدونها دائماً من أمجادهم وتأثيرهم العظيمة.

هنا يطرح هذا التساؤل وهو : هل كان من المتوقع وفقاً للمقاييس الاعتيادية أن يتحقق مثل هذا النصر للمسلمين بشكل أو باخر؟ والجواب عن ذلك ، كلا لأنّه :

أولاً : لم يتحرك المسلمون بنية القتال ومن الطبيعي لم تكن في حوزتهم العدة والعتاد الكافي ، لأنّهم كانوا بهدف الاستيلاء على القافلة فإذا بجم ياغتون بجيش جرار ومسلح من قريش (طبعاً في مقياس ذلك الزمان).

ثانياً : من جهة الموازنة بين القوى فقط كان المسلمون يعيشون في وضع سيء في الظاهر فقد كان عدد أفراد جيش العدو يفوق عدد أفراد المسلمين بثلاثة أضعاف ، وكانت في حوزتهم الخيول والجمال الكثيرة والمستلزمات الحربية الكافية ، في حين كان المسلمون يمتلكون فارسين فقط ، وكانت عدتهم الأساسية تتكون من ٧٠ ناقة يركبها كل واحد منهم بالتناوب.

ثالثاً : كان يوجد هناك أفراد أقوباء وشجعان بين صفوف جيش قريش ، وكان الوازع والدافع النفسي للحرب ناشئاً من احساسهم بأنّهم لا يرون أنّ أموالهم وثروتهم هي المعرضة للخطر فحسب ، بل كل شيء يمتلكونه هو معرض للخطر أيضاً .
لكن بالرغم من ذلك كله فإنّ الله وعد المسلمين بالنصر وفقاً للآية الصریحة التي تقدم ذكرها ، وأكّد النبي على ذلك تأكيداً بالغاً أيضاً .

والجدير بالذكر أنّه قد ظهرت على مدار هذه الحادثة قضايا مختلفة عبرت عن وجود «امدادات غريبة» من جملتها أنّ المسلمين غطوا في نوم هادئ في ليلة وقعة بدر بحيث أعدتهم وعبأت قواهم ليوم المنازلة ، كما هطل المطر من السماء ليغسلوا ويتظهروا مما هم عليه ، ثم لتصبح الأرض الرخوة التي يصعب التحرك عليها صلبة ومتمسكة وصالحة للنزال ، وهذا هو ما أشارت إليه الآيات اللاحقة بالقول : ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ الْعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُظَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُنَهِّبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيُرِيِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُبَشِّرَ بِهِ الْأَقْدَام﴾ . (الأنفال / ١١)

ملخص الكلام أنّه يتضح جيداً من مجموع الآيات المتعلقة بملحمة بدر في القرآن الكريم مدى الاضطراب والتزلزل الروحي لدى بعض المسلمين من تزايد أفراد العدو وقدراته العسكرية وتفوقهم على المسلمين ، لذلك كان من الطبيعي جداً التنبؤ بهزيمة

ال المسلمين ، لكن على الرغم من كل هذه القراءن يقول القرآن : لقد وعد الله المسلمين بالنصر من قبل وانتصروا في نهاية المطاف.

قد يقال : إن هذه الآيات نزلت بعد الانتصار في بدر كما يعبر عنها لحنها وسياقها ، وعليه لا يمكن اعتبارها جزءاً من التنبؤات القرآنية ، لأن الاجابة عن هذا الإشكال تتضمن من خلال الدقة والتأمل في نفس هذه الآيات ، لأن القرآن يقول بصرامة : إن الوعد بالنصر قد جاءكم من قبل ثم تتحقق هذا الوعد بعد ذلك.

* * *

٦ . الوعد بالعودة

في الآية السادسة وهي . الآية ٨٥ من سورة القصص . وعد الله تعالى نبيه بالعودة إلى الحرم الإلهي الآمن ، وقد جاء هذا الوعد في أصعب أيام حياة النبي الأكرم ﷺ ، أي في الوقت الذي أراد أن يكسر طوق حصار الأعداء الحاذدين ويخرج من ضيق خناقهم ويهاجر من مكة إلى المدينة .

وقد قام بهذا العمل واتجه صوب المدينة ولما وصل إلى منطقة الجحفة التي لا تبعد عن مكة إلا قليلاً تذكر موطنه الحرم الإلهي الآمن ، وبدت على ملامح وجهه آثار هذا الشوق الممتنج بالحزن والأسى ، وفي هذا الأثناء نزلت الآية الآنفة الذكر ، وأبلغ على هذا النحو :

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

إن التنبؤ بعودة النبي إلى مكة بصورة صريحة وقاطعة غير وارد في تلك الظروف الحرجة والعصيبة عادة خصوصاً مع اقترانها بنزول القرآن وبأن الله المنزّل للقرآن سيقوم بهذا العمل قطعاً ، لكننا نعلم أن هذا الوعد الإلهي تتحقق في النهاية ، وعاد النبي ﷺ مع جيشه القوي المقتدر إلى مكة منتصراً بعد عدّة سنين ، وانضم الحرم الإلهي الآمن تحت راية الإسلام بدون أي قتل وقتل ، وهذه هي احدى النبوءات الاعجازية للقرآن التي أخبر فيها عن المستقبل بصورة صريحة وقاطعة ، وبدون أي قيد أو شرط ، هذا في الوقت الذي لم

تظهر فيها القرائن والعلامات على تحقق النصر اطلاقاً.

يقول المرحوم الطبرسي في مجمع البيان : «في الآية دلالة على صحة النبوة لأنَّه أخبر به من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقاً للخبر» ^(١).

ويقول الفخر الرازي في تفسيره أيضاً : «قال أهل التحقيق : وهذا أحد ما يدل على نبوته ﷺ لأنَّه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر» ^(٢).

واحتمل البعض في هذا المقام أنَّ المراد من «المعاد» هو معاد يوم القيمة ، وهذا الاحتمال ضعيف كما نقل المحققون القول عن المفسرين ، لأنَّ المعاد لا يختص بنبي الإسلام حتى يوجه الخطاب إليه فقط ، بالإضافة إلى أنَّ كلمة «لرادك» لا تتناسب نوعاً ما مع معاد يوم القيمة ، لأنَّ العودة إلى مكان ما هي فرع الخروج منه.

كما أنَّ الاستناد إلى نزول القرآن في جملة : ﴿أَنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ التي وردت قبله ، وكذلك جملة : ﴿فُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ظَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ التي وردت بعده ، كلاهما قرينة على أنَّ الحديث يدور حول حقانية نبي الإسلام والقرآن ، لا حول مسألة المعاد في يوم القيمة ، فضلاً عن أنَّ هذا التفسير لا يلائم مع شأن نزول الآية أيضاً.

بالإضافة إلى لفظة «المعاد» على مانقله المرحوم الطبرسي عن القمي هو بلد الإنسان ووطنه (معاد الرجل بلد) ، لأنَّه أينما يذهب يعود من حيث ذهب.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ كلمة «المعاد» وردت مرَّة واحدة في القرآن الكريم وذلك في هذا الموضع الذي هو بمعنى مسقط الرأس والموطن.

* * *

٧ . لن ينال الإيمان أبداً

يدور الحديث في الآية السابعة حول أحد المشركين المعروفين وهو «أبو هب» عم

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٧ و ٨ ، ص ٢٦٩ في ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير الكبير ، ج ٢٥ ، ص ٢١ في ذيل الآية مورد البحث.

النبي ، وابن عبد المطلب ، وهو الشخص الوحيد الذي ورد ذكره في القرآن من بين مشركي مكة ، وأكده على أنه من أهل النار وفيه إشارة واضحة إلى أنه لن يؤتى الإيمان أبداً ، يقول عزّ من قائل : ﴿تَبَتْ يَدَا إِبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ .

وبالرغم من أنّ أبا سفيان كان عدواً خطيراً لكنه آمن إيماناً ظاهرياً في نهاية الأمر ، وآمن الكثير من الأفراد الخطرين والمحرمين إيماناً ظاهرياً أمثال «وحشى» قاتل حمزة. إنّ هذا التنبؤ القاطع عن مصير شخص ك (أبو لهب) لم يكن يتّأّى من الطرق العادية ، فهذه النبوة القرآنية لا تتأّى إلّا من طريق الاعجاز.

إنّ الكثير من مشركي مكة آمنوا إيماناً واقعياً ، والبعض آمن إيماناً ظاهرياً ، لكن من الذين لم يؤمنوا لا في الواقع ولا في الظاهر هو : أبو لهب وزوجته «ام جمّيل» شقيقة أبي سفيان ، وقد صرّح القرآن بوضوح أكّما لن يؤمننا أبداً ، وهذه من الأخبار الغيبة للقرآن الكريم.

كيف يتّأّى للقرآن أن يتحدث عن جهنمية شخص ما يمكن له أن يقف إلى جانب المسلمين في نهاية الأمر ، أو يتّظاهر بالاسلام على الأقل إذا لم يكن صادراً من عند الله تعالى.

يدعى أبو لهب «عبد العزى» (وعزى هو اسم لأحد الأصنام الكبيرة للعرب) ، وكنيته : أبو لهب ولعل اختياره لهذه الكنية عائد إلى كونه ذا وجه يطفح بالحمرة والشرر ، ولا ريب في أنّ هذه الآيات نزلت في زمن حياة أبي لهب ، ولذا يقول : ﴿تَبَتْ يَدَا إِبِي لَهَبٍ﴾ ، وما نقله أغلب المفسرين عن شأن النزول يدل كذلك على أنّ هذه المسألة حدثت في حياته ، وذلك حينما أمر النبي بأنّ يدعو عشيرته الاقربين إلى الإسلام ويحذرهم من الكفر والشرك ، في تلك الأثناء صعد النبي إلى قمة جبل من جبال مكة يدعى بـ (جبل صفا) ونادى : ياصيحاً ، (وهذه الجملة لا تستخدم إلا حين المهاجوم المباغت للعدو) فظنّ أهل مكة أنّ هناك هجوماً عدواً على مكة من الخارج ، فلما اجتمعوا عند النبي ﷺ قال لهم : ﴿أَنَّى نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْنِ﴾

عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١﴾ ، احذركم من عبادة الأصنام وادعوكم إلى التوحيد .
فاستشاط أبو هب غضباً وقال : «تباً لك أما جمعتنا إلهاً هدا» فعندئذ نزلت الآيات
الأنفة الذكر ، وقالت : الموت له لأنّه سيكون طعمة لنار جهنم في النهاية ^(١) .

* * *

٨ . إِنّا أَعْطَيْنَاكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ

نطّلع في المقطع الثامن من الآيات وهي «سورة الكوثر» على ثلاث نبوءات هامة ، لأنّه تعالى يقول : ﴿إِنّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحِرْ أَنّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَر﴾ .
ذكر معظم المفسرين شأن نزول هذه الآية ، وهي مقاربة مع بعضها البعض ومن
جملتها ما قاله «البرسوبي» في روح البيان : «وذلك أئمّم (أي المشركون) زعموا حين مات
أولاده القاسم وعبد الله بمكة ، وإبراهيم بالمدينة ، أنّ مُحَمَّداً ﷺ ينقطع ذكره إذا مات
وذلك لفقدان نسله ، فنبّه الله سبحانه إلى : إنّ الذي ينقطع ذكره هو الذي يشنأه ، فأمّا
هو فكما وصفه الله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَك﴾ ، وذلك لأنّه أعطاه نسلاً باقياً على مر
الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت والعالم ممّلئه منهم» ^(٢) .

وقال «الطبرسي» في «مجمع البيان» : «قيل : نزلت السورة في العاصي بن وائل
السهمي وذلك لأنّه رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد فالتقى عند باب بني سهم وتحدثنا
، وناس من صناديد قريش جلوس في المسجد ، فلما دخل العاصي قالوا : مع من كنت
تتحدث؟ قال : مع الأبتر ، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ وهو من
خدّيجة ، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبترًا فسمته قريش عند موت ابنه أبترًا» ^(٣) .
ونقل الفخر الرازي ستة أقوال في شأن نزول هذه الآية بأنّ عدّة أفراد قالوا للنبي

(١) نقل الكثير من المفسرين والمؤرخين شأن النزول هذا مع اختلاف طفيف (تفسير مجمع البيان ؛ القرطبي ؛
المراغي ؛ الكبير ؛ الدر المثور ؛ في ظلال نهج البلاغة ؛ كذلك الكامل لابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٦٠) .

(٢) تفسير روح البيان ، ج ١٠ ، ص ٥٢٥ .

(٣) تفسير مجمع البيان ، ج ٣٠ ، ص ٥٤٩ .

الأكرم ﷺ : إنك «ابترا» ، وهذه السورة ناظرة إلى هؤلاء الأشخاص ^(١). وعلى الرغم من أنه قد ذكر افراداً متعددين ، إلا أن المحتوى والمضمون واحد في جميعها ، وأن جميعهم كانوا يسمون النبي ﷺ «باليابرة» حقداً وعداوة ، وقد رد عليهم القرآن بـأجمعهم ، لأن هذه الأقوال الستة لا تتنافى مع بعضها البعض ، فمن المحتمل أن هذا التعبير صدر من جميعهم ، والرد القرآني ناظر إليهم جميعاً.

وعلى أية حال فإن لفظة «الابترا» في الأصل ، تعني قطع عضو من أعضاء جسم الحيوان ، ومن المتعارف أنها تطلق على قطع الذنب ، ثم اطلقت بعد ذلك على الأشخاص المقطوعي النسل ، وكذلك على الذين ينقطع ذكرهم الحسن ، أو يمحى من الخواطر ، والخطبة «البتراء» أيضاً تقال للخطبة التي لا تبدأ باسم الله (أو أنها لا تشتمل على ذكر الله).

وورد في المقاييس أيضاً أن «البتر» هو القطع ، و «السيف الباتر» هو السيف القاطع ، ويقال لمن لا عقب له : «ابترا». أما «الكوثر» فهي مأخوذة من مادة الكثرة ^(٢) ، وهي نفس هذا المعنى ، ولها هنا في هذا المقام معنى واسع وشامل ، وهو عبارة عن الخير الكبير والبركة الكثيرة ، واحد مصاديقها البارزة هم الأبناء الصالحون والسلالة الطيبة ، وأجلى مصدق لذلك هي بنت نبي الإسلام و «سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين» فاطمة الزهراء عليها السلام.

وذكر المفسرون احتمالات كثيرة لمعنى «الكوثر» بحيث نقل الفخر الرازي خمسة عشر قولًا ، ونقل صاحب تفسير روح المعاني عن بعض المفسرين ستة وعشرين قولًا ، وأشار إليه المرحوم العلامة الطباطبائي في «الميزان» أيضاً ، ومن جملة التفاسير المشهورة له هو نفس «حوض الكوثر» المتعلق بالنبي الأكرم ﷺ والذي يرتوي منه المؤمنون عند دخولهم إلى الجنة ^(٣).

(١) تفسير الكبير ، ج ٣٢ ، ص ١٣٢.

(٢) يقول الآلوسي في تفسير روح المعاني ، ج ٣٠ ، ص ٢٤٥ : الكوثر صيغة مبالغة ، بمعنى الكثرة التي تجاوزت حدًّا معيناً ، وفي لسان العرب ؛ الكوثر هو الكثير من كل شيء.

(٣) تفسير مجمع البيان ، ج ٣٠ ، ص ٥٤٩.

وفسره البعض أيضاً بأنه مقام النبوة ، أو القرآن ، أو نهر في الجنة ، أو الشفاعة. وكما قلنا : إن هذه الكلمة معنى واسعاً وشاملاً لكل هذه المعاني وغيرها ، ولا يمنع من جامعية المفهوم تعدد مصاديق هذا المفهوم ، فليس ثمة تضاد وتناقض بين هذه التفاسير المتعددة.

وعلى أي حال يستكشف من هذه السورة ثلاثة نبوءات هامة :

أولاً : إنه يقول : (أنا أعطيناك الخير الكبير)

إن كلمة «اعطيناك» وإن خرجت بمعنى الفعل الماضي إلا أنها من الممكن أن تكون من قبيل المضارع القطعي المبين بصيغة الفعل الماضي.

وهذا الخير الكبير في الحقيقة يستوعب كل الانتصارات التي حظي بها النبي

عليه السلام ، والتي لم تكن متوقعة حين نزول هذه السورة.

هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار شأن النزول وكلمة «الأبتر» التي اطلقها الأعداء على النبي عليه السلام ، فيكون أحد المصاديق الحالية لهذا الخير الكبير هم «الأبناء» ، والسلالة الحية التي تفرعت من ابنته الوحيدة «فاطمة الزهراء عليه السلام» ، وانتشرت في سائر أنحاء الكورة الأرضية ، وعلى حد قول البعض : إنهم ملأوا العالم في يومنا هذا ، وهذا هو الذي لم يكن متوقعاً في ذلك العصر.

وأشار إلى هذا الموضوع . بصراحة . جماعة من مفسري أهل السنة أيضاً ، من ضمنهم الفخر الرازي ، فالقول الثالث الذي ينقله في تفسير «الكوثر» هم نفس أولاده وأبنائه وهذه السورة إنما نزلت ردأ على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد ، فالمعنى أنه يعطيه الله تعالى نسلاً ييقون على مر الزمان ، فانظركم قتل من أهل البيت ، والعالم ممتليء منهم ، ولم يبق من بني امية في الدنيا أحد يعبأ به ، ثم انظركم من الأكابر من العلماء : كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهما السلام والنفس الزكية وأمثالهم ^(١).

وجاء هذا المعنى في تفسير روح المعاني أيضاً : وقيل : هو أولاده عليه السلام لأن السورة

نزلت ردأ على من عابه عليه السلام وهم والحمد لله كثيرون قد ملأوا البسيطة ^(٢).

(١) تفسير الكبير ، ج ٣٢ ، ص ١٢٤.

(٢) تفسير روح المعاني ، ج ٣٠ ، ص ٢٤٥.

من جهة ثانية يخبر أنّ أعداءه سيكونون «مبتررين» ، وبلا عقب ، وتحققت هذه النبوة أيضاً ، ووصلت حالة التشرذم والتشتت بأعداء الرسول بحيث لم يبق لهم أثر في هذا اليوم.

إنّ «أبو سفيان» وأبناءه وعشيرة بني امية الذين كانوا من الأعداء الشرسين للإسلام قد وقف بعضهم بوجه النبي والبعض الآخر بوجه أبنائه ، كانوا في يوم من الأيام جمّعاً غفيراً ، بحيث تجاوز عدد ذويهم وأبنائهم وأرحامهم عن حد الاحصاء ، لكن لم يبق لهم شيء يذكر في يومنا هذا فكل شيء عنهم انطوى في صفحة النسيان.

يقول الآلوسي في روح المعاني : «الأبتر ، هو الذي لا عقب له ، حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر ، وأما أنت فتبقي ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيمة» .^(١)

إنّ هذه السورة وإن دلّ شأن نزولها وفقاً للرواية المشهورة على أنّ القائل لهذا الكلام هو «ال العاص بن وائل» الذي كان من الأعداء الألداء للنبي ﷺ إلا أنه من البديهي أنّ هذه السورة ليست ناظرة إلى الشخص فقط ، بل إنّ كلمة «شانء» المأحوذة من مادة «شنان» التي هي بمعنى البعض والعداوة ، لها مفهوم واسع وشامل لكل الأعداء ، وهذا التنبؤ صادق في حقهم جميعاً ، لأنّه لم يبق لهم ذكر يؤثر ، ولا أبناء معروفون ولم يكن التكهن بهذا المعنى ممكناً في ذلك اليوم الذي كان النبي ﷺ يعيش في مكة ، وال المسلمين في منتهى القلة.

* * *

٩ و ١٠ . أولئك لن يضروكم بشيء

في الآيتين التاسعة والعشرة من هذا البحث نلاحظ تنبؤات مهمة :

١ . «إنّ أهل الكتاب لن يتمكنوا أن يلحقوا بكم ضرراً ذا بال ويهددوا وجود الإسلام والمسلمين بالخطر لأنّ اضرارهم طفيفة وغير مؤثرة» **﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ أَلَا أَذَى﴾** .
 إنّ الكلمة «أذى» وان شملت على حد قول «الراغب» في «المفردات» كل ما يلحق الضرر بروح الإنسان وجسمه ومتعلقاته لكنه نظراً إلى أنها وردت بصيغة الاستثناء من جملة «لن

(١) تفسير روح المعاني ، ج ٣٠ ، ص ٢٤٧

يضروكم» ، ومجيئها بصيغة النكرة أيضاً ، دل ذلك على أن المقصود منها هي الاضرار الجزئية سواء كانت مبادرة بشكل كلام جارح ، أو بشكل حركات استفزازية سطحية .
ولا تتأتى هذه النبوة المستقبلية الصريحة إلّا من طريق الوحي نظراً إلى القوة العسكرية المائلة التي كان يتمتع بها أهل الكتاب وبالأخص اليهود ، وإلى حالة الضعف التي يعاني منها المسلمون من الناحية الظاهرية .

٢ . ثم يقول تعالى : إن هؤلاء سيكونون نصيبيهم الفشل والاندحار والفرار متى ما قاتلوكم وأثبتوا وجودهم في ميدان النزال : ﴿وَانْ يَقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ .
إن هذا التنبؤ عن أن مصير اليهود وسائر أهل الكتاب هو الفشل والتراجع في كل حرب تقع بينهم وبين أصحاب النبي ﷺ لم يكن بالشيء اليسير ولا يتّأتى هذا التنبؤ من الطرق العادية أيضاً .

٣ . إن هؤلاء اليهود لن يصمدوا بحال من الأحوال ، وأينما وجدوا كثيرون عليهم الذل والهوان إلّا بالارتباط بالله (وإعادة النظر في سلوكهم الخاطيء) ، أو الارتباط بالناس والتبعية لهذا وذاك : ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ إِنَّ مَا ثُقُفُوا أَلَا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَبِحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ .
وتحققت هذه الوعود والبشائر السماوية الثلاثة في عصر النبي كما ذكر التاريخ الإسلامي ، وبالأخص أن اليهود في الحجاز وهم «بني قريظة» ، و «بني النضير» ، و «بني قينقاع» ، و «يهود خيبر» ، و «بني المصطلق» ، قد خسروا الجولة في نهاية الأمر ، وتواروا عن مسرح الحياة بعدما قاموا به من انتهاكات كثيرة ، وتحركات مثيرة ضد الإسلام ، هذا وإن لم يرد التصريح بذكر اليهود في الآيات السابقة ، لكن يستفاد من القرائن الموجودة في هذه الآية والآيات المشابهة لها (كالآية ٦١ من سورة البقرة التي ذكر فيها اسم اليهود صريحاً).
إن هاتين الآيتين ناظرتان إلى اليهود ، وبالأخص بالنسبة لما جاء في الآية الأخيرة من أن هؤلاء إنما يستطيعون أن يمسحوا عن حبّينهم وصمة الذل في صورتين :
الاولى : في صورة «الرجوع إلى الله ، وترك العصيان ، والذنب ، والفساد في الأرض» ، ولا يتم ذلك (إلّا بحبل من الله) .

والثانية : في صورة «إتباع الناس والاتكال على الآخرين» ، (وحبل من الناس). وهذه الآية تشير إلى نفس الظاهرة المشهورة في حياة اليهود إلى يومنا هذا ، وتاريخهم يوضح إما عن حالة الضياع والتشرد والذل ، وإما عن حالة التبعية والانقياد للقوى الأخرى ، وتسخير الذات في خدمة مقاصدهم السيئة ، (وتشاهد الحالة الأولى في العصر الأخير في عهد النازيين والحالة الأخرى في يومنا هذا).

وبالرغم مما ذكره المفسرون من احتمالات متعددة لتفسير «حبل من الله وحبل من الناس» إلا أن ما تقدم ذكره آنفًا هو الأنسب ظاهراً ، ويمكن الأخذ ببعض تفاسير هؤلاء بعنوان مصدق لهذا المفهوم الكلي الذي ذكرناه.

* * *

٧ . الاعجاز القرآني

في عدم وجود التناقض والاختلاف

من الدلائل الأخرى على اعجاز القرآن الكريم ، وكونه نازلاً من قبل الله تعالى ، هو عدم وجود التناقض والاختلاف فيسائر أنحائه ، في حين أنّ الصفة الغالبة على الظروف التي نزل فيها القرآن والمعروث به تدلل على أنه لو لم يكن صادراً من قبل الله لوقع فيه الاختلاف والتناقض ، بل الاختلافات والتناقضات الكثيرة ، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا﴾ . (النساء / ٨٢)

ويمكن الوقوف على النكتة الأساسية لهذه المسألة من خلال تحليل بسيط ، فنقول : إنّ الحالات الروحية لأي إنسان في تغير مطرد . وقانون التكامل يحيط بالإنسان فكراً وروحاً في حالة وجود ظروف طبيعية ، وعدم حصول وضع استثنائي فهو يحدث على مرّ الأيام والشهور والسنين تحولاً مستمراً في السنة البشرية وأفكارهم وأحاديثهم ، وإذا ألقينا نظرة فاحصة على تصانيف أحد الكتاب فسوف لن نجد لها على نسق واحد اطلاقاً ، بل لا بدّ من وجود تفاوت في بداية الكتاب ونهايته ، خاصة إذا ما كان الإنسان واقفاً أمام موجة من الأحداث الكبيرة والساخنة ، الأحداث التي تضع الحجر الأساس لأحد الانقلابات الفكرية والاجتماعية والدينية الشاملة ، فهو مهما سعى وأراد أن يكون كلامه على سياق ونسق واحد ، ومعطوفاً على سابقة لا يقوى على ذلك وخاصة إذا ما كان اميّاً وناشئاً في محيط متختلف جدّاً.

أئمّا القرآن فقد نزل على حسب الاحتياجات والمتطلبات التربوية للمجتمع في ظروف وملابسات مختلفة تماماً طبلاً ٢٣ عاماً ، فهو الكتاب الذي تحدث عن مواضيع متنوعة ، وهو ليس كسائر الكتب التي تواكب أحد البحوث الاجتماعية أو السياسية أو الفلسفية أو الحقيقة أو التاريخية فحسب ، بل أحياناً يتحدث عن التوحيد وأسرار الخلقة ، وأحياناً عن الأحكام والقوانين ، والآداب والسنن ، وتارة يتحدث عن الأمم السابقة وقصصهم المشيرة ، وتارة أخرى عن الموعظ والنصائح ، والعبادات ، والعلاقة القائمة بين الله تعالى وعباده ، وعلى ضوء قول الدكتور «غوستاولبون» : إنَّ الكتاب السماوي لل المسلمين . وهو القرآن . لا يقتصر على التعاليم والدستير الدينية فحسب ، بل تدرج فيه الدستير الاجتماعية والسياسية لل المسلمين أيضاً .

إنَّ مثل هذا الكتاب المشتمل على هذه الخصوصيات لا يمكن أن يخلو من التضاد والتناقض واختلاف الأقوال الكثيرة عادة ، لكن عندما نرى الانسجام القائم بين آياته كلها ، وخلوها من كل ألوان التضاد والاختلاف والتهافت يمكننا حينئذ الحدس بأنَّ هذا الكتاب ليس وليد أفكار الناس ، بل هو صادر من قبل الباري تعالى ، كما بين القرآن نفسه هذه الحقيقة في الآية السابقة .

وبعبارة أخرى . إنَّ كافة الموجودات المادية . ومن ضمنها الإنسان الذي له صبغة مادية بأحد اللحظات . في تغيير وتحول دائم ومطرد وتنقل هذا التغيير إلى الموجودات الدائرة حوله ، إنَّ قابلية التأثير والتأثير جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان ، وطبيعة أي موجود مادي آخر ، ولهذا السبب تتبدل أفكار الإنسان وأراؤه مع تقدم الزمن ، علامة على أنَّ ازدياد تجاذب الإنسان ورقي مستوى إبداعه في المسائل المختلفة يساعده في تصعيد هذا التغيير ، وهذه هي التي تؤدي حتماً إلى التغيير والتضاد والإنسجام في المذكرات التي تعود إلى سنين متتمادية لأحد الأشخاص فيما لو جمعت ونسقت بعد ذلك ، والله القادر المتعال وحده هو الذي يكون بمعزل عن هذه التغييرات وقابلية التأثير والتأثير ، فليس في كلماته تضاد أبداً وهذه هي إحدى الطرق في معرفة كلام الحق وتمييزه عن كلام غيره ، حتى أنَّ البعض من

المفسرين صرحو بأنّه لا يقتصر الأمر على عدم وجود التضاد في القرآن فحسب ، بل يتعداه إلى عدم وجود التفاوت والاختلاف في درجة فصاحته وبلاعته أيضاً ، ومن الصحيح القول بأنّنا نجد بعض الآيات القرآنية أبلغ من بعضها الآخر ، وعلى حد قول الشاعر : متى كانت «تبت يدا» بمنزلة «يأرض ابليعي» ولكن هذا يتّأتي عند اختلاف المقامات أي أنّ كل واحدة منها تعتبر من أفضل التعبير وانسّبها في مقامها الخاص بها ، ومن هذه الجهة لا يوجد تفاوت واختلاف.

سؤال :

وهناك سؤال لابدّ من طرحه وهو : إذا لم يكن هناك تضاد واختلاف في القرآن الكريم فما هو السبب من وجود آيات ناسخة وآيات منسوبة؟

الجواب :

سبق وأن قلنا في بحث الناسخ والمنسوخ في القرآن : إنّ الآيات المنسوخة تشتمل على قرائن تدل على أنّ أمدّها المضموني قصير وسينتهي في يوم من الأيام ، بمعنى وجود دواعي النسخ في مضمونها ، وبناء على هذه النكتة فليست لا تضاد فيها فحسب ، بل . علاوة على ذلك . يوجد فيها نوع من التناسب والتتوافق بينها.

وعلى سبيل المثال لو أردنا أن نعد ببرنامجاً دراسياً لمقاطع زمنية مختلفة حتى نساعد الأفراد الدارسين في دائرة التعليم والتربية على تخطي المراحل المختلفة ، والوصول بهم إلى المرحلة النهائية ، فإنّ التغيرات الطارئة على البرامج في فترات مختلفة لا تعد بعنوان تضاد وتناقض وذلك لوجود قرائن في متن هذه البرامج ، بل على العكس هناك نوع من التوافق والانسجام بينها.

وممّا قلناه آنفًا اتّضح الجواب عن سؤال مشابه أيضًا يطرح في مورد آيات «العام والخاص» أو «المطلق والمقيّد» ذلك أنّ الجمع بين العام والخاص عن طريق التخصيص ،

وكذلك الجمع بين المطلق والمقييد هو جمع عربي متعارف ، ولا يعد تناقضًا بأي شكل من الأشكال.

فمثلاً لو أعلنت الحكومة عن موافقتها على حرية التصدير بشكل مطلق ، ثم قررت وضع استثناءات معينة بعد ذلك ، فإن وجود هذه الاستثناءات ليس دليلاً على التضاد ، وبالأخص إذا ما تجسس هذا العمل على شكل سُنة وخطّة معينة بحيث يقال له : حكم عام ، ثم يقومون بتقييده وتخصيصه بعد ذلك ، علاوة على أنه لا يوجد حكم بدون استثناء عادة.

إلى هنا نصل إلى نهاية البحث في الاعجاز القرآني والصور المختلفة للاعجاز.

* * *

خرق العادات والنوميس الطبيعية

مما لا شك فيه أنّ النبي الإسلام معجزات أخرى كثيرة غير القرآن الكريم ، وقد أجمع المسلمون في العالم كافة على هذه المسألة ودللت عليها روايات متواترة أيضاً ، وكما أنّ القرآن الكريم أشار إليها مراراً وتكراراً ، فذكرها تارة بشكل مجمل ومقتضب ، وتارة بشكل مفصل من خلال الإشارة والتنويه إلى المعجزات الخاصة .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو المقطع الأول من الآية التالية :

١ . ﴿وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

﴿مُّبِينٌ﴾ . (الصفات / ١٣ . ١٥)

التعبير بـ (رأوا آية) يدل بوضوح على أنّهم لو شاهدوا معجزة أو معاجز للنبي ، فبدلاً من أن يؤمنوا بها صدرت منهم ردود فعل ومارسات سلبية ، من بينها ، أولاً : إنّهم أخذوا يتولّون بمنطق الاستهزاء والسخرية ، ثانياً : إنّهم اعتبروا ذلك «سحراً مبيناً» .

ومن المسلم أنّ الآيات القرآنية سمعية وليس بصريّة ، وعليه لا يمكن أن تكون لفظة «الآية» هنا ناظرة إلى الآيات القرآنية ، بالإضافة إلى ذلك فإنّ التعبير بـ «السحر المبين» يتناسب تماماً مع المعجزات وخوارق العادات ، الواقع أنّ اتهامهم النبي الإسلام بالسحر ، وترويجهم لهذه المسألة بشكل واسع يدل على أنّهم رأوا منه خوارق عادات ومعجزات ، وفضلاً عن ذلك كله كيف يتأنّى للنبي الأكرم ﷺ أن ينقل في كتابه السماوي المعاجز الحسية للأنبياء السابقين كمعجزة «اليد البيضاء» ، و «عصا موسى» ، والمعجزات التسعة الصادرة منه (النمل / ١٢) ، أو المعجزات المتعددة للسيد المسيح ، نظير «إحياء الأموات»

«وشفاء المكفوفين الذين فقدوا بصرهم منذ الولادة» ، و «المرضى الذين يستحيل علاجهم» وما شابه ذلك ، وكذلك المعاجز التي جاء بها الأنبياء العظام إبراهيم ، صالح ، يوسف ، سليمان ، وداود ، والتي ورد ذكرها جمِيعاً في القرآن . ثم لا يأتي بنفسه بمعجزة حسية؟! كيف يمكن له أن يقنع الناس بأنَّ جميع الأنبياء كانوا يمتلكون معاجز حسية وهو لا يمتلك شيئاً منها في حين أنَّ نبوته أفضل النبوات ، ودينه أفضل الأديان؟ إنَّ كل هذه القرائن . مضافاً إلى الآية السابقة . تدل على أنَّه كانت له ﷺ معجزات أخرى .

* * *

بالإضافة إلى الآية السابقة فهناك آيات كثيرة أخرى بصدق بيان مسألة معاجز نبي الإسلام ، وقد وردت عن أئمة الدين روايات في تفسيرها وذكر سبب وتاريخ نزولها ، إنَّ معاجز نبي الإسلام لا تعد ولا تحصى ، فعلى سبيل المثال لا الحصر نلاحظ نماذج منها :

١ . نطالع في قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِي أَسْرَى بِعِنْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِتُرِيهِ مِنْ آيَاتِنَا أَنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . (الاسراء / ١) لا شك أنَّ الذهاب من «المسجد الحرام» إلى «المسجد الأقصى» ، وأكثر من ذلك الصعود إلى السموات ، خاصة في الظروف الموضوعية لذلك الزمان ، كان أمراً خارقاً للعادة ، يبدأ أنَّه ما لم يشاهد الناس هذا المشهد لا يمكن أن تكون له صبغة إعجازية ولا يمكن أن يقع في طريق إثبات دعوى النبي ﷺ ، إلا أنَّ الروايات الإسلامية تدل على أنَّ الناس اطلعوا على هذه القضية عن طريق الأخبار التي ألقاها النبي على القافلة أو القوافل التي كانت تشق طريقها بين مكة والشام ^(١) .

٢ . جاء في ذيل قوله تعالى : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ . (الحجر / ٩٥)

(١) جاء في إثبات المحدثة ، ج ١ ، ص ٢٤٧ ، عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ النبي ﷺ أخبر عن رؤية قافلة أبي سفيان ومرورها بغير قبيلة فلان بحثاً عن ناقة لهم ذات وبر أحمر ، كما وصف سوق الشام الذي لم يره قط (تفسير مجمع البيان ج ١ ، ص ٣٩٥ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٣ - ٤٤) .

أنّ ستة مجموعات (أو أقل) كانت كل واحدة منها تعامل مع النبي الإسلام بنوع من أنواع الاستهزاء ، وكلما انبرى إلى دعوة الناس كانوا يسعون من خلال أحاديثهم إلى تفريق الناس من حوله ، غير أنّ الله تعالى ابتنى كل واحد منهم بباء معين ، ووصل الأمر بهم إلى أن ينشغلوا بأنفسهم كثيراً بحيث نسوا النبي الأعظم ﷺ .^(١)

٣ . يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا نِعْمَتُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ﴾ . (المائدة / ١١)

ورد في بعض الروايات أنّ هذه إشارة مستبطة ناظرة إلى المؤامرة التي دبرها «يهود بني النضير» لاغتيال النبي الإسلام ، وذلك حينما توجه النبي إليهم مع جمع من أصحابه ليتباحثوا حول الاتفاقية التي كانت معقودة بينهم بالنسبة إلى دية المقتولين ، فقالوا : لا مانع من ذلك ، اجلسوا وتناولوا الطعام حتى يتحقق مرادكم ، وفي تلك الحالة كان في نيتهم أن يقوموا بحملة مباغة ويقضوا على النبي وأصحابه ، فأطلع الله تعالى النبي على ذلك وأخبر النبي بذلك أصحابه فعادوا بسرعة ، «وَكَانَتْ هَذِهِ أَحَدُ مَعْجَزَاتِ النَّبِيِّ»^(٢) .

٤ . تعقيباً على قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ . (الاسراء / ٤٥)

ورد أنّ بعض الأعداء كانوا ينونون القضاء على حياة النبي الأكرم ﷺ في حالة انشغاله بتلاوة القرآن ، فأسدل الله تعالى حجاباً على أبصارهم يحول بينهم وبين رؤية نبيه . وورد في الحديث الذي نقله المرحوم الطبرسي في الاحتجاج عن علي عليه السلام : إنّ الله تعالى أسدل خمسة حجب على انتظارهم للحيلولة بينهم وبين رؤية محمد ﷺ ، وقد اشير إلى هذه الحجب الخمسة في القرآن الكريم.

في أحد المواقع من سورة يس يقول : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ ، فهذا هو الحجاب الأول ثم يعقب بقوله : ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ . (يس / ٩) وهذا هو الحجاب الثاني.

(١) نقل الطبرسي في تفسير مجمع البيان ، ج ٦٠٥ ، ص ٣٤٦ ، وكذلك العلامة الجلسي في بحار الأنوار ، ج ١٨ ، ص ٤٨ ، وابن هشام في السيرة ج ٢ ، ص ٥٠ ، وبقية المفسرين والمؤرخين شرعاً وافياً لهذه الواقعة.

(٢) تفسير مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

ثم يقول بعدها : ﴿فَاغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وهذا هو الحجاب الثالث.
ثم إنّه يقول : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

وهذا هو الحجاب الرابع.

وقال تعالى بعد ذلك : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَمُونَ﴾^(١). (يس / ٨)

ولذا لا يرون شيئاً ، وهذا هو الحجاب الخامس.

إنّ هذه الحجب سواء كان لها صبغة مادية أو معنوية ، فهي وقفت حاجزاً أمام المؤامرات المختلفة المدببة ضد النبي الأكرم ﷺ ، وهذه بحد ذاتها تمثل إحدى المعاجز النبوية الشريفة.

٥ . نطالع في قوله تعالى : ﴿فَسَيَكُنُّ كُفَّارًا هُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. (البقرة / ١٣٧)
إنّ الأشخاص المحيطين علماً بالتاريخ الإسلامي هم القادرون على الاطلاع على عمق مفهوم هذه الآية التي يُستشف من ظاهرها أنّ الأعراب المعاندين والمعصبين الجاهليين وخاصة الأشراف من مشركي مكة الذين تعرضت منافعهم اللامشروعة للخطر مع ظهور الإسلام ، لم يدخلوا جهداً في القضاء على الإسلام والنبي الأكرم ﷺ .

في الوقت ذاته تعطي الآية التي نحن بصددها وعداً صريحاً بأنّ الله تعالى سوف يدفع شرورهم ، ويسقّه أحلامهم ، ويفشل مؤامراتهم ، وهذه من إحدى النبوءات الاعجازية.

٦ . وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى اعجاز آخر حدث في حرب الأحزاب ، يقول عز من قائل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اذْ جَاءَتُكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرُوهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. (الأحزاب / ٩)

إنّ الذين يطالعون قصة «حرب الأحزاب» في القرآن الكريم ، والروايات والتاريخ ، يجزمون على وجود بون شاسع بين المسلمين واعدائهم ، فقد فرض الأعداء حصاراً شديداً على المدينة بحيث أصبح سقوطها حتمياً بحسب الظاهر ، ووصلت الحالة بال المسلمين إلى

(١) تفسير البرهان ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ ، ح ٢.

أن يُعِرِّ القرآن عنهم بقوله : ﴿وَإِذْ رَأَغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرَ ... وَزُلْلُوا زِلَّالُ شَدِيدًا﴾ . (الاحزاب / ١٠ - ١١)

في خضم هذه الظروف هبَّت . على حين غرة . نسمة الرحمة الإلهية ، وانقلب الأمور رأساً على عقب وتابعت فيوضات المدد الإلهي على المسلمين وقذف الله في قلوب المشركين الرعب والفزع الشديد فتراجعوا خائبين بدون أن يتحققوا عملاً معيناً وعادوا إلى مكة.

وفي الواقع أنَّ جميع الأخبار الغيبية في القرآن التي بحثناها مفصلاً في الفصل السابق ، يمكن الاستناد إليها في هذا البحث أيضاً ، وذلك لأنَّ كل واحد منها يعتبر معجزة من معاجز نبي الإسلام ودليلًا على صدق قوله وادعائه . طالعوا مرة أخرى كل ما ذكرناه في الفصول العشرة من بحث المعاجز القرآني من ناحية الأخبار الغيبية ، إذ كل واحد من تلك الفصول يعتبر شاهداً على البحوث التي بين أيدينا في هذا الفصل .

* * *

وأما الموارد الخاصة التي حددتها القرآن الكريم ، ففي مقدمتها قصة شق القمر التي جاء ذكرها في قوله تعالى : ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَانْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا اهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ امْرٍ مُسْتَقْرٌ﴾ . (القمر / ٣٠ - ٣١)

الكلام يقع في أنَّ المقصود من شق القمر هل هو بعنوان معجزة من المعاجز الواقعة في هذا العالم ، أو أنه إشارة إلى انشقاق القمر في المستقبل أو في نهاية العالم بصفته واحدة من العلامات على بداية الآخرة ، فالمشهور بين المسلمين هو الاحتمال الأول على حد قول الفخر الرازى الذى يقول : «وللمفسرون بأسرهم على أنَّ المراد أنَّ القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ، ودللت الأخبار على حديث الانشقاق ، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة» ^(١) .

وينقل المرحوم «الطبرسي» أيضاً حديث انشقاق القمر عن جمَعَ كَبِيرٍ من صحابة

النبي

(١) تفسير الكبير ، ج ٢٩ ، ص ٢٨ .

الأكرم ﷺ ، وجماعة من المفسرين و يعد المخالفين لهذه المسألة ثلاثة أشخاص فقط ، هم : (عثمان بن عطاء ، عن أبيه وكذلك الحسن والبلخي) ، ثم يقول بعد ذلك : «و هذا لا يصح لأن المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من خالف فيه ولأن اشتهره بين الصحابة يمنع من القول بخلافه»^(١).

وذكر جماعة من المفسرين عبارات متشابهة لما نقلناه عن «الطبرسي» و «الرازي».

علاوة على ذلك فإنه توجد قرائن واضحة على هذا المعنى في نفس هذه الآيات من جملتها :

١ . جملة «وانشق القمر» المذكورة بصيغة الفعل الماضي التي تدل على وقوع مثل هذا الأمر ، وأما كون الفعل الماضي بمعنى المضارع فإنه وإن ورد ذكره في موارد معينة من القرآن الكريم ، لكن نظراً لكونه استعمالاً مجازياً فهو بحاجة إلى القرينة ، ولا توجد قرينة في هذا المقام.

٢ . إن أفضل شاهد على هذا المعنى هي الآية الثانية التي تقول : ﴿وَانْ يَرَوَا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌ﴾ ، لأن مشاهدة «الآية» و «الإعراض» عنها ، ونسبة السحر إلى النبي كلها تدل في الظاهر على وجود معجزة.

٣ . تخبر جملة : ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ في الآية الثالثة عن تكذيب هؤلاء النبي الإسلام ﷺ حتى بعد مشاهدة المعجزة ، ولو لم يكن إعجازاً في البين لما كان لهذه التعبير أساس من الصحة بأي شكل من الأشكال.

٤ . بالإضافة إلى ذلك فقد نقلت روايات كثيرة في مصادر الحديث الإسلامي أخبار عن حدوث هذا الإعجاز وقد وصلت إلى حد الشهرة والتواتر ، وقد أقر جمّع من المفسرين مسألة تواتر الأخبار الواردة في شق القمر ، من جملتهم : الطبرسي ، والفارخر الرازي ، وسيّد قطب ، والبروسوي في روح البيان فلا يمكن الإعراض عن هذه الآيات والروايات بالاستناد إلى بعض المواجس والفرضيات البعيدة على الاطلاق.

وما يمكن ذكره بعنوان قرينة على وقوع هذه الحادثة في المستقبل هو اقتران قرب

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٩ و ١٠ ، ص ١٨٦.

وقوع يوم القيمة إلى جانب شق القمر حينما في قوله تعالى : ﴿فَتَرَبَّتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

إلا أنّ الذي ذهب إليه جماعة من المفسرين هو أنّ اقتراب يوم القيمة تحقق مع ظهور نبي الإسلام ، لأنّنا نقرأ في المؤثر عنه : «بعثت أنا والساعة لهاتين» وقد أشار إلى اصبعين متوازيين من أصابعه المباركة ^(١).

ولذا نقرأ في قوله تعالى : ﴿فَتَرَبَّ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعَرْضُونَ﴾.

(الأنبياء / ١)

ونقرأ في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

(الأحزاب / ٦٣)

وذلك حينما سألوا النبي ﷺ عن موعد حصول يوم القيمة . ووفقاً لما ورد في الروايات المشهورة فإنّ المشركين جاؤوا إلى رسول الله وقالوا : «إذا كنت صادقاً في قولك وإنّك نبي حقاً فاشطر القمر لنا شطرين» ^(٢).

ولم يمض شيء من الوقت حتى اتصل أحد شقّي القمر بالآخر وعاد إلى حالته الأولى . وقد نقل الصحابي المشهور حذيفة قصة انشقاق القمر بحضور جمع من الناس في مسجد المدائن ، فلم يعترض عليه أحد مع أئمّهم أدركوا عصر النبي ، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على قطعية هذه المسألة في أواسطهم ^(٣).

* * *

إشكالات حول مسألة شق القمر

في قبال الآيات السابقة ، والروايات الإسلامية المشهورة التي وردت في جميع كتب الحديث المعروفة ، وتفسير أهل السنة والشيعة ، يميل البعض من خلال الاستناد إلى مجموعة من الإشكالات إلى رفع اليد عن ظهور هذه الآيات ، وربطها بالحوادث المختصة ببدايات يوم القيمة وبالاصطلاح «أشراط الساعة».

(١) تفسير الكبير ، ج ٢٩ ، ص ٢٩ ؛ وتفسير مجمع البيان ذيل آية ١٨ من سورة محمد.

(٢) تفسير مجمع البيان وكتب التفسير الأخرى في ذيل الآية مورد البحث.

(٣) نقل السيوطي هذا الحديث في تفسير در المنشور ، وتفسير القرطبي في ذيل الآية مورد البحث.

١. إشكال من زاوية تاريخية

من جملة الإشكالات التي يوردها بعض البسطاء والسدج على مسألة «انشقاق القمر» هو أن هذا الأمر ينبغي أن يدون مع ماله من أهمية كبرى في تواريخ العالم ، والحال أن الأمر ليس كذلك فلا نشاهد أثراً له يذكر في التواريخ.

ومن الواضح إن هذا الاعتراض غير وارد ، حيث يلزم ومن خلال دراسة وتحليل جميع جوانب هذه المسألة تبيين مايلي :

أ) ينبغي الالتفات إلى أن القمر قابل للرؤية دائمًا في نصف الكرة الأرضية لا في جميعها ، ولهذا فإن نصف الناس مستثنون من هذه القاعدة.

ب) إن الأكثريّة الساحقة في هذا النصف من الكرة نائمون أيضًا بعد منتصف الليل ، وعليه فإن الذي يحيط علما بمثل هذه الحادثة هم ربع الناس في العالم فقط.

ج) لا يبعد في الحال القابل للرؤية أيضًا أن تكون مساحات شاسعة من السماء ملبدة بالغيم ، ويكون وجه القمر محجوباً عن الرؤية.

د) إن الحوادث السماوية إنما تسترعي انتباه الأشخاص في صورة كونها كالصواعق المصحوبة بالصخب الشديد ، أو كالخسوف والكسوف الكلي المستلزم لانقطاع النور بصورة تامة ولمدة طويلة نوعاً ما أيضًا.

ولهذا السبب قلما يطلع أحد على الخسوفات الجزئية ، والكسوفات البسيطة إذا لم تكن مسبوقة بالاعلان من قبل الفلكيين ، حتى أن الكثير من الناس تخفي عليهم حالة الكسوف التامة أيضًا في بعض الأحيان.

إن العلماء الذين يتصدون القمر والأجرام السماوية ، أو الأشخاص الذين تقع أعينهم على السماء صدفة ، هم فقط يمكّنهم أن يطلعوا على مثل هذه الحادثة ويخبروا عنها من لم يرها من الناس.

ولذا فإن مثل هذه الحادثة القصيرة الأمد لا تسترعي انتباه جميع الناس في العالم ، لا سيما أن مجتمع ذلك العصر لم يجد الاهتمام المطلوب بالأجرام السماوية.

هـ) بالإضافة إلى أنّ الوسائل الالزمة لتدوين المطالب في التاريخ ونشرها كانت محدودة في ذلك الزمان ، وحتى الأفراد المتعلمون كانوا قليلین جداً ، وكانت الكتب جميعها خطية ، ولم تكن تنشر الحوادث المهمة بواسطة وسائل الاعلام المسموعة والمرئية والصحف المحلية في جميع أنحاء العالم ، وتسجل في جميع التواریخ كما هو الحال في يومنا هذا. واستنادا إلى هذه النقاط لا ينبغي الاستغراب من عدم ذكر هذه الحادثة في التواریخ غير الإسلامية ، واعتبار ذلك دليلاً على عدم وقوعها.

٢ . من الزاوية العلمية

استناداً إلى «هيئة بطليموس» التي ترى أنّ الأرض هي مركز العالم والأفلاك التسعة المحيطة بأطرافها على شاكلة طبقات قشرة البصل ، وكانت تعتقد أنّ هذه الأفلاك كالجسم البلوري المرتبط بعضه ببعض ، والنجوم والأجرام السماوية مندكة في قلب الأفلاك ، وتدور مساواة لحركة الأفلاك ، وأي نوع من أنواع الخرق والالثام في الأفلاك محال ، لهذا السبب أنكر اتباع هذه العقيدة كلاً من «المراج الجسماني» ، و «انشقاق القمر» معاً ، ذلك أنّ كليهما يوجب الخرق والالثام في الأفلاك !.

إلا أنه لم يعد هناك أرضية لهذا الكلام في يومنا هذا بعد أن طوّلت فرضية الهيئة بطليموس في ملف الأساطير والخرافات وثبت بطلان الأفلاك التسعة من الناحية العلمية والحسية.

وقد يقال : ليس من السهل تحقّق مسألة انشقاق القمر بمنظار العلم الحديث أيضاً ، لأنّ هذه الكرة «مساحة القمر» وإن كانت خمس الكرة الأرضية إلأّا مع ذلك كرة عظيمة ، ووقوع الانشقاق والانفجار فيها بحاجة إلى عامل قوي جداً ، والجواب عن هذا الإشكال واضح في نظر أهل التوحيد ، إذ لم يَدِع أحد بحدوث «انشقاق القمر» من جراء أحدى العوامل الطبيعية ، بل كان يُعزّي سبب حدوث ذلك إلى الاعجاج مستنداً إلى القدرة الالامتناهية للباري عَزُّوجَلَ.

ولا يخفى عليكم أنَّ الله لا يصعب عليه انشقاق القمر ، بل إنَّ إيجاد المنظومات وال مجرّات الأخرى كلها منقادة لإرادته ومشيئته أيضًا ، ذلك الله الذي أحدث الانفجار الأول في قلب الشمس منذ البداية ، وفصل عنها السيارات الكبيرة للمنظومة الشمسية ، فقدفت كل واحدة منها في ناحية من النواحي وبدأت تدور حولها ، أجل ، إنَّ مَن يبيده كل شيء قادر على كل شيء لقادر على إثبات نبوة نبيه ، وذلك أن يحدث في لحظة من اللحظات مثل هذا الانفجار ثم الالتئام في كرة القمر التي هي لا تساوي شيئاً أمام قدرته تعالى . إنَّ الذين يستهينون بالقدرة الإلهية . والعياذ بالله . أو لم يحيطوا علمًا بحدوث المنظومات السماوية الكبيرة على أثر الانفجارات المتتابعة ، هم فقط الذين يشرون الإشكالات على هذا النوع من المسائل .

٣ . انشقاق القمر في التصور القرآني

يقولون إنَّ هناك آيات في القرآن الكريم تدل على أنَّ نبي الإسلام ﷺ لم يمتلك معجزة سوى القرآن : واستدل هؤلاء على إثبات فكرتهم كما ورد في قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرِسِّلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلَوْنَ﴾ . (الأسراء / ٥٩) وكذلك تشبثوا بالآية ٩٣ من سورة الأسراء ، وذلك استناداً إلى أنَّ جماعة طلبوا من النبي طلبات مختلفة ، فتارة قالوا : لا نؤمن إلا أن تفحر لنا ينبوعاً من هذه البقعة من الأرض (الجرداء القاحلة) ، وتارة أخرى قالوا : لا نؤمن لك إلا أن يكون في حوزتك بستان كبير من أشجار النخل والعنب وتجري من خالله الأهار ، أو تنزل على رؤوسنا . كما تدعى . الأحجار السماوية ، أو تحضر لنا الله وملائكته ، أو تمتلك بيتاً من الذهب ، مليئاً بالرسوم والنقوش ، أو تصعد إلى السماء ، ولا نكتف بذلك إلا أن تأتينا بكتاب من قبل الله تعالى لنطلع عليه ، فما كان جواب النبي الأكرم على مطالبهم إلا أن قال : ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ . (الأسراء / ٩٣) وعلى ضوء جوابه ﷺ ادعى أولئك المرتابون بأنه لم يأت بأي معجزة .

الجواب:

إن الالتفات إلى الكلمة التي وردت في أقوال جمع من المفسرين الكبار توضح الجواب عن هذا الإشكال وهي : إن المعجزات على نوعين :

النوع الأول : هي المعجزات الضرورية لإثبات صدق دعوى النبي ، وترغيب الناس في الإيمان ، وتخويف المنكرين ، وهي المعاجز المنطقية للذين ينشدون الحق والباحثين عن الحقيقة ، بحيث يعبر القرآن الكريم في ذيل الآية المذكورة بقوله : ﴿وَمَا نُرِسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيفًا﴾ . (الاسراء / ٥٩)

النوع الثاني من المعجزات : هي المعجزات التي تسمى بـ «الاقترافية» ، أي المعجزات التي يطلب بها المتعلّلون لأجل سلوك سبيل الحق واليقين بصدق دعوى النبوة ومن ثم الإيمان واعتناق الإسلام ، وإنما يقصد تعجيز الطرف الآخر ، فإن وجدوا به قدرة على ذلك أتّهموه بالسحر.

والأنبياء كانوا يجهون صوب القسم الأول ولا يستسلمون إطلاقاً لمقترحات المتعلّين والمعاجز الاقترابية.

يشير لحن الآيات ٩٠ . ٩٣ من سورة الاسراء بشكل واضح إلى أن هذه الموضوعات العجيبة والغريبة والمتهافة لمشككى العرب لم يكن منشأها هو البحث عن الحقيقة ، بل الغاية منها هي اختلاق الأعذار والتشكيك في نبوة نبي الإسلام وارساله دعائين الشرك والصنمية ، ولذا لم يُعنوا النظر حتى في مفهوم كلامهم ، فمن ضمن مطالبهم مثلاً أكّم يطلبون معجزة من المعاجز التي تبيّد لهم «كنزول الأحجار السماوية على رؤوسهم» ، وتارة يطلبون معجزة كمعجزة (الصعود إلى السماء) ، ثم ينفون ذلك مباشرة و يقولون : نحن لا نؤمن بذلك حتى تبعث لنا كتاباً من قبل الله ، وتارة يطلبون الامور المستحيلة كقولهم : أن تأتينا بالله والملائكة ، والحال أن الله ليس له مكان ، وليس بجسم ولا جسماني .

ثم إذا كان المدف هو التوصل إلى معرفة حقانية النبي فلِم يطلبون ست معاجز مختلفة؟ ألا تكفي معجزة واحدة؟

من هنا لم يتسع لأي نبي أن يستسلم لهذا النوع من الأراجيف والأباطيل ، فضلاً عن أن الاعجاز ليس من شأن النبي و اختياره ، وإنما هو من شأن الله تعالى و اختياره . إن النبي بإمكانه أن يطلب المعجزة من الله والله تعالى يضع بين يديه أي شيء يراه صالحًا ، وهذا نقرأ هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : ﴿فَلَمْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الأسراء / ٩٣ - ٩٠)

وكذا في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَاتِيَ بِآيَةً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ . (الرعد / ٣٨) وأما قوله : نحن لن نستسلم لمطالبيكم لأن الأولين كذبوا بذلك ، فهذا يدعو إلى هذا التساؤل وهو : كيف يجوز أن يكون تكذيب الأولين سبباً لحرمان الأجيال المتعاقبة من مشاهدة المعجزات؟ فالاجابة عنه تكمن في كون هذه العبارة متداولة وذلك بأن يقال للشخص العنيد الذي لا نريد أن نستسلم له : إن اقتراحك لم يكن وجيهاً وقد سبق لغيرك أن اقتراحه ، ولم يرضخ للحق .

عبارة أخرى أن المعجز التي تفترضها لا تستند إلى أساس البحث عن الحقيقة ، وإنما هي «اقتراحية» وتعجيزية ، ولو نفذت طلباتكم لما آمنتم أيضاً ، فقد سبق لأفراد مثلكم في الأمم العابرة أن طلبوا إظهار معجز ثم كذبواها بعدما شاهدوها .

ملخص الكلام هو أن من الصحيح القول : إن القرآن لوحده معجزة خالدة ، ولو لم يكن هناك معجزة أخرى سوى هذه المعجزة للنبي لاستطاعت أن تكون شاهداً على صدقه ، ولكن هذا لا يدل على أن النبي لم يمتلك معجزات جسمانية ومادية غير هذه المعجز الروحية والمعنوية ، بل ذهبت الآيات والروايات والتاريخ الإسلامي وسيرة النبي إلى القول : إنه كان يمتلك ذلك ، ولا شك في أن انضمام المعجزات المحسوسة والمادية إلى تلك المعجزة المعنوية الكبيرة يظهر حقانية الدعوة النبوية بصورة أجل وأوضح .

* * *

الطريق الثاني :

جمع القرآن

طريق آخر للاطمئنان

الطريق الثاني :

جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

تمهيد :

خلافاً لما يظن البعض فإن سبيل إثبات صدق دعوى النبوة لا يقتصر على المعجزات فقط ، بل أحياناً ثبتت عن طريق تجميع القرائن المتعلقة بحياة ذلك النبي ، وصفاته وخصائصه الأخلاقية والعملية ، ومضمون الدعوة وبرامجها المستخدمة يمكن الحصول على سند واضح قد يعادل أقوى المعجزات بل أحياناً يتقدم تلك المعجزات أيضاً. إنَّ هذا النوع من الاستدلال يلاحظ أيضاً في كلام القدامى ، وإنْ كان يبدو شكله أقل انسجاماً.

ولهذا السبب فمن اللازم تقليل بعض التوضيحات حول هذا الموضوع مسبقاً.

جمع القرائن دليل متداول في كل العلوم :

لتتوصل إلى الحقائق في العلوم المختلفة يتمّ اليوم الاستفادة من طريقة جمع القرائن بشكل كبير لكشف الجرائم ، ولتشخيص أنواع الأمراض ، ولمعرفة خصائص الشخصيات العظيمة السالفة على طول التاريخ ، ولكشف القضايا المتعلقة بعالم الخلق ، الأرض والسماء ، النباتات والحيوانات.

والفرق بين هذا الاسلوب وأسلوب (الاستقراء) الذي هو أحد طرق البرهان هو : إنّنا نحصل بالاستقراء على حكم كلي عند البحث والتنقيب عن الأفراد ، فعلى سبيل المثال نقوم بعد فقرات أفرادٍ كثيرين ثم ندرج في الكتب قانوناً عاماً يقول : إنَّ الإنسان له كذا عدد من الفقرات.

ولكن بطريقة جمع القرائن نقوم بدراسة آثار موضوع خاص أو مايسى بـ «الجزئي الحقيقى» ثم نتوصل من مجموع تلك الآثار إلى المؤشر.

وكمثال على ذلك : حينما تقع جريمة في نقطة ما ويؤتى بالمتهم إلى المحكمة فينكر التهمة الموجهة إليه جملةً وتفصيلاً ، مستفيداً من عدم وجود شاهد يثبت التهمة ، فإنّ الحاكم الذكي لا يغلق ملفّ القضية بذرية إنكار المتهم وعدم تيسّر الشاهد ، بل يقوم بتحميم القرائن عن طريق التحقيقات المختلفة ، ودراسة أمور كثيرة أخرى مثل :

أ) سوابق المتهم.

ب) نوع العلاقة التي تربط بين المتهم والشخص الذي وقعت عليه الجريمة ، وهل هناك من خصومة أو اختلاف بينهما أم لا؟

ج) مكان وزمان وقوع الحادثة ، وهل بإمكان المتهم اعياض المكان الذي كان فيه وقت وقوعها؟

د) نوع السلاح أو الرصاصة التي عُثر عليها في هذه الحادثة ، وهل أنّ المتهم يستخدم مثل هذا السلاح أم لا؟

هـ) ملاحظة الحالة الجسدية للمتهم والشخص الذي وقعت عليه الجناية ، وهل توجد آثار منازعة عليهما أم لا ، وهل للمتهم توضيحات لهذه الآثار أم لا؟

و) الاحساس الذي ينعكس على المتهم عند مشاهدته رداء المقتول وآثار الجريمة ، وهل تضطرب حالته أم يحتفظ بذكرياته أثناء ذلك؟

ز) الحالة النفسية للمتهم ومقارنتها بالسابق ، هل هي متعادلة أم يسيطر عليها الاضطراب؟

ح) عند اجابتـه عن أسئلة الحقـقـ والحاكمـ هل يـنـتابـهـ الـارـتـيـاـكـ والـاضـطـرـابـ والـتـاقـضـ وـأـمـاثـلـاـمـاـ لـاـ؟ـ

بالإضافة إلى مسائل أخرى كثيرة ، وقد لا تكون آحادها كافية لإثبات الحقيقة ، ولكن بحث هذه الجوانب أحياناً لا يقى أي شك أو تردـدـ بـأـنـ الجـريـمـةـ نـفـذـتـ مـنـ قـبـلـ المتـهمـ ، وهـذـاـ

ما يقوى من عزم الحاكم أو القاضي بأنّ يتبع القضية بأنّه وما أكثر ماتنتهي متابعته إلى إقرار الطرف المقابل أيضاً.

بل ويعکن القول : إنّ (الاقرار) هو دليل ظني . لأنّه لوحظ كثيراً أنّ البعض ومن أجل المروب من قبضة العدالة أعطوا أموالاً طائلة لشخص آخر حتى يعترف بعد طمأنته بأنّهم سيخلصونه في النهاية ، وكذلك (شهادة الشهود) هي دليل ظني أيضاً ، لأنّ احتمالها للخطأ أو التواطؤ ليس مستحيلة (لا شك أنّ شهادة الشهود والاعتراف مقبولة ، وأنّ المقصود هو أنّها دلائل ظنية مقبولة في نهاية الأمر ، في حين أنّ تجمیع القراءن يمكن قبولها عند وصولها مرحلة القطع واليقين).

وتلاحظ في الأحكام الإسلامية أيضاً نماذج واضحة لهذه المسألة ، وأحياناً تم إثباتها حتى بواسطة قرينة حكم واحدة مثل حکایة اختلاف (العبد) و (السيد) في عصر أمير المؤمنين علیه السلام عندما أمر علیه السلام (صوريأ) بضرب عنق العبد منهما إذ سحب أحدهما رأسه ليثبت على نفسه أنه العبد.

أو كقصة اختلاف تینك المرائين على ولید ، وأمره علیه السلام . صوريأ . بقطع ذلك الوليد نصفين ، عندئذٍ تنازلت الأم الحقيقة لذلك الطفل عن حقها فكان موقفها ذاك دليلاً على صدق دعواها ، وأمثال ذلك.

على أية حال إنّ الاستفادة من هذه الطريقة للوصول إلى نتائج قطعية ليس في المسائل القضائية وحسب ، بل وفي الكثير من العلوم ، وكذلك القضايا الاجتماعية والسياسية المختلفة هو أمر معتمد وبناء ، ويمكننا أيضاً الاستفادة منه في مسألة إثبات نبوة الأنبياء وأحياناً يكون تأثيره في إيجاد اليقين والاطمئنان أكثر من تأثير المعجزات العادية.

بحده الإشارة نعود إلى الآيات القرآنية لنرى مالها من بيان حول هذا الدليل . بشكله الكلي ، ثم نتجه نحو حياة الرسول الأكرم ﷺ لنجمع القراءن المختلفة عن حياته ونضعها إلى جانب بعضها البعض حتى يحكم القراء عليها بأنفسهم.

* * *

في القسم الأول وفي آيات متعددة من القرآن تلاحظ إشارات حافلة بالمعاني حول هذا الدليل ، ومن جملتها :

الآيات التي تعبّر عن وجود نبي الإسلام ﷺ بأنه **شَاهِد** (شاهد) و (سراج منير) و (برهان) و (شمس) .

فنقرأ في قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا

(الأحزاب / ٤٥ - ٤٦)

في هاتين الآيتين يقدم القرآن الكريم نبي الإسلام ﷺ على أنه (شاهد) ، فقد ورد في أحد التفاسير أنه شاهد على أحقيته ، لأنّ صفاتـه وأخلاقـه ، وخطـطـه الـبـنـاءـة ، وسـوـابـقـه السـاطـعـة ، وأعـمـالـه ، تـشـهـدـ علىـ حـقـانـيـةـ دـيـنـهـ وـصـدـقـ دـعـوـتـهـ ، هـذـاـ مـنـ جـهـةـ (١) .

ومن جهة أخرى يعرّفه بعنوان (سراج منير) ، وانـنا نـعـرـفـ أنـ السـرـاجـ هوـ دـلـيلـ عـلـىـ نـفـسـهـ وـلـاـ يـحـتـاجـ لـدـالـيـلـ عـلـيـهـ ، أوـ كـالـقـولـ المـعـرـوـفـ (طـلـوـعـ الشـمـسـ دـلـيلـ عـلـىـ الشـمـسـ) .

وتعـبـيرـ (برـهـانـ) الـذـيـ جـاءـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** . (النساء / ١٧٤)

هو إشارة أخرى لتلك الحقيقة ، لأنّ (برهان) مشتقة من مادة (بره) على وزن (فرح) وتعني الإيضاح ، ولأنّ الاستدلالات الواضحة تثير وجه الحق وتبينه ، لذا أطلق عليها برهان .

ويعتقد جمع من المفسرين أنّ المقصود من البرهان في هذه الآية هو ذات الرسول ﷺ ، والمقصود من النور هو القرآن المجيد .

وبناءً على ذلك فإنّ شخص الرسول ﷺ جرى تعريفـهـ بـعـنـوانـ (برـهـانـ) ، وـذـلـكـ بـسـبـبـ توـقـرـ آـثـارـ وـقـرـائـنـ فـيـ وـجـودـهـ تـبـيـعـ بـأـحـقـيـتـهـ فـضـلـاـ عـنـ مـعـجزـاتـهـ .

(١) في تفسير آخر لآية المذكورة اعتـبرـ النـبـيـ ﷺ كـشـاهـدـ عـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ قـبـلـهـ . أوـ شـاهـدـ عـلـىـ أـعـمـالـ اـمـتـهـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ . فـيـ حـيـنـ لـاـ يـوـجـدـ أـيـ تـنـافـسـ أـوـ تـعـارـضـ بـيـنـ هـذـهـ التـفـاسـيرـ الـثـلـاثـةـ وـيـكـنـ جـمـعـهـاـ فـيـ مـعـنـيـ الـآـيـةـ .

(٢) من الـذـينـ قـبـلـواـ هـذـاـ الـمـعـنـيـ أـوـ نـقـلـوـ بـاعـتـبـارـهـ تـفـسـيرـاـ : المـرـحـومـ الطـبـرـيـ فـيـ جـمـعـ الـبـيـانـ ، وـالـعـلـامـ الـطـبـاطـبـائـيـ فـيـ تـفـسـيرـ الـمـيزـانـ ؛ وـالـمـرـاغـيـ ؛ وـالـقـرـطـبـيـ فـيـ تـفـسـيرـهـمـاـ (ذـيـلـ الـآـيـةـ مـوـرـدـ الـبـحـثـ) .

وجاء في تفسير : **﴿والشمس وضاحها﴾** في روايات متعددة أنَّ (الشمس) هي إشارة لوجود الرسول الأكرم ﷺ ، وأنَّ (القمر) هو إشارة إلى وصيَّه بالحق ^(١) .

من البديهي أنَّ لا يوجد دليل لإثبات وجود الشمس سوى وجودها بالذات ، لأنَّ الجميع يطعون على وجود الشمس المشرقة والمغيرة بمحرد طلوعها من افق المشرق .

وفيما عدا هذه التعبير أشار القرآن الكريم في آيات أخرى إشارة واضحة إلى هذه المسألة ، وأشار إلى بعض دلائل أحقيَّة الرسول ﷺ ومن جملتها أنَّه استند إلى قضية (أمّيته) واعتبارها قرينة ، مثلاً يقول تعالى :

﴿وَمَا كُنْتَ تَتَلَوَّ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرَاتَ الْمُبْطَلُونَ﴾

(العنكبوت / ٤٨)

وهنا يشير القرآن إلى أنَّ الرسول ﷺ لو كان يقرأ ويكتب لكان الشك يقع بين كون القرآن منه أو من الله ، ولكن بالنظر إلى أنَّه ﷺ كان أمياً وأنَّ القرآن الكريم كان معجزة من جوانب مختلفة فلا يبقى لأحد أي مجال للشك في أنَّ هذا الكتاب هو من قبل الله تعالى . وهذه طبعاً قرينة واحدة فقط من القرآن الكثيرة التي تلاحظ في وجوده ﷺ ، ودليل على صدق دعوته ، وكلما وضمنا مجموع هذه القراءن إلى جنب بعضها البعض لأضحت المسألة أكثر سطوعاً من الشمس .

وتعبير (المبطلون) يدل على أنَّه حتى لو كان النبي ﷺ قد تلقى التعليم فلا مجال أيضاً إلى أنَّ نعتبر هذا الكتاب هو من بناء أفكاره ، لماذا؟ لأنَّه يقيناً اسمى من فكر وعلم بني البشر ، ولكن هذا الأمر بمفرده قد يشكل ذريعة للمفسدين والمبطلين .

ونقرأ في قوله تعالى :

﴿فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا ادْرَأْكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيْكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ إِفَّا تَعْقِلُونَ﴾ . (يونس / ١٦)

(١) في تفسير البرهان ، ج ، ٤ ص ٤٦٦ توجد خمسة أحاديث حول هذا الموضوع ، وليس في هذا التفسير تعارض مع التفاسير الأخرى للشمس ، ويمكن جمعها كلها في معنى الآية .

وفي الحقيقة كان النبي ﷺ يعتمد على هذه القراءة عندما يقول : إنني عشت بينكم سنتين طويلة ولم تسمعوا مني مطلقاً مثل هذا الكلام (الآيات القرآنية) ، ولو كانت هذه الآيات صادرة مني فلابد أن تجري على لسانى خلال هذه الأربعين سنة أو لسمعت مني قسماً منها على الأقل.

وكما يقول بعض علماء النفس : فإن النبوغ الفكري ، واكتشاف وإبداع المسائل المستحدثة يبدأ عادة عند الإنسان من سن العشرين ، وتمتد على الأكثري إلى سن ٣٠ أو ٤٠ سنة ، أي أن الإنسان إذا لم يأت حتى ذلك العمر بابتكار جديد ففي الغالب ينتفي عنده بعد ذلك.

وهذا الموضوع الذي يُعد اليوم كاكتشاف نفسي كان في الماضي غير واضح إلى هذا الحد ، ولكن غالبية الناس كانوا يعرفون عادة بالهداية الفطرية أن ليس بمقدور الإنسان أن تكون له أفكار خاصة ممثلة بدين جديد وهو يعيش بين قومه وشعبه مدة أربعين سنة ولا يظهرها مطلقاً ، لهذا يقول القرآن : كيف لا تدركون استحالة هذا الأمر؟

إن استناد القرآن الكريم في آيات متعددة على (أميمة) النبي ﷺ له دلالات مليئة بالمعانٍ ، وكذلك القراءن بأن كيف يستطيع شخص لم يتلق تعليماً أن يأتي بكتاب بهذا المحتوى الذي ليس له نظير ، وبهذا الشمول الاستثنائي ، والحقائق التي تحفظ بطاوئها تماماً بعد مضي الف سنة أو أكثر ، والذي يعتبر وصفة راقية وناجعة لحل المشاكل الحياتية لبني البشر في الجوانب المعنوية والمادية؟

وما قيل نستنتج أن للقرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهذا الدليل (أي تجميع القراءن).
والآن نعود إلى الشرح والبيان التفصيلي لهذه القراءن التي اختص بها النبي الأكرم ﷺ ، ونخضع الأمور التالية للبحث والدراسة الدقيقين :

محيط دعوته والظروف السائدة هناك.

الخصائص الأخلاقية والنفسية لنبي الإسلام ﷺ وسوابقه.

زمان دعوته من ناحية الوضع العام في العالم وبالخصوص في منطقة ظهوره ﷺ .

مضمون دعوته وأسس القضايا التي يدعو الناس إليها.

الوسائل التي يستفيد منها للوصول إلى أهدافه.
انسجامه وعدم انسجامه مع متطلبات البيئة المنحرفة وكيفية تصديه للخرافات.
ماهية الأفراد الذين آمنوا ومن أي طبقة وأي نوع.
ميزان اعتقاده بالأهداف التي يدعوا الناس إليها.
سرعة انتشار دعوته ومستوى الأثر الذي تركه أحکامها وقوانينها في المجتمع.
بالإضافة إلى علائم أخرى.

* * *

١ . ميحيط دعوة النبي ﷺ والظروف السائدة هناك

إن القضية التي يتفق عليها كل المؤرخين الكبار هي : أنّ العرب قبل بدء الرسول ﷺ بدعوته كانوا في أوضاع سيئة للغاية من ناحية سيطرة المعتقدات الخرافية ، والانحطاط الأخلاقي ، والاختلافات ، والحروب الداخلية المستمرة ، والظروف الاقتصادية السيئة ، ولا تتحرك في تلك البيئة نسمة من رياح العلم والمعرفة ، ولا يوجد حتى أثر من الحضارة الشكلية للبشر ، ولهذا السبب كانوا يعترونهم قوماً نصف متواحشين ، ويطلقون على عصرهم اسم (العصر الجاهلي).

وللقرآن الكريم تعابير صريحة وواضحة عن ذلك العصر يمكنها رسم ملامح الأوضاع في ذلك الزمان بشكل جيد (حتى لو لم يصدق أحد بأنّ القرآن الكريم وحي إلهي ، ولكن لا يمكنه إنكار حقيقة أنّ ذكر تلك الصفات لذلك العصر في القرآن هي دليل على واقعيته وحقيقة ، وإنّا يكون منكراً لكل الجوانب).

فيقول الله تعالى في مكان : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ اذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّكِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفْيِ ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ . (آل عمران / ١٦٤)

وعبارة (ضلال مبين) في هذه الآية وفي أواخر الآية الثانية من سورة الجمعة أيضاً ، هو

إشارة معبرة عن الأوضاع في العصر الباحتلي الذي كانت الضلالية تسود أركانه ، وأي ضلالية أوضح وأبين من عبادتهم لأصنام من الحجر والخشب صنعواها بأيديهم ، والأسوأ من ذلك هو تلك الأوثان التي يعملونها من التمر ويعبدونها ، ثم يأكلونها أيام القحط والجفاف. أو يدفنون بناتهم بأيديهم وهن أحياء ، وهم يفخرون ويتباهون بعملهم هذا بدعوى أنهم لا يدعون عرضهم وناموسهم يقع بأيدي الأجانب ، أو يقتلون أبناء خوفاً من الإلماق. وجاء في قوله تعالى : **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَهْدُهُمْ بِالْأَنْتَيْرِ ظَلَّ وَجْهُهُمْ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾** **يَتَوَارِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ إِيمَسْكُهُ عَلَى هُونٍ إِمْ يَدْسُهُ فِي التُّرَابِ** * إلا ساء **مَا يَحْكُمُونَ** . (النحل / ٥٨ - ٥٩)

وأي ضلال أوضح من سيطرة أنواع الخرافات والأوهام عليهم ، أو اعتبارهم الملائكة بنات الله : **﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ أَنَّا** . (الزخرف / ١٩) وفي مكان آخر يقول : **﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ** . (النحل / ٥٧) وهناك آيات أخرى نظير ما أشرنا إليها.

أي ضلال أوضح وأبين من أن تسيطر عليهم الخروب وسفك الدماء في كل أيام السنة . باستثناء الأشهر الحرم . ، وتوارث الأحقاد القبلية من الآباء للأبناء واستمرارها لسنوات وسنوات ، كما يشير القرآن إلى ذلك بقوله : **﴿وَإِذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَذْكُرُمْ أَعْدَاءَ فَالَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحُتُمْ بِنِعْمَتِهِ أَخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَاعَ حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَانْقَذَكُمْ مِنْهَا** . (آل عمران / ١٠٣)

أي ضلالية أوضح من أن تكون حتى مراسم صلامتهم ودعائهم مضحكه ومقرفة ، فحينما تطوف النساء حول بيت الله الحرام وهن عاريات تماماً ويحتسبن ذلك عبادة ، وحينما آخر يقيمون صلامتهم مصحوبة بالتصفيق والصفير : **﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ﴾** . (الانفال / ٣٥)

لقد كانت الخرافات والأوهام تخيم على مجتمعهم ، بضروب شتى وكانت كل قبيلة تسعى إلى إبراز نفسها على أنها أرفع من القبيلة الأخرى وربما يؤدي إلى ظهور الأحقاد

والضياعين والحسد ، وأحياناً سفك الدماء بين القبائل إلى الحد الذي يدعهم . من أجل إثبات كثرة عددهم . إلى التوجه صوب القبور بعد قبور موتاهم والتفاخر بالعظام النخرة لأجدادهم وهي تحت التراب .

يقول القرآن الكريم : **﴿الهُكْمُ لِلَّهِ أَكْثَرٌ﴾** حتَّى **رُتُمُ الْمَقَابِرَ** . (التكاثر / ٢٠١) وما إلى ذلك من أوهام ومفاسد وكوارث أخرى من هذا القبيل . إن الانحطاط في تلك البيئة والفقر المعنوي والمادي جعل تلك المنطقة في قائمة أكثر مناطق العالم تخلفاً .

ينقل أحد المؤرخين الغربيين عن بعض المؤرخين المعروفين حول بيئة الحجاز في العصر الجاهلي قائلاً: عندما دخل (ديمتريوس) القائد اليوناني الكبير (البتراء) . إحدى مدن الحجاز القديمة . وهو في طريقه لاحتلال المنطقة العربية ، قال له العرب الساكنون هناك : (أيتها الملك ديمتريوس! لماذا تختارنا؟ إننا نعيش في أرض حصباء تفتقر لأبسط متطلبات الحياة ، ومحرومة من كل النعم التي يتمتع بها أهالي المدن والقصبات ، لقد اخترنا السكن في هذه الصحراء القاحلة لأننا لا نريد أن نكون عبیداً لأحد ، ولهذا تقبّل منّا هذه التحف والمهدايا التي نقدمها لك وأخرج جيوشك من هنا وعدْ ...).

وانتهز (ديميروس) رسالة الصلح هذه وقبل المدايا وغض النظر عن هكذا حرب **مُخْلِف مشاكا** كثيرة^(١).

ومنطقة (الحجاز) لم تخضع لسيطرة الفاتحين القدامى على مدى التاريخ وقد حافظت على استقلالها ، والسبب كما يقول المخلّون : هو عدم استحقاق مثل هذه المنطقة . الجرداء التي تفتقر لكل شيء . هذه الجهود والمشاكل ، وأيضاً افتقار منطقة الحجاز لحضارات البلدان القديمة مثا، ايران وروما والي، تتوارد في الكثير من نقاط شبه الجزيرة العربية.

وبعد أن تعرفنا على حال الجزيرة العربية لابد لنا من النظر إلى حال الإنسان البسيط الذي عاش في محيطها مهما كانت قوته إرادته وقوته تفكيره (لاسيما إذا لم يكن قد تلقى أي نوع من التعليم).

(١) تاريخ حضارة العرب والإسلام تأليف كوستاف لوبيون.

هل أنّ الذي تربى في محيط موبوء بالجهل والفساد يمكنه أن يكون مؤسسة للعلم
والمعرفة والفضائل الأخلاقية؟
وهل سمعتم بأنّ علماء عظام وفلاسفة نوابغ نُهضوا من بين قبائل جاهلية نصف
متوحشة؟

إذا نبتت ورود جميلة وحشائش طرية في ارض خصبة ومهيأة فلا عجب في ذلك ، بل
العجب عندما تنبت وردة جميلة في ارض سبخة.

وعلى أية حال يمكن أن تكون هذه المسألة بمفردها غير كافية في إثبات أحقيّة الرسول
الأكرم ﷺ ، ولكنها بدون شك تعتبر واحدة من القرائن التي متى ما أخذناها بالقرائن
الآخرى شكلت برهاناً قوياً ومبيباً.

نختم هذا الحديث بقول أمير المؤمنين علي عليهما السلام : «أرسله على حين فترة من الرسل ،
وطول هجعةٍ من الأمم ، واعترام من الفتنة ، وانتشار من الامور ، وتلظى (تلظى) من الحروب
، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، وإياس من ثمرها ،
واغورار من مائتها ، قد درست منار المدى وظهرت اعلام الردى ، فهي متوجهة لأهلها ،
عابسة في وجه طالبها ، ثمرها الفتنة ، وطعمها الحيفة ، وشعارها الخوف ودثارها السيف»
(١).

وفي مكان آخر نقرأ له عليهما السلام : «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ ، وَأَمِينًا
عَلَى التَّنْزِيلِ ، وَأَنْتُمْ مُعْشَرُ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ ، مُنْبَحِّرُونَ بَيْنَ حَجَارَةٍ خُشِّنَ
وَحَيَاتٍ صُمِّيَّ تَشْرِيبُونَ الْكَدْرَ ، وَتَأْكِلُونَ الْجَهْنَمَ ، وَتَسْفَكُونَ دَمَاءَكُمْ ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ ،
الْأَصْنَامَ فِي كُمْ مَنْصُوبَةٌ ، وَالْأَثَامَ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ» (٢).

وخلالص القول هي : إنّ البحث في القرآن الكريم والروايات الإسلامية ومجموع
التواريχ التي كتبت في الشرق والغرب حول العصر الجاهلي ، تدلّل على أكّاً متفقة جيّعاً

(١) نجح البلاغة ، الخطبة ٨٩.

(٢) نجح البلاغة ، الخطبة ٢٦.

على أن البيئة التي ظهر فيها نبي الإسلام ﷺ هي من أحط البيئات وأكثرها تأحراً ، بيئه لا تنسمح أبداً مع ظهور هكذا دين وتعاليم متطرفة في الأصعدة كافة.

* * *

٢ . تاريخ الرسول ﷺ وخصائصه الأخلاقية

إن الخصائص الأخلاقية هي احدي أفضل الطرق إلى معرفة الدعاة الصادقين من الكاذبين ، فهذه الخصائص يمكن اعتمادها كقرائن وأدلة واضحة لنفي أو إثبات احقيه الداعي ، وكلما شوهدت مظاهر الطهارة والتقوى ، والعظمة والتسامح والرأفة والمحبة ، والزهد والتقشف ، والشجاعة والشهامة والماضي الاجتماعي الحسن في المدعى ، فمن الصعوبة يمكن أن لا نعتبره صادقاً ، وبالعكس فإذا كان محبّاً للدنيا ، ومنكباً على المادة ، ومتعلقاً بالمال ، والمقام ، والجاه ، والقدرة المصحوبة بالظهور والكذب ، والحقد وحب الانتقام ، وما شابه ذلك من رذائل خلقية (لا سمح الله) ، فلا يمكن اعتبار مدعى النبوة هذا صادقاً مطلقاً ولحسن الحظ فإن سوابق النبي الأكرم ﷺ قبل نبوته هي سوابق ساطعة ومضيئة حيث قضى أربعين عاماً بين ظهرياتهم والتاريخ الذي كتبته أيادي الأصدقاء والأعداء يعطي صورة ناطقة ومعبرة عن ذلك.

ففي كل التواريخ اعتبرت زراة النبي ﷺ وأمانته بآنها مسألة متفق عليها وأن لقب (الأمين) سمعوه يطلق عليه من قبل الجميع.

والمفت للنظر هو أن الناس . بالرغم من مخالفتهم له . بعد بداية دعوته للإسلام بقوا يodusون أماناتكم عنده ، ولذا أمر ﷺ علياً عليهما أثنااء الهجرة إلى المدينة المنورة . أى بعد مرور ثلاثة عشر عاماً منبعثة . بآن يبقى في مكة ليؤدي عنه الأمانات إلى أهلها ، ثم يهاجر إلى المدينة.

إن حسن خلق النبي ﷺ وحسن معاشرته وسخائه وكرمه ، وخلاصة الصفات التي

تلقي

بقائد إلهي عظيم يمكن مشاهدتها به ﷺ بوضوح خلال الواقع المختلفة في حياته ، وخاصةً أثناء فتح مكة ، و Warfare أحد ، وكذلك في تعامله مع أسرى الحرب ، والرقيق ، وطبقات المجتمع المخرومة ، إلى الحد الذي اعتبروا فيه هذه المسألة بأكملها نقطة ضعف عنده ، وأن دينه هو دين العبيد والمحروميين ، وابعد عنه الأغنياء والأثرياء ، وعرضوا عليه طرد الحفاة والمستضعفين وإبعادهم مقابل تأييدهم له وتقربهم منه ﷺ ، وقد جاء هذا المعنى بإشارة واضحة في قوله تعالى :

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَّىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ اغْفَلَنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

(الكهف / ٢٨)

وهو الذي صفح عن (أبو سفيان) ألد أعدائه والموجع الخطير لنيران الحروب ضد الإسلام ، وجعل من بيته أثناء فتح مكة ملحاً واماً لأهل مكة ، وأعلن العفو العام عن المكيين الذين ارتكبوا جرائم كثيرة ضده وضد أتباعه ، وهذا الخلق الحسن والتسامح واللطف والكرم صار السبب في جعلهم يلتفون حوله.

وفي (Warfare أحد) أيضاً عندما فرّ جماعة من حديثي الدخول في الإسلام من أرض المعركة وتركوه وحيداً بين الأعداء متحملة ضربات شديدة منهم ، عاد وأعلن العفو العام ، وصفح عن الجميع إلى درجة استوجب نزول الآية المباركة : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَأْوِرْهُمْ فِي الْأُمُورِ﴾. (آل عمران / ١٥٩)

فقد بيّنت هذه الآية لين قلب وباطن النبي ﷺ وصفاء سيرته وكذلك لمحته الرقيقة والملائكة بالعاطفة التي لم تأمره بالعفو عن أخطائهم فحسب ، بل أمرته أيضاً بطلب المغفرة لهم من الله تعالى ، وأن يحترم شخصياتهم ويشاورهم.

لقد كان ﷺ رحيمًا بالمؤمنين وغير المؤمنين بالقدر الذي يجعله يتأنم بشدة من عدم إيمان البعض ، وإلى حد يوشك فيه على الملاك أسفًا عليهم.

ونقرأ في قوله تعالى ما يتضمن معنى التسلية للنبي ﷺ : ﴿فَأَعْلَمَكَ بِأَخْرَجْتَ نَفْسَكَ عَلَى
آثَارِهِمْ أَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ اسْفَافًا﴾ . (الكهف / ٦)

وшибه هذا المعنى جاء في قوله تعالى : ﴿أَعْلَمَكَ بِأَخْرَجْتَ نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

(الشعراء / ٣)

وحقاً إذا لم يتصف القائد بهذه الصفات فلا يستطيع أن يجسّد المعنى الحقيقى والواقعي للقيادة ، وقد جاء في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَوُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . (التوبه / ١٣٨)

ومن المسلم به أنّ البحث حول الملوكات الخلقية للرسول الأكرم ﷺ وخصائصه الأخلاقية أوسع وأشمل من أن يضمها حديث قصير ، وأنّ غايتها فقط هي الإشارة العابرة لهذه المسألة باعتبارها إحدى القرائن.

* * *

٣ . مضمون الدعوة

إنّ تحقيق ودراسة محتوى أيّ دعوة يشكل في الغالب دليلاً مقنعاً للتوصل إلى صدق أو كذب المدعى ، فالدين السماوي الذي يصدر عن جهة السماء ، وينزل عن طريق الوحي ، له مزاياه الخاصة ، في حين أنّ الدين الكاذب الذي يبتدعه فرد أو أفراد لأهداف مادية وشيطانية له مزايا أخرى.

فال الأول : غاياته هداية البشرية ، وتنمية النفوس ، وإقامة العدل ، وتهيئة متطلبات الصلح والسلام والأمن ، وأخيراً تكامل الإنسان مادياً ومعنوياً.

في حين أنّ الثاني. يسعى لتحقیق الإنسان وتخدير فكره ، والانتفاع الأكثرا منه والاستعمار والاستثمار له ، ومسلماً أن أهدافاً كهذه تتطلب خططاً وبرامج أخرى.

وباللحظة ما ذكر آنفاً نلقي نظرة إجمالية على جموع المعرف والقوانين والبرامج

(١) «بائع» من مادة «بَاعْ» على وزن «بَاعْ» تعنى الملامة من شدة الغم والحزن ، وبتعبير آخر ، الموت غصة.

الإسلامية ، لاسيما تلك التي استند إليها القرآن الكريم وأكدها :

١ . إنَّ أول شيء يedo للناظر ويشكل الأساس الرئيسي لكل العلوم والقوانين الإسلامية هو مسألة (التوحيد) ومحاربة كل أنواع الشرك بالاعتماد على هذا الأصل ، فقد حرر رسول الإسلام ﷺ الإنسان من قيود كل عبودية إلَّا لِعِبُودِيَّةِ اللهِ الْأَحَدِ ، ودعا البشرية إلى عبادة الآله الواحد الأحد خالق السماوات والأرض ، وجامع كل صفات الكمال ، المطلع على ظاهرهم وباطنهم ، وحطم سلاسل الأوهام والخرافات وعبادة البشر أو الحجر أو الخشب وأنواع الأوثان والأصنام.

وقد ذُم القرآن الكريم اليهود والنصارى لعبادتهم البشر بقوله تعالى : ﴿أَتَخَذُوا

أَحْبَارُهُمْ وَرُهْبَانُهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ﴾ . (التوبه / ٣١)

وفي مقارنة بدعة على لسان نبي الله يوسف وهو يخاطب رفاته في السجن يقول تعالى :

﴿أَرَبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْفَهَارِ﴾ . (يوسف / ٣٩)

٢ . إنَّ القرآن لا يعتبر أيَّ مؤثر في مصير الإنسان إلَّا الله تعالى ويدعو الجميع للتوكل

عليه ويقول : ﴿إِلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدًا﴾ . (الرمر / ٣٦)

٣ . ومن جهة أخرى يعتبر الإنسان مرهوناً بأعماله ، وأنَّ طريق الخلاص والفلاح

الوحيد هو الجد والاجتهد الأكثر ، فيقول تعالى : ﴿وَانْ لَيْسَ لِلْأَنَسِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ .

(النجم / ٣٩)

ويقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ . (المدثر / ٣٨)

٤ . إنَّ القرآن كل بني البشر ومن أي عنصر ولون وفي كل زمان متساوين ، وبناءً

على هذا لا يوجد أي تمايز بينهم أو تفاضل إلَّا بـ (التفوّق) والورع كما أشارت إلى ذلك

الآية ١٣ من سورة الحجرات.

٥ . يخاطب القرآن كل المؤمنين بِأَنَّهُمْ (إخوة) لبعضهم البعض ، ويعتبر أنَّ أقرب رابطة

مكنة بين إنسانين هي الرابطة التي تقوم على العدالة والمساواة ، بقوله تعالى : ﴿أَنَّمَا

الْمُؤْمِنُونَ أَخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرَحَّمُونَ﴾ . (الحرات / ١٠)

٦ . يعتبر القرآن (العدالة الاجتماعية) أصلًاً اساسيًاً حاكماً على المجتمعات البشرية ويدعو كل المؤمنين للقيام بالقسط ، فيقول : ﴿وَلَا يَحْرِمَنُكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ إِلَّا تَعْدِلُوا اعْدُلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهُ﴾ . (المائدة / ٨)

وأن لا تكون صلة القرابة والابوة والبنوة ونظائرها حائلًا دون إجراء العدالة وترجح كفة الحكم لصالحهم . بدون دليل . كما أشارت إلى ذلك الآية ١٣٥ من سورة النساء .

٧ . أقرَّ الإسلام حاكمة أصل (الإنفاق) على العلاقات الإنسانية ، ودعا الجميع إلى الإنفاق مما رزقهم الله من نعم على الآخرين : ﴿وَمَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ . (البقرة / ٣) يؤكّد على (صلة الرحم) ورعاية رابطة القرابة (البقرة . ٢٧) . وقد أولى (الأب والام) خاصّةً احتراماً بالغاً إلى الحد الذي أوصى بالتعامل الحسن معهما حتى وإن لم يكونا مسلمين في سورة لقمان الآية ١٤ و ١٥ .

٩ . من المسائل التي أكَّدَ عليها الإسلام أيضًا هي : (حماية المظلومين) في شرق العالم وغربه ، حتى أنّ ظواهر الآيات القرآنية لم تفرق بين أبناء الدين الإسلامي وغيرهم في هذه المسألة ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَأْنَقَاتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ﴾ . (النساء / ٧٥)

١٠ . أكَّدَ أيضًا على (احترام حقوق المرأة) في ذلك الحيط الذي أهدر كل حقوقها ولم يعطها حتى الحق في الحياة ، ويقبرُ البنات وهنّ أحياء ، فأعاد إليها مكانتها إلى الحد الذي يقول تعالى فيه : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة / ٢٢٨) والحق لا ينفصل عن الواجب أبدًا .

١١ . دعوته ل (التعايش مع أتباع الأديان الأخرى) وحملة الكتب السماوية ، ودعوته كذلك الجميع الالتفاف حول نقاط الالقاء والاشتراك ، كما نقرأ في قوله تعالى : ﴿فَلَيَأْهَلَّ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الَّذِي لَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَعَدَّ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ . (آل عمران / ٦٤)

١٢ . أعطى الإسلام أهميّة بالغة ل (العلم والمعرفة) ، وقد أشارت مئات الآيات

إلى ذلك ، وهذا الأمر كان مثيراً وملفتاً للنظر لاسيما إذا لاحظنا المحيط الذي نزل فيه القرآن ، والذي كان مركزاً للجهل والامية ، وأول الآيات التي نزلت على النبي ﷺ كانت تؤكد على العلم كما جاء في سورة العلق الآية ١ . ٥ .

ويقسم في مكان آخر بالقلم كما جاء في سورة القلم الآية ١ ، واعتبر أنَّ أفضلية (آدم) ، والبشر بصورة عامة تكمن في (فضيلة العلم والمعرفة) هذه. (البقرة / ٣٣ . ٣١)

١٣ . تعتبر فرضية (الأمر بالمعروف) و (النهي عن المنكر) أحدى المميزات المشرقة لهذا الدين والتي يعتبرها نوعاً من الإشراف والرقابة العامة على كل المجتمع بواسطة كل المجتمع ، ومسؤولية متنقابلة لكل أفراده في مقابل أي نوع من المفاسد الاجتماعية أو ترك القيام بالواجب ، انظر إلى سورة آل عمران الآية ١٠٤ و ١١٠ و آيات أخرى.

١٤ . بما أنَّ مصدر الكثير من المفاسد الاجتماعية هو الميل الشديد للقضايا المادية ، والتنافس في حب التحمل والبذخ في الحياة فقد دعا الإسلام إلى (العيش البسيط) ونبذ حب التحمل من أجل اغلاق مصدر الشر هذا كما في سورة الزخرف الآية ٣٣ . ٣٥ ، في نفس الوقت الذي اعتبر الانتفاع المعقول والمنطقي من المواهب المادية وحتى التزيينية والكمالية بائنة مباح وقد أشار إليه في سورة الأعراف الآية ٣٢ .

١٥ . دعوته إلى لـ (مراعاة الأداب) ، وحسن المواجهة مع الآخرين ، وملاحظة الموازين الأخلاقية في أي مكان ، وقد أشار لهذه المسألة في سورة لقمان ، الآيتين ١٨ و ١٩ ، وسورة الحجرات ، الآيتين ١١ و ١٢ ، وسورة الفرقان ، الآية ٧٢ ، وآيات أخرى. وورد

ايضاً في الآية : ﴿خُذِ الْعُفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١). (الأعراف / ١٩٩)

١٦ . استخدام (البحث المنطقي) في الحوار مع اتباع الأديان الأخرى بدلاً من التعصب الأعمى ، يقول القرآن الكريم : ﴿إِذْ أَنْذِرْنِي سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْخَيْرَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. (النحل / ١٢٥)

(١) في حديث للإمام الصادق عـ أن هذه الآية أكثر الآيات الأخلاقية شمولاً في القرآن المجيد (تفسير مجعـ البـيان ، ذيل الآية مورد البحث).

١٧ . (الخضوع للحق) وقوله من أي كان لأنه يعتبر واحداً من المبادئ السامية للدين الإسلامي ، يقول تعالى : ﴿فَيَسِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّسِعُونَ أَحْسَنَهُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأَوْلَئِكَ هُمُ اُولُوا الْالْبَابِ﴾ . (الزمر / ١٧ - ١٨)

١٨ . (اخلاص النية من الدوافع غير الإلهية) من الاصول التي أكد عليها القرآن الكريم والروايات الإسلامية مراراً ، واعتبرها من الأعمال النزيحة المقبولة عند الله تعالى ، والتي تؤدي إلى النجاة والسعادة هي الأعمال التي لم يقصد بها التظاهر والرياء ، وإنما التي يراد بها غايات إنسانية وأخلاقية وإلهية سامية تشكل ركناً أساسياً ، واستندت سبعة آيات من القرآن إلى جملة ﴿مُنْحَلِصِينَ لَهُ الدِّين﴾ ^(١).

ومن جهة شبة صدقات المؤمنين . الخالصة . في سورة البقرة ، الآية ٢٦٥ بالستان المليء بالشمر عندما تنزل عليه رحمة المطر الإلهية تتضاعف ثماره ضعفين .

ومن جهة أخرى شبهة في سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ أعمال المريئين . غير المؤمنين . بالبذور التي بذرت في تراب قليل على صخر صلد جرفه المطر عندما نزل عليه .

١٩ . انتقد الإسلام بشدة (الاسراف والتبذير) وسمى المبذرين بإخوان الشياطين :

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا أَخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ . (الاسراء / ٢٧)

٢٠ . من الاصول الأساسية للإسلام أيضاً : (رعاية الأطفال الأيتام وفادي المعيل) وأكدت آيات وروايات كثيرة على ذلك إلى الحد الذي اعتبرت فيه أكل أموال الأيتام كأكل النار : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ امْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ . (النساء / ٢٣)

(١٠)

وفي مكان آخر أوصى بإصلاح شؤونهم ، يقول تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ اصْلَحْ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ . (البقرة / ٢٢٠)

٢١ . احترام الاسرى في الإسلام ، وقد أوصى بحسن معاملتهم واعتبر مساعدتهم وإعانتهم في القرآن الكريم بأكملها جزءاً من أعمال الابرار والاحيارات : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبَّبِهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ . (الدهر / ٨)

(١) الأعراف ، ٢٩ ؛ يونس ، ٢٢ ؛ العنكبوت ، ٦٥ ؛ لقمان ، ٣٢ ؛ غافر ، ١٤ و ٦٥ ؛ البينة ، ٥ .

وجاء في حديث للإمام علي عليه السلام : (اطعام الأسير والاحسان إليه حق واجب) ^(١).
 ٢٢ . ومن المسائل المهمة التي أكد عليها القرآن الكريم والروايات الإسلامية هي مسألة (التشاور في الامور) ، حتى أنّ الرسول الأكرم عليه السلام مع عقله الكامل كان مأموراً بالاستشارة : ﴿وَشَارُوْهُمْ فِي الْاْمْر﴾ . (آل عمران / ١٥٩)
 واعتبر التشاور في الامور الاجتماعية المهمة بأنه احدى علائم الإيمان : ﴿وَمَرُوْهُمْ شُورَى بَيْنَهُم﴾ . (الشورى / ٣٨)

٢٣ . كانت (محاربة الخرافات) أيضاً من المهام الرئيسية للنبي عليه السلام في حين كان مدعو النبوة الكاذبون يصررون على نشر الخرافات وتمثيل أفكار الناس عن طريقها ، ولترغيب العامة لقبول خرافاتهم ، ولكن نبي الإسلام عليه السلام حطم هذا السد ، بل كان يحارب كلّ خرافةٍ حتى لو كان الإسلام يستفيد منها ظاهراً .
 وأي خرافة أكبر من (عبادة الأوثان) التي اجتاحت جزيرة العرب بأسراها ، إلى حد أن مخالفتها والإعراض عنها أصبح مشكلة عويصةً وعجيبةً جداً ، بل عدّ أحياناً من علامات الجنون ، وأثناء ما كان النبي عليه السلام يدعو لعبادة الإله الواحد الأحد ، قالوا : ﴿اْجْعَلْ لِلَّهِ الْهَّمَا وَاحِدَّا اَنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ . (ص / ٥)

وظاهراً إن أحد أسباب نعت نبي الإسلام عليه السلام بالجنون هي أنه نقض محاربة قضية عبادة الأصنام التي كانت من أكثر بدائيات تلك البيئة والمحيط .
 والخلاصة هي أنّ عرب الجاهلية كانت تخيم عليهم خرافات كثيرة يطول شرحها ، وقد حاربها الرسول عليه السلام كلها .

٢٤ . من المسائل التي أعطاها الإسلام أهمية كبيرة هي تحرير الإنسان من رقعة الموى والهوس واستعباد الآخرين ، أو الوقوع في أسر الأعراف والتقاليد وال السنن المغلوطة ، إلى درجة اعتبار فيها أن أحدى صفات النبي عليه السلام هي : ﴿وَيَنْهَا عَنْهُمْ اصْرَهُمْ وَالْاَغْلَالَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهِمْ﴾ . (الأعراف / ١٥٧)

(١) وسائل الشيعة ، ج ١١ ، ص ٦٩ أبواب جهاد العدو ، الباب ٣٢ ، ح ٣ .

وجاء في الحديث النبوى المعروف : أَنَّ أَحَدَ الذُّنُوبِ الَّتِي لَا يغْفِرُهَا اللَّهُ أَبْدًا هِيَ أَنْ يسلبُ الْإِنْسَانَ حُرْيَةَ الْإِنْسَانِ الْآخِرِ وَيُسْتَعْدِدُ وَيُبَيِّعُهُ ^(١).

٢٥ . أَحَدُ الْبَرَامِجِ الْأَسَاسِيَّةُ لِهَذَا الدِّينِ (الْمَنْعُ مِنَ التَّكَاثُرِ) وَطَلْبُ الزِّيَادَةِ وَالْحَرْصِ وَالْطَّمْعِ فِي الْأَمْوَالِ الْمَادِيَّةِ ، وَقَدْ اشِيرَ إِلَى ذَلِكَ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَكَذَلِكَ الرَّوَايَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، إِلَى حَدِّ اعْتِبَرِهَا مِنَ الصَّفَاتِ الْمَذْمُوَّةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَجَعَلُهَا مَرَادِفَةً لِلْهُوِّ وَاللَّعْبِ وَالْتَّفَارِخِ (الْحَدِيدُ . ٢٠) ، وَعِدَهَا سَبِبًا فِي عَدَمِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَذَمَّ بِشَدَّةٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَوَجَّهُونَ صَوْبَ الْقُبُورِ لِحَسَابِ قُبُورِ مَوْتَاهُمْ حَتَّى يَشْبَتُوا كُثْرَةً قَبَائِلَهُمْ : ﴿أَلَهَاكُمُ التَّكَاثُرُ هَتَّى رُزُّتُمُ الْمَقَابِر﴾ . (التَّكَاثُرُ / ٢٠١)

وَيَقْصُّ عَلَيْهِمْ . بِالْتَّفَصِيلِ . قَصَّةُ «قَارُونَ» الْمُسْتَكْبَرُ الْمُسْتَكْثَرُ الَّذِي كَانَ يَرَى نَفْسَهُ فَوْقَ الْجَمِيعِ ، وَعَاقِبَتُهُ وِعَاقِبَةُ أَمْوَالِهِ بَعْدَ أَنْ خَسَفَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، وَبِنَهْيِ نَبِيِّهِ ﷺ عَنْ مَدِعَيِّهِ إِلَى الْإِمْكَانَاتِ الْمَادِيَّةِ لِهُؤُلَاءِ الْأَفْرَادِ أَوْ اعْتِبَارِهَا عَلَمًا عَلَى أَفْضَلِيَّتِهِمْ وَعَلَوْهُمْ ، (طه / ١٣١ ، الْقَصَصُ / ٧٦ فَمَا بَعْدُ).

٢٦ . (الدُّعَوَةُ إِلَى الْإِتَّحَادِ وَالنَّضَامِ) يُمْكِنُ اعْتِبَارُهَا جُزْءًا مِنَ الْأَوَامِرِ الَّتِي تَحْتَلُّ صَدْرَ قَائِمَةِ الْبَرَامِجِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالَّتِي ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِتَأْكِيدٍ شَدِيدٍ ، فَكَانَ يَدْعُو الْجَمِيعَ إِلَى الْإِتَّحَادِ وَبِنَهَا هُمْ عَنِ التَّفْرِقَةِ ، وَيَحْذِرُهُمْ مِنِ الْعُودَةِ إِلَى اخْتِلَافِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعَدَ الْأَفْرَادَ الْمُتَفَرِّقِينَ الْمُشَتَّتِينَ عَلَى شَفِيرِ هَاوِيَّةِ مِنَ النَّارِ ، (آلُ عُمَرٍ . ١٠٣) وَاعْتَبَرَ التَّنَازُعُ وَالْاَخْتِلَافُ مُصَدِّرًا لِضَعْفِ الْجَمِيعِ ، وَضَيَاعِ قَدْرَتِهِ وَشُوَكْتِهِ ، (الْأَنْفَالُ / ٤٦).

٢٧ . (احْتِرَامُ الْقَانُونِ) يَعْتَبِرُ مِنْ أَهْمَّ وَصَاحِبَيِّ إِلَيْسَامِ الَّتِي أَكَدَّ عَلَيْهَا لِدْرِجَةِ أَنَّهُ قَالَ : احْتَرِمُوا الْقَانُونَ حَتَّى لَوْ حَكِمَ ضَدَّكُمْ ، وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ : ﴿كُوَّنُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنِ﴾ . (النَّسَاءُ / ١٣٥) وَاعْتَبَرَ نَقْضُ حِرْمَةِ الْقَانُونِ حَرَمًا ، وَالْتَّعْدِي عَلَى (حَدُودِ اللَّهِ) ظَلَمًا وَجُحْرًا : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ . (الْبَقْرَةُ / ٢٢٩)

(١) عن النبي ﷺ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَافِرٌ كُلَّ ذَنْبٍ إِلَّا مَنْ جَحَدَ مَهْرًا ، أَوْ اغْتَصَبَ أَجْيَرًا أَجْرَهُ ، أَوْ بَاعَ رَجُلًا حَرَمًا ، سَفِينَةَ الْبَحَارِ ، مَادَةً (أَجْرٌ).

وإن الإيمان الصادق هو التسليم المطلق لقانون الحق وترك معارضته حتى في حيز الفكر والعقل كما ورد في الآية ٦٥ من سورة النساء.

٢٨ . (نبذ حب الانتقام) ولم تكن هذه الصفة الحميدة مختصة بالرسول ﷺ وإن تجلّت بوضوح كامل في حربه وخاصةً في فتح مكة ، وإنما أوصى أتباعه مراراً وتكراراً إلى العفو والصفح ، وغض النظر عن زلات الآخرين وتذكيرهم بالعفو الإلهي : ﴿وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا إِلَّا تُحِبُّونَ إِنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم﴾ . (النور / ٢٢)

بل تدعى ذلك إلى القول : ﴿إِذْ فَعَلْتَ مَا يَنْهَا هَيْنَا احْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَنْهَا وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ﴾ . (فصلت / ٣٤)

ولكنه مع كل هذا لا يسمح بأن يستغل الأعداء الحاقدون رحمة الإسلام ورافقه ، بل كان ﷺ يأمر أصحابه : مثلما عليكم أن تكونوا لينين وعطففين مقابل الأصدقاء والأعداء المخدوعين فيجب عليكم أن تعاملوا مع الأعداء الأشداء بخشونة وشدة ، حتى أنه وصف الصادقين بأنهم : ﴿إِشْدَادُهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ . (الفتح / ٢٩)

٢٩ . (الدعوة إلى التقوى) وهي من القضايا التي يستند إليها الإسلام في كل مناسبة ، ويعتبرها السبيل الوحيد لخلاص الإنسان ، وزاد آخرته ^(١) ، ومعيار شخصيته ^(٢) ، وببركة الدنيا ^(٣) ، وسعادة الآخرة ^(٤) ، وسبباً للبصيرة والمعرفة ^(٥) .

٣٠ . (الحب والبغض في الله) من اسس التعاليم الإسلامية أيضاً ، أو بتعبير أوضح اعتبر الإسلام كل من يخطو في محنة الإيمان ، والحق ، والعدل ، والتقوى ، والنزاهة ، صديقاً يجب توثيق العلاقة معه ، وبالعكس أوصى بالابتعاد عن الاشرار وذوي السمعة السيئة والملوثين والظالمين ، واعتبر القرآن الكريم الامتثال لذلك من علائم الإيمان الأصلية (حزب الله) ^(٦) . واعتبرتها الروايات الإسلامية بأنها من أقوى عرى الإيمان والإسلام (أوثق

(١) البقرة ، ١٩٧ .

(٢) الحجرات ، ١٣ .

(٣) الأعراف ، ٩٦ .

(٤) مريم ، ٦٣ .

(٥) الانفال ، ٢٩ .

(٦) المجادلة ، ٢٢ .

عرى الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله^(١) ، وأفضل الأعمال^(٢) .

هذه طائفة من تعاليم الإسلام في الأصول والفروع .

فهل يصدق أن يأتي إنسان أمي لم يتلقَّ أي تعليم ، وهو ابن بيئة غمرتها ظلمات الجاهلية ، وعاش في بؤرة الكفر والفساد والجور والخشونة ، بمثل هذه التعاليم؟ كلا بالطبع إلا إذا كان مسداً عن طريق الوحي السماوي والاهام والتأييد الإلهي .

إنَّ دراسة مضمون ومحظى الدعوة لأي دين من أفضل الأدلة التي يستخدمها العلماء لإثبات صدق أو كذب ما يدعوه ذلك الدين ، وأحياناً تكون مقدمة على الكثير من المعجزات ، لأنَّ العديد من الوساوس التي تبرز من قبل المعاندين للحجج لها (من قبيل اتهامه بالسحر وأمثاله) تصبح لا معنى لها عند البحث في محظى الدعوة ، بل وحتى يمكن تأليف كتاب ضخم حول هذا الموضوع وخاصةً حول تعليمات الإسلام في كافة الجوانب الاعتقادية والأخلاقية والاجتماعية ، وكذلك الميدان الواسع والفسيح لهذا البحث في المسائل الفردية والجماعية المعنوية والمادية .

بديهي أنَّه لا يمكن أن تكون هذه الجموعة من التعاليم الصادرة من عربي صحراوي أمي خرج من أكثر البيئات تخلفاً هي مسألة عادلة ، وباعتقادنا أنَّه لا توجد أي معجزة أكبر من هذه المعجزة ، أو على الأقل هي قرينة إذا ضممناها إلى القرائن الأخرى شكلت مجموعة مطمئنة وقوية .

* * *

٤ . عمق تأثيره في محطيه

صحيح إنَّ التأثير الواسع الذي تتركه مدرسة من المدارس في بيئة معينة لا يمكن أن يكون بمفرده دليلاً على صحتها ، لأننا نعرف العديد من الديانات والتعاليم الخاطئة تركت

(١) أصول الكافي ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

(٢) سفينة البحار ج ١ ، ص ٢٠١ .

تأثيرها على بيئات واسعة وكانت نهايتها أن انفطرت عقدها أو لازال البعض منها متصلةً ، ولكن كيفية هذا التأثير وما هيته يمكن اعتباره كقرينة حية إلى جانب القرائن الأخرى . وعندما يكون هذا التأثير على شكل قفزة وفي جوانب إيجابية ومع أقل الاضرار ، فمن المسلم به أن يدلّ على عمق تلك المدرسة وأصالتها.

ومن له أدنى اطلاع على تاريخ العرب والإسلام لا ينكر الفاصلة الزمنية التي مرت بها ٢٣ عاماً وهي سني دعوة الرسول ﷺ . الفاصلة التي أحدثت (طفرة فلسفية) أكثر مما هي ثورة؟

فالمبودون الذين لم يتركوا في التاريخ اسماءً ولا رسماً ... ومن وجهة نظر علم الاجتماع لم يخطّ على جاهمهم أي استعداد للتطور المذهل حتى لو بعد عدة قرون ، يتحولون فجأة ويدخلون مرحلة جديدة من الحضارة العظيمة ، ولم يغيّروا أنفسهم فقط ، بل غيروا أيضاً العالم المعاصر لهم ولتبقي آثار هذه الثورة والتغيير ظاهرة في القرون اللاحقة وإلى زمان غير محدود ...

حضارة حولت مسيرة تاريخ البشرية ، وغطت باشعاعها الحضارات الخمس العظمى في عصرها ، أي : (حضارة الروم) و (ايران) و (مصر) و (بابل) و (اليمن) . وهذا بالضبط ما لم يستطع المؤرخون وعلماء الاجتماع تفسيره وفق المعايير المعروفة التي بين أيديهم ، وإن كانوا قد الفوا كتاباً بعنوان : تاريخ حضارة الإسلام ، أو مسميات أخرى ، ولكنهم يعترفون بأنّه لازلت عندهم نقاط كثيرة غامضة لم تجد الحل حول ظهور الإسلام ونفوذه في العالم .

والمفت هو أنّ هذه الثورة وهذا التحول . خلافاً لسائر الثورات . لم يحدث على صعيد واحد ، ولم تكن له جوانب سياسية أو اقتصادية فحسب ، بل وغير كل نظم المجتمع كالثقافة ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والآداب ، والتقاليد ، وكل شيء . ملخص الكلام : هو أنّ ابعاد تأثير الإسلام في محيط ظهوره ، ثم في العالم كله ، وكل التاريخ البشري ، هو موضوع يستحق الدقة التي تجعله قرينة ساطعة من قرائن حقانيته ، وأن شرحه وبيانه يتطلب وضع كتاب منفصل .

٥ . ما هي الوسائل الكفيلة لبلوغ الهدف

كل فرد أو مجموعة مضطرون . من أجل الوصول إلى أهدافهم . إلى الاستفادة من وسائل معينة . واحتبار هذه الوسائل يمكنه أن يساعد إلى حد بعيد في التعرف على اصالة وأحقية تلك المدرسة أو على تزويرها وخداعها .

وبديهي أن أولئك الذين يعتبرون الاستفادة من كل وسيلة . للوصول إلى أهدافهم . جائزة ، ويجعلون أصل (الغاية تبرر الوسيلة) ، أو (الغايات تبرر الوسائل) ببرامجهم الأصلي هم بعيدون عن الاصالة .

أما أولئك الذين يستخدمون الوسائل المقدسة لنيل أهدافهم المقدسة فهم يعطون الدليل على أحقيتهم ، ويمكن تمييز مدعى النبوة الصادقين من الكاذبين عن هذا الطريق . الأشخاص الذين لا يعترفون بأي قيد أو شرط للوصول إلى أهدافهم ويعتبرون كل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة مباحة والذين يعتبرون مفاهيم من قبيل العدالة والامانة والصدق والاحترام للقيم الإنسانية محترمة طالما أنها تعينهم للوصول إلى أهدافهم وإلا تركوها ونبذوها فمسلماً أنها في مدعى النبوة الكاذبين .

إن الأنبياء الإلهيين هم أولئك الذين يحترمون الأصول الإنسانية حتى في حروفهم ، ولا يعدلون عنها في الشدائيد والمحن مطلقاً ، وعند انتصارهم لا يتجاوزون أصول العدالة ، والعفو ، والتسامح مع أعدائهم ، وفي أوقات الخطر واحتمال عدم تحقيق النصر لا يتجأرون إلى الوسائل غير الإنسانية .

وإذا قسنا هذا الأصل الكلي مع حياة نبي الإسلام ﷺ والتفتنا إلى سلوكه مع الأعداء والأصدقاء ، في أوقات تحقيق النصر أو عدم تحقيقه ، في الشدة والرخاء ، فسوف ندرك جيداً أنه كان متبعاً لقيم خاصة في اختيار وسائل الوصول إلى الهدف .

لم يلجم النبي ﷺ مطلقاً في لحظات الخطر إلى استخدام أساليب غير إنسانية ، بل وراعى المسائل الأخلاقية الدقيقة حتى في ساحة القتال .

فعند انتصاره في (فتح مكة) أصدر (العفو العام) عن أخطر أعدائه ، وصفح حتى عن القتلة و مجرمي الحرب .

ولما سمع أحد قادة الجيش يعلن شعاراً ثارياً ويقول :

(اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً) أمر فوراً بعزله وقال :
ليقولوا بدل هذا الشعار (القبيح وغير اللائق) : (اليوم يوم المرحمة ... اليوم أعز الله قريشاً)
(١).

وحتى حين وقف كبراء مكة صفاً ليروا حكم الرسول ﷺ ب شأنهم (وكان الكثير من الناس يتوقعون أن يشدد الرسول ويقسوا على هؤلاء الأعداء الحاذفين) التفت إليهم ﷺ وقال : «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا : لا نظن إلآخرأ. فقال ﷺ : «أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : ﴿لَا تُشَرِّبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَقْفَرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

(يوسف / ٩٢)

«اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الظَّلَّاءِ».

وعندما قتل (خالد بن الوليد) أسرى بني خزيمة بدون سبب ووصل الخبر إلى النبي ﷺ . تألم بشدة وقال مرتين أو ثلاث : «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» ، ثم أمر علياً عاشلاً أن يذهب مع مبلغ من المال إلى تلك القبيلة فيعطيهم دية قتلهم ويعوض ممتلكاتهم التي تضررت بالمال وأن يسعى في جلب رضاهم (٢).

إنَّ هذه الامور لا يمكن مشاهدتها في حروب عالم اليوم ، وحتى في مهد الحضارة الصناعية ، فقد شهد العالم افضع مأساة الانتقام في نهاية الحرب العالمية الاولى والثانية ، والجرائم التي لا تُعد للجيوش المنتصرة.

والآن كيف اتصف النبي ﷺ بكل هذا العفو والرحمة بين قوم نصف متوحشين؟ هذا السؤال يجب أن يجيب عليه العقلاء والحكماء.

كان ورعه واجتنابه عن الأساليب الإنسانية إلى درجة أنه ﷺ ، يرفضها حتى ولو تهيأت مقدماتها وأسبابها بصورة طبيعية ، ومهما بدت في الظاهر أثناً مؤيدة له ، ففي حادثة وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ قيل : إنَّ الشمس كسفت تزامناً مع هذه الواقعة ، وقال بعض الناس : إنَّ كرامة ومعجزة من قبل النبي ﷺ ، وإنَّ الشمس كسفت لوفاة إبراهيم.

(١) نقلت هذه القضية بعبارات مختلفة في بحار الأنوار ، ج ٢١ ، ص ١٠٥ و ١٣٠ ؛ وفي حبيب السير : ج ١ ، ص ٢٨٨ ؛ وتفسير جامع البيان في ج ٢ ، ص ٣٣٤ ؛ وكمال ابن الأثير ج ٢ ، ص ٢٤٦.

(٢) حبيب السير ، ج ١ ، ص ٣٨٩.

لكن النبي ﷺ صعد المنبر وقال : «أيّها الناس إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره مطیعان له ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا انكسفاً أو أحدهما صلوا ، ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف ، فلما سلم قال : «يا علي قم فجهز ابني» ^(١).

تشير هذه القصة إلى أنّ النبي ﷺ سارع إلى هذا العمل حتى قبل اجراء مراسم دفن ابنه إبراهيم كي يقضي على هذه الفكرة الخاطئة قبل شيوخها وإن كانت لصالحه ظاهراً ... إنّه لا يريد أن ينفع من أساليب مغلوطة وغير مشروعة في التقدم لنيل أهدافه ومقاصده. وعلى الرغم من أنّ الحديث قد طال حول هذا الموضوع ، ولكن لابد في الختام من ذكر هذه النقطة وهي : إنّ دقائق الامور التي جاءت في اداب الحرب في الإسلام وأكدها عليها النبي ﷺ وأثبتت عمليا التزامه بها هي شاهد آخر على الادعاء الآنف الذكر.

فحينما كان الجيش الإسلامي يستعد للتحرك إلى أحد ميادين الجهاد ، كان النبي ﷺ يبين لهم واجباتهم الحساسة بهذه العبارات : «سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله ، لا تغلو ، ولا تمثلو ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة ولا تقطعوا شجراً إلاّ أن تضطروا إليه».

وفي حديث آخر : «... ولا تحرقوا النخل ، ولا تغروه بالماء ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تحرقوا زرعاً لأنّكم لا تدرون لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقرموا من البهائم يؤكل لحمه إلاّ ما لابد لكم من أكله» ^(٢).

وكان النبي ﷺ ملتزماً بكل المبادئ الأخلاقية السامية إلى تلك الدرجة التي جعلته في معركة خيبر يرفض اقتراح من أشار عليه بقطع الماء عن اليهود المحاصرين لمدة طويلة في داخل قلاع خيبر القوية ، وأحابه ﷺ قائلاً : «إنّي لا أقطع عنهم الماء أبداً».

وعندما قال له راعٍ لمواشي اليهود : إنّي حاضر لأنّ أعطيك هذه المواشي كلها ، رفض النبي ﷺ ذلك ونحاه أن يخون الأمانة التي أودعوها عنده ^(٣).

(١) بخار الأنوار ، ج ٢٢ ، ص ١٥٥ ، ح ١٣ (باب عدد أولاد النبي).

(٢) جاء هذا الحديث في مصادر متعددة وبعبارات مختلفة ، من جملتها كتاب الوسائل ، ج ١١ ، ص ٤٣ باب آداب امراء السرايا وأصحابهم ، ح ٢ و ٣.

(٣) سيرة ابن هشام ، ج ٣ ص ٣٤٤.

٦ . إيمانه وتضحيته في سبيل هدفه

من القراءن الرئيسة الأخرى لمعرفة المدعين للنبيّ الصادقين من الكاذبين هو إيمانهم بما يدعونه وتضحيتهم وايشارهم في سبيله ، ولأنّ المدعين الكاذبين مطلعون على حقيقة الأمر فلأيّهم بالطبع لا يضلون كثيراً في سبيل هدفهم ، بالإضافة إلى أنّهم مستعدون للمساومة وتحريف مدعياتهم ، في حين أنّ الصادقين منهم لا يجذّبون لأنفسهم أبداً من ذلك. صحيح أنّ هذا الأمر بمفرده غير كاف ، ولكن يعتبر قرينة حيدة تضم إلى القراءن الأخرى.

ولم ير في أيّ من كتب التاريخ أنّ نبي الإسلام ﷺ قد تراجع أو تنازل عن معتقداته ، أو فرّ من ميدان الجهاد ، وحتى في معركة (احد) عندما وصلت الحرب إلى أقصى درجات الشدة وفرّ من ساحة المعركة أغلب الجيش (أو كله عدا علياً عاشراً) وبعض المخلصين والتجاؤوا إلى مكان ليضمنوا بناهم ، هنالك حيث بقي النبي ﷺ صامداً في الميدان ، محتملاً أذى الجراحات بسبب اصابته في جبهته وأسنانه ولم يبق له في الظاهر أيّ أمل في النجاة ولكنه ظل صامداً.

وفي قصة (مرض أبي طالب) وطلب قريش منه . التي قرأناها في بداية الجزء السابق . أن يعرض على النبي ﷺ أن يكفّ عن ممارسته لعبادة الأصنام ، ويكتف عن الدعوة إلى الإله الواحد الأحد ، قال ﷺ : «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته»^(١).

ونقرأ في قصة أخرى : إنّ قريشاً جاءت للنبي ﷺ وأعطته وعداً بأنّ تضع تحت اختياره من المال ما يجعله أغنى رجال مكة ، وأنّ يُروّجوا أيّ امرأة يريدها ، ويجعلوه عليهم سيداً ، بشرط (أن يدع تسفية أصنامهم). وقالوا له : إذا لم تقبل فلدينا اقتراح آخر ينفعك وينفعنا وهو أن تبعد اهتنا مثل (اللات) و (العزى) عاماً ونحن نبعد آهتك عاماً لترى ما تكون العاقبة) ،

(١) تفسير جامع البيان ، ج ٢ ص ٦٧.

وهنا نزلت سورة **يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ، وردّ عليهم النبي ﷺ بالسلب ^(١).

وفي تفسير سورة طه (الآية الثانية) نقرأ : حينما كان النبي ﷺ . بعد نزول الوحي والقرآن . يتبعه كثيراً إلى حد تورّم قدماه المباركتان ، فنزلت الآية الآنفة لتنفعه من هذا العمل المرهق ، وقالت : **فَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى** . (طه / ٢) وهذه دلالة على أنه إلى أي حدّ كان مؤمناً بتعاليمه.

و (قصة المباهلة) ودعوة النبي ﷺ أعداءه . أن إذا كنتم تقولون حقاً فتعالوا بأهلكم ، ويطلب كل منا من الله أن ينزل العذاب على الكاذب ويفضحه . هي دلالة أخرى على إيمانه الراسخ بدينه ، لأنّه ﷺ أعلن استعداده التام لهذا الغرض ، وتراجع مخالفوه لأنّهم غير مطمئنين بأحقيتهم في المباهلة.

وقد نقل مؤرخو الشرق والغرب قصصاً وحكايات كثيرة عن (صمود النبي ﷺ) أمام الحوادث ومواجهته للمشاكل الكبرى التي يعجز الإنسان العادي عنها.

قال (غوستاف لوبيون) المستشرق الفرنسي المعروف : إنه لا يهرب من أي خطر ، وفي نفس الوقت لا يلقي بنفسه إلى الخطر بدون دليل ^(٣).

ويقول تلميذ تلك المدرسة العظيم أمير المؤمنين (عليه السلام) بشأن أحوال النبي ﷺ في سوح القتال : «كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه» ^(٤).

* * *

٧. من هم المؤمنون به؟

عادة ما يجتذب الأفراد غير الصالحين حولهم أفراداً مثلكم ، وهذه القاعدة وإن لم تكن دائمة ولكنها في الغالب هكذا.

(١) تفسير جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٧٠.

(٢) حضارة الإسلام والعرب ، ص ١١٩.

(٣) بحار الأنوار ، ج ١٦ ، ص ٢٣٢ ، وبنفس المضمون مع بعض التفاوت في نجح البلاغة. الكلمات القصار ، الكلمة . ٩.

ويتضح ذلك من مطالعتنا للمثل المعروف : (إِنَّ الْمُزُورَ يُعْرَفُ مِنْ زَائِرِيهِ) ، وعلة ذلك واضحة لأنَّ أهل الدنيا ومنتزهي الفرص يتوجهون دائمًا إلى أولئك المهيئين للتساوم معهم ، يعطونهم امتيازات ويأخذون منهم أخرى ، ليصلوا إلى مقاصدهم غير المشروعة.

وهذه المسألة خاصة تظهر أكثر وضوحا حول المقربين والخواص وحافظي أسرار ذلك الشخص ، فإذا رأينا اخلاص خواص تلك المدرسة ، وحملة أسرارها ، ومن ثق بهم ، أدركنا بالنهاية نزاهة وإيمان وصدق قائدتها ، وبالعكس ، فإذا التف حوله أفراد كذابون ، فنعيون فسوف نفهم بأنَّ الماء ينبع من منبع آسن.

والآن لنلقى نظرة على الخُلُصِ وحملة الأُسرار والتلاميذ الأصليين لمدرسة نبِيِّ الإسلام ﷺ ... أفراداً مثل (علي بن أبي طالب) ، وفي مراحل لاحقة أفراداً مثل (سلمان) و (أبو ذر) و (المقداد) و (عمر بن ياسر) و (صهيب) و (بلال) وأضرابهم ، فرى كل واحد منهم كان نموذجاً للتقوى والفضيلة والإيمان والمعرفة والزهد.

ونموذج آخر من هؤلاء الأفراد هم (أصحاب الصفة) المهاجرون الأبرار الذين هجروا كل ما يملكون في مكة ، والتحقوا بصفوف أصحاب النبي ﷺ وكانوا يعيشون في أسوأ الأوضاع الاقتصادية.

أو مجموعة السبعين شخصاً الذين توجهوا إلى منطقة (نجد) لنشر الإسلام ، ثم تجرعوا كأس الشهادة كلهم في هذا السبيل ، وكانوا يقضون الليل بالعبادة ، والنهار بجمع الخطب ليضعوا ما تجود به أيديهم باختيار أصحاب الصفة أولئك ^(١).

وكان من بين خلص أصحابه أفراد يعيشون في مستويات دنيا من حيث الموضع الاجتماعي ، والجوانب المادية والظاهرية ، ولكن النبي ﷺ كان يكرمهم لمميزتهم المعنوية ويقدمهم على الآخرين ، إلى ذلك الحد الذي سبب اعتراف مخالفيه الشديد وجاءه عدد من أعيانهم وكان عنده أفراداً من أمثال سلمان ، وصهيب ، وأبي ذر ، وعمر ، وخيّاب ،

(١) منتهى الآمال . وقائع السنة المحرية الرابعة . وجاء نفس المعنى مع بعض الاختلاف في تاريخ الكامل لابن الأثير ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

ونظرائهم من المعوزين والفقراء ، وحينما وقعت أعينهم على هذا المشهد قالوا بغور وتكبر :
 (لو نحيت عن هؤلاء روائح صنانهم ... جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء).

وهنا نزلت الآية الكريمة : **﴿وَاصِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَّ﴾**.

(الكهف / ٢٨)

وأمر النبي ﷺ بأن يكون دوماً مع هذه الزمرة الحفاة من أصحاب القلوب الطاهرة ،
 وأن لا يمد عينيه إلى الأجيحة الظاهرية للأثرياء الأنانيين ^(١).

وفي الآية التي بعدها تردد كلمات حادة وموجعة على ما يطلب المستكبرون فتقول :

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلِيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلِيَكُفُرْ إِنَّ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا احْاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾. (الكهف / ٢٩)

وهذا البيان الصريح والقاطع يثبت بشكل جيد أن الإسلام عن أي طبقة يدافع؟ وما هي الطبقات التي تحتل الصفواف المتقدمة فيه؟

ويعتبر القرآن الكريم التفاف الأفراد المؤمنين المخلصين والأبرار حول النبي الأكرم

ﷺ بأنه واحد من شواهد حقانيته ﷺ إذ يقول : **﴿إِنَّمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ وَيَنْتَلُوُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾**. (هود / ١٧)

ولكن أكثر المفسرين يعتقدون بأن (البينة) هي نفس القرآن والمعجزات ، وأن المقصود بـ (الشاهد) هم الاتباع المضحون المؤمنون المخلصون أنفسهم.

ومن البديهي أن إيمان شخص كعلى عليه عليه السلام بما يتتصف به من المميزات العلمية والمعنوية والأخلاقية التي اتضحت في (نحو البلاغة) يمكن أن يكون شاهداً ناطقاً على حقانية النبي

عليه السلام.

* * *

(١) نقل هذه القصة الكثير من المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة ، تفسير مجمع البيان والقرطبي في ذيل الآية ٢٨ من سورة الكهف.

٨ . التطور السريع

إنّ التطور السريع ، والتقدم الخارق لدين ما ، وإيجاده لتحول عظيم وواسع ، يمكنه أن يشكل قرينة أخرى على أصالته وحقانيته ، لأنّ تأثيراً كهذا يكون ممكناً فقط إذا كانت قواعد هذا الدين مستندة إلى فطرة الحياة وواقعها ، ومنطبة مع قوانين الخلق والإبداع ، أي نفس القوانين المتحكمة بحياة البشر.

فالقانون غير الفطري ، وغير المنسجم مع التركيب النفسي والبدني للإنسان ، يتقدم بصعوبة بالغة ، وإذا تقدم بسبب استخدام عوامل سلطوية مشددة ، فمثلاً في بداية دعوة الشيوعية لنفسها كان لها تقدم سريع ومثير ، ولكننا نعرف جميعاً أنّ ذلك تم باللحوء إلى استخدام القوة وسفك الدماء والدكتاتورية الشديدة ، في حين أنّ التقدم الفكري السريع والعميق إذا جرى في عمق أفكار المجتمع كان دلالة على أصالته ، ونحن نعلم بأنّ الإسلام قد انتشر في مناطق شاسعة في القرون الأولى من ظهوره بدون أن تطأها أقدام حتى جندي مسلم واحد.

على كل حال إنّ الانتشار السريع للإسلام في ظاهر المجتمع البشري وباطنه ، وبمناطق شاسعة من هذا العالم ، وذلك في خلال برهة زمنية قصيرة أيضاً ، ليس بالشيء الذي ييفى خافياً على أحد ، والمثير أنّ هذا الدين ظهر في منطقة نصف متوجبة ، وبسط نفوذه على كل العالم المتمدن في ذلك الزمان وفي مدة وجيزة.

وهذا النفوذ السريع والشامل لازال يشكل لغزاً مُحِيرًا للمؤرخين الكبار من غير المسلمين ، وكنموذج على ذلك :

١ . عندما يصل مؤلفو كتاب (حضارة الغرب ومرتكزاتها في الشرق) وهم ثلاثة من العلماء الغربيين المعروفيين . إلى فصل ظهور وانتشار الإسلام ، يعترفون بصرامة قائلين : «كل المحاولات التي جرت لمعرفة الإسلام وانتشاره السريع . إلى الحد الذي استطاع أن يبسط ظلاله على القسم الأعظم من العالم المتحضر آنئذٍ في أقل من قرن . وعلى الرغم من كل التفسيرات والتحليلات التي وردت عن هذه الحقبة التاريخية فلا زالت هذه القضية باقية على شكل لغز من الألغاز»^(١) .

(١) حضارة الغرب ومرتكزاتها في الشرق ، فصل ظهور الإسلام وانتشاره.

٢ . كتبت السيدة (فاغلري) العالمة الاوربية المعروفة كتاباً بعنوان (انتشار الإسلام السريع) يمكن اعتباره شاهداً آخر على هذه المسألة ، إذ اعتبرت الانتشار السريع للإسلام بأنه أمر اعجازي ، كما أن القرآن كتاب اعجازي لا يمكن أبداً لـ محمد عليه السلام العربي الامي أن يتذرعه.

٣ . وعبرَ باحث ايطالي في أحد فصول كتابه عن تاريخ الرياضيات حول (الرياضيات عند المسلمين) بأنّما أحدى معجزات العرب . واعتبر أنّ ما أحدثه الإسلام سريعاً وعميقاً إلى درجة يعجز المنطق والتعبير العادي عن تفسيره.

ثم يضيف : «إنّ ما ينسبة البعض من المسلمين للمشيخة والقدرة الربانية في ظهور الإسلام وثقافته ... هو في الحقيقة دلالة على أنّ أصل تطور الحضارة البشرية هذا كان غير متلائم مع موازين إمكانات ومتضيّفات تلك الأزمنة إلى الحد الذي جعلهم لم يستطعوا أن يجدوا له تفسيراً سوى مشيئة الله وتقديره» ^(١) .

٤ . يقول الكاتب الانجليزي الشهير (برنارد شو) في أحد كتبه حول عظمة نبي الإسلام محمد عليه السلام : «إنني أنظر دائماً إلى دين محمد عليه السلام باحترام كبير ، لأنّه يتمتع بحركة وطراوة عجيبة ، وأعتقد بأنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتطابق مع أدوار الحياة المختلفة ، ويتلائم مع كل عصر وزمان ... نحن ننظر إلى القرآن ككتاب لـ محمد عليه السلام بنفس التعظيم والثقة التي ينظر فيها المسلمون له ويعتبرونه كتاب الله» ^(٢) .

٥ . يتبنّى هذا العالم الانجليزي (برنارد شو) في مقال عن جاذبية الإسلام وانتشاره ويقول : «إنّ الإسلام وبما يمتلكه من نفوذ معنوي يزيد باضطراد من اتباعه خاصّةً في البلدان الوربية» ^(٣) .

وإذا أردنا جمع شهادات المؤرخين المسلمين وغير المسلمين حول هذا الموضوع فإنّها

(١) قاموس دارسي الشؤون الإسلامية الأجنبية ، ج ١ ، ص ٦٠ ، تأليف حسين عبد الله خوروش (باللغة الفارسية).

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٠٥ .

تشكل كتاباً ضخماً ، لذا نكتفي بهذا المقدار :

١ . الأخلاق والصفات الخاصة الأخرى لنبي الإسلام ﷺ بذاتها شاهد معبر على أنه يتغى هدفاً مقدساً ، وينفذ مهمته إلهية ، ولم تلاحظ أي عالمة من علامات المدعين الكاذبين ومتهزي الفرص المستفعين في أخلاقياته .

وأشارت كل كتب التاريخ تقريباً . سواء التواريخ التي كتبها المسلمون أو غير المسلمين . إلى قضية نزاهته وأمانته وإلى ذلك الحد الذي يعرف فيه كل الناس هذه الصفات حتى في الجاهلية ويلقبونه بـ (الأمين) ، بل وبعد ظهور الإسلام كذلك كان معارضوه وأعداؤه يودعونه أماناتهم ، ولهذا السبب عندما أراد النبي ﷺ الهجرة إلى المدينة بعد مضي (١٣) عاماً من ظهور الإسلام أمر علياً عليه السلام أن يبقى في مكة ليعيد للناس أماناتهم ثم يهاجر إلى المدينة . ومن المناسب أن نتأمل في هذا الحديث عن لسان الآخرين ، لنرى ما لدى أولئك

الذين هم غرباء عنه في الظاهر من شهادات صريحة عن هذا الموضوع :

ينقل عن كتاب (الاعتذار إلى محمد ﷺ) للإنجليزي (جان ديفن بورت) قوله : «بلا شك إذا لم نأت به «محمد» كواحد من نوادر العالم وكأطهر نابغة استطاع الكون تربيتهم حتى الآن ، فيجب أن نعتبره من أعظم البشر ، والشخصية الوحيدة التي يمكن لقارة آسيا أن تفتخر بوجود هكذا ابن لها» ^(١) .

٢ . في كتاب (محمد رسول الله ﷺ) نقاً عن كتاب (الإسلام من وجهة نظر فولتير) أن (نابليون) قال منتقداً (مسرحية فولتير) التي وردت فيها اهانات لساحة الرسول ﷺ : «إن فولتير خان التاريخ والوحдан الإنساني لأنّه أنكر السجايا السامية لـ محمد ﷺ ، وصور هذا الرجل العظيم الذي سلط نوراً إلهياً على وحوه العاملين ، على صورة موجود آخر» ^(٢) .

٣ . وصفة أنّ (فولتير) نفسه غير رأيه بهذه المسرحية المهينة أواخر عمره واعترف

(١) عذر التقصير إلى ساحة محمد والقرآن ، ص ١٤ (فارسي) .

(٢) محمد رسول الله ، ص ١٤٢ .

صراحة بالقول : «يوجد في محمد شيء يدفع الجميع لاحترامه ، وأنني أسأل كثيراً بحق محمد» ^(١).

٤ . جاء في كتاب (دائرة المعارف البريطانية) في ذيل الكلمة (القرآن) : «يعتبر محمد من بين الرجال والشخصيات الدينية العظيمة في العالم ، أكثر الشخصيات توفيقاً وظفراً ، وكانت رسالته مرادفة للنجاح والانتصار» ^(٢).

٥ . يقول الفرنسي (غاستاف لوبيون) مؤلف الكتاب المعروف (حضارة الإسلام والعرب) : «إن بساطة ووضوح أصول العقائد الإسلامية بالإضافة إلى التعامل مع الناس بالعدل والاحسان الذي طبع وجه الدين الإسلامي بطابعه المثير صار سبباً في أن يبسط نفوذه على وجه الأرض كلها».

٦ . يقول (لامارتين) الشاعر الفرنسي المعروف بعد بيان مفصل في مدح النبي الإسلام عليه السلام : «هذا هو محمد الذي لو أردنا أن نزن عظمته بأي ميزان فإننا سوف نضطر للقول : بأنه ما من رجل في العالم أعظم من محمد» ^(٣).

٧ . طبيب وكاتب لبناني مسيحي معروف اعتبر في أشعاره التي نظمها عن (نبي الإسلام) عليه السلام بأنه أفضل مدبّر وحكيم وعالم ، ورب للكرم والكلام ، ورجل العقل والسياسة ، وبطل ميدان المعارك ، ووصفه بصفات ليس لها نظير ^(٤).

٨ . مع أنّ البعض من مؤرخي الغرب المغرضين والمتتفعين حاولوا أن يعطوا صورة عن النبي الإسلام عليه السلام مخالفة للواقع ، ولكن الرد عليهم هو نفس الرد الذي كتبه أحد من باحثيهم باسم (يوحنا واكبرت) الذي انتقد في كتابه (محمد والإسلام) الكتاب المتعصبين والمغرضين الذين كتبوا عن النبي الإسلام عليه السلام خلافاً للحقيقة ، يقول : «بالقدر الذي يعود فيه الشخص إلى الحقائق المعتبرة تاريخياً ، والمصادر الموثقة والصحيحة التي كتبت عن أقوال

(١) محمد رسول الله ، ص ١٤٣ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية ، مادة (قرآن).

(٣) نقاً عن كتاب (تاريخ ترکیا) حسب كتاب (قاموس دارسي الشؤون الإسلامية ، الاجانب) ص ٦١ (فارسي).

(٤) قاموس دارسي الشؤون الإسلامية الاجانب ، ص ٥٣٤ (فارسي).

وأفعال وحالات محمد فسوف ييلدو في نظره شاتمو هذا النبي أمثال (ماركس) و (برايدر) وسائل هؤلاء الأشخاص توافة وحرقاء وضعفاء جداً»^(١).

ملخص القول : ليس أصدقاؤه واتباعه فحسب ، بل ومخالفوه والبعيدين عنه تحدثوا عن صفاتيه وسجايته وملكاته الأخلاقية الفاضلة ، وبرامج حياته الشخصية والاجتماعية القيمة بالقدر الذي لو جمعت أقوالهم هذه لشكلت عدة كتب كبيرة.

* * *

من جموع هذه القرائن العشر التي كان لنا في كل منها إشارة عابرة ، يمكن أن نستنتج بأنّه كاننبياً صادقاً ورسولاً حقيقةً ومبعوثاً من الله العظيم ، ولا يوجد في ذلك أدنى شك أو تردد وحتى لو غضبنا النظر عن كل معجزاته وخوارق العادات التي جاء بها. هذا الدليل يعتبر كافياً لوحده ، بل وكما أشرنا سابقاً أيضاً أنّ هذا الدليل بالنسبة للعلماء أسمى وأعلى من المعجزات.

* * *

(١) محمد من وجهة نظر الآخرين ، نقاً عن قاموس دارسي الشؤون الإسلامية ، الاجانب ، ج ١ ، ص ١٦٤ (فارسي).

الطريق الثالث :

البشارات والإشارات

الطريق الثالث : البشارات والإشارات

تمهيد :

الدليل الثالث ، وهو من الأدلة التي يمكن إقامتها لتصديق أقوال نبي الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي البشارات والإشارات التي جاءت في (الكتب السماوية السابقة) ، وبالرغم من أنَّ الكثير من هذه البشارات قد غطتها سحب من التعصب وتم حذفها أو تغييرها وتزويرها من كثرة التحريفات التي جرت على الكتب السماوية السابقة ، ولكن لازلت إشارات كثيرة عن هذا الموضوع تبدو للناظر في نفس كتب الديانات الأخرى الموجودة بين أيدينا اليوم. وتشير القراءن إلى أنَّ هذه الإشارات والدلائل كانت في متناول اليد في بداية ظهور الإسلام أكثر من الوقت الحاضر بالشكل الذي كان القرآن الكريم يستند إليها مكرراً ويدعو (اليهود) و (النصارى) للتدقيق فيها ، وبلا شك إذا لم يكن ذلك موجوداً ، فلا يمكن للقرآن أن يعتمد على تلك الإشارات بمذهن الصراحة.

وهناك نقطة تشير الانتباه ، فكما صرحت الكثير من كتب التاريخ أنَّ مجيء مجموعة من اليهود إلى أرض المدينة كان بداعي البشارات التي قرأوها في كتبهم عن ظهور نبي الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأنَّ الشوق وتمني إدراك زمان ظهوره هو الذي أجبرهم على ترك ديارهم والجلاء عن أوطانهم وسكنوا المدينة ، وإلا فإنَّ بيئة الحجاز عموماً والمدينة خاصةً ليس فيها ما يجذب للحياة المادية من قبيل التجارة أو الزراعة أو تربية الماشي حتى يختاروها وطنًا لهم. كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر أهلية من الآخرين في قول الدين الذي كانوا ينتظرونـه ،

ولكن بعد ظهور الإسلام وتعرض مصالحهم غير المشروعة للخطر. غير قسم منهم شكل القضية ، وهبوا في النهاية لمواجهة النبي ﷺ ، ولا مجال للتعجب والاستغراب هنا لأننا نشاهد مثل هذا في علاقات الكثير من الأصدقاء والروابط الودية لمجموعة من المتحابين. بمحذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم ، ونتابع الآيات التي تشير إلى هذا المعنى ، وتوبخ اليهود والنصارى بسبب عدم توجهم لها :

١ . ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ . (البقرة / ١٤٦) (الأنعام

(٢٠ /

٢ . ﴿الَّذِينَ يَتَّسِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجْدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ . (الأعراف / ١٥٧)

٣ . ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابْنِي اسْرَائِيلَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ . (الصف / ٦)

٤ . ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . (البقرة / ٨٩)

٥ . ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرِ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاِيْ فَاتَّقُونِ﴾ . (البقرة / ٤٢ - ٤١) وَلَا تَبْلِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . (البقرة / ١٤٦)

* * *

إنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ جَيْدًا :

أول آية جاءت في سورتين من القرآن الكريم تقول :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي أنَّهم ليسوا مطلعين على أصل ظهوره ودعوته فحسب ، بل ويعرّفون أيضًا إشاراته وخصوصياته وجزئياته ، ويقول تعالى في ذيل الآية التي جاءت في سورة البقرة : ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْسُبُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . (البقرة / ١٤٦)

وينقل عن (عبد الله بن سلام) . الذي يعد من علماء اليهود الكبار ثم اعتنق الإسلام . (أنا أعلم به مني ببني) ^(١) .

وجاء في رواية أخرى : أنّ النبي ﷺ عندما جاء إلى المدينة قال (عمر) لعبد الله بن سلام : إنّ الله أنزل آية على نبيه تقول : إنّ أهل الكتاب يعرفون كما يعرفونه أبناءهم ، فما هي هذه المعرفة؟ ، فقال عبد الله بن سلام : «إنا نعرفه بصفاته التي بينها الله ، وعندما نراه فيكم نشخصه من بينكم كما يشخص أحدهنا ابنه عندما يراه بين الأولاد» ^(٢) .

والتفسير المشهور للآية والذي ينطبق جيداً مع ظاهرها هو هذا التفسير الذي بيناه ، ولكن تم عرض احتمالين آخرين في تفسير الآية وهما :

الأول : إنّ الصمير في (يعرفونه) يعود إلى (الاطلاع على النبوة) .

والثاني : إلى (مسألة القبلة) ، وبناءً على ذلك فإنّ الأول هو إشارة لاطلاع ومعرفة أهل الكتاب بمسألة (النبوة) ، أمّا الثاني فهو إشارة لمعرفتهم بأمر (تغيير القبلة) عند المسلمين من (بيت المقدس) إلى (الكعبة) . وكلا الاحتمالين ضعيفان جدّاً .

* * *

في الآية الثانية . ورد ذكر تسعه أوصاف من صفات النبي ﷺ التي هي في الواقع دلائل على حقانيته من زوايا مختلفة . بعضها إشارة إلى المضمون الرفيع لدعوته وبرامجه ، وبعضها إشارة إلى قرائن أخرى مثل أميته وعدم تعليمه ، وشفقته ورحمته ، وأمثال ذلك ، وتستند في قسم آخر من هذه الدلائل إلى مسألة أوصافه وعلاماته وسماته في الكتب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل) . يقول تعالى :

﴿الَّذِينَ يَتَّسِعُونَ الرَّسُولَ الَّذِي يَحِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ... اولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ؛ وتفسير المنار في ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير روح المعانى ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ؛ وتفسير مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ ؛ وتفسير روح البيان ، ج ٣ ، ص ١٨ .

ومع عدم ذكر اسم النبي ﷺ في هذه الآية صراحة ولكن الأوصاف التي ذكرتها ترمي بوضوح إلى أن المقصود هو نفسه.

فكيف يمكن القبول بأن القرآن يتحدث مع اليهود والنصارى بهذه الصراحة ، ويخبرهم بوجود دلائل وعلامات النبي ﷺ في كتبهم ولكن هذه المسألة لا تطابق الحقيقة وأئمّهم يسكتون؟ ويقينا إذا لم تكن هذه الإشارات والعلامات موجودة في كتبهم فإنّهم سيتخذونها حجة وذرّيعة مهمة ضد النبي ﷺ ، ولصرّحوا بها في كل مكان ، وإذا كان ذلك قد حصل لنقله التاريخ لنا.

وبناءً على هذا فعلى الأقل أن سكوتهم يعتبر دليلاً ساطعاً على وجود هذه القرائن والأوصاف في كتبهم ، وعلاوة على ذلك على حد قول الفخر الرازي : إذا لم تكن لهذا الأمر حقيقة واقعية لكان موجباً لغافر اليهود والنصارى من الإسلام ، والشخص العاقل لا يقدم مطلقاً على ما يجب تنفر الناس (خاصةً في مجال الدعوة) ^(١) ، وكما سيمر علينا لاحقاً فإنّ قسماً من هذه الدلائل والإشارات موجودٌ حتى في كتبهم المحرفة الحالية.

والملفت للنظر هو أن القرآن لا يقول : (يجدون علاماته ودلائله) ، بل يقول : (يجدونه) ، أي يجدون نفس ذلك النبي ﷺ في التوراة والإنجيل ، وهذا التعبير الذي يعني حضور النبي ﷺ في كتبهم هو تأكيد على منتهى وضوح هذا الأمر.

وفي البعض من الروايات الإسلامية جاء في ذيل الآية : إنّ بعض المسلمين سألوا شخصين من المطلعين على التوراة كلاً على حدة وأئمّما ذكراً أوصاف النبي

عليه السلام بدقة متطابقة ^(٢).

* * *

(١) تفسير الكبير ، ج ١٥ ، ص ٢٣.

(٢) تفسير القرطبي ، ج ٤ ص ٢٧٣٥ (الملخص).

في الآية الثالثة نقرأ عن لسان عيسى بن مريم أنه أعطى البشرة أمم بني إسرائيل **﴿وَادْعُوا إِلَيْنَا أَنَّا مَرِيمٌ بْنُ عِيسَى ابْنِ مَرِيمٍ يَابْنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّنِي مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَاتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾** ، ويقول في نهاية الآية : **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾**.

ومشير للاهتمام هو أن القرآن ينقل أقوال هؤلاء في مخالفتهم ومعارضتهم للمعجزات واتهامهم عيسى عليهما السلام بالسحر ، ولكنه لم يتحدث عن معارضتهم حول إخبار (المسيح عليهما السلام) بمسألة مجيء (أحمد عليهما السلام) ، وهذا دليل واضح على أنهم لا ينكرون هذا الخبر.

* * *

في الآية الرابعة نواجه نقطة جديدة تقول : **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلٍ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**.

إنَّ هذه الآية جاءت لتشير إلى السبب الذي استوجب نزولها من أن (اليهود) هاجروا من أرضهم وديارهم إلى المدينة لرؤيتهم علامات نبي الإسلام عليهما السلام التي في كتبهم ، ولأنَّهم قرروا فيها أنَّ محل هجرة هذا النبي عليهما السلام بين جبلين (عير) و (احمد) . وهما جبلان على طرق المدينة ، ولهذا فقد جاءوا وسكنوا المدينة وكتبوا حتى لإخوانهم بإننا وجدنا الأرض الموعودة فتعالوا إلينا.

فقال أولئك الذين ليسوا بعيدين جداً عنها : إنَّه لا تفصلنا فاصلة كبيرة عن تلك المنطقة وحين يهاجر إليها النبي الموعود نلتحق بكم ! وعندما يصطدمون مع سكان المدينة الأصليين من قبيلتي (الأوس) و (الحرزج) يقولون : «نحن في ظل النبي الجديد سوف ننتصر عليكم» ^(١).

(١) اقتباس عن سبب التزول الذي جاء في الدر المنشور من تفاسير أهل السنة. وتفسير العياشي عن الإمام الصادق عليهما السلام (وذكره الكثير من مفسري الشيعة وأهل السنة أيضاً في ذيل الآية المذكورة) . ومع أنَّ البعض من

ولكنهم للأسف عندما ظهر هذا النبي الأكرم ﷺ نحضوا مخالفته ، لأنّهم لم يروه ملبياً لميولهم وأهدافهم غير المنشورة .
وهذه كلها تدلل على أنّ مسألة ظهور نبي الإسلام ﷺ جاءت واضحة في كتبهم إلى حدٍ ما .

النقطة الجديرة بالتأمل أن عبارة «مصدقٌ لما معهم» أو ما يشاجبها من تعبير وردت في القرآن الكريم أكثر من عشر مرات ، وليس مفهومها أن النبي ﷺ يؤيد كتبهم السماوية مع ما حدث فيها من تحريف) ، بل المقصود أن أوصاف النبي ﷺ موافقة ومتطابقة مع العلامات والإشارات التي في أيديهم ، وبتعبير آخر أن النبي ﷺ وكتابه السماوي نفس الأوصاف التي كانوا يعرفونها من قبل بالضبط وكان في الحقيقة تصديقاً لكتبهم السماوية من ناحية تطابقها تماماً مع صفاتاته ﷺ .

وهذا الترتيب تعتبر كل الآيات التي جاء فيها هذا التعبير في زمرة الآيات التي نحن بصددها في هذا البحث.

* * *

وختاماً فإن الآية الأخيرة . التي تناطح اليهود حول الموضوع . ضمن تأكيدها على وجوب الإيمان بالكتاب السماوي للنبي ﷺ الذي يتطابق ومالمديهم من علامات ، تقول : ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾

أي أئّ عبدة الأوّلان من العرب إذا كفروا به فلا عجب في ذلك ، بل العجب كُل العجب هو أن تنكروه أنتم وتُنكروه ، لأنّ المتوقع منكم أن تكونوا أولّ المؤمنين به ، وإلاّ ألسْتم الذين هجرتم مدنكم ودياركم وحّثتم إلى المدينة شوقاً للقائه أو لم تدعوا الأيام والليالي انتظاراً لظهوره؟ ... إذن لم تُعكس القضية وتكونون أنتم أولّ الكافرين به؟!

أ. المفسرين مثل الفخر الرازي اعطوا احتمالات متعددة لعبارة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) ولكن أغلبها ترجع إلى نفس المعنى الذي ذكر أعلاه.

ثم تشير الآية إلى الباعث لـ «تغغير أسلوبهم» هذا وتقول لهم : لا تكتنوا الحقائق من أجل المنافع المادية : **﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثُمَّا قَلِيلًا وَآيَاتِ فَاتَّقُونَ﴾**.

وهذه إشارة إلى أن أيَّ ثمن يأخذونه مقابل ذلك فهو لا شيء ، حتى ولو كان العالم كله ، ولكنكم يا أصحاب الهمم الدنيوية ، من أجل مصالحكم المادية التافهة (أحياناً من أجل ضيافة سنوية) كتمتم الآيات التي تحمل علامات وأوصاف النبي ﷺ .

ثم تقول الآية تأكيداً للمراد : **﴿وَلَا تَلِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**.

وفي الحقيقة فإن اليهود ارتكبوا عدة مخالفات في هذا المجال :
ال الأولى : إنّهم تعااهدوا على أن يكونوا أول المؤمنين بالنبي ﷺ في حين كانوا أول الكافرين به.

الثانية : إنّهم ليسوا الحق بالباطل حتى يطمسوا وجهه ويوقعوا الناس في الم tahat.

الثالثة : إنّهم كتموا الحق وهم يعلمون بأنه حق واشتروا بالآيات الإلهية ثمناً قليلاً.

وهناك في القرآن الكريم آيات متعددة أخرى بنفس المعنى (أي تحكي عن «كتمان الحقائق» من قبل اليهود) والظاهر أن تلك الآيات كلها تشير إلى نفس مسألة كتمان آيات النبوة.

ويستفاد من مجموع ماجاء في الآيات الآنفة بأنّ أوصاف وعلامات النبي ﷺ والإسلام حتى اسمه المبارك قد وردت في الكتب السابقة ، وقدمت بشارات وإشارات كثيرة بالنسبة لظهوره.

ونتجه الآن صوب كتب العهدين الموجودة في متناول أيدينا (التوراة والإنجيل) ، لنبحث في نماذج من هذه العلامات والإشارات :

* * *

التبشير بظهور النبي ﷺ في الكتب السماوية :

كما أشرنا من قبل ، فإننا نجد في كتب اليهود والنصارى الموجودة اليوم علامات ذلك

النبي العظيم ، ولكن قبل ظهوره كانت توجد يقيناً مسائل كثيرة طمست في ظلمات الكتمان على أثر عدم انسجامها مع التعصبات العمياء الصماء أو متطلبات مصالح زعمائهم.

وحول (بشارات العهددين) كتبت مؤلفات متعددة ، أو خصصت لها أقسام من بعض الكتب ، لا يسعنا ذكرها في هذه العجالة ، ونكتفي ببعض النماذج البارزة : تم التأكيد في ثلاثة موارد من «إنجيل يوحنا» على لفظة (فارقليط) أو (فارقليطا) والتي تعني في العربية بـ (المعزى).

ونقرأ في مورد منها : «وسأطلب من الأب أن يعطيكم معيزاً آخر (فارقليطا) ، يبقى معكم إلى الأبد» ^(١).

وجاء في مورد آخر : «ومتي جاء المعزي الذي أرسله إليكم الأب ، روح الحق المنتشق من الأب ، فهو يشهد لي» ^(٢).

وفي الباب التالي له : «صدقوني ، من الخير لكم أن أذهب ، فإن كنت لا أذهب لا يحييكم المعزي أما إذا ذهبت فارسله إليكم» ^(٣).

مما يجلب الانتباه أن الفخر الرازبي ينقل في الجزء (٢٩) من تفسيره صفحة (٣١٣) عن الأنجليل الموجودة في عصره (إنجيل يوحنا . الباب ١٤) : (وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى ينحكم ويؤتيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد). وهذا عين ما ذكرناه أعلاه ولكن بالتصريح بلفظة (فارقليط) ، ويدرك نفس المعنى بالتصريح بلفظة (فارقليط) أيضاً في الباب ١٥ و ١٦ منه.

إن (فارقليط) التي تلفظ باللغة اليونانية (بريكليتوس) أو (براقليتوس) فسرها الكثير من المسيحيين بمعنى (المعزى) أو (روح القدس) ، ولكن جمعاً منهم ذكر أنّ معناها (كثير الحمد) وهو ما يتطابق تماماً مع اسم أَحْمَد و مع الآية التي تقول : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَد﴾. (الصف / ٦)

(١) إنجليل يوحنا ، الباب ١٤ ، الجملة ١٦.

(٢) المصدر السابق ، الباب ١٥ ، الجملة ٢٦.

(٣) المصدر السابق ، الباب ١٦ ، الجملة ٧.

وإن ما يتضح من المطالعة الدقيقة لجذور هذه الكلمة هو أن (فارقليط) كلمة يونانية الأصل ، وأن جذرها (بريقليتوس) ومعناه (كثير الحمد) التبس عليهم مع (براقليتوس) التي تعني (المعزّي).

ينقل السيد حسينيان مؤلف كتاب (السراج) ^(١) في بداية كراسه الصغير والمليء بالمضامين ، عين المتن اللاتيني لإنجيل يوحنا عن كتاب باسم (الأناجيل) من تأليف «لامينيه». طبع باريس . والموجود حالياً في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي ما يدلل جيداً على أنّ الكلمة (فارقلبيط) وردت هناك على صورة (بركليليت) . التي تعني بالعربية (أحمد) وبالفارسية (كثير الحمد) وليس بصورة بركليليت (باراكليت) التي تعني (المعزّي) ^(٢) ، ولكن للاسف حُذف التعبير الأول فيما بعد من متنون الأناجيل وحلّ محله التعبير الثاني.

ويضيف أيضاً: «إنّ قدماء النصارى فهموا من لفظ «براكليت» اسمًا خاصًا لشخص لأنّ في الترجم السريانية جاء عين اللفظ «أي فارقليط»، وفي الترجم العبرانية الموجودة لدى ورأيتها شخصياً «فرقليط». ولأكّم يعتبرونه اسم إنسان «معين»، والترجمات العبرانية والسريانية عند المسيحيين لها كمال الأهمية والاعتبار»^(٣).

وفي الواقع فإنّ مفردات من قبيل (محمدٌ) و (علي) و (حسن) و (حسين) وأمثالها لا يمكن مطلقاً ترجمتها عند ترجمة العبارات ، فمثلاً: بدل جملة (جاء علي) لا يقول الفارسي أبداً : (بلند مرتبه آمد) بل يقول (علي آمد) ، ولكن المؤسف أنّ العلماء المسيحيين في الأزمان المتأخرة ، ومن أجل حمو علامة نبوة نبي الإسلام ﷺ هذه أبدلوا أولاً : لفظة (بركليت) بـ (باراكليت).

وثانياً: اخرجوها من صورتها كاسم علم إلى معنىٰ وصفيٰ وقالوا بدلها «المعري» (فتاماً).

(۱) (چراغ). فارسی.

(٢) كتاب جراغ ، ص ١.

٣) المصدر السابق ، ص ٦ .

يتضح من هذا الكلام أنّ اللفظة الأصلية إذا كانت (بريقليتوس) فإنّ معناها (كثير الحمد) ومن غير المستبعد التباسها مع (براقليتوس) ، وطبعاً أنّ احتمالات التعمد في هذا التفسير كثيرة جداً.

يقول المرحوم (العلامة الشعراوي) في كتابه «نثر طوي» : «رأيت في أحد قواميس اللغة اليونانية أنّ «فارقليط» ترجم معناها بـ «كثير الحمد» أي من تناقله الألسن ويدرك بالخير. ثم يضيف : إنّ قواميس اللغة اليونانية باللغة الانجليزية ، والقاميس الفرنسية موجودة في كل مكان و (يمكنكم مراجعتها ولكن) يعتبرها المسيحيون مصحفة ومحرفة. ويتوجهونها معنى (المعزي) وقد كتبنا نحن رسالة مستقلة في هذا الباب» ^(١).

ونطالع في كتاب قاموس مفردات القرآن ^(٢) تأليف الدكتور قريب : «أنّ المستفاد من الروايات هو أنّ الأنبياء العظام كل بنيته قد بشروا في كتبهم بحضره نبي الإسلام ﷺ ثم ينقل عن الكثير من المصادر الإسلامية أنّ اسمه في الانجيل «الفارقليط» التي يكون معناها (أحمد)» ^(٣).

وفيما عدا ذلك ففي تعبيرات الانجيل نفسه توحد جمل تشير إلى أنّ هذه الكلمة وبأي تعبير تكون فهي تتحدث عن نبي يظهر ويقى دينه حالداً.

فحملة (وسأطلب من الأئم أن يعطكم معزياً آخر يقى معكم إلى الأبد) ^(٤) دليل واضح على أنّ المقصود من (المعزي) هو نبي دينه أبدي وحالد.

ويقول هناك : «ومتى جاء المعزي الذي أرسله اليكم الأئم ، روح الحق المنشق من الأئم ، فهو يشهد لي» ^(٥).

وواضح أنّ هذا المعزي هو نبي وليس روح القدس. وتكمّل في تعاليمه كل الحقائق ولن يبق شيء يستحق القول.

(١) نثر طوي ، ج ١ ، ص ١٩٧.

(٢) فرهنگ لغات قرآن (فارسي).

(٣) فرهنگ لغات قرآن (فارسي) ، ج ١ ، ص ٣٥١.

(٤) انجليل يوحنا ، الباب ١٤ ، الباب ١٦

(٥) المصدر السابق ، جملة ٢٦

وعلى أية حال فلا مجال لأي شك أو ترديد بأنّ الكلمة (أحمد) أو مفردات من قبيلها كانت موجودة في الأنجليل المتوفرة في زمن النبي ﷺ ، وإلا فإن الآية السادسة من سورة الصاف ستكون في مظان الاعتراض الشديد من قبلهم وأصبحت حجّة قوية لهم في محاربة الإسلام. في حين لم ينقل لنا التاريخ الإسلامي مثل هذا الشيء.

وبناء على ذلك يبدو أنّ البعض من علماء المسيحية حينما رأوا أن مواقفهم معرضة للخطر اتخذوا قرارهم بتحريف وتبديل تلك المعانٍ إلى معانٍ أخرى. وحتى يمكن مشاهدة نفس الاسم المقدس للنبي ﷺ في بعض كتب المسيحيين التي كانت موجودة لقرون بعد ظهوره ﷺ في زوايا العالم المختلفة.

والشاهد على هذا الكلام بيان مثير لأحد العلماء المسيحيين الذين أعلنوا إسلامهم في كتابه (أنيس الاعلام) وهو كتاب تحقيقي فريد أزاح الستار عن هذا الجانب.

وباعتباره كان بنفسه أحد القساوسة المسيحيين المعروفيين وأنّه دراسته عند كبار علماء المسيحية ووصل إلى مقام كبير في نظرهم ، يشرح في مقدمة كتابه المذكور قصة إسلامه العجيبة بهذا الشكل ، يقول : «بعد تنقيب كثير وجهود خارقة وحوّلات في المدن المختلفة وصلت إلى قسيس رفيع المستوى كان ممتازاً من ناحية الرهاد والتقوى. ويعود إليه أبناء الطائفة (الكاثوليكية) من ملوك وغيرهم بأسئلتهم الدينية ، وقد درست عنده فترة مذاهب النصارى المختلفة ، وكان عنده تلامذة كثيرون ولكن كان له تعلق خاص بي من دونهم وكانت مفاتيح المنزل كلها بيدي إلّامفتاح واحد لأحد الخزائن كان يحتفظ به عنده.

في تلك الأثناء أحس القسيس المذكور يوماً بوعكة صحية ، فقال لي : قل لللّلاميذ أنني لا طاقة لي على التدريس ، وعندما جئت للطلبة وجدتهم مشغولين بالبحث والنقاش الذي انحر إلى معنى لفظة (فارقليطا) في السريانية و (بريكليتوس) باللغة اليونانية ... وقد امتد جدالهم وطال ، وبدا لكل واحد منهم رأي ... بعد أن عدت إلى الاستاذ سألهني : ما بحثتم اليوم؟ فقدمت له تقريراً عن اختلافهم في لفظ (فارقليطا) ... قال : وأنت أي الأقوال انتخبت؟

قلت : انتخبت ما اختاره فلان مفسّر.

فقال القس : ما قصرت ولكن الحق والواقع يخالف كل هذه الأقوال ، لأنّ الحقيقة لا يعلمها (إلا الراسخون في العلم) وقليل من هؤلاء أيضاً من يعرفها ، فألححت عليه أن يقول لي معناها ، فبكى بشدة وقال : إنني لا أخل عليك بأي شيء ... إن في تعلم معنى الاسم أثراً عظيماً ولكن بمحرّد شيوخه سيقتلوننا أنا وأنت وإذا عاهدتني بأنّ لا تقول لأحد سأبين لك المعنى ... فأقسمت له بكل المقدّسات أن لا أبوح باسمه ، عندئذ قال : إنّ هذا الاسم هو من أسماء (نبي المسلمين) ومعناه (أحمد) و (محمد) :

ثم أعطاني مفتاح تلك الغرفة الصغيرة وقال : افتح باب الصندوق الفلافي. وآتني بكتاب ، فجلبت الكتابين له وكانت مكتوبين بالخط اليوناني والسرياني قبل ظهور نبي الإسلام ، على الجلد.

وقد ترجم لفظ (فارقليطا) في كلا الكتابين بمعنى (أحمد) و (محمد) ، ثم اضاف الاستاذ قائلاً : لم يكن عند علماء النصارى أي اختلاف قبل ظهور نبي الإسلام بأن (فارقليطا) تعني (أحمد و محمد) ولكن بعد أن ظهر محمد أؤلوا اللفظة واحتربوا لها معنى آخر من أجل البقاء على رئاستهم ومنافعهم المادية ، وقطعاً أنّ هذا المعنى لم يقصده صاحب الانجيل.

فسألته : ما تقول عن (دين النصارى)؟ قال : نسخ بمحضه الدين الإسلامي وكرر هذا اللفظ ثلاث مرات ، فقلت : في هذا الزمان ما هو طريق النجاة والصراط المستقيم ...؟ قال : أنّه منحصر في أتباع محمد ﷺ .

قلت : وهل أنّ تابعيه من أهل النجاة؟ قال : أي والله (كررها ثلاثة) ... ثم بكى الاستاذ وبكيت أنا أيضاً ، وقال : إذا كنت تريدين الآخرة والنجاة فيجب أن تقبل دين الحق ... وسوف أدعوك لك دائماً ، بشرط أن تشهد لي يوم القيمة بأنني كنت مسلماً في الباطن ومن أتباع حضرة محمد ﷺ ... وليس من شك اليوم أنّ «دين الإسلام» هو دين الله على وجه الأرض ...»^(١).

(١) اقتباس مع قليل من الاختصار عن (المهادنة الثانية) مقدمة كتاب أنيس الاعلام.

وكما تلاحظون فإن علماء أهل الكتاب . وفق هذا السند . فسروا وبرروا اسم علامات النبي ﷺ بعد ظهوره بشكل آخر من أجل مصالحهم الشخصية.

سؤال :

يطرح هنا سؤال وهو : إن الاسم المعروف للنبي ﷺ (محمد) في حين سمي في الآية ٦ من سورة «الصف» باسم (أحمد) ، وهاتان المفردتان وإن لم تختلفا كثيراً في دلالتهما على معنى ومفهوم (محمود) ولكنها في الظاهر اسماً مختلفان. وبناءً على ذلك إذا كانت (فارقليطاً) تعني (محمود) ، فإنها تنسجم مع كليهما ، ولكن تعبير القرآن بـ (أحمد) لا ينسجم مع الاسم المعروف للنبي ﷺ .

الجواب :

ستتضح الاجابة جيداً عن هذا السؤال ببيان بعض النقاط :

١ . جاء في التوارييخ بأن النبي ﷺ منذ طفولته اسمين ، وحتى أن الناس كانت تخاطبه بكليهما. أحدهما : (محمد) والآخر (أحمد) ، والأول : اختاره له جده (عبد المطلب). والثاني : أمه (آمنة) ، وقد ذكر هذا الموضوع بالتفصيل في السيرة الحلبية.

٢ . من بين الذين ينادونه مراراً بهذا الاسم ، عمه (أبو طالب) ، وفي أيدينا اليوم كتاب بعنوان (ديوان أبي طالب) نشاهد فيه قصائد كثيرة ذكرت النبي ﷺ بعنوان (أحمد) مثل :

أرادوا قتل «أحمد» ظالمونه وليس بقتلهم ففيهم زعيم
وإن كان «أحمد» قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب ^(١)
وفي غير (ديوان أبي طالب) نقلت عنه أشعار في هذا المجال مثل :

لقد أكرم الله النبي محمدأً فأكرم خلق الله في الناس أحمد ^(٢)

(١) ديوان أبي طالب ، ص ٢٥ و ٢٦.

(٢) تاريخ ابن عساكر ، ج ١ ، ص ٢٧٥.

٣ . ويري هذا التعبير أيضاً في أشعار (حسان بن ثابت) الشاعر المعروف في عصر

النبي ﷺ :

ومفعمة قد شفها فقد أَحْمَدْ فَظَلَّتْ لَآلَ الرَّسُولِ تَعَدُّدْ
والأشعار التي جاء فيها اسم (أحمد) بدلاً من محمد سواءً في ديوان أبي طالب أو غيره
كثيرة جدًّا ولا مجال لنقلها كلها هنا . ونختم هذا البحث ببيتين آخرين لابن أبي طالب (عليه
الصلوة) حيث يقول :

أَتَأْمِنِي بِالصَّابِرِ فِي نَصْرِ «أَحْمَدْ» وَوَاللَّهِ مَا قَلَّتْ الْذِي قَلَّتْ جَازِعًا
سَأَسْعِي لِوَجْهِ اللَّهِ فِي نَصْرِ «أَحْمَدْ» نَبِيُّ الْمَدِيِّ الْمَحْمُودُ طَفَلًا وَيَافِعًا^(١)

٤ . نقرأ في الروايات التي جاءت تتحدث عن مسألة المعراج أنَّ الله خاطب النبي ﷺ في ليلة المعراج مرات باسم (أحمد) وربما من هنا اشتهر بأنَّ اسمه في السماء (أحمد) وفي الأرض (محمد) .

وجاء أيضاً في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّ للنبي ﷺ عشرة أسماء جاءت خمسة منها في القرآن وهي : (محمد) و (أحمد) و (عبد الله) و (يس) و (ن)^(٢) .

٥ . عندما تلى النبي ﷺ الآيات المذكورة (آيات سورة الصاف) لأهل المدينة ومكة وسمعها أهل الكتاب أيضاً ، لم يعترض أي واحد من المشركين وأهل الكتاب بأنَّ (الإنجيل) بشر بمجيء (أحمد) بينما اسمك (محمد) . وسكتوهم هذا دليلاً على اشتهر هذا الاسم في ذلك الحيط ، لأنَّه إذا حدث مثل هذا الاعتراض لكان قد نُقل إلينا . مع أنَّ اعترافات الأعداء وحتى في الموارد الجارحة جدًّا مشتبة في التاريخ .

نستخلص من مجموع هذا البحث أنَّ اسم (أحمد) كان من الأسماء المعروفة لنبي

الإسلام ﷺ لدى أهل الكتاب .

* * *

(١) الغدير ، ج ٧ ، ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق .

نشاهد بشارة أخرى في سفر التكوين والظهور في (التوراة) في الفصل السابع ، لا يمكن تطبيق علاماتها إلّا على النبي ﷺ .

ففي الجمل من ١٧ إلى ٢٠ نطالع : «وقال إبراهيم للرّب يالٰيت إسماعيل يعيش أمامك ... فقال الله سمعت دعاءك في حق إسماعيل وها أنا اباركه وأكثر نسله وسيلد منه اثنا عشر رئيساً وسنجعله أمةً عظيمة» ^(١).

وفي كتاب (أنيس الأعلام) ينقل متن جمل التوراة المكتوبة باللغة العربية ويكتب ترجمتها على هذا الشكل : «... وأثره وأعظمه بـ «مادماد» والاثنا عشر إماماً الذي سيكون من نسله وسنجعله أمةً عظيمة» ^(٢).

ثم يضيف : «أنّ (مادماد) هو نفس (محمد ﷺ بالعبرانية».

ومع الالتفات إلى أنّ النبي هو من نسل إسماعيل ، وجاء في البشارة المذكورة بأنّه سيكون أمةً عظيمة وينجح منه (اثني عشر سيداً وإماماً) سيتضمن عدم وجود أي مصدق لها سوى شخص النبي ﷺ ، وإذ ألحقنا بها لفظة (مادماد) التي وردت في النص العبري . وإن لم يأتوا بها في الترجمة من العربية إلى الفارسية . ستتضمن أكثر وأكثر.

إن قيل بأنّ هؤلاء (الاثني عشر سيداً وإماماً) وكذلك الامة العظيمة إشارة إلى (موسى عليه السلام) و (أسباط بنى اسرائيل الاثني عشر) ففي الحقيقة أنّ الله بشر إبراهيم بظهور موسى عليه السلام ، ويكون الجواب عن ذلك واضحًا لأنّ موسى عليه السلام وأسباط بنى اسرائيل هم من نسل إسحاق ، في حين أنّ العبارة الآنفة تعرفهم على أنّهم من أبناء إسماعيل ولا يمكن أن يكون لها مصدق إلّا النبي عليه السلام .

ج) جاء في سفر التكوين (التوراة) . الباب ٤٩ رقم ١٠ : «ولن تؤخذ عصى السلطة من يهودا حتى يأتي شيلوه الذي ستجتمع حوله الامم» ^(٣).

وظاهر هذه العبارة هو أنّ حكم (يهودا) وسلط بنى اسرائيل سيستمر حتى ظهور (شيلوه) وتحتاج الامم حوله.

(١) سفر التكوين ، الفصل ٧.

(٢) أنيس الأعلام ، ج ٥ ، ص ٦٩.

(٣) سفر ظهور التوراة ، باب ٤٩ ، رقم ١٠.

أَمَّا مَنْ هُوَ وَمَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِـ(شِيلُوهُ)، فَإِنَّ مُؤْلِفَيَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدْمُوا احْتِمَالَاتٍ كَثِيرَةٍ كَانَ أَغْلُبُهَا لَا تَتَسَقُ مَعَ الْعَبَارَةِ الْمَذَكُورَةِ بِأَيِّ وَجْهٍ، وَمِنْ جُمْلَتَهَا أَنَّ (شِيلُوهُ) تَعْنِي مَكَانًا لِلَاسْتِرَاحَةِ أَوْ مَدِينَةً فِي شَمَالِ «بَيْتِ إِيلٍ» أَوْ مَحَلًا يُسَمُّونَهُ الْآنَ (سِيلُونَ)، وَالْمُسَلَّمُ فِيهِ أَنَّ التَّعْبِيرَ بِمُحِينَهِ وَاجْتِمَاعِ الْأَمْمِ حَوْلَهُ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى شَخْصٍ وَلَيْسُ إِشَارَةٌ إِلَى مَكَانٍ أَوْ مَحْلٍ.

وَ(مَسْتَرْ هَاكْسُ) الْأَمْرِيْكِيُّ مُؤْلِفُ كِتَابِ (الْقَامُوسِ الْمَقْدَسِ) ضَمِّنَ عَدَّهُ لِلْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةُ لِهَذِهِ الْمَفْرَدَةِ ذِكْرَ مَعْنَى (مَرْسَلٍ) الَّتِي تَنْطِقُ عَلَى لَفْظَةِ رَسُولٍ أَوْ رَسُولِ اللَّهِ. وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ هُوَ أَنَّ بِشَارَةَ التَّوْرَةِ هَذِهِ هِيَ إِشَارَةٌ لِظَهُورِ (الْمَسِيحِ عَلَيْهِ الْأَكْلَمَاءُ كَمَا قَالُوا وَلَكِنْ حَسْبُ قَوْلِ فَخْرِ الْإِسْلَامِ فِي (أَنَيْسِ الْأَعْلَامِ) : إِنَّ هَذَا الْاحْتِمَالَ غَيْرَ صَحِيحٍ لِأَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ الْأَكْلَمَاءُ هُوَ مِنْ أَبْنَاءِ (يَهُودَا) مِنْ جَهَةِ الْأُمِّ.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ حَاكِمِيَّتَهُ تُعْتَدِرُ امْتِدَادًا لِحَاكِمِيَّةِ يَهُودَا، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ يَقُلْ مِنْ مَصْدَاقِهِ لِمَا سَوَى نَبِيِّ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ الْأَكْلَمَاءُ الْمَرْسَلُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي تَزَاحَ بِظَهُورِهِ حُكْمَوَةُ (آلِ يَهُودَا) خَصْوَصًا فِي الْمَدِينَةِ وَخَيْرِ الشَّامَاتِ وَالكَثِيرِ مِنِ الْمَنَاطِقِ الْأُخْرَى^(١).

طَبَعًا ذُكِرَتْ بِشَارَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ أُخْرَى أَيْضًا فِي كِتَابِ الْعَهْدَيْنِ يَطْوِلُ شَرْحَهَا وَأَنَّ الْبَعْضَ مِنْهَا قَابِلٌ لِلْقَدْحِ وَالتَّجْرِيْعِ، وَالَّذِينَ يَرْغُبُونَ بِالْبَحْثِ وَالْتَّحْقِيقِ أَكْثَرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يُمْكِنُهُمُ الرَّجُوعُ إِلَى كِتَابِ (أَنَيْسِ الْأَعْلَامِ) وَ(بِشَارَاتِ الْعَهْدَيْنِ) وَ(بِالْبَشَارَاتِ وَالْمَقَارِنَاتِ).

* * *

(١) أَنَيْسِ الْأَعْلَامِ، ج ٥، ص ٧٣.

الخاتمية

في القرآن الكريم

الخاتمية في القرآن الكريم

تمهيد :

مسألة (الخاتمية) وأنّ نبي الإسلام ﷺ هو آخر الأنبياء الإلهيين من المسائل التي يعتقد بها كل المسلمين من أي فرقة أو مذهب كانوا ، ولا يعرفها العلماء فحسب بل كل أفراد المسلمين أيضاً ويعتبرونها من (ضروريات الإسلام) التي يتوصل إليها أي أحد بسرعة مهما قلت معاشرته لأتبع هذه المدرسة وهي أكّم يعتبرون النبي الأكرم ﷺ هو آخر الأنبياء الإلهيين.

ومصدر هذا الاعتقاد يعود إلى (القرآن الكريم) و (الروايات الإسلامية) لأنّ هذه المسألة ليست بالشيء الذي يمكن إثباتها بالأدلة العقلية فقط ، ويقيناً بعد قبولهم للقرآن الكريم بصفته كتاباً سماوياً ، ونبي الإسلام ﷺ كونه رسولاً لله ، يمكن الاعتماد على قوّتهم بهذا الصدد.

لهذا السبب توجه أولاً إلى الآيات القرآنية ، ثم نتطرق إلى الشواهد التاريخية والروايات الإسلامية ، ونختتمها ببعض الشبهات التي ألقاها مخالفو الإسلام حول خاتمية النبي

ﷺ :

وردت الآية الرئيسية التي تشهد على هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا احَدٍ مِّنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. (الأحزاب / ٤٠)

وذكر العلماء آيات متعددة أخرى حول الموضوع إذا لم نقبل دلالتها القطعية فعلى

أقل

تقدير إِنَّهَا تحتوى على إشارات مثل :

- ١ . ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ . (فصلت / ٤٢ - ٤١)
- ٢ . ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ . (الفرقان / ١)
- ٣ . ﴿وَوَحِيَ إِلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ لِإِنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ . (الأنعام / ١٩)
- ٤ . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ . (سبأ / ٢٨)
- ٥ . ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ . (الأعراف / ١٥٨)
- ٦ . ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ . (الأنعام / ٩٠)
- ٧ . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ . (الأنبياء / ١٠٧)

جمع الآيات وتفسيرها

الآية الأولى التي وردت في بحثنا ، وهي الآية ٤٠ من سورة الأحزاب والتي أشارت قصة «زيد» ، وهو ابن الرسول ﷺ بالتبني ، حيث إنّ الرسول ﷺ تزوج من زوجته التي طلقها ، وذلك من أجل القضاء على احدى السنن الخاطئة التي كانت متداولة آنذاك والتي تقضي بعدم الزواج من زوجات أدعىائهم بعد الطلاق ولكن لا تبقى بعد زواجهما من غير زوج .

والحدير بالذكر هو أنّ زواج زيد من هذه المرأة كان بواسطة الرسول ﷺ ، وقد طلقها لعدم انسجامهما .

وقد نفت الآية الكريمة القرابة النسبيّة بين زيد والرسول الأكرم ﷺ حيث قال :

﴿وَمَا كَانَ مُحَمَّدُ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ ، ثم أضافت : ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ﴾ . حيث ثبّت لرسول الله ﷺ الرابطة الروحية والمعنوية المتأتية من مقام النبوة والخاتمية ، أي أنّه ليس أباكم الجسدي ، بل هو أبوكم الروحي ، وأبو كل الأجيال اللاحقة حتى خاتمة الدنيا ، وإذا نقل في بعض الروايات عن النبي ﷺ قوله : «أنا وعلي أبيوا هذه

الامة» فهو أيضاً إشارة إلى نفس الابوة الروحية التي تنبع من التعليم والتربيـة والقيادة. ويـحـبـ الـالـتـفـاتـ إـلـىـ أـنـ لـلـنـبـيـ الـأـكـرـمـ عـلـيـهـ الـحـلـمـ عـدـةـ أـلـوـادـ نـسـبـيـنـ بـأـسـمـاءـ (ـالـقـاسـمـ)ـ ،ـ (ـالـطـيـبـ)ـ ،ـ (ـالـطـاهـرـ)ـ ،ـ وـ (ـإـبـرـاهـيمـ)ـ وـ رـحـلـوـ جـمـيعـهـمـ عـنـ هـذـاـ عـالـمـ قـبـلـ الـبـلـوـغـ.ـ وـهـذـاـ السـبـبـ لـمـ تـسـمـيـهـمـ الـآـيـةـ (ـرـجـالـاـ)ـ (١ـ).

ضـمـنـاـ هـنـاكـ رـابـطـةـ أـخـرـىـ بـيـنـ مـسـأـلـةـ خـتـمـ النـبـوـةـ وـعـدـمـ وـجـودـ الـوـلـدـ وـهـيـ أـنـ أـلـوـادـ الـأـنـبـيـاءـ كـانـوـاـ أـنـبـيـاءـ أـيـضـاـ ،ـ وـلـأـنـ النـبـيـ الـأـكـرـمـ عـلـيـهـ الـحـلـمـ لـاـ بـلـغـ مـبـلـغـ الـرـجـالـ لـمـ يـقـيـقـ أـيـ مـجـالـ لـلـتـوـهـمـ بـأـنـ سـيـكـونـ بـعـدـ نـبـيـ آـخـرـ ،ـ وـعـلـىـ هـذـاـ فـإـنـ فـقـدـانـ الـوـلـدـ هـيـ إـشـارـةـ إـلـىـ خـتـمـ النـبـوـةـ.

ويـقـولـ فـيـ آـخـرـ الـآـيـةـ (ـوـكـانـ الـلـهـ بـكـلـ شـيـءـ عـلـيـمـاـ)ـ .ـ

وـوـضـعـ تـحـتـ تـصـرـفـ هـذـاـ النـبـيـ الـخـاتـمـ مـاـكـانـ لـازـمـاـ مـنـ مـعـارـفـ وـعـلـومـ وـمـسـائـلـ الـاـصـوـلـ وـالـفـروعـ.

وـقـدـ اـبـدـيـ الـاحـتمـالـ فـيـ رـيـطـ بـدـاـيـةـ الـآـيـةـ بـنـهـاـيـتـهـ ،ـ فـفـىـ بـدـاـيـتـهـ نـفـىـ عـنـ النـبـيـ عـلـيـهـ الـحـلـمـ أـبـوـتـهـ الـجـسـمـيـةـ لـأـمـتـهـ ،ـ وـلـذـاـ سـيـظـهـرـ هـذـاـ السـوـالـ وـهـوـ :ـ إـذـاـ كـانـ بـهـذـاـ الشـكـلـ فـلـمـاـذـاـ لـاـ يـحـقـ لـأـمـتـهـ أـنـ يـتـزـوـجـوـ زـوـجـاتـ النـبـيـ عـلـيـهـ الـحـلـمـ مـنـ بـعـدـهـ؟ـ وـفـيـ الـجـوـابـ عـلـىـ ذـلـكـ يـقـولـ :ـ «ـإـنـهـ رـسـوـلـ الـلـهـ عـلـيـهـ الـحـلـمـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ كـوـنـهـ خـاتـمـ أـنـبـيـاءـ وـأـفـضـلـهـمـ ،ـ وـلـهـذـاـ السـبـبـ فـإـنـ حـفـظـ حـرـمـتـهـ وـاجـبـ وـتـرـكـ الزـوـاجـ مـنـ أـزـوـاجـهـ بـعـدـ وـفـاتـهـ هـوـ جـزـءـ مـنـ هـذـهـ الـحـرـمـةـ»ـ (٢ـ).

مفهوم خاتم النبـيـيـنـ :

مع أـنـ مـعـنـىـ (ـخـاتـمـ)ـ وـاـضـحـ جـدـاـ.ـ لـأـنـ مـادـةـ خـتـمـ فـيـ كـافـةـ مـعـاجـمـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ تـعـنـيـ أـنـهـ شـيـءـ .ـ وـلـكـنـ قـسـمـاـ مـنـ وـسـاوـسـ الـمـنـحـرـفـيـنـ تـسـتـوـجـبـ تـقـدـيـمـ تـوـضـيـحـاتـ أـكـثـرـ بـشـأـنـهـ ،ـ يـقـولـ «ـابـنـ فـارـسـ»ـ ،ـ أـحـدـ عـلـمـاءـ الـلـغـةـ الـمـعـرـوـفـيـنـ فـيـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ الـمـحـرـيـ ،ـ فـيـ «ـمـعـجمـ مـقـاـيـسـ الـلـغـةـ»ـ :ـ «ـخـتـمـ ،ـ لـهـ مـعـنـىـ أـصـلـيـ وـاحـدـ لـاـ أـكـثـرـ وـهـوـ الـوـصـولـ إـلـىـ خـاتـمـ الـشـيـءـ.ـ وـأـنـ قـوـلـمـ (ـخـتـمـ)

(١ـ) تـفـسـيـرـ الـقـرـطـيـ ؛ـ وـتـفـسـيـرـ الـمـيـرـانـ ،ـ ذـيـلـ الـآـيـةـ مـوـرـدـ الـبـحـثـ.

(٢ـ) تـفـسـيـرـ الـقـرـطـيـ ،ـ ذـيـلـ الـآـيـةـ مـوـرـدـ الـبـحـثـ.

عندما يضعون ختماً (مهرًا) على شيء فهو من هذا الباب ، لأنّهم دائمًاً بعد انتهاء شيء ما يضعون ختماً أو مهرًا عليه».

ويقول (الخليل بن أحمد) وهو من أقدم المؤلفين والمحققين في لغة العرب والذي عاش في القرن الثاني للهجرة في زمن الأئمة المعصومين عليهما السلام عن معنى خاتم وختام : «خاتم كل شيء هو نهائته وآخرته. وختام تعني الختم «المهر» الذي يضعونه على الطين» ، وذلك عند اتمام الرسالة وطيفها ومن أصل أن لا يفتحها الغرباء يلصقون قطعة لينة من الطين على محل ربطها ثم يختتمون فوقها بحيث لا يبقى أي طريق لفتحها إلا بكسر الختم.

وذهب سائر أصحاب اللغة أيضًا إلى هذا المعنى نفسه ، وفسروا (خاتم) بمعنى الشيء الذي يؤدّي إلى النهاية أو الختم الذي يضعونه في النهاية.

وفي كتاب (التحقيق) الذي يعد تحقيقاً جامعًا في مصادر اللغة المهمة بعد أن ينقل أقوال كبار اللغويين العرب يقول : «المتحقق أن هذه المادة جذرٌ واحدٌ وهو في مقابل «بدء». أي أكمال شيء وايصاله إلى آخره ونهايته» ^(١).

وكذلك المفسرون الإسلاميون من أقدمهم وحتى معاصرיהם لم يخرجوا جميعهم عن أن معنى (خاتم النبيين) في الآية المذكورة هو آخر الأنبياء.

ويقول المفسر المعروف (محمد بن جرير الطبرى) الذي عاش في القرن الثالث في تفسيره الذي يعتبر من أقدم التفاسير في ذيل الآية آنفة الذكر : و «خاتم النبيين الذي ختم النبوة فختم عليها فلا تفتح لاحد بعده إلى قيام الساعة» ^(٢).

ويقول المرحوم (الشيخ الطوسي) وهو من عظماء الفقه والتفسير ، وعاش في القرن الخامس في كتابه المشهور (البيان) بعد أن يذكر (خاتم النبيين) : «أي آخرهم لأنّه لا نبي بعده إلى يوم القيمة» ^(٣).

وكذلك المفسر الكبير (الطبرسي) الذي عاش بعده بقرن واحد جاء بنفس المعنى أيضًا وشرحه ^(٤).

(١) التحقيق ، مادة (ختم).

(٢) تفسير جامع البيان ، ج ٢٢ ، ص ١٢.

(٣) تفسير البيان ، ج ٨ ، ص ٣١٤.

(٤) تفسير مجمع البيان ، ج ٧ و ٨ ، ص ٣٦٢.

يقول (أبو الفتوح الرازي) الذي يعدّ من المفسرين رفيعي الشأن في القرن السادس وكتب تفسيره باللغة الفارسية في تعبير جذّاب في ذيل كلمة (خاتم النبيين) : «وآخر الأنبياء حتى تظن أنه ختم النبوة ، وبنبوته ختم باب بعث الأنبياء» ^(١).

ويقول كذلك المفسر السنّي الشهير (الفخر الرازي) والذي يعدّ من مفسري القرن السادس المجري المعروفين بعد كلمة (خاتم النبيين) : «مفهومها أن لا نبي بعده ، وشرعه تامة بحيث لم يبق شيء لم يذكر» ^(٢).

وسار بقية المفسرين قرناً بعد قرن على نفس المعنى حتى وصل إلى المفسرين المعاصرین. والشيء الملفت للنظر هو أنّ مادة ختم ومشتقها . الآية المذكورة . استخدمت في القرآن الكريم في سبعة موارد جاءت كلها وبدون استثناء بمعنى الاتمام أو انتهاء الشيء أو الختم الذي يضريونه أسفل الرسائل ، وهذا بذاته يدلّ على أنّ الآية موضوع البحث ليس لها أي مفهوم سوى أنّ النبي ﷺ هو خاتم سلسلة الأنبياء ، والختم الذي وضع على نهاية سجل الرسالات.

وكذلك جاء في (نهج البلاغة) والروايات الإسلامية نفس المعنى بشكل عام ، وسوف يشار إلى قسم منها في نهاية هذا البحث.

* * *

الإجابة عن بعض الأسئلة :

١ . يقال أحياناً : إنّ (خاتم) تعني الزينة . وبناء عليه فإنّ مفهوم الآية هو أنّ النبي ﷺ كان زينة لكل الأنبياء وليس خاتمهم .
لكن يجب الالتفات إلى أنّ (خاتم) لم تأت أبداً بمعنى الزينة وإنما بمعنى (الختم الذي له

(١) تفسير الكبير ، ج ٩ ، ص ١٦٢ .

(٢) تفسير الكبير ، ج ٢٥ ، ص ٢١٤ .

فصّ ويووضع في الأصابع) وأن هذا التعبير غير لائق تماماً أن يقال : إن النبي ﷺ هو خاتم أصابع النبيين ، ثم إننا قلنا : إن المعنى الأصلي ل (خاتم) لم يكن أبداً (خاتم الأصبع) وإنما الختم الذي يختتمون به عند الانتهاء من الرسائل أو البرامج أو الكتب. وانطلاقاً من أن وضع الختم يكون في (الختام) والهياكل. فإنّ اسم (خاتم) يطلق على الواسطة التي تختتم بها الرسالة. (لاحظوا أنّ الكلمة «خاتم» بفتح التاء معناها «ما يختتم به» أي الشيء الذي يختتمون به).

وما يشير الاهتمام هو أنّ الختم الأصلي للأشخاص في عصر نزول القرآن والقرون التالية له ، كان على الخواتيم التي يحملونها على أصابعهم وبواسطتها كانوا يختتمون رسائلهم ، ولهذا السبب جاء في سيرة النبي ﷺ «أنّ خاتم رسول الله كان من فضة نقشه محمد رسول الله ﷺ » (١).

وجاء في بعض التواريخ أنّ من جملة وقائع السنة السادسة للهجرة أهّم «عرضوا على النبي ﷺ بأنّك تراسل زعماء البلدان والملوك وأهّم لا يقرأون الرسائل التي لا يختتم عليها. لهذا السبب اختار النبي ﷺ خاتماً لاصبعه حتى يختتم به الرسائل» (٢).

وجاء في كتاب (الطبقات الكبرى) أيضاً أنّ النبي ﷺ عندما قرر أن ينشر دعوته ويكتب الملوك والسلطانين في العالم أمر فصّنعوا له خاتماً كتب عليه (محمد رسول الله) وكان يختتم به رسائله (٣).

بهذا البيان يتضح أنّ الكلمة (خاتم) وإن كانت تطلق على خواتيم الزينة أيضاً ولكن في زمان نزول القرآن وما بعده كان يطلق على الخواتيم التي يختتمون بها رسائلهم أو يختتمون بها على حمل ربط الرسائل بعد طيها واغلاقها.

والنقطة الملفتة للنظر هي أنّ نفس المعنى استخدم في آيات متعددة من القرآن الكريم،

(١) سنن البيهقي ، ج ١٠ ، ص ١٢٨ ؛ وفروع الكافي : ج ٦ ، ص ٤٧٣ . باب نقش الخواتيم ، ح ١ ، (كان نقش خاتم النبي محمد رسول الله ﷺ).

(٢) سفينة البحار ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .

(٣) الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

فيقول حول مجموعة من الكفار : ﴿خَسَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ . (البقرة / ٧) ويقول عن يوم القيمة : ﴿الْيَوْمَ نَخْتَمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ . (يس / ٦٥) وعلى كل حال فإن أقل اطلاع على معانٍ هذه المفردة في الأدب العربي وجدورها الأصلية وموارد استعمالها يثبت بوضوح أنّ الكلمة (خاتم النبّيين) ليس لها أي معنى سوى معنى متمم عدّة الأنبياء وخاتمهم.

* * *

السؤال الثاني :

الايراد الواهي الآخر طرح من قبل البعض من عديمي الخبرة وهو أنّ القرآن الكريم يقول : إنّ النبي الأكرم ﷺ (خاتم النبّيين) ولم يقل (خاتم الرسّل) ومن الممكن أنّ سلسلة الأنبياء تنتهي بظهوره ولكن سلسلة الرسّل ، لانهائية لها.

الجواب :

صحيح أنّ (النبي) معناه كلّنبي يوحى إليه من قبل الله تعالى سواءً كان مكلفاً بالتبليغ أم لا ، عنده كتاب سماوي أم لا . ولكن (الرسول) هونبي مكلف بالبلاغ . وبتعبير آخر ، أنّ كلّنبي رسول ولكن ليس كلّرسولنبي.

بمذا البيان تكون الإجابة عن السؤال المذكور واضحة تماماً ، فعندما يكون شخص ما خاتماً للأنبياء فبطريق أول يكون خاتماً للرسل أيضاً ، لأنّه كما قلنا قبل قليل : إنّ كلّرسول هونبي . لأنّ مرحلة الرسالة أشمل من النبوة ..

وهذا الكلام يشبه بالضبط قولنا إنّ فلاناً خرج من منطقة الحجاز . فباتأكيد أنّ ذلك الشخص خرج من مكة أيضاً ، أمّا إذا نقول إنّ فلاناً ليس في مكة . فمن الممكن أن يكون في نقطة أخرى من الحجاز .

وبناء على هذا إذا كان النبي ﷺ خاتم المرسلين كان ممكناً أن لا يكون خاتماً للأنبياء . ولكن حينما تقول الآية أنه خاتم النبّيين فمن المسلم به أن يكون خاتماً للمرسلين كذلك .

في قسم آخر من الآيات المذكورة هناك تعبيرات يعتبرها الكثير من العلماء دليلاً ساطعاً على مسألة الخاتمية. وإذا افترضنا عدم قبول دلالتها الصريحة. فلا أقل من أن تكون قرائن وشواهد على هذه المسألة :

نقرأ في أول آية من هذا القسم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَأَنَّهُ لِكِتَابٍ عَزِيزٌ﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

و «الباطل» : في هذه الآية معناه الشيء الذي يبطل أو ينسخ ، وعليه فإن مثل هذا الكتاب سيكون خالداً وأبداً ، وهذا بنفسه دليل على خاتمية الدين الذي يعود له هذا الكتاب ، كما هو دليل على عدم تحريف القرآن أيضاً.

وقد يقال : إن (الباطل) في اللغة لا يعني (المبطل) إذن كيف فسرتم الآية بهذا الشكل؟ فنقول : علاوة على أن الكثير من المفسرين ذكروا أن أحد معانى الباطل هنا هو المبطل ^(١) فأصولاً عندما يقول (لا يأتيه الباطل) فإن مفهومها أن الباطل لا يمكنه أن يعيقه أو يعطله خصوصاً وأنه قال قبلها : (وأَنَّهُ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ) التي تدل على بقائه وثباته.

* * *

وفي الآية التالية يقول : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ولفظة (عالمين) التي تشمل كل سكان العالم بالرغم من عدم تقييدها بأي قيد فهي تعم أبناء كل الأعصار حتى نهاية الدنيا.

وهي ليست غير محدودة من ناحية المكان فحسب ، بل و حتى من ناحية الزمان أيضاً ، وتشمل حتى الآتين ، ولهذا السبب تعتبرها الكثير من المفسرين دليلاً على عالمية الدين الإسلامي أولاً وعلى خلوه ثانياً ^(٢).

والنقطة الملفتة للنظر أيضاً أن كلمة (عالمين) اخذت من مادة (علم) التي تشمل كل

(١) مثل المرحوم الشيخ الطوسي في تفسير البيان ؛ والطرسى في تفسير مجمع البيان ؛ والعلامة الصباطي في تفسير الميزان ؛ والآلوي في تفسير روح المعانى وكذلك بعض المفسرين الآخرين (ذيل الآية مورد البحث).

(٢) تفسير الكبير ، ج ٢٤ ، ص ٤٥ ؛ وتفسير القرطبي ، ج ٧ ، ص ٤٧١٨ ؛ وتفسير روح البيان ، ج ٦ ، ص ١٨٨ .

الموجودات التي يحتويها علم الإنسان حتى السماوات والأرض ، ولكن بمراعاة كلمة الانذار التي وردت في الآية فإن مفهومها يكون هنا مخصوصاً بالملائكة في العالم.

على أية حال ، يكون الاستدلال على الآية الثالثة بنفس الطريقة أيضاً ، لأنّ الرسول

عليه السلام يقول وفق هذه الآية : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

فسعة مفهوم (من بلغ) غير خاصٍ على أحد ويكون شاملة لكل بني الإنسان إلى نهاية العالم ، وهو دليل على عالمية الإسلام وديمومته وخلوده.

ويصرح (الطبرسي) رضي الله عنه في جمجمة البيان . ذيل الآية المذكورة . بأنّ (من بلغه القرآن إلى

يوم القيمة) مشمولون بهذه الآية ^(١).

وكذلك الكثير من المفسرين القدماء والمحدثين بينوا صراحة في ذيل هذه الآية أنّها دلالة على مسألة (الخاتمية) ومن جملة هؤلاء (أبو الفتوح الرازي) من علماء القرن الثالث للهجرة وصاحب تفسير (روح البيان) والعلامة الطباطبائي في (الميزان) وغيرهم.

* * *

ودلالة الآيات (٤ و ٥ و ٦ و ٧) مورد البحث تكون أيضاً بنفس الطريق لأنّ تعبير (كافة للناس) الذي جاء في الآية الرابعة يشمل عموم الناس. وفي الآية الخامسة ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ والآية السادسة أيضاً استندت إلى العالمين الذي هو مفهوم واسع من جهة الزمان والمكان.

ومجموع هذه الآيات يمكن أن يكون تأييداً وتأكيداً آخر على مسألة (خاتمية نبى الإسلام عليه السلام) و (خلود القرآن).

وذكر بعض من الكتاب والمؤلفين آيات أخرى بهذا الصدد صرفاً النظر عن ذكرها لأنّ دلالتها غير كافية كما يبدو للنظر.

* * *

(١) تفسير جمجمة البيان ، ج ٣ و ٤ ، ص ٢٨٢.

الخاتمية في الروايات الإسلامية :

كما اشير من قبل إلى أن الاعتقاد بخلود الإسلام وديمويته من الامور التي اتفق عليها كل العلماء والمفكرين المسلمين ، بل وتعتبر من ضروريات هذا الدين ومصدر هذه العقيدة . وبالإضافة إلى الآيات القرآنية . هناك روايات لا تخصى وصلتنا عن النبي ﷺ وبقية الأئمة المعصومين ظاهرًا بما يشكل مجموعها كتاباً كاملاً ، وسنشير إلى قسم منها في هذا الملخص كنموذج .

١ . الروايات العديدة حول ختم سلسلة الأنبياء والتي جاءت على لسان النبي ﷺ وهذه الروايات بذاتها تشكل باباً واسعاً جدًا ، ومن جملة الأحاديث في هذا الباب الروايات التالية :

أ) في الحديث المشهور الذي نقلته الكثير من مصادر الحديث والتفاسير عن النبي ﷺ والذي يقول فيه :

«مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجلٍ بني داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنةٍ فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : لولا موضع اللبنة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله فأنا موضع اللبنة حيث فتحتني» ^(١) .

ونقل نفس الحديث بطريق آخر جاء في آخره : «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» ^(٢) .

ونفس المعنى نقل بطرق متعددة ^(٣) .

وفي تفسير (مجمع البيان) جاء هذا الحديث بهذه الصورة : يقول : نقل في حديث صحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال : «إِنَّمَا مثلي فِي الْأَنْبِيَاءِ كَمَثْلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكَمَهَا وَحَسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ، فَكَانَ مِنْ دُخُلَهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا قَالَ: مَا حَسَنْتَ إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ الْلَّبْنَةِ، قَالَ ﷺ: فَأَنَا مَوْضِعُ الْلَّبْنَةِ خَتَمَ بِالْأَنْبِيَاءِ» ثم يقول :

هذا الحديث نقل في

(١) صحيح مسلم ، ج ٤ ، ص ١٧٩١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(صحيف البخاري) و (صحيف مسلم) ^(١).

وجاء أيضاً في مسندي (أحمد بن حنبل) و (الترمذى) و (النسائى) وكثير من كتب الحديث والتفسير الأخرى ، وهو من الأحاديث المعروفة جداً والمشهورة.

والعلامة الصباطي بعد أن يذكر هذا الحديث يقول : «نفس هذا المعنى نقله أيضاً غير البخاري ومسلم مثل : الترمذى والنسائى وأحمد وابن مروديه عن غير جابر» ^(٢).

ب) وجاء في (نحو البلاغة) أيضاً التصريح بمسألة خاتمية نبى الإسلام ﷺ في خطب متعددة. ونقرأ في الخطبة ١٧٣ : «أمين وحى وخاتم رسله».

وفي الخطبة ١٣٣ : «ختم به الوحي».

وفي الخطبة ٧٢ بعد أن يصلى على ﷺ ويسلم على النبي ﷺ يصفه هكذا : «الخاتم لما سبق والفاتح لما انغلق».

وفي الخطبة ٨٧ يخاطب الناس قائلاً : «أيتها الناس خلواها عن خاتم النبيين ...». ويقول في الخطبة الأولى من نحو البلاغة : «بعث الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ لانجاز عدته واتمام نبوته».

والمثير للاهتمام أنه عند التدقير الواسع الذي جرى على ١١٠ أجزاء من كتاب (بخار الأنوار) بواسطة أجهزة الكمبيوتر تبين أن كلمة (خاتم النبيين) أو (خاتم الرسل) و (خاتم الأنبياء) وردت في أكثر من ٣٠٠ موضع من الكتاب (من الجزء الثاني وحتى الجزء ١١٠) والقسم الأعظم منها في روايات الأئمة الموصومين عليهم السلام والقليل منها في تفاسير العلامة المحسني وأمثاله. وتبيّن بوضوح ما تحظى به مسألة خاتمة نبى الإسلام ﷺ في أوسع المسلمين في كل عصر وزمان من شهرة وشيوع واسعين ^(٣).

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٧ و ٨ ، ص ٣٦٢.

(٢) تفسير الميزان ، ج ١٦ ، ص ٣٢٧ ، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) نتقدم بالشكر إلى المركز الكومبيوترى للحوسبة العلمية في قم الذى قدم هذه الموارد التي جاءت في ٢٣ صفحة من الحجم الكبير إلى مركز تفسير رسالة القرآن.

وجاء في كتب أهل السنة كرارا لفظ (حاتم النبيين) و (حاتم الأنبياء) ^(١).

ج) حديث (المنزلة) المعروف . الذي ورد في الكثير من كتب الشيعة وأهل السنة المعروفة بخصوص علي عليهما السلام ويعتبر من أشهر الأحاديث النبوية المتواترة . دليلاً واضح على هذا المعنى. لأن النبي عليهما السلام كان يريد التوجه مع جيشه إلى (معركة تبوك) فخلف مكانه في المدينة عليهما السلام وقال له : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» ^(٢). والنقطة المثيرة للاهتمام أيضاً هي أن هذه الجملة لم يقلها النبي عليهما السلام في واقعة (معركة تبوك) فقط ، بل وصرح بها في موضع آخر أيضاً ، وعلى الأقل أكلاً سمعت منه عليهما السلام ست مرات في غير (غزوة تبوك) :

أولاً : في يوم (المؤاخاة الأولى).

ثانياً : في يوم (المؤاخاة الثانية).

ثالثاً : أثناء تعزية النبي عليهما السلام (ام سليم) عندما استشهد أبوها وأخوها.

رابعاً : في الحديث الذي ينقله (ابن عباس) عن (عمر) بهذا الخصوص.

خامساً : في الحديث الذي جرى أثناء المنازعة على كفالة بنت (حمزة سيد الشهداء).

سادساً : في الحديث الذي ورد عن سد الأبواب التي على المسجد إلآباب بيت علي عليهما السلام وبيت النبي عليهما السلام ^(٣).

وهذا الحديث يثبت بوضوح أن ما من نبي سيأتي بعد نبي الإسلام عليهما السلام وأن هذه المسألة اعتبرت جزءاً من الواضحات منذ نفس عصر ظهور النبي الإسلام عليهما السلام .

د) ورد في أحاديث متعددة أن الأحكام الإسلامية باقية وقائمة إلى نهاية العالم. وهذا

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى مادة ، (ختم).

(٢) الملفت أن هذا الحديث نقل عن ١٧٠ طریقاً . مائة منها عن طرق أهل السنة وسبعين طریقاً من طرق أهل البيت عليهما السلام . ومن جملة الكتب التي نقل فيها هذا الحديث : صحيح مسلم ؛ صحيح البخاري ؛ سنن ابن ماجه ؛ مستدرك الحاکم ؛ مسند أحمد بن حنبل ؛ ذخائر العقی ؛ الصواعق المحرقة ؛ كنز العمال ؛ ينایع المودة وغيرها . (للاستیضاح أكثر ارجعوا إلى «المراجعات» المراجعة ٢٨).

(٣) للاطلاع أكثر ارجعوا إلى (تفسير نمونة «فارسي») ذیل الآية ٤ من سورة الأعراف والمراجعات (المراجعة ٣٢).

الأمر لا يستقيم إلّا بـ (خاتمية نبي الإسلام ﷺ لأنّ مجيء نبي جديد آخر سينسخ قسماً من أحكام النبي الذي سبّقه على الأقل).

ومن جملتها نقرأ في اصول الكافي : « حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيمة وحرام حرام أبداً إلى يوم القيمة. لا يكون غيره ولا يجيء غيره » ^(١).

وجاء نفس المعنى في مكان آخر إذ يقول الإمام الصادق علّيّه السلام بعد أن ذكر الأنبياء : « حتى جاء محمد ﷺ فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه ، فحالله حلال إلى يوم القيمة وحرام حرام إلى يوم القيمة » ^(٢).

ثم إنّه يتضح من هذا الخبر المشهور أنّه ليس النبي ﷺ (خاتم الأنبياء) فحسب ، بل وأنّ دينه ومجموع تعاليمه وأحكامه خالدة وأبدية ولا تتعرض لاي تغيير ، وأنّ أولئك الذين يتصورون . بقبوهم مسألة الخاتمية . أنّهم يستطعون بأفكارهم إيجاد تغييرات في تعاليم الإسلام وأحكامه خطئون جداً ، لأنّ الأحاديث آنفة الذكر تقول إنّ خلود نبوته ملزماً خلود تعاليمه وأحكامه.

ونقل (العلامة الجلسي) رحمه الله هذا الحديث أيضاً في الكثير من مجلدات بحار الأنوار

^(٣).

هـ) في آخر خطبة (حجّة الوداع) الشهيرة وهي نفس الخطبة التي بينها النبي ﷺ للناس بعنوان وصيته الجامعة في آخر حجّة وآخر سنة من عمره الشريف جاءت مسألة (الخاتمية) صريحة.

إذ يقول : « ألا فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبي بعدي ولا أمّة بعدهم » ثم رفع يديه المباركتين إلى السماء . بعد أن انتهى من تبيين كل وصاياه . حتى بان بياض أبطيه وقال : « اللهم اشهد أتّي قد بلغت » ^(٤).

(١) اصول الكافي ، ج ١ ، ص ٥٨ ، ح ١٩.

(٢) اصول الكافي ، ج ٢ ، ص ١٧ ، ح ٢.

(٣) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، ح ١٧.

(٤) بحار الأنوار ، ج ٢١ ، ص ٣٨١ نقاً عن المحصل ج ٢ ، ص ٨٤.

و) وجاء في حديث معروف اخر عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولٌ بَعْدِي وَلَا نَبِيٌّ» ^(١).

وهذا الحديث بالخصوص ملفت للنظر من جهة أَنَّهُ اغلق الطريق أمام مختلفي الذرائع الذين يقولون : إِنَّهُ (خاتم الأنبياء) وليس (خاتم الرسل).

ز) ننهي هذه الروايات بحديث آخر عن رسول الله ﷺ فقد جاء في كتاب (اسد الغابة) : «أَنَّ (العباس بن عبد المطلب) عَمُ النَّبِيِّ كَانَ يَطْلَبُ مِنْهُ أَنْ يَأْذِنَ لَهُ بِالْمُحْرَجَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى يَلْحِقَ بِهِ (حَسْبَ بَعْضِ الرَّوَايَاتِ أَنَّ الْعَبَّاسَ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ وَبَقِيَ فِي مَكَّةَ بَذَنَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ يَكْتُبُ لَهُ أَخْبَارَ الْمُشْرِكِينَ وَيَلْحِجُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَعِنْدَمَا قَوِيتْ شُوَكَةُ الْإِسْلَامِ طَلَبَ الْعَبَّاسُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَأْذِنَ لَهُ بِالْمُحْرَجَةِ ، وَلَكِنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ : (لَا تَعْجَلْ بِهَذَا الْأَمْرَ) ، وَمِنْ هَذِهِ الرَّوَايَةِ يُشَيرُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ : «يَا عَامِّ أَقْمِ مَكَانَكَ الَّذِي أَنْتَ بِهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْتَمُ بِكَ الْمُحْرَجَةَ كَمَا خَتَمَ بِي النَّبُوَّةَ».

ثُمَّ جاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ قَبْلَ (فَتْحِ مَكَّةَ) وَهَاجَرَ وَرَافِقَهُ فِي فَتْحِ مَكَّةَ ، وَبِفَتْحِ مَكَّةَ اَنْتَهَتِ الْمُحْرَجَةُ . لَأَنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ أَصْبَحَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ دَارَ إِسْلَامٍ وَلَيْسَ دَارَ كُفْرٍ يَهَاجِرُ مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ» ^(٢).

وبناءً عَلَى ذَلِكَ كَانَ (الْعَبَّاسُ) هُوَ آخِرُ مَنْ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ إِذْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَانْتَهَتِ الْمُحْرَجَةِ . وَكَتَبَ الْبَعْضُ أَنَّ (الْعَبَّاسَ) الَّذِي كَانَ فِي طَرِيقِ هَجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ زَوْجِهِ وَأَبْنَائِهِ التَّقِيِّ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي أَحَدِ الْمَنَازِلِ وَسَطَ الْطَّرِيقِ عِنْدَمَا كَانَ ﷺ فِي طَرِيقِهِ لِ(فَتْحِ مَكَّةَ) فَانْضَمَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ ﷺ : «وَهَاجَرْتَكَ آخِرَ الْمُحْرَجَةِ كَمَا أَنَّ نَبْوَتِي آخِرَ النَّبُوَّةِ» ^(٣).

وَيَلْغِي مَجْمُوعُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرْتُ تَحْتَ هَذِهِ الْعُنَوَّينِ السَّبْعَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا الْآفَ الأَحَادِيثِ الَّتِي تَدْلِي بِوضُوْحٍ كُلِّهَا عَلَى أَنَّ مَسْأَلَةَ خَاتَمِيَّةِ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ ﷺ كَانَتْ مِنْذُ الْبَدَائِيَّةِ مِنَ الْمَسَائِلِ الْوَاضِحَةِ وَالْبَدِيَّةِ.

(١) سنن الترمذى ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

(٢) اسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١١٠ .

(٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ، ج ١ ، ص ٥ .

والنقطة الملفتة للنظر أيضاً أنَّ كلَّ واحدٍ من الأئمَّة الموصومين الأربع عشرة عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ وصلنا عنه حديث أو أحاديث عن (الخاتمية)^(١).

والبعض من الْكُتُب قسموا هذه الأحاديث إلى عشرين قسماً^(٢).

* * *

توضيحات

١ . هل أنَّ السير التكاملية للإنسان ينسجم مع مسألة الخاتمية؟

أول سؤال يمكن أن يطرح في هذا البحث هو : هل يمكن للمجتمع الإنساني أن يتوقف؟ أو هل لـ (السير التكاملية للبشر) حدٌ وحدود؟ أولاً نرى بأعيننا أنَّ الناس هم اليوم في مرحلة أعلى من العلم والمعرفة والثقافة نسبة إلى السابق؟
إذن بهذه الحالة كيف تختتم النبوات بالكليمة ويحرم الإنسان في سيره التكاملية هذا من الأنبياء الجدد؟

الجواب :

إنَّ الاجابة عن هذا السؤال تتضمن بالالتفات إلى نقطة واحدة وهي أنَّ الإنسان أحياناً يصل إلى مرحلة من النبوغ الفكري والثقافي تمكّنه من مواصلة سيره بالاستفادة المستمرة من الأصول والتعاليم التي وضعها باختياره النبي الخاتم بشكل جامع بدون أن يحتاج إلى شريعة جديدة.

وهذا بالضبط ما يشبه إنساناً يحتاج في كل مرحلة من المراحل الدراسية المختلفة إلى معلم وُمُربٍ جديداً حتى ينهي المراحل الأخرى ، أما عندما يصل إلى مرحلة (الدكتوراه) أو (الاجتهاد) ويصبح صاحب رأي في علم أو علوم متعددة ، ينقطع عن ادامة تحصيلاته عند

(١) للاطلاع أكثر راجعوا كتاب الخاتمية من وجهة نظر القرآن والحديث والعقل.

(٢) للاطلاع أكثر راجعوا كتاب خاتمية آخر الأنبياء عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ من ص ٣٩ إلى ص ٤١.

استاذ جديـد ، ويكتـفي بالاعتمـاد عـلـى مـاتـعلـمـه مـن اـسـاتـذـته الـقـدـامـيـ وـخـصـوصـاً الـاستـاذـ الـأـخـيرـ وـيـنـشـغـلـ بـالـبـحـثـ وـالـتـحـقـيقـ وـالـمـطـالـعـةـ وـالـتـدـقـيقـ وـيـوـاـصـلـ مـسـيرـهـ التـكـامـلـيـ .

وبـتـعـبـيرـ آـخـرـ صـارـ يـضـعـ الـحـلـولـ لـلـمـشـاـكـلـ الـتـيـ تـعـتـرـضـ طـرـيـقـهـ اـعـتـمـادـاًـ عـلـىـ تـلـكـ الـاـصـوـلـ الـكـلـيـةـ وـمـاـ حـصـلـ عـلـيـهـ مـنـ آـخـرـ اـسـاتـذـتـهـ ،ـ وـبـنـاءـ عـلـىـ ذـلـكـ فـلـاـ حـاجـةـ لـأـنـ يـظـهـرـ دـائـمـاًـلـوـجـودـ دـيـنـ وـتـعـالـيمـ جـديـدـةـ بـمـرـورـ الزـمـانـ (ـتـأـمـلـواـ)ـ .

أـوـ بـعـبـارـةـ آـخـرـ :ـ إـنـ الـأـنـبـيـاءـ السـابـقـينـ .ـ وـمـنـ اـجـلـ أـنـ يـتـمـكـنـ الـإـنـسـانـ مـنـ مـتـابـعـةـ سـيـرـهـ نـحـوـ التـكـامـلـ فـيـ هـذـاـ طـرـيـقـ الـمـلـيـءـ بـالـمـنـعـطـفـاتـ وـالـصـعـودـ وـالـانـخـدـارـ وـضـعـ .ـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـ عـلـىـ حـدـةـ .ـ تـحـتـ تـصـرـفـهـ جـزـءـاًـ مـنـ خـارـطـةـ هـذـاـ مـسـيرـ حـتـىـ أـصـبـحـ مـؤـهـلاًـ لـأـنـ يـتـلـقـيـ خـارـطـةـ الـمـسـيرـ عـامـةـ وـجـامـعـةـ وـكـامـلـهـ وـالـتـيـ وـضـعـهـ اللـهـ تـعـالـىـ مـنـ خـالـلـ آـخـرـ الـأـنـبـيـاءـ .ـ

وـمـنـ الـبـدـيـهـيـ إـذـاـ تـلـقـيـ الـخـارـطـةـ الـكـامـلـةـ وـالـجـامـعـةـ فـسـوـفـ لـنـ يـحـتـاجـ إـلـىـ خـارـطـةـ آـخـرـ ،ـ وـهـذـاـ فـيـ الـحـقـيقـةـ بـيـانـ لـنـفـسـ الـتـعـبـيرـ الـذـيـ وـرـدـ فـيـ أـحـادـيـثـ (ـالـخـاتـمـيـةـ)ـ وـاعـتـبـرـتـ فـيـهـ نـبـيـ الـإـسـلـامـ عـلـيـيـهـ الـحـلـمـيـةـ هـوـ آـخـرـ لـبـنـةـ أـوـ وـاضـعـ آـخـرـ لـبـنـةـ فـيـ بـنـاءـ ذـلـكـ الـقـصـرـ الـجـمـيلـ وـالـمـتـنـيـنـ لـلـرـسـالـةـ .ـ

كـلـ مـاـ ذـكـرـنـاـ لـهـ عـلـاقـةـ بـعـدـ الـحـاجـةـ إـلـىـ دـيـنـ أـوـ تـعـالـيمـ جـديـدـةـ ،ـ أـمـاـ مـسـأـلـةـ الـقـيـادـةـ وـالـإـمـامـةـ الـتـيـ هـيـ نـفـسـ الـاـشـرـافـ الـكـلـيـ عـلـىـ تـطـبـيقـ هـذـهـ الـاـصـوـلـ وـالـقـوـانـيـنـ وـإـعـانـةـ الـمـتـحـلـفـينـ عـنـ الـمـسـيـرـ فـهـيـ مـسـأـلـةـ آـخـرـ لـاـيـسـتـغـنـيـ عـنـهـ الـإـنـسـانـ فـيـ أـيـ وـقـتـ مـنـ الـأـوـقـاتـ ،ـ وـهـذـاـ السـبـبـ إـنـاـتـمـاـ سـلـسلـةـ الـبـيـوـةـ لـاـ تـعـنـيـ مـطـلـقاًـ اـتـمـاـ سـلـسلـةـ الـإـمـامـةـ ،ـ لـأـنـ تـبـيـنـ وـتـوـضـيـعـ تـلـكـ الـاـصـوـلـ وـالـتـحـقـقـ الـخـارـجـيـ لـهـ غـيـرـ مـكـنـةـ بـدـوـنـ الـاـسـتـفـادـةـ مـنـ وـجـودـ قـائـدـ إـلـهـيـ مـعـصـومـ .ـ

* * *

٢ . هل أن القوانين الثابتة تتماشى مع احتياجات الإنسان المتغيرة؟

فيـمـاـ عـدـاـ مـسـأـلـةـ الـسـيـرـ الـتـكـامـلـيـ لـلـبـشـرـ الـتـيـ طـرـحـتـ فـيـ السـؤـالـ الـأـوـلـ هـنـاكـ سـؤـالـ آـخـرـ وـهـوـ :ـ إـنـاـ نـعـلـمـ أـنـ مـقـنـصـيـاتـ الـزـمـانـ وـالـمـكـانـ مـخـلـفـةـ مـنـ وـقـتـ لـآـخـرـ ،ـ أـوـ بـتـعـبـيرـ آـخـرـ أـنـ الـإـنـسـانـ دـائـمـاًـ فـيـ حـالـةـ تـغـيـرـ ،ـ فـيـ حـينـ أـنـ شـرـيـعـةـ خـاتـمـ الـأـنـبـيـاءـ لـهـ قـوـانـيـنـ ثـابـتـةـ ،ـ فـهـلـ

باستطاعة هذه (القوانين الثابتة) تلبية احتياجات (الإنسان المتغيرة) على طول الزمن ...؟

يمكن الاجابة عن هذا السؤال أيضاً بالالتفات إلى النقطة التالية :

إذا كان لكل القوانين الإسلامية صفة (الجزئية) وتعين لكل موضوع حكماً محدداً وجزئياً فإن هذا السؤال يكون في محله ، أما إذا عرفنا أن في التعاليم الإسلامية توجد سلسلة من (الاصول العامة) الواسعة جداً والتي بإمكانها مسايرة الاحتياجات المتغيرة وتلبيتها فلا يبقى أي مجال لمثل هذا الإشكال.

مثلاً : بمرور الزمان تظهر سلسلة من المعاهدات والعقود والاتفاقيات الجديدة وال العلاقات الحقيقة بين الناس لم تكن موجودة في عصر نزول القرآن أبداً ، كما هو الحال في ما يسمى اليوم بـ (التأمين) ففي ذلك الزمان لا يوجد بتاتاً شيء يسمى (التأمين) وفروعه المتعددة ، ^(١) أو أنواع الشركات في عصرنا وزماننا هذا والتي تظهر للوجود حسب مقتضيات الوقت الحاضر ، ولكن مع هذا فإن لدينا في الإسلام قانوناً عاماً جاء في بداية سورة المائدة عنوانه (وجوب الوفاء بالعهد والعقد) يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾. وكل تلك المعاهدات والعقود يمكن وضعها تحت غطاء ذلك القانون.

وطبعاً جاءت قيود وشروط بصورة عامة أيضاً على هذا الأصل الكلي في الإسلام يجب مراعاتها.

وبناءً على هذا فإن (القانون العام) ثابت وإن كانت مصاديقه في حالة تغيير ، وكل يوم يمكن أن يظهر مصداقاً جديداً.

والمثال الآخر : إن لدينا في الإسلام قانوناً بديهياً باسم (قانون لا ضرر) الذي يمكن بواسطته الحد من كل حكم يشكل ضرراً على المجتمع الإسلامي ، وعن طريق هذا القانون تسد الكثير من احتياجاتاته.

وبغض النظر عن هذا فإن مسألة (لزوم حفظ نظام المجتمع) و (وجوب تقسيم الواجب)

(١) طبعاً توجد في الإسلام موضوعات شبيهة بالتأمين وفي حدود خاصة مثل مسألة (ضمان الجريمة) ولكن كماقلنا إنما شبيهة بهذه القضية فقط.

ومسألة (تقديم الأهم على المهم) يمكنها في مجالات واسعة جدًا أن تكون حالة للمشاكل. بالإضافة إلى كل ما ورد فإن الصالحيات الممنوحة للحكومة الإسلامية عن طريق (ولاية الفقيه) تعطيها إمكانيات واسعة لحل المشكلات في إطار الأصول الكلية للإسلام. وطبعاً أن بيان كل واحد من هذه الأمور بالخصوص عند الالتفات إلى فتح باب الاجتهاد (الاجتهاد معناه استنباط الأحكام الإلهية من المصادر الإسلامية) يحتاج إلى تحقيق كثير يبعدنا القيام به عن هدفنا ، ولكن مع هذا فإن ما أوردناه هنا إشارة بامكانها أن تشكل اجابة عن الاشكال آنف الذكر.

* * *

٣ . هل يجب حرمان الإنسان من فيض الارتباط بعالم الغيب؟

السؤال الآخر هو : إن (نزول الوحي) والارتباط مع عالم الغيب وما وراء الطبيعة إضافة إلى كونه هبة ومبعد افتخار لعالم البشرية ، يعد نافذة أمل لكل المؤمنين الصادقين ، إذن لا يعتبر قطع طريق الارتباط هذا وغلق نافذة الأمل هذه حرماناً عظيماً للإنسان الذي عاش بعد وفاة النبي الخاتم؟

والجواب عن هذا السؤال يتضح أيضاً بالالتفات إلى ما يلي :

أولاً : إن الوحي والارتباط مع عالم الغيب هو وسيلة لإدراك الحقائق ، وعندما يقال كل ما يراد قوله وتتضح كل الاحتياجات إلى يوم القيمة في الأصول الكلية والتعليمات الجامعة للنبي الخاتم ، فإن قطع هذا الارتباط لا يسبب أي مشكلة.

ثانياً : إن الذي قطع للأبد بعد ختم النبوة هو (الوحي لشريعة جديدة أو لتكمل شريعة سابقة) ، وليس كل نوع من الارتباط بما وراء عالم الطبيعة ، لأن الإئمة عليهم السلام لهم ارتباط بعالم الغيب وكذلك المؤمنين الصادقين الذين ينالون مقام (الكشف) و (الشهود) على أثر ازاحتهم للحجب عن قلوبهم بعد تهذيب نفوسهم.

يقول الفيلسوف المعروف (صدر المتألهين الشيرازي) في كتاب (مفاتيح الغيب) : «(الوحي) يعني نزول الملك بقصد مهمّة النبوة حتى وإن كانت منقطعة لأنّه بحكم «أكملت لكم دينكم» كان ما يجب أن يصل إلى نوع البشر عن هذا الطريق قد وصل ، أما باب الالهام والاشراق فلم يغلق ولن يغلق أبداً ولا يمكن أن يغلق هذا الطريق»^(١).
وأصولاً أنّ هذا الارتباط نتيجة لارتفاع النفس وتنقية الروح وصفاء الباطن ولا علاقة له بمسألة الرسالة والنبّوة .

وبناء على هذا ففي أي زمان تحصل مقدماته وشرائطه فسوف تتمّ هذه الرابطة المعنوية ولم يحرم نوع البشر أبداً من هذا الفيض الإلهي العظيم ولن يحرم .

* * *

٤ . هل تنسجم هذه الآيات مع مسألة الخاتمية؟

إنّ مجموعة من مبتدعي الأديان في عصرنا ، من أجل أن يبعدوا الطريق أمام مدعياتهم حول النبوة ، لم يجدوا أي حل أمامهم سوى التوجه لمسألة (الخاتمية) التي هي من بدائيات وضروريات الدين الإسلامي ووضعها تحت الاستفهام. وكما هو اسلوب أصحاب القلوب المريضة تناولوا بعض الآيات القرآنية التي وجدوها قابلة للتحريف والانسجام مع مقاصدهم وتشبّحوا بها لنفي (الخاتمية) ، وكان البعض منها غريباً عن مسألة الخاتمية إلى حد لا تستحق حتى طرحها ، ونذكر هنا قسمين فقط من تلك التي يمكن طرحها إلى حد ما والتي استندوا إليها أكثر :

١ . يقولون : إنّ الآيات لا تنفي إمكانية ظهور أنبياء آخرين. لأنّما تقول : ﴿يَأْتِيَنِي
آدَمَ مَا يَأْتِيْنَكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْرَثُونَ﴾ . (الأعراف / ٣٥)

إِنَّمَا يَقُولُونَ : بالالتفات إلى أنّ جملتي (يأتينكم) و (يقصون عليكم) هما فعلاً

. (١) مفاتيح الغيب ، ص ١٣

مضارعان ، إذن فإن الآية تدلل على امكانية بعث أنبياء آخرين في المستقبل ، وفي هذه الحالة يكون اتباعهم واجباً.

أما إذا التفتنا إلى نقطة واحدة سيكون الجواب عن هذا الكلام واضحاً ، وهي : إذا عدنا إلى ما قبل هذه الآيات ودققنا فيها من ١١ إلى ٣٤ من تلك السورة سنرى أن كل هذه المباحث هي حول (خلق آدم) من تراب ثم إصدار الأوامر للملائكة بالسجود لآدم ، ثم اسكناه في الجنة وطرده وزوجته منها لتركهم الأولى ، ثم هبوطهم إلى الأرض وأوامر الله لعموم بني آدم عليهما السلام .

وبعبارة أخرى أن المخاطب في هذه الآيات ليس المسلمين فحسب. بل شرائح المجتمع الإنساني كافة وكل أبناء آدم ولا شك ، فقد جاء لبني آدم أنبياء ورسل كثيرون ذكرت أسماء بعضهم في القرآن الكريم وسجلت كتب التواريخ أسماء البعض الآخر.

ولكن هؤلاء الذين أرادوا الانتفاع من هذه الآية أنكروا الخاتمية من أجل مقاصدهم ومهدوا السبيل أمام مدعى النبوة الكاذبين. وقطعوا تماماً ارتباط الآية بماضيها وصوروها على أنها خطاب لل المسلمين وخرجوا بنتيجة تقول : إن على المسلمين أن يتظروا ظهور نبي جديد.

والم証 للنظر هو أن خطاب (يابني آدم) تكرر عدّة مرات قبل هذه الآية في نفس سلسلة الآيات ، في الآيات ٢٦ و ٢٧ و ٣١ ، فالآية ٢٦ تأتي مباشرة بعد قصة هبوط آدم عليهما السلام إلى الأرض والآية ٢٧ تأتي بعدها ثم جاءت الآية ٣١ ، وفي المرحلة الرابعة تأتي الآية مورد البحث.

والمثير أيضاً أن خطاب (يابني آدم) غير موجود في أي خطاب من القرآن إلا في هذه الآيات الأربع ، ويكون الخطاب لل المسلمين عادة بـ ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ الذي جاء على نفس الصورة في أكثر من ثمانين موضعاً من القرآن ، وأحياناً جاء خطاب أكثر عمومية هو ﴿يأيها الناس﴾.

والشاهد الآخر على هذا المدعى الآية التي نقرأ فيها نفس المضمون بعد مسألة هبوط

آدم عَلَيْهِمْ إِلَى الْأَرْضِ. تقول : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنْ هُدَىٰ فَمَنْ تَبَعَ هُدَىٰ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُجُونَ ﴾ . (البقرة / ٣٨)

ومعنى اتيان (المدى) هنا هو نفس معنى (اتيان الرسل).

وجاء المضمون نفسه في الآية ١٢٣ من سورة طه ، وما يلفت النظر بالخصوص فيها هو أن المخاطب في البداية (آدم) و (حواء) وجملة (اهبطا) جاءت بصورة التشيبة . ولكن في جملة ﴿ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنْ هُدَىٰ ﴾ فالمخاطب جمع يشمل بني آدم بلا شك ، لأن الشيطان لاحظَ له من الهداية الإلهية مطلقاً ، وببناء عليه لا يمكن أن يكون ضمن المخاطبين في هذه المجموعة ، لأنَّه بعد الخطاب يقول : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . (ص / ٧٨)

أي الذي صدر عقب عناده الشديد حيث لم يبق أي أمل بحدايته ، ومعلوم أنَّ آدم وحواء شخصان ، إذن فالمخاطب هما وبنوهما.

* * *

وهنا نصل إلى ختام الجزء الثامن من تفسير (نفحات القرآن) . مجموعة بحوث النبوة الخاصة . والحمد لله رب العالمين.

إلهي ! نور قلوبنا دائمًا بنور القرآن وسنة النبي ﷺ وأبنائه المعصومين عَلَيْهِمْ سَلَامٌ .

إلهي ! مُنَّ علينا بتوفيق إصلاح أنفسنا في ظل هذه التعليمات المنجية.

ربنا ! أرج من درينا العقبات واهدنا إلى ما يوجب رضاك.

* * *

الفهرس

الرسول الأكرم ﷺ وظهور الإسلام.....	٥
الرسول الأكرم ﷺ وظهور الإسلام.....	٧
الرسول ﷺ وظهور الإسلام وسرعة انتشاره.....	٧
مارسة الضغط على المسلمين الجدد.....	١٠
التهمة والاستهزاء.....	١٠
المجراة إلى الحبشه.....	١١
الحصار الاقتصادي	١٢
بداية جديدة في ابلاغ الرسالة.....	١٤
الرسول يتلقى أهل المدينة.....	١٥
بيعة العقبة الأولى	١٥
بيعة العقبة الثانية	١٦
المجراة انعطاف جديد في تاريخ الإسلام.....	١٨
صلح الحديبية فتح كبير وتقدير للإسلام.....	٢٠
رسائله ﷺ إلى ملوك العالم	٢١
نبي الإسلام في القرآن	٢٩
محيط دعوة الرسول ﷺ	٣٠
١ . الأصنام في عقائد العرب	٣١
٢ . تفشي حالة الفقر الشديد بين الناس	٣٣

٣ . عباداتكم العجيبة	٣٣
٤ . الخرافات الأخرى لعرب الجاهلية	٣٥
٥ . شيوخ الفساد الأخلاقي	٣٦
طفولة الرسول الأكرم ﷺ	٣٧
بداية مرحلة البعثة النبوية	٤٠
قصة يوم الدار	٤٢
الأشهر الأخيرة من حياة الرسول ﷺ	٤٧
الأدلة التي تثبت صدق دعوة الإسلام	٤٩
الطريق الأول: اعجاز القرآن	٥١
جمع الآيات وتفسيرها	٥٢
توضيحات	٥٩
أ) تأثير القرآن وجاذبيته المنقطعة النظير	٥٩
١ . قصة الوليد بن المغيرة المخزومي	٦٠
٢ . استماع زعماء قريش إلى القرآن	٦١
٣ . قصة ابن أبي العوجاء ورفاقه	٦١
٤ . قصة عثمان بن مظعون	٦٣
٥ . قصة اسعد بن زرارة	٦٣
٦ . قصة الأصممي المشيرة	٦٥
٧ . رد فعل إعرابي تجاه آية من القرآن	٦٦
٨ . القصة المشيرة للسيد قطب	٦٦
٩ . قصة النجاشي وعلماء الحبشة المسيحيين	٦٨
١٠ . تأثير القرآن في اوساط العلماء الأجانب	٧٠
ب) الذين لجأوا إلى المعارضة	٧١

٧٩	صور اعجاز القرآن.....
٨٣	١) الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة.....
٨٨	القرآن نفسه.....
٨٨	موزون كامل.....
٩٤	مقططفات من الأمثلة الاعجازية للقرآن.....
٩٧	٢) الاعجاز القرآني على صعيد المعارف الإلهية.....
١٠٣	٣) إعجاز القرآن في تصور العلوم الحديثة.....
١٠٥	١ . القرآن وجاذبيته العامة
١٠٧	٢ . القرآن وخلق العالم
١١٠	٣ . القرآن وحركة الأرض
١١٣	٤ . القرآن وحركة المنظومة الشمسية.....
١١٥	٥ . القرآن واتساع العالم
١١٧	٦ . القرآن وجود الحياة في الجراث الأخرى
١١٨	٧ . القرآن وخلق الجبال
١٢٢	٨ . عنصر الزوجية بين النباتات في القرآن.....
١٢٤	٩ . القرآن والزوجية العامة.....
١٢٦	١٠ . القرآن يكشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الحدين
١٣٠	١١ . القرآن يتحدث عن الآثار المهمة للغلاف الجوي للأرض
١٣٣	١٢ . القرآن والغلاف الجوي للأرض أيضاً.....
١٣٥	١٣ . القرآن وأسباب نزول المطر والثلوج
١٣٨	١٤ . القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر
١٤٠	١٥ . القرآن وكشف هوية الإنسان.....
١٤٢	١٦ . القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات.....
١٤٥	٤) الاعجاز التاريخي للقرآن

دور التاريخ في المسائل التربوية.....	١٤٥
الخطوط العريضة للتاريخ في القرآن.....	١٤٦
١- كيفية خلق «آدم» كما ورد في القرآن وفي العهددين	١٤٨
٢- لقاء إبراهيم عليه السلام بالملائكة.....	١٥٣
٣- منشأ اختلاف اللغات.....	١٥٧
٤- عبادة العجل من قبل بني إسرائيل.....	١٦٠
٥- قصة النبي داود عليه السلام وزوجة اوريا	١٦٤
٦- هل أن سليمان عليه السلام بنى معبدًا للأصنام.....	١٧٠
٧- المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو	١٧٣
٨- نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح عليه السلام	١٧٧
٩- المسيح عليه السلام ودعوى الألوهية.....	١٨٠
١٠- حضور المرأة العاشرة في مجلس السيد المسيح عليه السلام	١٨٢
نتيجة البحث	١٨٥
٥) الاعجاز القرآني في سن القوانين	١٨٧
ما هي أفضل القوانين	١٨٧
مزايا القوانين القرآنية	١٩٠
أولاً : الشمولية والسعة	١٩٠
ثانياً : تقوية الروابط الاجتماعية	١٩٥
ثالثاً : احترام حقوق الإنسان	١٩٦
رابعاً : الحرص على تأمين الحرية والأمن	١٩٧
خامساً : ضمانات تنفيذ القوانين القرآنية.....	٢٠٠
سادساً : إحياء القيم الروحية	٢٠٥
سابعاً : الأصول الثابتة والمتغيرة.....	٢٠٦
٦) الاعجاز الغيبي للقرآن	٢١١

٢١١	إشارة وتنبيه
٢١٣	١. الأخبار عن هزيمة الأعداء في أقل من عشر سنين
٢١٦	٢. التنبؤ عن نصررين هامين آخرين
٢١٨	٣. الغنائم الكثيرة في المستقبل
٢١٩	٤. التنبؤ بالهزيمة الساحقة للأعداء
٢٢١	٥. نبوءة أخرى عن الانتصار في معركة بدر
٢٢٤	٦. الوعد بالعودة
٢٢٥	٧. لن ينال الإيمان أبداً
٢٢٧	٨. إنّ أعطيناك الخير الكثير
٢٣٠	٩ و ١٠. أولئك لن يضروكم بشيء
٢٣٣	٧) الاعجاز القرآني في عدم وجود التناقض والاختلاف
٢٣٧	حرق العادات والتوا咪ں الطبيعية
٢٤٣	إشكالات حول مسألة شق القمر
٢٤٤	١. إشكال من زاوية تاريخية
٢٤٥	٢. من الزاوية العلمية
٢٤٦	٣. انشقاق القمر في التصور القرآني
٢٤٩	جمع القرآن طريق آخر للأطمئنان
٢٥١	الطريق الثاني: جمع القرآن طريق آخر للأطمئنان
٢٥١	جمع القرآن دليل متداوم في كل العلوم
٢٥٧	١. ميحيط دعوة النبي ﷺ والظروف السائدة هناك
٢٦١	٢. تاريخ الرسول ﷺ وخصائصه الأخلاقية
٢٦٣	٣. مضمون الدعوة
٢٧١	٤. عمق تأثيره في محيطه

٥ . ما هي الوسائل الكفيلة لبلوغ المدف ٢٧٣
٦ . إيمانه وتضحيته في سبيل هدفه ٢٧٦
٧ . من هم المؤمنون به ٢٧٧
٨ . التطور السريع ٢٨٠
البشارات والإشارات ٢٨٥
الطريق الثالث: البشارات والإشارات ٢٨٧
إِنَّمَّا يَعْرِفُونَهُ جَيْدًا ٢٨٨
التبشير بظهور النبي ﷺ في الكتب السماوية ٢٩٣
الخاتمية في القرآن الكريم ٣٠٣
الخاتمية في القرآن الكريم ٣٠٥
جمع الآيات وتفسيرها ٣٠٦
مفهوم خاتم النبيين ٣٠٧
الاجابة عن بعض الأسئلة ٣٠٩
الخاتمية في الروايات الإسلامية ٣١٤
توضيحات ٣١٩
١ . هل أنّ السير التكاملية للإنسان ينسجم مع مسألة الخاتمية ٣١٩
٢ . هل أنّ القوانين الثابتة تتماشى مع احتياجات الإنسان المتغيرة ٣٢٠
٣ . هل يجب حرمان الإنسان مع فيض الارتباط بعالم الغيب ٣٢٢
٤ . هل تنسجم هذه الآيات مع مسألة الخاتمية ٣٢٣